شرح الزيارة الجامعة الكبيرة

الجزء الأول

من تأليفات :

مفتاح علوم أهل البيت عليهم السلام

العالم الرباني والحكيم الصمداني مولانا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي

أعلى الله مقامه

١١٦٦ - ١٢٤١ هـ

طبع بأمر وإشراف

المرجع الديني الكبير خادم الشريعة الغراء

المولى المجاهد الحاج ميرزا عبد الرسول الأحقاقي الحائري

دام ظله العالي

أعده وعني بتصحيحه ومراجعته

لجنة السيد الأمجد لإحياء تراث الشيخ الأوحد الإحسائي

والمشايخ العظام أعلى الله كلمتهم

مفتاح علوم أهل البيت عليهم السلام

العالم الربّاني والحكيم الصمداني مولانا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي

أعلى الله مقامه

المرجع الديني الكبير خادم الشريعة الغرّاء

المولى المجاهد الحاج ميرزا عبد الرسول الأحقاقي الحائري

دام ظله العالي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

أما بعد، فيقول العبد المسكين أحمد بن زين الدين الإحسائي أن السيد السند والعارف المعتمد صاحب الفخر والزين سيدنا السيد حسين بن المرحوم السيد محمد قاسم الحسيني الأشكوري الجيلاني غفر الله له ولوالديه، كان قد التمس مني أدام الله تأييده أن أشرح الزيارة الجامعة المشهورة وأبين أسرار ألفاظها وبعض ما أراده إمامنا وسيدنا علي بن محمد الهادي عليه وعلى آبائه وأبنائه أفضل الصلاة والسلام منها على جهة البسط والبيان لتلك المعاني وأشار إليه عليه السلام من الأسرار، فسوفت في الجواب وإن كان أهلا لأن يبادر في طلبته لوجوب إجابته ولكنه طلب أمرا عظيما فكان سبب التسويف علمي بنفسي أني لست من السفن التي يسار بها في مثل هذا البحر المتعاظم والموج المتلاطم، ومع هذا فليس كلما يحضرني يمكنني إثباته لأن منه ما لا يسعني فيه العبارة ولم أعط فيها بيانا ولا إشارة، ومنه ما لا يحسن بيانه لأنه قد يعسر برهانه، ومنه ما لا تكاد تحتمله الأفكار فيسارع إليه بالإنكار، ومنه ما يطول فيه وفي بيانه الكلام وبدون البسط التام يفوت المرام، على أنه سلمه الله لا يريد مني بيان ظاهر الكلمات وبيان العبارات، ولما راجع في الالتماس مرة بعد أخرى لم أقدر على رده عن مطلوبه

مع ما فيه من المنافع العظيمة للعارفين وربط قلوب المؤمنين بما يحصل لهم من ذلك من الثبات واليقين فسارعت إلى طلبته وألزمت فرض إجابته مع ما أنا فيه من قلة البضاعة وكثرة الإضاعة بقصد أن أكتب ما يحسن كتابته من المقدور إذ لا يسقط الميسور بالمعسور وإلى الله سبحانه ترجع الأمور.

فأقول: وبالله المستعان أن هذه الزيارة الجامعة اشتهرت بين الشيعة حتى استغنت باشتهارها عن ذكر إثباتها وبيان سندها، فكانت متلقاة عند جميع الشيعة بالقبول من غير معارض فيها ولا راد لها مع ما كانت مشتملة عليه من المعاني الغريبة والأسرار المستصعبة العجيبة التي كثير منهم ينكرونها في غير هذه الزيارة الشريفة ولكن لأجل ما اشتملت عليه من الألفاظ البليغة والأمور البديعة والأسرار المنيعة والأحوال الشريفة الرفيعة التي تشهد للعقل السليم بصحة ورودها عن ذلك الإمام العظيم، فإن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا مع ما هي عليه عندهم من القبول بحيث لا يختلف فيه اثنان وهذه الزيارة المذكورة رواها الصدوق في الفقيه ورواها الشيخ في التهذيب عنه قال محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، عن علي بن أحمد بن موسى والحسين بن إبراهيم بن أحمد الكاتب، عن محمد ابن أبي عبد الله الكوفي عن مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل الْبَرْمَكِي قَال حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عَبْدِ الله النَّخَعِيُّ قَال قُلتُ لعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْن جَعْفَر بْنِ مُحَمَّدِ بْن عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْن بْن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالب عليه السلام عَلِّمْنِي يَا ابْنَ رَسُول الله قَوْلا أَقُولهُ بَليغاً كَامِلا إِذَا زُرْتُ وَاحِداً مِنْكُمْ).

أقول: في طريق هذه الرواية لهذه الزيارة رجال لا بأس بذكر إشارة إلى بعض أحوالهم تيمنا بسنن العلماء عند السند.

أما الصدوق قدس سره فلا يخالف أحد من العلماء في صحة روايته وإن لم يصرح علماء الرجال بتوثيقه قيل إما لجلالة قدره وبيان حاله في الوثاقة بحيث لا يحتاج إلى ذكر ذلك وفيه أنه ليس أجل ولا أشهر من أبيه و من الكليني والمفيد وأضرابهم ممن صرحوا بتوثيقهم.

وقيل: لأنه أخذ رواياته من الكتب الأصول المشهورة والمعروضة على الأئمة عليهم السلام وحيث علم اقتصاره على ذلك لم يحتج إلى ذكر توثيقه وفيه ما تقدم أيضا.

وقيل: لأنه من مشايخ الإجازة ولم تجر عادة تلامذتهم بذكر توثيقهم لاشتهاره، وفيه أيضا ذلك فإن كثيرا من المشايخ كان كذلك وقد ذكروا توثيقه.

وقيل: لأن كتب الرجال من ذكر ممادح له ولا تقصر عن التوثيق إن لم تزد عليه مثل ما ذكر في الخلاصة محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (أبو جعفر نزيل الري شيخنا و فقيهنا ووجه الطائفة بخراسان، ورد بغداد سنة خمس وخمسين و ثلاثمائة و سمع منه شيوخ الطائفة و هو حدث السن كان جليلا حافظا للأحاديث له ثلاثمائة مصنف ذكرنا أكثرها في كتابنا الكبير، مات رضي الله عنه في الري سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة) وفي النجاشي نحو ذلك وذكر كتبه .

أقول لا دلالة في هذه الممادح وأمثالها على المدعى والذي يجول في خاطري إن لم نرجح كونه من مشايخ الإجازة أو لم نقل أن التوثيق من باب الاجتهاد في الرواية، ولا من باب الرواية أن استفادة توثيقه من الإجماع المحصل الخاص ليرجع إلى الرواية في الحكم في الجملة لمن جعل علة صحة روايته التوثيق أقرب والله أعلم.

وأما علي بن أحمد بن موسى فهو الدقاق روى محمد بن علي بن بابويه عنه عن محمد بن يعقوب ومحمد بن أبي عبد الله وغيرهما مترضيا عنه.

والحسين بن إبراهيم بن أحمد الكاتب هو ابن إبراهيم بن أحمد بن هشام ثاثانة بالمثلثة قبل الألف ثم المثلثة قبل ألف ثم نون الكاتب رضي الله عنه من مشايخ الصدوق روى عنه في الفقيه، وغيره مشفعا له بالرحملة والرضيلة قال الميرزا محمد في الرجال في طرق الصدوق أن الاسترضاء أفاده مدحا انتهى ولا سيما مع اعتماده على روايته.

ومحمد بن أبي عبد الله الكوفي فالظاهر أنه ابن جعفر الأسدي الثقة المكنى أبا الحسين كان أحد الأبواب و في كتاب الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة (وقد كان في زمان السفراء المحمودين أقوام ثقات ترد عليهم التوقيعات من قبل المنصوبين للسفارة من الأصل منهم أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي رحمه الله)، وربما يظهر من كتاب الحسن بن داود أنهما رجلان أحدهما هذا المذكور ويحتمل أنه ابن عون الأسدي وفي ترجمته في الخلاصة للعلامة (محمد بن جعفر بن عون الأسدي أبو الحسين الكوفي ساكن الري، يقال له محمد بن أبي عبد الله كان ثقة صحيح الحديث إلا أنه يروي عن الضعفاء وكان يقول بالجبر والتشبيه فإنا في حديثه من المتوقفين، كان أبوه وجها روى عنه أحمد بن محمد بن عيسى)انتهى.

ويظهر من كلام فخر الدين بن طريح في جامع المقال في ذكر العدد و ذكر في عدة سهل بن زياد حيث قال وأما الرابعة يعني عدة سهل فقد ذكر من رجالها محمد بن أبي عبد الله، وكأنه هو محمد بن جعفر بن عون الأسدي الثقة على ما نبه عليه البعض نقلا عن النجاشي فإن صح النقل صحت العدة وإلا فلا كما لا يخفى انتهى.

إن محمد بن أبي عبد الله متعدد وإن كان الظاهر أنه متحد وأنه هو ابن عون الأسدي كما في التوقيع هكذا (بالري محمد بن جعفر العوني فليدفع إليه فإنه من ثقاتنا) فالظاهر الاتحاد ولا معنى لتردد فخر الدين بن طريح بعد نص الكليني على أنه في عدة سهل هو ابن عون الأسدي الثقة.

ومحمد بن إسماعيل البرمكي هو المعروف بصاحب الصومعة قال النجاشي: إنه ثقة وقال ابن الغضائري: إنه ضعيف، وقال العلامة قول النجاشي عندي أرجح، ومثله قال ابن داود وهو كذلك لأن النجاشي له اعتناء وممارسة في الجرح والتعديل لم تحصل لغيره مع ضبطه وحفظه وعدم استعجاله وتوقفه في ذلك حتى يتبين الأمر حتى أن الشيخ محمد ابن الشيخ حسن في شرح الاستبصار ذكر فيما إذا ذكر الشيخ الرجل بالوقف أو الفطحية والنجاشي لم يذكر ذلك ترجيح النجاشي على الشيخ وإن كان الجارح مقدما قال: إذا تعارض الجرح والتعديل فالجارح وإن كان مقدما في الجملة على ما فصل في موضعه إلا أن مثل النجاشي له رجحان يوجب تقديم تعديله على جرح الشيخ كما ذكر أيضا في محله انتهى.

والشيخ أحسن استقامة من ابن الغضائري في باب الجرح والتعديل وذكر ذلك وبيان جهات الترجيح يطول به الكلام ولسنا بصدده ومن نظر في كتب الرجال ظهر له صحة ما ذكرنا فقول النجاشي أرجح من ابن الغضائري وإن كان جارحا، فكون البرمكي ثقة أرجح.

وموسى بن عبد الله النخعي روى عن علي الهادي عليه السلام لم يذكر في كتب الرجال موصوفا بالنخعي من أصحاب الهادي عليه السلام قال الشيخ ياسين البحراني في كتابه معين النبيه في بيان رجال من لا يحضره الفقيه لم أجد في كتب الرجال بقيد

النخعي من أصحاب الهادي عليه السلام نعم ذكر الشيخ في أصحاب الجواد بن عبد الله بن عبد الملك بن هشام ولعله هو وعلى كل تقدير فهو مهمل عنه محمد بن إسماعيل البرمكي انتهى.

وذكر الميرزا في كتاب الرجال موسى بن عبد الله بن عبد الملك بن هشام ولعله عن الشيخ وما احتمله الشيخ ياسين قريب والحاصل أن السند على الاصطلاح الجديد ضعيف ولكنه عند الصدوق صحيح إما لقرائن مرجحة أو لوجودها في الكتب المعتبرة وأما عندنا فهذه الرواية صحيحة لاعتماد الشيخ الصدوق عليها لإيراده إياها في كتابه الفقيه الذي جعله حجة بينه وبين الله فاعتماده عليها من المرجحات لها عندنا ومن القرائن المقوية وإن كان تصحيحه للروايات من باب الاجتهاد كغيره بل كثير من ترجيحاته تبعا لتصحيح مشايخه وهو أضعف من عمل المتأخرين ومن بعدهم ممن يعتبون عليهم أهل الأخبار، قال: في آخر باب صوم التطوع من الفقيه وفيه تعريف شيخه (وأما خبر صوم الغدير والثواب المذكور فيه لمن صلى فإن شيخنا محمد بن حسن بن أحمد بن الوليد كان لا يصححه ويقول إنه من طريق محمد بن موسى الهمداني ، وكان غير ثقة وكل ما لم يصححه ذلك الشيخ ولم يحكم بصحته من الأخبار فهو عندنا متروك غير صحيح)انتهى.

أكثر ما يعتمد عليه تصحيح الأسانيد كما يفعله المجتهدون ، قال في الفقيه في باب حد الوضوء بعد أن أورد حديثا في المسح على الخفين إلى أن قال(على أن الحديث في ذلك غير صحيح الإسناد).

وقال في الخصال (لا سبيل إلى رد الأخبار متى صح طرقها)انتهى.

وهذا كما ترى إلا أن ترجيحه وعمله يكون من المقويات البتة بل كل ما يحصل للمتقدمين من القرائن تصل إلينا أو بدلها من جود الكريم الوهاب ، ولتلقى الفرقة المحقة لها بالقبول حتى لا تجد ولا تسمع منكرا لها ولا متوقفا فيها بل لو أراد البصير الناقد أن يدعي الإجماع على صحتها الكاشف عن قول المعصوم عليه السلام أمكنه ذلك مع ما اشتملت عليه ألفاظها من البلاغة والفصاحة والمعاني والأسرار التي يقطع العارف بها أنها كلام المعصوم عليه السلام ولا يصدر مثلها عن غيره.

ثم اعلم أن الشيخ التقي العارف الشيخ محمد تقي قد ذكر في شرحه على الفقيه رؤيا رءاها في فضل هذه الزيارة وجعلها من المقررات لها والمرجحات وصورة ما ذكر ، قال(زيارة جامعة لجميع الأئمة عند مشهد كل واحد و يزور الجميع قاصدا بها الإمام عليه السلام الحاضر و النائي و البعيد يلاحظ الجميع و لو قصد في كل مرة واحدا بالترتيب و الباقي بالتبع لكان أحسن كما كنت أفعل و رأيت في الرؤيا الحقة تقرير الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام لي وتحسينه عليه ولما وفقني الله تعالى لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام و شرعت في حوالي الروضة المقدسة في المجاهدات و فتح الله تعالى علي ببركة مولانا صلوات الله عليه أبواب المكاشفات التي لا تحتملها العقول الضعيفة رأيت في ذلك العالم و إن شئت قلت بين النوم و اليقظة عند ما كنت في رواق عمران جالسا إني بسر من رأى و رأيت مشهدها في نهاية الارتفاع و الزينة و رأيت على قبريهما لباسا أخضر من لباس الجنة لأنه لم أر مثله في الدنيا و رأيت مولانا و مولى الأنام صاحب العصر و الزمان جالسا ظهره على القبر و وجهه إلى الباب.

فلما رأيته شرعت في الزيارة بالصوت المرتفع كالمداحين فلما أتممتها قال ﷺ نعمت الزيارة قلت مولاي روحي فداك زيارة جدك و أشرت إلى نحو القبر فقال نعم ادخل فلما دخلت وقفت قريبا من الباب فقال ﷺ تقدم قلت مولاي أخاف أن أصير كافرا بترك الأدب فقال ﷺ لا بأس إذا كان بإذننا فتقدمت قليلا و كنت خائفا مرتعشا فقال ﷺ تقدم تقدم حتى صرت قريبا منه قال ﷺ اجلس قلت مولاي أخاف قال ﷺ لا تخف فلما جلست جلسة العبد بين يدي المولى الجليل قال ﷺ استرح واجلس متربعا فإنك تعبت جئت ماشيا حافيا والحاصل أنه وقع منه ﷺ بالنسبة إلى عبده ألطاف عظيمة و مكالمات لطيفة لا يمكن عدها و نسيت أكثرها ثم انتبهت من تلك الرؤيا وحصل في ذلك اليوم أسباب الزيارة بعد كون الطريق مسدودة في مدة طويلة وبعد ما حصل من الموانع العظيمة ارتفعت بفضل الله و تيسرت الزيارة بالمشي و الحفا كما قاله الصاحب ﷺ و كنت ليلة في الروضة المقدسة و زرت مكررا بهذه الزيارة و ظهر في الطريق و في الروضة كرامات عجيبة بل معجزات غريبة يطول ذكرها.

والحاصل أنه لا شك لي أن هذه الزيارة من أبي الحسن الهادي سلام الله عليه بتقرير الصاحب ﷺ وأنها أكمل الزيارات وأحسنها بل بعد تلك الرؤيا أكثر الأوقات أزور الأئمة صلوات الله عليهم بهذه الزيارة وفي العتبات العاليات ما زرتهم إلا بهذه الزيارة ولهذا أخرت شرح أكثرها لأن يشرح في هذه انتهى ما ذكره تغمده الله برحمته في شرح الفقيه أمام شرح هذه الزيارة) وظاهر كلامه أن تحقق ثبوتها عنده بهذه الرؤيا وهو كما ترى ووجه تحققها ما أشرنا إليه من مقبوليتها عند الكل ومما اشتملت عليه من الظواهر الزاهرة والبواطن الباهرة وخفايا الدنيا والآخرة.

فقال عليه السلام إِذا صِرْتَ إلى البَابِ فَقِفْ وَ اشْهَدِ الشَّهَادَتَيْنِ وَأَنْتَ عَلى غُسْلٍ فَإِذَا دَخَلتَ وَرَأَيْتَ القَبْرَ فَقِفْ وَقُلِ اللّهُ أَكْبَرُ اللّهُ أَكْبَرُ ثَلاثِينَ مَرَّةً ثُمَّ امْشِ قَلِيلا وَعَلَيْكَ السَّكِينَةَ وَالوَقَارَ وَقَارِبْ بَيْنَ خُطَاكَ ثُمَّ قِفْ وَكَبرِّ اللّه عَزَّ وَجلَّ ثَلاثِينَ مَرَّةً ثُمَّ ادْنُ مِنَ القَبْرِ وَكَبرِّ اللّه أَرْبَعِينَ مَرَّةً تَمامَ مِائَةِ تَكْبِيرَة.

يعني إذا صرت بباب الروضة فاستشعر أنها حظيرة القدس ومهوى الأفئدة من الملائكة والجن والإنس ومعرّس ولي الحساب الذي إليه الإياب حيث أقام الله الحق وأمات الباطل فأنت في قيامك ظاهراً جاثٍ بباطنك، خاشع ببصرك قد دعيت للحساب وهاهنا ينطق عليك الكتاب وهو قوله تعالى (هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَق) وموقفك هذا من ذلك الموقف فقل: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وإنما كان هذا موضع الشهادتين لأن من عرف أين هو حيث يقف هذا الموقف يعلم أن حاله كحال الملائكة في عالم الأنوار حيث رأوا أنوار محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فظنوا أنه نور الله فقالوا: سبحان الله فقالت الملائكة سبحان الله، وأنت إن صدقت في حبهم وعرفتهم بالنورانية رأيت أنك واقف حيث وقفت الملائكة وناظر إلى ما نظرت الملائكة وسمعت ممن أنت واقف ببابه يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنهم عليهم السلام (عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) فتقول عندما تسمع بأذن قلبك قولهم: لا إله إلا الله أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وتعرف بهذا أن سيدهم

وفخرهم والواسطة بينهم وبين ربهم محمد بن عبد الله ﷺ عبد الله ورسوله إلى جميع خلقه فتقول وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وهاتان الشهادتان شرح أن الله أقام الحق وأمات الباطل هذا وأنت على غسل للزيارة ليكون ظاهرك طاهراً وعلى توبة عما لا يوافق التوحيد والامتثال بمقتضى النبوة والولاية من المعاصي والغفلات الظاهرة والباطنة والكبيرة والصغيرة.

فإذا دخلت ورأيت القبر حصل لك نور الكبرياء، المنبسط على ظواهرك ولهذا يلين جلدك وقلبك إلى ذكر الله ويحصل لك الخشوع والاحتقار لظهور الكبرياء، فقف قليلاً لترجع إليك نفسك ويربط على قلبك وتأخذ أهبتك واستعدادك كما وقفت الملائكة عند ظهور هذه الكبرياء، فلما كبروا الله كبرت الملائكة ولو لم تقف الملائكة عند ظهور هذه الكبرياء لكبّروا من رأوا من نور محمد وأهل بيته عليه و عليهم السلام ، فإذا وقفت حتى يكبر هذا الإمام الذي أنت واقف ببابه الله ربه ويعظمه فإذا سمعت التكبير بأذن قلبك من لسان أنهم عباد مكرمون كبِّر الله تقول الله أكبر الله أكبر ثلاثين مرة وإنما كان الذكر بالتكبير لكون الظهور بالكبرياء وإنما كان الظهور بالكبرياء لأن الخشية الحاصلة والخشوع والتذلل إنما هي بواسطة الحواس الظاهرة وهي التي تحصل فيها أشباح الكبرياء دون سائر الصفات لأنها آخرها في إقليم الظهور للمظاهر ومن ثم ورد في الأدعية المروية عن أهل العصمة عليهم السلام وصفها بالعرض لانتهاء أشباحها إلى الأجسام فقال عليه السلام في الثناء على الله تعالى (عريض الكبرياء) فافهم فقد أسمعتك تغريد الورقاء على الأفنان بفنون الألحان.

وإنما كان التكبير ثلاثين بعدد أيام الشهر وعدد قوى لام التعريف لأنه قد

حقق في محله أن مراتب الوجود أربعون وقد ذكرنا ذلك مراراً مفصلاً في أجوبتنا لبعض المسائل إلا أن المراد به المراتب كلها والثلاثون منها مراتب تمام القوابل والعشر لتمام المقبولات فبالعشر تتم مراتب الوجود والإشارة إليه على سبيل الاختصار والاقتصار.

فأقول: إن الإنسان خلق من عشر قبضات من الأفلاك التسعة ومن الأرض وأديرت كل قبضة ثلاث دورات فتم بها قابليتها وفي الدورة الرابعة يتم مقبولها، فالرابعة هي تمام الثلاث والثلاث في العشر القبضات ثلاثون وهي الثلاثون ليلة لميقات موسى عليه السلام والرابعة في كل قبضة من العشر هي قوله (وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ)لأن الرابعة فيها رتبة الحيوانية.

وأما الثلاث فهي الدورة العنصرية والدورة المعدنية والدورة النباتية وإنما كان التكبير الأول والثاني ثلاثين لأن الزائر الذي ظهرت له تلك الكبرياء أول ظهورها بواسطة الحواس بأشباحها وذلك محله الجسم وهو بالنسبة إلى الإنسان الذي هو الكتاب مجمع القوابل الظاهرة وفيه العشر القبضات بعناصرها ومعادنها ونباتها، وثاني ظهورها في الخيال بواسطة الحسّ المشترك وفي النفس بواسطة الخيال وفيها أي النفس القبضات العشر من هورقليا بعناصرها ومعادنها ونباتها فإن أردت بالخيال النفس تحقق ظهور صورة الكبرياء فيها وإن فرّقت بينهما كان الخيال حاملاً وناقلاً فذكره كذكر الحسّ المشترك وأمّا في المرة الثالثة فحيث اجتمع فيها مراتب القوابل الثلاثين ومراتب المقبولات العشرة كان التكبير أربعين وهي(وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَة) فيكون قوله عليه السلام تمام مائة تكبيرة كما قال أهل الصناعة في سقي المركب: يسقى في الأولى

من واحد وفي الثانية من اثنين وفي الثالثة من أربعة فهذه سبعة ويريدون أنه يسقى في الأولى بمثله وفي الثانية بنصف مثله وفي الثالثة بربع مثله فافهم.

وقوله عليه السلام (ثم امش قليلاً) يراد منه مثل أنه كلّما قرب من السراج كان أشد نوراً لأنه كلّما قرب من القبر الشريف عظم الاحترام واشتد ظهور الكبرياء كما أشرنا إليه سابقاً، وفيه إشارة إرشادية لأن ذلك أعظم في الاحترام ظاهراً وأنجح في تنقل ذلك الخشوع من الحواس الظاهرة والجسد إلى النفس ومنها إلى الذات لتمكنه من الاستعداد للتوجه بقلبه ولهذا بيّنه بقوله عليه السلام وعليك السكينة والوقار والسكينة هو اطمئنان القلب باليقين والنفس بالإيمان والوقار سكون الظاهر والأعضاء لأنها الموصلة للسكينة إلى الباطن، وذلك بما يظهر لك من عظمة الله وكبريائه الظاهرة بعظمة أوليائه وكبرهم في قلوب محبيهم وشيعتهم.

وقوله عليه السلام (وقارب بين خطاك) أي في حال مشيك قليلاً لكونه أبلغ في الاحترام وأبطأ في الاقتراب وأكثر في الثواب فإنّ له بكلِّ خطوة حجة وعمرة وأنجح للاستعداد في إبطان الوقار في السكينة وإظهار السكينة في الوقار وإنما أمر عليه السلام بالوقوف وبالمشي قليلاً وتقارب الخطا لتزول عنه دهشة الكبرياء الظاهرة من كبرياء الله على أوليائه كما مر وقد يحضر للزائر عند تصور عظم شأنهم وكبر مقامهم الموجب للتذلل تصور ما جرى عليهم من المصائب وما أصيبوا به من النوائب فيحصل له من هذين التصوّرين ما يوجب خشيته ويسكب عبرته ويجري دمعته وهي علامة الإذن بالدخول إلى حضراتهم، والقرب من قبورهم وقد يحصل ذلك من أحد التصوّرين فإن كان من تصور العظمة فهو إذن مجازاة لمن طلب وأحسن الأدب وإن كان من تصوّر المصائب فهو إذن رحمة وشفقة لمن عطف ورق.

قوله عليه السلام (ثم قف) يعني مرة ثانية وكبر الله عزّ وجلّ ثلاثين مرة كما تقدم ثم ادن من القبر وهذا نهاية الدنو ومقام التسليم وكبّر الله أربعين مرة تمام المائة لما قلنا لأن الانتقال الأول وهو الوصول إلى الباب كالوصول من العظمة والكبرياء إلى البدن والانتقال الثاني كانتقال الكبرياء بتأثيرها إلى النفس والدنو من القبر كوصول الكبرياء بآثارها إلى الإنسان بكله وهو تمام اجتماع المقبول والقابل، فذلك مقام الاتصال وهو أخصّ أحوال الزائر في الإقبال لاجتماع القرب الظاهري والقرب المعنوي فإذا وصلت إلى هنا.

قال عليه السلام (ثُمَّ قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ)

إنما أتى (بثم) بعد الوصول إلى هذا المكان الذي هو الدنو من القبر لأنه عند وصوله يكبّر الله أربعين مرة فتكون المهلة بين الدنو وبين السلام ويجوز أن تكون المهلة بين التكبير وبين السلام ويكون المراد أن التكبير طور غير طور السلام ومقتضى المغايرة المهلة أو أن بين التكبير الذي هو مقتضى تصور الكبرياء الظاهرة على المزور فإنه حال يتعرض للبعيد وبين السلام الذي هو مقتضى الاتصال والدنو مهلة وفصلاً فناسب ذكر (ثم).

والسلام من السلامة من الآفات وهو اسم من أسماء الله تعالى فقوله تعالى (لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِم) أي دار الله وهي الجنة نسبها إليه لشرفها ويجوز أن تكون الإضافة بيانية أي دار هي السلام لأن سكانها يسلمون عن كل مكروه في الدنيا من مرض ووصب وفقر وهم وفراق محبوب وتغير حال وهرم وموت وما أشبه ذلك، وأن يكون بمعنى المؤمن لمن التجأ إليه من كل محذور وأن يكون

مصدراً مثل السلام والسلامة والرضاع والرضاعة واللذاذ واللذاذة بمعنى أن السلامة من المكاره إنما تنال منه أو بمعنى أنه سبحانه سالم من كل عيب ونقص واختلاف وزوال وانتقال وتغير وغير ذلك مما يلحق الخلق وأن يكون بمعنى الصواب والسداد كما في قوله تعالى (وَإِذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلاماً) أي صواباً وسداداً بمعنى أنه سبحانه به الصواب والسداد أو أنه أطلق عليه سبحانه لأن أفعاله كلها صواب وسداد وأن يكون بمعنى الحافظ المسلم ولأجل ذلك عُدّي «بعلى» فقولك السلام عليكم، الله حافظ عليكم وأن يكون بمعنى السلامة من الأذى ومنه (فَسَلامٌ لكَ مِنْ أَصْحابِ اليَمِينِ) أي ما سلمتَ يا محمد من أحدٍ من الخلق لم يؤذك إلا أصحاب اليمين وهم شيعة علي عليه السلام ، أو بمعنى التسليم والأداء أي لله على عباده المؤمنين أن يؤدوا إليه الأمانة التي عرضها عليهم أي يطيعوه فيما أمرهم وينتهوا عما نهاهم وعليه إذا أطاعوه أن يؤدي إليهم دار السلام أي الجنة وروى الحسن بن سليمان الحلي في كتابه مختصر بصائر سعد بن عبد الله الأشعري عن محمد بن يعقوب عن بعض أصحابه رفعه عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ عَنْ دَاوُدَ بْنِ كَثِيرٍ الرَّقِّيِّ قَال قُلتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ مَا مَعْنَى السَّلامِ عَلى رَسُول اللهِ فَقَال إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالى لَمَّا خَلقَ نَبِيَّهُ وَوَصِيَّهُ وَ ابْنَتَهُ وَابْنَيْهِ وَجَمِيعَ الأَئِمَّةِ عليهم السلام وَخَلقَ شِيعَتَهُمْ أَخَذَ عَليْهِمُ المِيثَاقَ وَأَنْ يَصْبِرُوا وَيُصَابِرُوا وَيُرَابِطُوا وَأَنْ يَتَّقُوا اللهَ وَوَعَدَهُمْ أَنْ يُسَلمَ لهُمُ الأَرْضَ المُبَارَكَةَ وَالحَرَمَ الآمِنَ وَ أَنْ يُنَزِّل لهُمُ البَيْتَ المَعْمُورَ ويُظْهِرَ لهُمُ السَّقْفَ المَرْفُوعَ وَيُرِيحَهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَ الأَرْضِ التِي يُبَدِّلهَا اللهُ مِنَ السَّلامِ ويُسَلمُ مَا فِيهَا لهُمْ لا شِيَةَ فِيهَا قَال لا خُصُومَةَ فِيهَا لعَدُوِّهِمْ وَأَنْ يَكُونَ لهُمْ فِيهَا مَا يُحِبُّونَ وَأَخَذَ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم على جَمِيعِ الأَئِمَّةِ وَشِيعَتِهِمُ المِيثَاقَ

بِذَلكَ وَإِنَّمَا السّلامُ عَليْهِ تَذْكِرَةُ نَفْسِ المِيثَاقِ وَتَجْدِيدٌ لهُ عَلى اللهِ لعَلهُ أَنْ يُعَجِّلهُ جَل وَعَزَّ وَيُعَجِّل السَّلامَ لكُمْ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ)انتهى.

قال بعد الأفاضل قدس سرّه لما كان السلام سابقاً في التحية بالسلام عن الآفات والفتن والعقوبة الدنيوية والأخروية وموجباتها فسأله هل المراد من السلام على رسول الله ﷺ هذا المعنى أو معنى آخر فأجاب عليه السلام : بأن له تأويلاً آخر وهو المقصود الأصلي هنا بيانه أنه تعالى لما خلق نبيه ﷺ ووصيه عليه السلام وابنته وجميع الأئمة صلوات الله عليهم وشيعتهم أخذ على شيعتهم أو على الجميع الميثاق، والعهد بالربوبية والنبوة والولاية والصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ووعدهم أن يسلم لهم الأرض المباركة وهي هذه الأرض سميت مباركة لكونها منازل الأنبياء والأولياء والأوصياء والصلحاء ومعبدهم ومحل اشتياقهم أو بيت المقدس أو الكوفة أو الجميع، وأن يسلم لهم الحرم الآمن وهو حرم مكة أو المدينة أو كلاهما وأن ينزل لهم البيت المعمور وهو بيت الشرف والمجد أو البيت الذي في السماء حيال الكعبة في عصر الصاحب عليه السلام وأن يظهر لهم السقف المرفوع أي عيسى عليه السلام لكونه عالماً مرفوع المنزلة أو مرفوعا من الأرض إلى السماء أو السماء بإرسال عزاليها وإنزال أمطارها الموجب للخصب والرخاء وسعة العيش وأن يريحَهم من عدوّهم بقهر المهدي عليه السلام وإهلاكه إياهم ووعد لهم الأرض التي يبدلها من دار السلام وهي الجنة ويسلم ما فيها لهم لا خصومة فيها لعدوهم لانتفاء قدرتهم فيها وزهوق الباطل هناك فلا يمكن لهم المنازعة مع أهل الحق بخلاف الدنيا، وأن يكون لهم فيها ما يحبون مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأخذ أيضاً رسول الله على جميع الأمة والشيعة الميثاق بذلك والسلام عليه تعالى

إنما هو تذكرة نفس الميثاق بما ذكر ووعد لهم أن يؤجرهم بالوفاء به وأن يسلم لهم الأمور والسلام على النبي ﷺ تذكرة للعهد وطلب لتعجيل الوعد) هـ .

وقد ذكرنا أن قولك السلام عليك معناه الله حافظ عليك كما مر معناه فإذا قلت: (السلام عليكم يا أهل بيت النبوة)، يكون المعنى الله حافظ عليكم يعني يحفظ عليكم أي لكم ما أنعم به عليكم من العلوم والاسم الأكبر والطهارة من كل رجس والعصمة في جميع أعمالكم وأسراركم وأقوالكم وأحوالكم والزلفى لديه ويحفظكم عن كل ما يكره.

والأهل والآل في استعمال أهل اللغة وأهل الشرع عليهم السلام بينهما عموم وخصوص من وجه وإن كان أصل آل أهل فقد يطلق الآل ويراد به أشراف الأهل فهو أخص من الأهل وقد يستعمله أهل الشرع عليهم السلام على العكس وفي معاني الأخبار عن محمد بن سليمان الديلمي عن أبيه قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام (جعلت فداك من الآل قال ذرية محمد ﷺ قال فقلت و من الأهل قال الأئمة عليهم السلام فقلت قوله عز و جل أَدْخِلوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذابِ قال عليه السلام و الله ما عنى إلا ابنته).

وفيه عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام من آل محمد ﷺ قال : ذريته فقلت أهل بيته قال الأئمة الأوصياء فقلت من عترته قال أصحاب العباء فقلت من أمته قال المؤمنون الذين صدقوا بما جاء به من عند الله عز و جل المتمسكون بالثقلين اللذين أمروا بالتمسك بهما كتاب الله عز و جل و عترته أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا و هما الخليفتان على الأمة بعده عليه السلام)هـ .

والحاصل أن المراد بالأهل الأئمة المعصومون عليهم السلام لا غير هذا إذا أريد بالسلام على أهل البيت بالأصالة ولو لوحظ ما هو أعم دخلوا الخُلص من الشيعة بالتبعية فإنهم من أهل البيت عليهم السلام خُلقوا من فاضل طينتهم وعُجنوا بماء ولايتهم كما رواه ابن طاوس عن الحجة عجل الله فرجه وغيره وبيان التبعية كَتبعية القائم في المجيء لزيد في قولك (جاء زيد القائم) فإن المجيء لم يسند إلاّ إلى زيد وأما قائم فلا يسند إليه المجيء أصلاً وإنما ارتفع لأن المجيء أسند إلى زيد لضم وصفه به فكان ضم القائم إليه مبيناً لإجمال زيد لا لحال مجيئه لتكون له مشاركة في المجيء، فارتفع لملابسته لزيد في المجيء فأتباعهم يدخلون معهم لملابستهم لهم حين يسند إليهم عليهم السلام ما يخصون به من الأمور المشتركة ظاهراً فخواص الشيعة يدخلون في تبعية السلام على أئمتهم بل تفوق بعض العارفين وقال: إذا قلنا السلام عليكم إنما نعني شيعتهم لأن مقامهم عليهم السلام أجل من أن يسلم عليهم ويتمثل بكلام مجنون ليلى حيث يقول:

سلام على جيران ليلى فإنها
أعزّ على العشاق من أن يسلما
فإن ضياء الشمس نور جبينها
نعم وجهها الوضاح يشرق حيثما

ثم إذا أريد بأهل البيت ما أريد به في أخبارهم في أنهم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام لم يكن ذلك منافياً لما أريد في أخبارهم من أن الآل هم الذرية والعترة هم أهل العباء لأن قوله عليه السلام (آل محمد ذريته) لبيان الفرق فيما يدل عليه اللفظ الظاهر وكذا في العترة لأن الذرية هي العقب وعقب العقب والنسل ونسل النسل

وهكذا قال الله تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) يعني يا ذرية سام وحام ويافث وقال تعالى (وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) والعترة لما كان من معانيها أن العترة أصل الشجرة المقطوعة التي تنبت من أصولها وعروقها فناسب بملاحظة خصوص هذا المعنى أن يفسر الصادق عليه السلام العترة بأهل العباء.

وأما ما يراد من الآل والأهل والعترة بالأصل في الأحاديث المتواترة معنى من الفريقين فهم الأئمة الاثني عشر وفاطمة عليهم السلام لا غير.

وقوله عليه السلام (بيت النبوة) يراد بالبيت في الظاهر بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قال صلى الله عليه وآله وسلم (وعترتي أهل بيتي) على المعنى المتقدم فهم أهل بيته عليهم السلام على معنى أنهم ذريته ومن صلبه أو أن المراد بالبيت بيت العلم الذي هو بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله تعالى (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً)وهي بيوت العلم بدليل تأويل آخر الآية (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلوانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسْ)وإنما سموا أهل بيت العلم النبوي لأنهم حفظته وأضيف البيت إلى النبوة إشارة إلى أن ذلك العلم عن الوحي الإلهي لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن الهوى وأما في الباطن فالبيت هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي جعلت النبوة فيه والبيوت آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البيت الأعظم بل هو المدينة وهم الأبواب وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام (آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبواب الله وسبيله والدعاة إلى الجنة والقادة إليها والأدلاء عليها إلى يوم القيامة)وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أنا مدينة العلم وعلي بابها ولا تؤتى المدينة إلا من بابها)وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال (أنا مدينة الحكمة)والمراد بالحكمة هنا العلم.

وفي كتاب الاحتجاج للطبرسي(عن أصبغ بن نباتة قال كنت جالسا عند أمير المؤمنين عليه السلام فجاء ابن الكواء فقال (يا أمير المؤمنين من البيوت في قول الله عز

وجل (وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها) فقال علي عليه السلام نحن البيوت التي أمر الله بها أن تؤتى من أبوابها نحن باب الله و بيوته التي يؤتى منه فمن بايعنا وأقر بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها و من خالفنا و فضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها، إن الله عز و جل لو شاء عرف الناس نفسه حتى يعرفوه وحده و يأتوه من بابه ولكنه جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي منه يؤتى فقال فيمن عدل عن ولايتنا وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها وإنهم عَنِ الصِّراطِ لناكِبُونَ).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل إلى أن قال (قد جعل الله للعلم أهلاً وفرض على العباد طاعتهم بقوله (وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) والبيوت هي بيوت العلم الذي استودعته الأنبياء عليهم السلام وأبوابها أوصياؤهم).

فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته هم البيوت التي أذن الله أن ترفع فإذا أريد بالبيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالأبواب آله عليهم السلام وكذا إذا أريد به صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فآله هم الأبواب التي لا تؤتى المدينة إلا منها، وقد يراد بهم البيوت المحيط بها سور المدينة

فيكون تأويل قوله تعالى (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلعالَمِينَ) فأوّل بيت منهم عليهم السلام وضع في الكعبة هدىً للناس هو أمير المؤمنين عليه السلام وهو الهادي من الضلالة لمن أخذ بهداه .

والحاصل أهل بيت النبوة هم الأئمة عليهم السلام وبيت النبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجوز أن يكون المراد ببيت النبوة علياً عليه السلام لأنه مسكن أحكامها والحاوي لأسرارها والجامع لآثارها والحافظ لشريعتها.

والنبوة الإخبار عن مراد الله بغير واسطة أحد من البشر وقيل النبوة هي

الإخبار عن الحقائق الإلهية والمعارف الربانية وهي الإخبار عن ذات الحق وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وتنقسم إلى نبوة تعريف وهي الإخبار والإنباء عن معرفة الذات والصفات والأسماء والأفعال وإلى نبوة تشريع وهي ذلك مع زيادة تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق الحميدة والتعليم للأحكام والقياس بالسياسة وتسمى هذه رسالة.

وقيل النبوة قبول النفس القدسية حقائق المعلومات والمعقولات من جوهر العقل الأول والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستعدين ويجوز أن يراد بالنبوة الرفعة من نبا ينبو بمعنى ارتفع ويجوز أن يكون من نبا ينبو إذا ارتفع فيكون فعيلا من الرفعة أي يا أهل بيت الرفعة والشأن العظيم كما أشير إليه فيما بعد (طأطأ كل شريف لشرفكم وبخع (أي خضع) كل متكبر لطاعتكم) أو يراد يا أهل بيت رفعة النبوة والرسالة والفتوة أي الإيمان وفي حديث الفتى المؤمن (إن أصحاب الكهف كانوا شيوخاً فسماهم الله فتية بإيمانهم) أو لإيمانهم بلا واسطة.

وقد يراد من البيت ما يكنى به عن المجد والحسب كما يقال فلان أهل بيت ويكون المعنى يا أهل مجد النبوة وحسبها وفخرها لأنهم الذين نشروا أعلام النبوة وأسسوا قواعد مستقر الفتوة فتحرر أن معنى (السلام عليكم يا أهل بيت النبوة) الله الحافظ يحفظ عليكم ولكم أو عليكم أي يلزمكم بها وعدتم به شيعتكم السلام أي تسليم دار السلام يعني الجنة إليهم تسلمونها إليهم لموالاتهم لكم أو تسلمونهم من كل ما يكرهون ومن عذاب البرزخ بعد الموت ومن عذاب النار يوم القيامة يا آل محمد أو يا عترة محمد ﷺ أو يا أبواب العلم أو يا بيوت

الحكمة أو يا حفظة الشريعة وأمثال ذلك فإنكم أنتم بيت الرسالة وتعلمون ما تنزل به الملائكة على جدكم ﷺ فإن أهل البيت أدرى بما في البيت.

قال عليه السلام وَمَوْضِعَ الرِّسَالةِ

الموضع هو المحل والرسالة الإخبار عن مراد الله بكلامه تعالى بدون واسطةبشر ولهم عليهم السلام في محل الرسالة أربعة مقامات:

المقام الأول: مقام السرّ المقنع بالسرّ .

والثاني: مقام المعاني وهو مقام سر السرّ .

والثالث: مقام الأبواب وهو مقام السر والسفارة والوساطة والترجمة.

والرابع: مقام الإمامة.

وقد أشار الصادق عليه السلام إلى هذه المواضع الشريفة والمقامات المنيفة كما رواه محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات عنه عليه السلام قال أبو عبدالله عليه السلام (إن أمرنا هو الحق و حق الحق و هو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن وهو السر وسر السر وسر المستسر وسر مقنع بالسر)هـ.

فأشار إلى المقام الأول بقوله عليه السلام (وسر المستسرّ وسرّ مقنع بالسرّ) وإلى المقام الثاني بقوله (وباطن الباطن) وهو سِر السر وإلى المقام الثالث بقوله عليه السلام (وباطن الظاهر) وهو السر وإلى المقام الرابع بقوله (وهو الظاهر) وإلى الأخيرين بقوله (وهو الحق) وإلى الأولين بقوله (وحق الحق).

وعنه عليه السلام (إن أمرنا سر في سر و سر مستسر و سر لا يفيده إلا سر و سر على سر و سر مقنع بالسر).

فأشار في هذا إلى الأول بقوله (سر مقنع بسر) وإلى الثاني بقوله (سر على سر) وإلى الثالث بقوله (وسر لا يفيده إلا سر) وإلى الرابع بقوله (سر مستسر).

أما الأول: فهو مقام البيان، والثاني: مقام المعاني والثالث: مقام الأبواب والرابع مقام الإمام عليه السلام، وفي رواية جابر الإشارة إلى الأولين روي عن جابر بن عبدالله عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال (يا جابر عليك بالبيان والمعاني، قال فقلت: وما البيان والمعاني؟ قال قال علي عليه السلام : أما البيان فهو أن تعرف الله سبحانه ليس كمثله شيء فتعبده ولا تشرك به شيئاً وأما المعاني فنحن معانيه ونحن جنبه ويده ولسانه وأمره وحكمه وعلمه وحقه إذا شئنا شاء الله ويريد الله ما نريده فنحن المثاني الذي أعطانا الله نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ونحن وجه الله الذي يتقلب في الأرض بين أظهركم، فمن عرفنا فإمامه اليقين ومن جهلنا فأمامه سجين ولو شئنا خرقنا الأرض وصعدنا السماء وإن إلينا إياب هذا الخلق ثم إن علينا حسابهم) هـ.

أقول: وبيان إذا شئنا شاء الله ويريد الله ما نريده في الجملة كما أجاب به بعض الأولياء: كان في سفينة فاشتد بهم الموج وأشرفوا على الغرق فالتجأوا إليه أن يدعو الله فقال: ليس لي أن أعترض على ربي، فلما اشتد الأمر ضجوا وتضرعوا إليه فحرك شفتيه فسكن الموج على الفور، كأن لم يكن فقال له شخص كثير الملازمة له والخدمة: أخبرني بأي شيء دعوت الله ، فقال: إنا نترك ما نريد لما يريد فإذا أردنا ترك ما يريد لما نريد الخ، وهذا صورة ما قالوا عليهم السلام وذكر الإمام سيد الساجدين عليه السلام الإشارة إلى الكل على ما روي في كتاب أنيس السمراء وسمير الجلساء قال: حدثني أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا سليمان بن أحمد، قال: حدثنا جعفر بن محمد، قال: حدثنا إبراهيم بن محمد الموصلي قال: أخبرني أبي عن خالد عن القاسم عن

جابر بن يزيد الجعفي، عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل (ثم تلا عليه السلام قوله تعالى (فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ) وهي والله آياتنا و هذه إحداها و هي و الله ولايتنا إلى أن قال يا جابر أو تدري ما المعرفة المعرفة إثبات التوحيد أولا ثم معرفة المعاني ثانيا ثم معرفة الأبواب ثالثا ثم معرفة الإمام رابعا ثم معرفة الأركان خامسا ثم معرفة النقباء سادسا ثم معرفة النجباء سابعا و هو قوله تعالى (قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً) و تلا أيضا (وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) يا جابر إثبات التوحيد و معرفة المعاني وأما إثبات التوحيد معرفة الله القديم الغائب الذي لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللطِيفُ الْخَبِيرُ و هو غيب باطن ستدركه كما وصف به نفسه و أما المعاني فنحن معانيه و مظاهره فيكم اخترعنا من نور ذاته و فوض إلينا أمور عباده) الحديث وإنما ذكرته بطوله لما فيه من الأسرار وسنشير إلى بعض بيان بعضها فيما بعد.

فأما المقام الأول المسمى بإثبات التوحيد وبالسر المقنع بالسر وحق الحق فالإشارة إلى بيانه من الأحاديث المروية عنهم عليهم السلام كثيرة فمنها ما قال علي عليه السلام (لا تحيط به الأوهام بل تجلى لها بها وبها امتنع منها)وقال عليه السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا).

أقول الذي يشير إلى هذا المقام من الحديث الثاني هو الوجه الثالث منه والمراد من هذا المقام الذي هو إثبات التوحيد، هو معرفة الله بصفته التي وصف بها نفسه لعباده الذين أراد أن يعرفوه بها وهي صفة محدثة لا تشبه صفة شيء من

المخلوقات وهي مقاماته وعلاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان، أي في غيبتك وحضرتك من عرفها فقد عرف الله لأنها أمثاله وليس كمثله شيء وفي دعاء كل يوم من شهر رجب عن الحجة عجل الله فرجه (فجعلتهم معادن لكلماتك وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك .. الخ)فبين أنهم عليهم السلام معادن لكلماته يعني أنهم أعضاد لخلقه لأن العلة المادية لجميع الخلق وهو شعاع أنوارهم فقد اتخذهم الله سبحانه أعضاداً لخلقه يعني يخلق خلقه من شعاع أنوارهم والخلائق من الأسباب والمسببات كلمات الله كما قال تعالى(بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)فهم معادن لكلماته وجعلهم سبحانه أركاناً لتوحيده لأن المقام الذي لا فرق بينه وبين الله سبحانه إلا أنه عبده هو ظهوره للعبد بالعبد وهم عليهم السلام تلك المظاهر كما يأتي في التمثيل بالقائم فإنه لا فرق بينه وبين زيد إلا أنه ظهور زيد بالقيام فهو محدثه به وركنه القيام فحقيقتهم كالقيام وظهوره على تلك الحقيقة بها كالقائم والقائم هو المقام الذي يعرف زيداً به من عرف زيداً أي لا يعرف زيد إلا به والمراد أن الله سبحانه لا يعرف إلا بتلك المقامات وهي لا تتحقق إلا بهم وفيهم كما أن القائم لا يتحقق إلا بالقيام وفيه وهذا معنى قول علي عليه السلام (لا يُعْرَفُ الله عَزَّ وَ جَل إِلا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِنَا) فهم أركان توحيده وآياته كذلك ومقاماته وكونها لا تعطيل لها لأنها وجه الله قال تعالى (فَأَيْنَمَا تُوَلوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)وكون الإثبات لا يكون إلا بالخلق لأن ذاته تجل عن إدراك العقول وتوهم الأوهام، لأن العقول والأوهام إنما تدرك أنفسها وتشير إلى نظائرها وما ذكرنا من المعرفة هي سبيل معرفتهم

التي لا يعرف الله إلا بها ومثال المقام الذي هو التوحيد القائم كما مر قبل هذا، فإنك إذا قلت: القائم فهو صفة زيد وهو ظهور زيد بالقيام وليس هو زيداً ولم يستتر ضميره فيه وإنما استتر فيه جهة فاعلية قيامه وتلك الجهة قائمة بزيد قيام صدور وقائمة في غيب قائم قيام ظهور وقائم قائم بها قيام تحقق لأنها لا تظهر إلاّ في قائم وقائم لا يتحقق إلا بها، لأنها مبدء وجود قائم وهي حركة أحدثها زيد بنفسها وهي ليست زيداً وإنما هي حركته فالقائم مثال زيد وظهوره بفعله فإذا أردت أن تعرف زيداً فإنما تعرفه بما أحدث لك من أمثاله ووصفه كالقائم والقاعد والمتكلم وهذا أي المشار إليه والمسمى بزيد وما أشبه ذلك من أمثاله وصفاته وتوصيفاته فتعرفه بما وصف به نفسه وهو ما ظهر لك به من هذه الأفعال والصفات وكلها غيره وهي وإن كانت مثله بحيث يكون بينهما في جهة التعرف والتعريف والمعرفة مساواة لرجوع ذلك كله إلى الصفات والذات عن ذلك كله، بمعزل إلا أنها محدثة به صادرة عنه لا منه وهو قوله عليه السلام في الدعاء المتقدم (لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك فافهم.

فقول علي بن الحسين عليه السلام في الحديث المتقدم وهي والله آياتنا وهذه أحدها وذلك في بيانه لقوله تعالى (وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) يشير إلى ما ذكرنا وأنهم ذووا الآيات التي جحد بها الكافرون والمشركون، وهم الذين نسوهم كما نسوا لقاء يومهم يوم القيامة وهذا المقام كله وهو مقام (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّه) أحد الآيات وهي تلك الفعلة التي فعل بهم حين حرك الخيط الأصفر وهي ولايتهم، إلا أن هذا أعلاها لأنه ليس له شبه كما قال عليه السلام (أما البيان فهو أن تعرف الله سبحانه ليس كمثله شيء فتعبده ولا تشرك به شيئاً).

أمّا أن ذلك ليس كمثله شيء فلأنه وصف الحق سبحانه نفسه للعباد فلا يشابه شيئاً من الخلق وأما أنك تعبده فلأنك تعبد الله الظاهر لك به حتى أنه غيبه عن نفسه وعن المخلوقات فلا يتوجه العابد إلا إلى الذات، مع أنه أبداً لا يجدها ولا يفقدها حيث لا يجدها أبداً فهذا مقام السر المقنع بالسر وحق الحق وهو البيان والتوحيد وهذا المقام لهم حيث لا يجدوا أنفسهم شيئاً ووجدوا الله ظاهراً في كل شيء، قد جعله دكاً (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا) كان وحده لا يسمع فيها صوت إلا صوته وهذا المقام لا يكون موضع الرسالة لأنه مصدر الإرسال فكيف يكون موضع الرسالة إلا باعتبار فرض المغايرة ولهذا اعتبرنا هذا المقام وجعلناه الأول.

والمقام الثاني: مقام المعاني وباطن الباطن وهو سر السر وسر على سر وحق الحق، وهو كونهم معانيه تعالى يعني علمه وحكمه وأمره الخ يعني علمه الذي وسع السموات والأرض، وحكمه على كل الخلق ونعمه على جميع خلقه وخيره الذي منّ به على الخلائق وجنبه الذي لا يضام من التجأ إليه، وزمامه الذي لا يطاول ولا يحاول، ودرعه الحصينة وحصنه المنيعة، ورحمته الواسعة وقدرته الجامعة، وأياديه الجميلة وعطاياه الجزيلة ومواهبه العظيمة ويده العالية، وعضده القوية ولسانه الناطق وأذنه السميعة وحقه الواجب وهذا مثل قولك قيام زيد وقعوده وحركته وسكونه وتسلطه وأياديه وامتنانه ومعاقبته، وأمثال ذلك فهذه معاني زيد فقولهم عليهم السلام نحن معانيه كما تقدم في حديث جابر يراد منه نحو ما أشرنا إليه لأن هذه المعاني بالنسبة إلى الذات ليست شيئاً إلا بالذات فلا تحقق لها إلا بالذات وإنما تذوّتها بالنسبة إلى آثارها وأعراضها فهي بالنسبة إلى

الذات أسماء معانٍ بهذا المعنى وبالنسبة إلى اَثارها أسماء أعيان وذوات قائمة على آثارها وأعراضها بما قبلت من امداداتها ولا نعني بالذات والعين إلا هذا فهم في هذا المقام أعلى مقامات موضع الرسالة إلا على الاعتبار الأول لأنه مطارح إرسالات مواد الحياة الوجودية من الماء الإلهي والنفس الرحماني الثانوي في إيجاد الشرعيات الوجودية وإيجاد الوجودات الشرعية وهذا هو الدواة الأولى وهو (ن وَ القَلم وَ ما يَسْطُرُونَ) والماء الذي جعل منه كل شيء حي والكتاب الأول (ومَفاتِحُ الَغيْبِ لا يَعْلمُها إلاَّ هُوَ وَ يَعْلمُ ما في البَرِّ وَالبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلماتِ الأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينَ)وهو أرض الجرز والزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.

والمقام الثالث: مقام الأبواب وباطن الظاهر وسر لا يفيده إلا سر، والسفارة إلى الله تعالى وترجمة وحي الله وبيانه أنه إذا وقع الماء الأول على أرض الجرز والبلد الميت وبعبارة أخرى إذا استضاء الزيت عن النار وبعبارة أخرى إذا وقعت الدلالة من الكلمة التي انزجر لها العمق الأكبر على المعنى الميت في قلب العبد المؤمن ظهر على العبارة الأولى الزرع والنبات الطيب، وعلى الثانية المصباح ، وعلى الثالثة المعنى والمراد من الزرع والنبات والمصباح، والمعنى شيء واحد وهو الاسم الذي أشرقت به السموات والأرضون وهو المعبّر عنه عند أهل الإشراق بالعقل الكلي، وعند أهل الشرع بالقلم والعقل المحمدي، وقد يطلق عليه الروح المحمدي فلما استوى عليه الرحمن أودع فيه غيوب الأشياء وهي معاني جميع الخلق فهو باب الله إلى خلقه ولما أمر العقل فقال له: أدبر فأدبر ثم قال له أقبل فأقبل أخرج منه رقائقها وصورها إلى قوابلها فيما لا يزال فهو باب

الله إلى خلقه ولما تهيأت القوابل لقبول حياتها وجميع ما لها من ربها وقبلت كان ذلك القبول بواسطته فهو باب الخلق إلى الله فلما أمرهم بطاعته وامتثلوا أمره قبل أعمالهم بواسطته والتوجه به إلى الله فرفع به أعمالهم فهو باب الخلق إلى الله وهذه الوساطة والترجمة والسفارة عامة في جميع الوجودات الشرعية والشرعيات الوجودية فهم عليهم السلام في هذا المقام موضع الرسالة بالنسبة إلى المقام الأول وهم محل وحيه ومهبط نوره ومسقط نجومه وهكذا، وبالنسبة إلى المقام الثاني هم حفظة شريعته وموضع رسالته الثاني من الأول ليترجموا لمن دونهم الإمدادات ممن هو فوقهم .

والمقام الرابع: مقام الإمامة وهو الحق وهو الظاهر وهو السر المستسر وهو مقام حجة الله على خلقه وخليفته في أرضه، افترض طاعته على جميع خلقه جعله الله قيماً على العباد وحفيظاً وشاهداً وداعياً إلى الله وهادياً إلى سبيله ووجهه الذي يتقلب في الأرض، وعينه الناظرة في عباده فكّاك الأزمات المعضلة وفاتح الحصون المقفلة والقصر المشيد والبئر المعطلة، ملجأ الهاربين وعصمة المعتصمين وأمن الخائفين وعون المؤمنين فالإمام في مقام الإمامة هذا هو موضع الرسالة يعني أن جميع أحكام الله التي أوحاها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندهم فهم حفظته عن حكم وعلم وفهم وذكر وفكر وغير ذلك فهم عليهم السلام موضع الرسالة في الأحوال الثلاثة كل مقام بحسبه بخلاف المقام الأول فإنه لا يصلح للموضعية إذ ليس قبله إرسال ولو قرىء بجر (موضع) عطفاً على (بيت) أي يا أهل موضع الرسالة جاز ويكون موضع الرسالة هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيلحظ في هذا المعنى (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه) فيكون إنما استحق أن يجعل موضعاً للرسالة لنورية طينته واعتدال

قابليته واستقامة سيرته وصفاء سريرته وعظم مسارعته إلى طاعة ربه، حتى أنه تفرد في هذه الصفات وأمثال ذلك من صفات الكمالات عن جميع ما خلق الله لم يساوه في شيء منها أحد من الخلق ولم يدانه في شيء منها أحد إلا ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام وابنته وبنوه الأئمة الطاهرون عليه وعليهم السلام أجمعين، فهو إمامهم في كل مقام من هذه المقامات الأربعة والواسطة بين الله تعالى وبينهم عليهم السلام .

وباعتبار آخر الأربعة عشر معصوماً هم صفات الله وأسماؤه وآلاؤه ونعمه ورحمته الواسعة ورحمته المكتوبة وهم معانيه كما ذكرنا الإشارة إليه كما قلنا: وهم وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء وهم اسم الله المبارك ذو الجلال والإكرام ووجه الله الباقي بعد فناء كل شيء والوجه الذي يتقلب في الأرض، ومقصد كل متوجه وسائر من مطيع حيث يحب الله ومن عاص حيث يكره الله وهم أوعية غيبه وهم ظاهره في سائر المراتب وجميع المعاني والمقامات آياتهم ظاهرة في الآفاق وفي أنفس الخلق، ومعجزاتهم باهرة وهم ملوك الدنيا والآخرة اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وقولي سابقاً: لو قرئ بالجر لم أرد به أني وقفت على نسخة بالجر وإنما ذكرته احتمالاً لبيان صحة المعنى على تقديره، وإنما نقرؤه بالفتح بمعنى أن جميع ما وصل إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم من العلوم وما أرسله الله به فقد وصل إلى علي وفاطمة والطيبين من آله صلى الله عليهم أجمعين.

ففي الكافي عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ عَنْ أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام قَال (إِنَّ جَبْرَئِيل عليه السلام أَتَى رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِرُمَّانَتَيْنِ فَأَكَل رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِحْدَاهُمَا وَ كَسَرَ الأُخْرَى بِنِصْفَيْنِ فَأَكَل نِصْفاً وَ أَطْعَمَ عَلِيّاً نِصْفاً ثُمَّ قَال رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَا أَخِي هَل تَدْرِي مَا هَاتَانِ

الرُّمَّانَتَانِ قَال لا قَال أَمَّا الأُولى فَالنُّبُوَّةُ ليْسَ لكَ فِيهَا نَصِيبٌ وَ أَمَّا الأُخْرَى فَالعِلمُ أَنْتَ شَرِيكِي فِيهِ فَقُلتُ أَصْلحَكَ اللهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ شَرِيكَهُ فِيهِ قَال لمْ يُعَلمِ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ عِلماً إِلا وَ أَمَرَهُ أَنْ يُعَلمَهُ عَليّاً عليه السلام).

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلم قَال (سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُول نَزَل جَبْرَئِيل عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ بِرُمَّانَتَيْنِ مِنَ الجَنَّةِ فَلقِيَهُ عَلِيٌّ عليه السلام فَقَال مَا هَاتَانِ الرُّمَّانَتَانِ اللتَانِ فِي يَدِكَ فَقَال أَمَّا هَذِهِ فَالنُّبُوَّةُ ليْسَ لكَ فِيهَا نَصِيبٌ وَ أَمَّا هَذِهِ فَالعِلمُ ثُمَّ فَلقَهَا رَسُول اللهِ ﷺ بِنِصْفَيْنِ فَأَعْطَاهُ نِصْفَهَا وَ أَخَذَ رَسُول اللهِ ﷺ نِصْفَهَا ثُمَّ قَال أَنْتَ شَرِيكِي فِيهِ وَ أَنَا شَرِيكُكَ فِيهِ قَال فَلمْ يَعْلمْ واللهِ رَسُول اللهِ قَال فَلمْ يَعْلمْ وَ اللهِ رَسُول اللهِ ﷺ حَرْفاً مِمَّا عَلمَهُ اللهُ عَزَّ وَ جَل إِلا وَ قَدْ عَلمَهُ عَلِيّاً ثُمَّ انْتَهَى العِلْمُ إِليْنَا ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلى صَدْرِهِ).

وفيه عَنْ سُليْمِ بْنِ قَيْسٍ الهِلاليِّ قَال قُلتُ لأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عليه السلام إِنِّي سَمِعْتُ مِنْ سَلمَانَ وَ المِقْدَادِ وَ أَبِي ذَرٍّ شَيْئاً مِنْ تَفْسِيرِ القُرْآنِ وَ أَحَادِيثَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ) إلى أن قال علي عليه السلام (وَكُنْتُ إِذَا دَخَلتُ عَليْهِ بَعْضَ مَنَازِلِهِ أَخْلانِي وَ أَقَامَ عَنِّي نِسَاءَهُ فَلا يَبْقَى عِنْدَهُ غَيْرِي وَإِذَا أَتَانِي لِلخَلوَةِ مَعِي فِي مَنْزِلِي لمْ تَقُمْ عَنِّي فَاطِمَةُ وَ لا أَحَدٌ مِنْ بَنِيَّ وَكُنْتُ إِذَا سَأَلتُهُ أَجَابَنِي وَ إِذَا سَكَتُّ عَنْهُ وَ فَنِيَتْ مَسَائِلِي ابْتَدَأَنِي فَمَا نَزَلتْ عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ آيَةٌ مِنَ القُرْآنِ إِلا أَقْرَأَنِيهَا وَ أَمْلاهَا عَليَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وَ عَلمَنِي تَأْوِيلهَا وَ تَفْسِيرَهَا وَ نَاسِخَهَا وَ مَنْسُوخَهَا وَ مُحْكَمَهَا وَ مُتَشَابِهَهَا وَخَاصَّهَا وَ عَامَّهَا وَ دَعَا اللهَ أَنْ يُعْطِيَنِي فَهْمَهَا وَ حِفْظَهَا فَمَا نَسِيتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ ولا عِلماً أَمْلاهُ عَليَّ وَ كَتَبْتُهُ مُنْذُ دَعَا اللهَ لي بِمَا دَعَا وَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلمَهُ اللهُ مِنْ حَلالٍ وَلا حَرَامٍ وَلا أَمْرٍ ولا نَهْيٍ كَانَ أَوْ يَكُونُ وَ لا كِتَابٍ مُنْزَلٍ عَلى أَحَدٍ

قَبْلهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ إلا عَلمَنِيهِ وَ حَفِظْتُهُ فَلمْ أَنْسَ حَرْفاً وَاحِداً ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلى صَدْرِي وَدَعَا اللهَ لِي أَنْ يَمْلأَ قَلْبِي عِلْماً وَ فَهْماً وَ حُكْماً وَ نُوراً) الحديث.

وروى الحسن بن سليمان الحلي عن كتاب تأويل ما نزل من القرآن لأبي عبدالله محمد بن العباس بن مروان بسنده إلى عمران بن ميثم أن عباية حدثه أنه كان عند أمير المؤمنين عليه السلام خامس خمسة هو أصغرهم يومئذ فسمع أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول (حدثني أخي أنه ختم ألف نبي وإني ختمت ألف وصي و إني كلفت ما لم يكلفوا و إني لأعلم ألف كلمة ما يعلمها غيري وغير محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما منها كلمة إلا مفتاح ألف باب بعد ما تعلمون منها كلمة واحدة غير أنكم تقرءون منها آية واحدة في القرآن (وَإِذا وَقَعَ القَوْل عَليْهِمْ أَخْرَجْنا لهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ) و ما تدرونها) انتهى.

أقول وروي ألف باب ينفتح من كل باب ألف باب ومن كل باب ألف باب وروي ألف حرف ينفتح من كل حرف ألف حرف .

وفي الكافي عن الحارث بن المغيرة ، وعدة من أصحابنا منهم عبد الأعلى وأبو عبيدة وعبد الله ابن بشر الخثعمي سمعوا أبا عبد الله عليه السلام يقول (إني لأعلم ما في السماوات وما في الارض وأعلم ما في الجنة وأعلم ما في النار ، وأعلم ما كان وما يكون ، قال : ثم مكث هنيئة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه فقال : علمت ذلك من كتاب الله عز وجل ، إن الله عزوجل يقول فيه تبيان كل شئ).

والحاصل أنهم عليهم السلام موضع الرسالة بهذه المعاني التي ذكرناها وما أشبهها لا بمعنى أنهم رسل جعلهم محال الرسالة يوحي إليهم كما توهمهم بعض الغلاة وقد كذبوا وإنما هم محدثون صلى الله عليهم أجمعين.

قال عليه السلام وَمُخْتَلَفَ المَلائِكَةِ

أي محل ترددهم أي ينتهي ترددهم ابتداءً وانتهاءً إليهم للخدمة واكتساب الكمالات والعلوم منهم عليهم السلام ولتبليغ ما حتم وقضى من المقدرات فإن الله سبحانه وتعالى ببديع حكمته جعل الملائكة رُسلاً في تبليغ الإمدادات وتكميل الاستعدادات كما قال سيد الساجدين عليه السلام في الصلاة على الملائكة من الصحيفة قال (ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء)وكذلك في تبليغ الأحكام من المحتوم من خلق ورزق وموت وحياة وما يحدث من كل مشاء ومراد ومقدر ومقضي وممضي ومكتوب ومؤجل ومأذون إليهم عليهم السلام لأنهم أبواب الفيض ومنبع الخير فالملائكة تأتي إليهم بما يبرز من الإلهامات والقذوف وما تجري به الأقلام وتمضي به الأحتام مما تحت المشيّة من سابق علمه ومقدر حكمه وتبلغ الملائكة ما تنزل به عليهم عن أمرهم إلى ما يشاء الله من خلقه، فهم عليهم السلام أبواب الله تعالى في جميع ذرات الوجود في الصدور والورود فالملائكة المرسلون إليهم تتلقى ما تنزل به إليهم من أنوارهم وأمثال حقائقهم وتبلغه إلى آثارهم وصورهم وبيوتهم ومواطنهم وغنمهم وأنعامهم، فهم يتلقون عنهم ويبلغونهم ما تلقوه إلا أنهم يأخذون عن غيبهم ويوصلونه إلى شهادتهم ومثال ذلك في نفسك أن خواطرك التي ترد عليك بالتذكر والفهم والمعرفة حتى تستفيد منها العلوم والفهم والتذكر إنما ترد عليك من قلبك وهذا مثال تلك الملائكة المرسلين في صدورهم بالوحي والإلهامات من المبدأ إنما تصدر من أنوار حقائق آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهم المعلمون للخلق أجمعين.

روى الصدوق بأسانيده عن عبد السلام بن صالح الهروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما خلق الله خلقا أفضل مني و لا أكرم عليه مني قال علي عليه السلام فقلت يا رسول الله أفأنت أفضل أو جبرئيل فقال يا علي إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين و فضلني على جميع النبيين والمرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من ولدك بعدك وإن الملائكة لخدامنا و خدام محبينا يا علي (الذِينَ يَحْمِلونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ للذِينَ آمَنُوا) بولايتنا يا علي لو لا نحن ما خلق الله آدم و لا حواء و لا الجنة و لا النار و لا السماء و لا الأرض و كيف لا نكون أفضل من الملائكة و قد سبقناهم إلى معرفة ربنا عز و جل و تسبيحه وتهليله تقديسه وتمجيده لأن أول ما خلق الله أرواحنا فأنطقنا الله بتوحيده و تمجيده ثم خلق الملائكة فلما شاهدوا أرواحنا نورا واحدا استعظموا أمرنا فسبحنا لتعلم الملائكة أنا خلق مخلوقون و أنه تعالى منزه عن صفاتنا فسبحت الملائكة لتسبيحنا و نزهته عن صفاتنا فلما شاهدوا عظم شأننا هللنا لتعلم الملائكة أن لا إله إلا الله وأنا عبيد ولسنا بآله يجب أن نعبد معه أو دونه فقالوا لا إله إلا الله فلما شاهدوا كبر محلنا كبرنا لتعلم الملائكة أن الله أكبر من أن ينال عظم المحل إلا به فلما شاهدوا ما جعله الله لنا من العزة والقوة قلنا لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لتعلم الملائكة أن لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم فقالت الملائكة لا حول و لا قوة إلا بالله فلما شاهدوا ما أنعم الله به علينا و أوجبه لنا من فرض الطاعة قلنا الحمد لله لتعلم الملائكة ما يحق لله تعالى ذكره علينا من الحمد على نعمه فقالت الملائكة الحمد لله فبنا اهتدوا

إلى معرفة توحيد الله تعالى و تسبيحه و تهليله و تحميده وتمجيده ثم إن الله تبارك و تعالى لما خلق آدم أودعنا صلبه و أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لنا و إكراما و كان سجودهم لله عز و جل عبودية و لآدم إكراما و طاعة لكوننا في صلبه فكيف لا نكون أفضل من الملائكة و قد سجدوا لآدم كلهم أجمعون)الحديث.

وعن حبيب بن مظاهر رضي الله عنه أنه قال للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام أي شيء كنتم قبل أن يخلق الله آدم قال: (كنا أشباح نور ندور حول عرش الرحمن فنعلم الملائكة التسبيح والتهليل والتحميد)كما تقدم مفصلاً.

وعن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله قال (كان جبرائيل إذا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قعد بين يديه قعدة العبيد وكان لا يدخل حتى يستأذنه).

وروى الكليني في الصحيح عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ قَال دَخلتُ عَلى عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ عليه السلام فَاحْتُبِسْتُ فِي الدَّارِ سَاعَةً ثُمَّ دَخَلتُ البَيْتَ وَ هُوَ يَلتَقِطُ شَيْئاً وَ أَدْخَل يَدَهُ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ فَنَاوَلهُ مَنْ كَانَ فِي البَيْتِ فَقُلتُ جُعِلتُ فِدَاكَ هَذَا الذِي أَرَاكَ تَلتَقِطُهُ أَيُّ شَيْ ءٍ هُوَ فَقَال فَضْلةٌ مِنْ زَغَبِ المَلائِكَةِ(أي صغار ريشهم) نَجْمَعُهُ إِذَا خَلوْنَا نَجْعَلهُ سَيْحاً لأَوْلادِنَا فَقُلتُ جُعِلتُ فِدَاكَ وَ إِنَّهُمْ ليَأْتُونَكُمْ فَقَال يَا أَبَا حَمْزَةَ إِنَّهُمْ ليُزَاحِمُونَّا عَلى تُكَأَتِنَا).

وعن أَبِي الحَسَنِ عليه السلام قَال (سَمِعْتُهُ يَقُول مَا مِنْ مَلكٍ يُهْبِطُهُ اللهُ فِي أَمْرٍ مَا يُهْبِطُهُ إِلا بَدَأَ بِالإِمَامِ فَعَرَضَ ذَلكَ عَليْهِ وَ إِنَّ مُخْتَلفَ المَلائِكَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالى إِلى صَاحِبِ هَذَا الأَمْرِ عليه السلام).

أقول ويجوز أن يكون معنى كونهم مختلف الملائكة أن ما اختلفت الملائكة به إلى جدهم أنه عندهم أي محل ما اختلفت به أو المستحفظون له أو اختلاف

الملائكة المقتفي لتعددهم، وذلك لاختلاف جهات قوابل الملائكة واستمداداتهم منهم في بدء خلقهم من أنوارهم وفي استمداداتهم وتلقّيهم منهم الكمالات والمعارف وسائر العلوم والتحمّلات في التأدية إلى من شاء الله تعالى فإن الملائكة في تلقي تلك الأشياء مختلفون في الجهات والأفعال والمفعولات اختلافاً عدد ذرات الوجود كل ملك يتحمل بحسب قابليته وما يناسبه وما هو من جنسه أو نوعه أو شخصه وكل ذلك الاختلاف والتباين والتمايز منحصر في جهتهم صلى الله عليهم أجمعين، فلذا كانوا مختلف الملائكة والمعنى الأول هو الظاهر من العبارة الظاهرة وغيره مراد في المعنى والله أعلم.

قال عليه السلام وَمَهْبِطَ الوَحْيِ

أي محل هبوط الوحي بواسطة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله كما تقدم لأنهم الحافظون لما نزل به الوحي من أحكام الذوات والصفات والأفعال والأعمال والأحوال، يعني أنهّم محل ما هبط منها بالوحي الخاص الذي ينزل به الملك ظاهراً بالوحي وإن أريد بالوحي ما هو أعمّ من هذا ومن الإلهام وسماع الصوت وما نطقت به الجمادات والنباتات والحيوانات وأحوالها، وما نطق به أحوال الكلام والألفاظ والأعراض فهم على الحقيقة محل ذلك وإنما قيل مهبط الذي يراد منه المحل الذي ينزل فيه من المكان الذي هو أعلى منه، مع أنهم عليهم السلام أعلى من هذا الهابط على الوجهين لأن المراد بالهبوط إليهم ظهور ذلك على حقائقهم وعقولهم ونفوسهم وظواهرهم وفي كل مقام من هذه المهابط الأربعة ينزل فيه مما هو أعلى منه فينزل في حقائقهم من فعل الله وفي عقولهم من الماء الأول وفي نفوسهم من عقولهم وفي

ظواهرهم من نفوسهم بواسطة الملائكة تحدّثهم عن نفوسهم عن عقولهم عن حقائقهم عن الماء عن الفعل، عن الله سبحانه وتعالى.

فإن قلت: ما الجمع بين ما ورد أن جبرائيل ﵇ قال عند موت النبي ﷺ: هذا آخر نزولي إلى الدنيا والآن أصعد إلى السماء ولا أنزل أبدا وأن الأئمة يسمعون الصوت ولا يرون الشخص، وبين ما روي أن عليا كان يخطب في مسجد الكوفة فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، فأتاه رجل فقال: أخبرني أين جبرائيل الآن؟ فرمق السموات ثم رمق الأرضين والجهات فقال للسائل: أنت جبرائيل قال: صدقت فعرج إلى السماء والناس ينظرون إليه وأنهم ﵈ تأتيهم الملائكة ويقعدون على فرشهم ويتكؤون على متكآتهم ويرونهم.

قلت: الجمع بينهما أن جبرائيل ﵇ بعد موت النبي ﷺ لا ينزل إلى الأرض بوحي قط لانختام النبوة بنبوة نبينا ﷺ وإن نزل بغير وحي وأن الأئمة ﵈ يسمعون صوت الوحي من الملك ولا يرون شخصه حين ينزل بالوحي

«وفي غير هذا الحال يرونهم ويقعدون معهم ويخبرونهم بكل ما يسألونهم ويرونهم حين يأتون بأحكام القضاء والإمضاء الذي هو بيان ما نزل به الوحي على النبي ﷺ وأما أنهم يسمعون الصوت ولا يرون الشخص فالمراد أنهم إذا نزل الوحي على النبي ﷺ بأمر من الأمور فإنهم ﵈ يسمعون ما يسمع ﷺ ولا يرون شخص الملك الذي ينزل بالوحي التأسيسي على النبي ﷺ لأن السماع والرؤية معاً أعظم مظاهر الحق وأظهر ولا تصلح إلا للنبي ﷺ، وإلى هذا الإشارة في دعاء ليلة مبعث النبي ﷺ الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب قوله ﵇ (اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم في هذه الليلة من الشهر المعظم

و المرسل المكرم أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تغفر لنا ما أنت به منا أعلم يا من يعلم و لا نعلم اللهم بارك لنا في ليلتنا هذه التي بشرف الرسالة فضلتها و بكرامتك أجللتها و بالمحل الشريف أحللتها).

ويحتمل أن المراد أن الإمام عليه السلام لا يرى شخص الملك النازل بالوحي محدّثاً له، وإنما يراه محدثاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن يحدثه ببيان الوحي الذي نزل قبل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدل على أنه يرى الملك النازل بالوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله صلى الله عليه وآله وسلم (يا علي إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى)ولا ضرر في ذلك فإنهم لا يرون الشخص النازل بالوحي التأسيسي عليهم لأنهم إنما يرونه نازلاً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما كانوا عليهم السلام مهبط الوحي مع أن مهبط الوحي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم عليهم السلام أمثاله ونفسه كما يشير إليه قوله تعالى في تأويل: (مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)فلما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتي بعلي عليه السلام وهو مثله وكذلك علي والحسن والحسين إلى الحسن العسكري عليهم السلام ، فلما مات العسكري أُتي بخير منه وهو القائم عليه السلام لأنه أفضل الثمانية كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (تاسعهم قائمهم أعلمهم أفضلهم) ويحتمل أن يكون (بِخَيْرٍ مِّنْهَا) ليس للتفضيل بل المعنى نأت بخير كثير من الذي قبله وتكون من للابتداء أي بدله ومثله وكذلك قوله تعالى (وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ)فجعل علياً عليه السلام نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما يجري لعلي يجري لولده الطيبين عليهم السلام فيكون بهذا المعنى أيضاً مهبط الوحي.

والوحي قد يراد به خصوص الالهام كما في قوله تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا)أي إلهاماً (أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ)كتكليمه موسى عليه السلام من الشجرة (أو يرسل رسولا) كجبرائيل فبهذه الإرادة يكونون حقيقة مهبط الوحي لأنهم

مهبط الإلهام من الملك العلاّم، وكذلك بالحجاب وبإرسال الملائكة ما خلا ما يختص بالنبوة والرسالة من الوحي التأسيسي وإلا ففي كل سنة إلى فناء الدنيا في ليلة القدر تنزل الملائكة والروح فيها أي روح القدس وهو الملك الأعظم وهو المحدث لكل نبي وإمام فينزل عليه مع الملائكة التي لا يحصي عددهم إلا الله بما كان محتوماً من الأمور المقضيات على إمام العصر عجل الله فرجه فيراهم ويسمعهم البتة إلا أن الذي يأتون به ليس من الوحي التأسيسي وإنما هو لبيان المحتوم مما عنده من الأمور المشروطة فافهم.

قال عليه السلام وَمَعْدِنَ الرَّحْمَةِ

المعدِن: بكسر الدال مركز كل شيء من عَدَن بالمكان عَدْناً وعُدُوناً، أي أقام به وجنات عدنٍ أي جنات إقامة لا زوال لأهلها ولا انتقال لهم عنها ومنه المعدن أي مستقر الجوهر وفي الحديث (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة)لأنهم يتفاوتون في الكمالات الشرعية على حسب استعداداتهم ففيهم الجيد والرديء كالمعاَدن.

والرحمة: لغة في الإنسان رقّة القلب وعطفه ويستعملونها في حق الله في عطفه وبره ورزقه وإحسانه وعنايته وما أشبه ذلك وفي العرف الخاص الرحمة إعطاء كل ذي حق حقه وهو قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى) أنه سبحانه استوى برحمانيته على العرش فأعطى كل ذي حق حقه كقوله تعالى (الذِي أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَى)فالعرش عبارة عن أركان أربعة لأنه ينقسم إليها، فالركن الأحمر استوى الرحمن عليه بصفة الخلق فعنه خلق كل شيء واستوى الرحمن

على الركن الأصفر بصفة الحياة فعنه أحيا كل شيء واستوى الرحمن على الركن الأبيض بصفة الرزق فعنه رزق كل شيء واستوى الرحمن على الركن الأخضر بصفة الموت، فعنه أمات كل شيء وكون الرحمة إعطاء كل ذي حق حقه هو السر في قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى) (ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَل بِهِ خَبِيرًا)(ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ) الرحمن (يُدَبِّرُ الأَمْرَ)وما أشبه ذلك ولم يقل الله على العرش استوى.

ثم الرحمة قسمان: الرحمة الواسعة سميت بذلك لشمولها لجميع الخلق من مؤمن وكافر وصالح وطالح وجماد ونبات وحيوان، وهي خير الإيجاد فهي وجود والوجود خير فمنها الفضل ومنها العدل فهي صفة الرحمن فتعمّ المؤمن والكافر في الدنيا، والثاني الرحمة المكتوبة وهي الرحمة الخاصة وهي محض الفضل في الحقيقة وإن انقسمت في الظاهر إلى فضل ومجازاة وهي صفة الرحيم فتخص المؤمن في الآخرة قال الله تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُل شَيْءٍ) وهذه هي الرحمة الواسعة قال تعالى (فَسَأَكْتُبُهَا للذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ)وهذه هي الرحمة المكتوبة وهي خاصة بالمؤمنين قال تعالى: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)والروايات مختلفة هذا معنى رواية ومعنى آخر تعلق الصفتين بالدنيا والآخرة ففي الدعاء (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما).

ووجه آخر وهو أن الرحمن أكثر حروفاً من الرحيم وزيادة المباني تدل على زيادة المعاني فتكون الرحمن بالدنيا والآخرة والرحيم بالآخرة فعلى الأول عموم صفة الرحمن للمؤمن والكافر في الدنيا من جهة الفضل على المؤمن والعدل بالكافر، أو أنه سبحانه قد تفضل على المؤمن بما يستحقه لإيمانه وعلى الكافر إتماماً للنعمة

لعله يتذكر نعمة الله أو يخشى عقوبته عليها بترك شكرها أو بزوالها أو استدراجاً كما قال تعالى (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُل شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)وأنه قد أجرى عدله على المؤمن بأن يؤاخذه بما يقع منه من الذنوب ولم يعف عنه فيبتليه بالمرض والفقر وموت النسل والهموم أو يسلط عليه ظالماً يؤذيه أو جار سوء أو امرأة تؤذيه أو غير ذلك، ليعلم الصابرين ويكون ما أصابه كفارة لما وقع منه من الذنوب وليعلم المؤمن أن الدنيا ليست بدار أمن وثواب وراحة فلا يرغب فى الركون إليها وأنه قد أجرى عدله على الكافر جزاء بما كانوا يكسبون أو ليرغب في الإسلام أو ليكره الدنيا لأن كثيراً ممن كفر إنما كفر لرغبته في الدنيا إذ قد يكون عليه في الإسلام ذلة في زعمه بالانقياد إلى أهل الإسلام أو خوفاً على فوات بعض حطامها، وأمثال ذلك فلا يسلم حرصاً على الدنيا فإذا تبيّن له فساد الركون إليها وإنه لا يدرك مطلوبه أمن أو أن ذلك تقدمة لعذابه وغير ذلك.

وعلى الثاني يرحم المؤمن في الدنيا بأن يتفضل عليه بجزيل النعم إنعاماً لباله قال تعالى (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)وأن يعفو عن تقصيراته وسيئاته تفضلاً فلا يؤاخذه بشيء من ذلك وهذا جهة الفضل من الرحمة الواسعة، وذلك الفضل هو الرحمةّ المكتوبة فتجري على ذلك المؤمن بنعيم الأبد وملك لا يبلى وهذا صفة الرحيم وقد تجري صفة الرحيم على الكافر فى الدنيا بأن ترفع عنه البلايا والمحن والفقر والهموم والأمراض استدراجا أو تذكيراً لنعمه عليه، ولا تجري عليه في الآخرة إلا على نحو لا يحس بها كما لو كانت له استحقاقات من الأعمال الظاهرة كما لو أعطى فقيراً شيئاً من رقّة قلبه ولم يجاز عليها في الدنيا ثم تفرّق عليه في النار

حتى يوفاها وهو في النار مفرقة بحيث لا يحس بالتخفيف ، وعلى الثالث ما يعلم مما تقدم.

وبالجملة الرحمة الواسعة تعم المؤمن والكافر في الدنيا والآخرة، وهي صفة الرحمن والرحمة المكتوبة قد تعمهما في الدنيا والآخرة وقد خصّ المؤمن في الآخرة إلاّ أنّه لا يجري على المؤمن من الرحمة الواسعة في الآخرة إلاّ جهة الفضل التي يطلق عليها الرحمة المكتوبة وفي الدنيا يشارك الكافر في الفضل والعدل إلا أنه على نحو اللطف به والتطهير له بخلاف جريان الرحمة الواسعة على الكافر، فإنها لا تجري عليه على نحو اللطف والتطهير فكونهم عليهم السلام معدن الرحمة أنّهم معدن الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة بجميع معانيها ومعدن الرحمة المكتوبة في الدنيا والآخرة كذلك وذلك لأنهم عليهم السلام أولياء النعم وسيوف النقم وإليه الاشارة بقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)(فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ)لأنهم عليهم السلام مناة للخلق أي مبتلون ومختبرون ومقدرون للخلق فِي جميع الحركات والسكنات والارادات والأعمال والاعتقادات وأذواد يذودون الأعداء عن الخير والأولياء عن الشر.

وبالجملة قال الحجة عجل الله فرجه في دعاء كل يوم من شهر رجب (أعضاد وأشهاد ومُناة وأذواد وحفظة ورواد.. الخ) ومن اتصف بهذه الصفات فهو معدن الرحمة الواسعة ومحلها الذي وسعها فأعضاد إشارة إلى مفهوم قوله تعالى (مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)فهم عليهم السلام قد أشهدهم خلق السموات والأرض وخلق من أسكنهما من جِنّه وإنسه

وملائكته وسائر ما برأ وذرأ وما أحدث من جماد ونبات وحيوان، وَأشهدهم خلق أنفسهم واتخذهم أعضاداً لخلقه لأنهم الهادون واتخذ الهادين عضداً ومعنى أنّه سبحانه اتخذهم أعضاداً لخلقه أن الشيء لا يتقوّم إلا بمادته وصورته لتوقف وجوده على العلة المادية والعلة الصورية ولما خلق الله محمدا ﷺ سراجاً منيراً أشرق نوره حتى ملأ العمق الأكبر، فخلق الله مواد الأشياء غيبها وشهادتها ماديها وغير ماديها وجواهرها وأعراضها من نور محمد ﷺ ولما خلق الله علياً عليه السلام قمراً منيراً أشرق نوره حتى ملأ العمق الأكبر فخلق سبحانه صور الأشياء غيبها وشهادتها مادّيها وغير مادّيها، وجواهرها وأعراضها من نور علي عليه السلام فالمادة هي الأب والصورة هي الأم وإلى هذا أشار ﷺ (أنا وعلي أبوا هذه الأمة)وفي الحديث عن الصادق عليه السلام بيان ذلك قال عليه السلام (إن الله تبارك وتعالى خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه أبوه النور وأمه الرحمة)ولكن بعد ولا شك أن الصبغ هو الصورة وهي الأم فتفهم فالمادة والصورة اللتان هما العلتان اللتان لا يتقوم الشيء إلا بهما هما ركنا الشيء وعضده فقد اتخذهم أعضاداً لخلقه وأشهاد أي أن الله جعلهم شهداء على خلقه يعني يشهدون أعمالهم (فَسَيَرَى اللهُ عَمَلكُمْ وَرَسُولهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)وأحوالهم وأقوالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم لايغيب عنهم شيء من أحوال الخلق.

وفي عيون الأخبار أن الرضا عليه السلام سأله بعض من حضر من الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة في مجلس المأمون فقال (يا ابن رسول الله بأي شيء تصح الإمامة لمدعيها قال بالنص والدليل قال له فدلالة الإمام فبما هي قال في العلم واستجابة الدعوة قال فما وجه إخباركم بما يكون قال ذلك بعهد معهود

إلينا من رسول الله ﷺ قال فما وجه إخباركم بما في قلوب الناس قال عليه السلام له أ ما بلغك قول الرسول ﷺ اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله قال بلى قال وما من مؤمن إلا وله فراسة ينظر بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ استبصاره وعلمه وقد جمع الله للأئمة منا ما فرقه في جميع المؤمنين وقال عز وجل في محكم كتابه إِنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسِّمِينَ فأول المتوسمين رسول الله ﷺ ثم أمير المؤمنين عليه السلام من بعده ثم الحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام إلى يوم القيامة قال فنظر إليه المأمون فقال له يا أبا الحسن زدنا مما جعل الله لكم أهل البيت فقال الرضا عليه السلام إن الله عز وجل قد أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك لم تكن مع أحد ممن مضى إلا مع رسول الله ﷺ وهي مع الأئمة منا تسددهم وتوفقهم وهو عمود من نور بيننا وبين الله عز وجل)الحديث.

أقول: فبهذا العمود النور يشهدون جميع أعمال العباد وهذا العمود قد يسمى ملكاً في بعض الأخبار وفي بعض الأخبار ما معناه أن الله يعطي وليه عموداً من نور يرى فيه أعمال الخلائق كما يرى أحدكم الشخص في المرآة.

وبالجملة فالمراد بكونهم أشهاداً أنهم لا يخفى عليهم شيء من أعمال الخلائق فهم يشاهدونهم وأنهم يشهدون على من وفى بما وفى ومن أنكر بما أنكر.

وفي الكافي عَنْ سَماعَةَ قَال (قَال أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام في قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَل فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُل أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً قَال نَزَلتْ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً فِي كُل قَرْنٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ مِنَّا شَاهِدٌ عَليْهِمْ وَمُحَمَّدٌ ﷺ شَاهِدٌ عَليْنَا).

وفيه عَنْ بُرَيْدٍ العِجْليِّ قَال (سَأَلتُ أَبَا عَبْداللهِ عليه السلام عَنْ قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَل (وَكَذلكَ جَعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لتَكُونُوا شُهَداءَ عَلى النَّاسِ) قَال عليه السلام نَحْنُ الأُمَّةُ

الوُسْطَى وَنَحْنُ شُهَدَاءُ اللهِ عَلى خَلقِهِ وَحُجَجُهُ فِي أَرْضِهِ قُلتُ قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَل (مِلةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) قَال إِيَّانَا عَنَى خَاصَّةً (هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْل) فِي الكُتُبِ التِي مَضَتْ وَفِي هَذَا القُرْآنِ (لِيَكُونَ الرَّسُول شَهِيداً عَليْكُمْ) فَرَسُول اللهِ ﷺ الشَّهِيدُ عَليْنَا بِمَا بَلغَنَا عَنِ اللهِ عَزَّ وَ جَل وَنَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلى النَّاسِ فَمَنْ صَدَّقَ صَدَّقْنَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَنْ كَذَّبَ كَذَّبْنَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ).

وفي حديث ليلة القدر منه (وَلِذَلِكَ جَعَلهُمْ شُهَدَاءَ عَلى النَّاسِ لِيَشْهَدَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَليْنَا وَ لِنَشْهَدَ عَلى شِيعَتِنَا وَ لِتَشْهَدَ شِيعَتُنَا عَلى النَّاسِ)(فرسول الله ﷺ شاهد علينا و نحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه ونحن الذين قال الله (وَكَذلِكَ جَعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لتكونوا)انتهى.

وأما ما دلت عليه الأخبار من أن تلك الشهادة إنما هي بروح القدس لأنه هو الذي يسددهم ويحدثهم بل في بعضها أن الإمام عليه السلام إذا غاب عنه الملك المحدّث لا يعلم ويغفل فالمراد به العقل الأول عند الحكماء وهو القلم وهو عقل محمد ﷺ وعقلهم عليهم السلام فهو ينتقل فيهم كصورة الوجه المنتقلة في مرآة من أخرى مقابلة لها ولهذا ورد أنه لم يكن مع أحد قبلهم إلا رسول الله ﷺ .

وفي الكافي روى أبو بَصِيرٍ قَال سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُول (يَسْئَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) قَال خَلقٌ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيل وَمِيكَائِيل لمْ يَكُنْ مَعَ أَحَدٍ مِمَّنْ مَضَى غَيْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ مَعَ الأَئِمَّةِ عليهم السلام يُسَدِّدُهُمْ وَليْسَ كُل مَا طُلبَ وُجِدَ).

قوله عليه السلام (وليس كلما طلب وُجد) أن التوجه من المخلوق له أجل عند الله، فحصوله له لا يكون إلا بمشية منَ الله وإرادة وقدر وقضاء وإذن وأجل

وكتاب وهذا حكم يشترك فيه جميع الخلق إذ ما بالفعل مطلقاً أبداً بلا غيبة ولا طلب حكم الواجب سبحانه وتعالى وما ورد بأنه يكون مع سائر الأنبياء عليهم السلام لا ينافي أنه لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد صلى الله عليه وآله لأن المراد من كونه مع الأنبياء عليهم السلام بوجه من وجوهه يعني مظهراً من مظاهره ولا يحيط به أحد غير الأربعة عشر عليهم السلام وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)وقول الرضا عليه السلام كما تقدم (إنَ تلك الروح المقدسة ليست بملك) وقول الصادق عليه السلام (خلق أعظم من جبرائيل عليه السلام) مع ما ورد أنه ملك يراد منه أنه ليس بملك بسيط مفرد ليس بجامع مملك بل هو جامع مملك وكونه ملكاً أنه ليس ببشر والمعنى أن الملك بمنزلة جزء الإنسان والإنسان بمنزلة ملك وشيطان فهو جامع بالنسبة إلى الملك ومملك ولا تملك في الملك ولا جامعية، وهذه الروح جامعة لها خلق من دونها وليس ببشر يجري عليه أحكام التغيير والتبديل ظاهراً وبالجملة بيان هذه المسألة كما ينبغي يطول به الكلام.

ومناة جمع مانٍ وهو المقدر أو المبتلي أو المبتلى به فمعنى المقدر أنهم محال القدر والتقدير ووضع حدود الأشياء ومقاديرها في الكم والكيف والأين والمتى والوضع والرتبة والمكان والأجل والإذن والكتاب والنسب والإضافات، وذلك في الأسباب والمسببات قال الله تعالى (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)ومعنى المبتلي أنه يهدي ويضل فيستنطق الطبائع بما انطوت والسرائر بما أضمرت والحقائق بما أسرّت فبذلك كل تيسّر لما خلق له وكل عمل بعمله ومعنى أنه مبتلى به أنه محنة الخلق من

الأنبياء والمؤمنين والملائكة والناس أجمعين بل جميع الموجودات كما أن علياً عليه السلام سبب ابتلاء أيوب عليه السلام قال علي عليه السلام (لما كان عند الانبعاث للمنطق شك أيوب في ملكي فقال هذا خطب جليل و أمر جسيم قال الله عز وجل يا أيوب أ تشك في صورة أقمته أنا إني ابتليت آدم بالبلاء فوهبته له بالتسليم عليه بإمرة المؤمنين وأنت تقول خطب جليل وأمر جسيم فوعزتي لأذيقنك من عذابي أو تتوب إلي بالطاعة لأمير المؤمنين ثم أدركته السعادة بي يعني أنه تاب إلى الله وأذعن بالطاعة لأمير المؤمنين عليه السلام وعلى ذريته الطيبين).

ومعنى المبتلى به أن الابتلاء هو الاختبار بالتكليف الشاق بأن يؤمر الشخص أو ينبه بما لا يعرف حقيقته بعقله بل يعرف عدم حقيّته كما قد يعرض لكثيرمن المكلفين وقد يظهر له من التكليف احتمال لا ينبغي كما سمعت مما روي عن أيوب بل أكثر الأنبياء عليهم السلام ، وإن كان ذلك الاحتمال لا يوجب المعصية ولكنه ينقص كمال ما ينبغي في حق المقربين كما روي أن (حسنات الأبرار سيئات المقرّبين)فيعرض ذلك الاحتمال الموجب لترك الأولى في حق الأنبياء عليهم السلام فلأجل قربهم يؤاخذون ويبتلون وفي الحديث ما معناه أن في الصراط عقبات كؤداً لا يقطعها بسهولة إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام)وتلك العقبات يعثر فيها الخلق والعثرات تختلف فمنها عثرات عظيمة كما في كثير من غير المعصومين كثير منها مهلك لا يتلافى وكثير منها مهلك يتلافى ومنها عثرات أهل العصمة من الأنبياء عليهم السلام وهي عثرات في حقهم خاصة وأما في حق الناس فلا يلتفت الولي إليها فإذا وقعت من الأنبياء عُوتبوا فكان الأصل كله في تلك العثرات المهلكة وغيرها التقصير في ولايتهم عليهم السلام فهم المبتلى بهم وهم المبتلون، وإلى هذا الاشارة

بقوله تعالى (وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ).

وأذواد جمع ذائد يذودون وليهم عن الشر وعدوهم من الخير كما تقدم ومنه حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة قال (قلت: يا أمير المؤمنين أخبرني عن حوض النبي ﷺ في الدنيا أم في الآخرة قال عليه السلام: بل في الدنيا، قلت فمن الذائد عليه؟ قال: أنا بيدي فليردنه أوليائي وليصرفن عنه أعدائي)وفي رواية (ولأوردنه أوليائي ولأصرفن عنه أعدائي).

أقول قد تقدم ما يدل على هذه الرواية ويأتي إن شاء الله تعالى.

وحفظة جمع حافظ والمراد أنهم عليهم السلام يحفظون على العباد أعمالهم وإليه الإشارة بقوله تعالى (هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلونَ)وأحاديث عرض الأعمال عليهم وأحاديث أنهم الشهداء على الخلق دالة على ذلك إذ لا يشهدون على ما لا يحفظونه.

ومعنى آخر لكونهم عليهم السلام حفظة وهو أنهم مُناة أي مقدرون لكونهم محال قدر الله تعالى ومظاهره فيبعثون بأمر الله ملائكة يحفظون كل نسمة فلا يأتيه حجر ولا صائب ولا يقع من شاهق إلا وحفظته الملائكة من كل ما يرد عليه من مكروه حتى يقدر الله سبحانه ذلك فيرد قدره على قلب الولي من آل محمد ﷺ فيأمر الملائكة الحفظة عن أمر الله أن يكفوا عن الحفظ والدفاع فيكفون فيصيبه ما قدر له وهو تأويل قوله تعالى (لهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ)وتأويل قوله تعالى (إِن كُل نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)فملائكة تحفظ عنهم أعمال العباد وتعرضها عليهم وملائكة تحفظ عنهم مقدرات الأسباب حتى يظهر وقت الإصابة ويحضر فيجري كما قدروا وملائكة تحفظ عنهم أعمال

العباد وتكتبها في كتب المكلفين، وهم غير الذين يحفظون الأعمال ويعرضونها على الخليفة من آل محمد ﷺ وهؤلاء يعرضون على محمد ﷺ ثم من بعده على علي عليه السلام ثم الحسن ثم الحسين ثم القائم ثم الأئمة الثمانية ثم على فاطمة عليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ورُوّاد جمع رائد وهو الرائد الذي يتقدم القوم لينظر لهم الكلأ ومساقط القطر وفي الحديث النبوي ﷺ (الحمّى رائد الموت وحرها من فيح جهنم وهي حظ كل مؤمن ومؤمنة من النار) أي رسوله.

فهم عليهم السلام رُوّاد الخلق يقودونهم بوضع أسباب التيسير وتقديرها بأمر الله تعالى حتى يصل كل واحد من الخلق إلى مقر أعماله من سعادة وشقاوة ويتقدمون السعيد بما له عندهم من الخيرات حتى يضعوه في دار أعماله ويسوقون الشقي بما له مما كسبت يداه حتى يضعوه في دار أعماله.

والحاصل كلما سمعت مما أشرنا إليه مما ينسب لهم وإليهم ومنهم كله وما لم تسمع هو آثار تلك الرحمة التي هم معدنها لما ذكرنا قبل من أن الرحمة المشار إليها هي التي ظهر بها الرحمن واستوى على عرشه وهي صفة الرحمن وإلى هذا الإشارة في الحديث القدسي (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبد المؤمن) .

قال عليه السلام وخزان العلم

الخزّان: كَرُمّان جمع خازن بمعنى أنهم ولاة خزائن علم الله وبمعنى أنهم عين خزائن علم الله وبمعنى أنهم مفاتيح تلك الخزائن، كما ورد في تفسير قوله تعالى

(وَعِنْدَهُ مَفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلا فِي كِتابٍ مُبِينٍ)منها ما في العياشي عن الحسين بن خلف (قال سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلا فِي كِتابٍ مُبِين فقال عليه السلام الورقة السقط يسقط من بطن أمه من قبل أن يهل الولد قال فقلت وقوله وَلا حَبَّةٍ قال يعني الولد في بطن أمه إذا أهل ويسقط من قبل الولادة قال قلت وقوله وَلا رَطْبٍ قال يعني المضغة إذا أستكنت في الرحم قبل أن يتم خلقها قبل أن تنتقل قال قلت قوله وَلا يابِسٍ قال الولد التام قال قلت فِي كِتابٍ مُبِينٍ قال في إمام مبين).

فدل هذا الحديث أن الإمام عليه السلام هو الكتاب فهو خزانة علم الله.

وفي الفقيه خطبة علي عليه السلام وفيها (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ مِنْ شَجَرَةٍ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتٍ الأرض إِلا يَعْلَمُهَا لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَلا رَطْبٍ وَ لا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) وهذا يدل على أن الإمام هو الكتاب والله سبحانه يعلم ذلك حيث سجله في كتابه فهو عليه السلام خزانة علم الله.

وفي احتجاج الطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل وفيه (قال لصاحبكم أمير المؤمنين عليه السلام قُل كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ وقال الله عز وجل ولا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلا فِي كِتابٍ مُبِينٍ وعلم هذا الكتاب عنده)انتهى ، وهذا يدل على أن الإمام ولي خزانة علم الله.

وفي التوحيد والمعاني والمجالس عن الصادق عليه السلام (لما صعد موسى عليه السلام إلى الطور فنادى ربه عز وجل قال يا رب أرني خزائنك فقال يا موسى إنما خزائني

إذا أردت شيئا أن أقول له كن فيكون)، وهذا يدل على أنهم مفاتح الخزائن ووجه الاستدلال أنهم عليهم السلام أخبروا أنهم محال مشية الله ، وفي هذا الحديث ذكر أن الخزانة المشية ولا جائز أن يكون الإمام يصرف المشية أو يتصرف فيها لنجعل أنهم أولياء الخزانة لأن الإمام عليه السلام لا يجد لنفسه اعتباراً مع المشية بل هو يتقلب في مشية الله كيف شاء لا مشية له ولا أنهم عين المشية ليكونوا عين الخزانة، ولكنهم أبواب المشية ومفاتيح الاستفاضة منها لأنهم أعضاد العباد، وروي عن السجاد عليه السلام في تفسير قوله تعالى(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُه) (أن في العرش تمثال جميع ما خلق الله من البر والبحر)، وهذا الحديث يدل بما يحتمل على الوجوه الثلاثة.

الأول: أن العرش هو الخزانة وهم مفاتح الاستفاضة وأعضاد الفيض.

والثاني: أنهم ولاة ذلك الفيض المقدرون له وأولوا الوساطة في قوام الفيض والمستفيض.

والثالث: أن العرش هو قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقلوبهم عليهم السلام فهم تلك الخزانة،والعلم الذي هم خزانه العلم الحادث وهو علم موجود بالمعنى المتعارف وهو قوله تعالى(وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء) يعني أن ما لم يشأ من علمه أن يعلموه لا يحيطون به،وليس المراد بهذا العلم الذي لا يحيطون بشيء منه هو القديم الذي هو الذات ليكون المعنى ولا يحيطون بشيء من ذاته إلاّ بما شاء أن يحيطوا به منها وهذا معنى باطل بل المراد به شيئان أحدهما أن العلم الحادث الذي هو غير الذات منه ممكن مقدور غير مكوّن ومنه تكوين ومنه مكوّن،فالممكن المقدور غير المكوّن هو الممكنات قبل أن تكسى حلة الوجود في جميع مراتب الوجود، فهذه لم تكن مشاءة إلا في إمكانها فهذا لا يحيطون بشيء منه

إحاطة وجود ويحيطون به إحاطة إمكان لأنه إذ ذاك مشاء مشية إمكان والتكوين الممكن وهذا يحيطون به لأنه مشاء بنفسه وهم محال ذلك.

والمكوّن قسمان: مكوّن مشروط ومكوّن منجز والمكون المشروط يحيطون به لأنه مشاء ولا يحيطون بالشرط إلا بعد أن يكون مشاءً ، والمكون المنجز يحيطون به ثم ما كانوا يحيطون به قسمان:

قسم كان وهم يحيطون به أنه كان ولا يحيطون به أنه مستمر أو منقطع إلا إحاطة إخبار.

وقسم لم يكن فهم يحيطون به إحاطة إخبار أيضاً لا إحاطة عيان.

فظهر لمن نظر وأبصر من هذا التفصيل أنهم عليهم السلام لا يحيطون بشيء من علمه الذي هو غير ذاته إلا بما شاء أن يحيطوا به والذي شاء أن يحيطوا به ما سمعته في هذا التفصيل فافهم.

وثانيهما أن ما أحاطوا به وعلموه لم يكونوا علموا شيئاً منه إلا بتعليم الله سبحانه ولم يكن تعليمه لهم أنه أعلمهم ورفع يده عنهم فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى الله تعالى عن إمكان استغناء شيء عنه علواً كبيراً بل ما علموه إنما هو بتعليم الله لهم في لحظة بمعنى أنهم إذا علموا أن غداً تطلع الشمس إن شاء الله تعالى ما ملكوا من هذا العلم شيئاً إلا لحظة علمهم بذلك حين علموا لا قبلها ولا بعدها ولم يعلموا بعد تلك اللحظة ما علموه من أن الشمس تطلع غداً إن شاء الله تعالى إلا بتعليم جديد من الله تعالى كما هو حال المحتاج إلى الغنى المطلق وذلك التعليم الدائم القائم حين يكون هو ما شاء الله وهو الذي يحيطون به وهو ما ملكوه من العلم(العلوم) فافهم، فإنه دقيق لطيف رشيق.

والعلم الذي هم خزّانه(هو خزانته) هو هذان الشيئان من العلم على نحو ما ذكرنا لا غير.

ففي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال (و الله إنا لخزّان الله في سمائه وأرضه لا على ذهب ولا فضة إلا على علمه).

وفيه عَنْ سَدِيرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَال (قُلتُ لهُ جُعِلتُ فِدَاكَ مَا أَنْتُمْ قَال نَحْنُ خُزَّانُ عِلم اللهِ وَنَحْنُ تَرَاجِمَةُ وَحْيِ اللهِ وَنَحْنُ الحُجَّةُ البَالغَةُ عَلى مَنْ دُونَ السَّمَاءِ وَمَنْ فَوْقَ الأَرْضِ).

وفيه عن ابْنِ أَبِي يَعْفُورٍ قَال قَال أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام (يَا ابْنَ أَبِي يَعْفُورٍ إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ مُتَوَحِّدٌ بِالوَحْدَانِيَّةِ مُتَفَرِّدٌ بِأَمْرِهِ فَخَلقَ خَلقاً فَقَدَّرَهُمْ لذَلكَ الأَمْرِ فَنَحْنُ هُمْ يَا ابْنَ أَبِي يَعْفُورٍ فَنَحْنُ حُجَجُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَخُزَّانُهُ عَلى عِلمِهِ وَالقَائِمُونَ بِذَلكَ).

وفيه عَنْ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِي الحَسَنِ مُوسَى عليه السلام (إِنَّ اللهَ تَعَالى خَلقَنَا فَأَحْسَنَ خَلقَنَا وَصَوَّرَنَا فَأَحْسَنَ صُوَرَتَنَا وَجَعَلنَا خُزَّانَهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ وَلنَا نَطَقَتِ الشَّجَرَةُ وَبِعِبَادَتِنَا عُبِدَ اللهُ عَزَّ وَجَل وَ لوْلانَا مَا عُبِدَ اللهُ). وأمثال ذلك كثير ومعنى الخزّان ما مر عليك والمراد من العلم المخزون عندهم ما سمعت.

قال عليه السلام ومنتهى الحلم

المنتهى هو الغاية التي ليس وراءها للشيء المنتهي ذكر غير أنه مقدور والحلم عدم المسارعة إلى المعاقبة مع القدرة، وذلك يكون عن العلم بالعواقب فيؤخر العقوبة إمّا لكرم النفس وذلك هو العفو والتجاوز والمسامحة قال الله تعالى (وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) فقد مدح العفو عن الناس بأكمل مدح قال(وَاللهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ)فجعلهم أهل محبته وإمّا للعلم بعدم الفوات وذلك هو الأناة وعدم الاستعجال، وفي الدعاء (وإنما يعجل من يخاف الفوت والتؤدة) وهو التأني والتثبت في الأمور والتأني عدم المبادرة في الأمور بلا روية، وهو يثمر العلم بالأصلح وأما لكون عدم المسارعة أبلغ في الانتقام كما أشار إليه سبحانه بقوله الحق (قُل للذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا للذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُون)فأمر الله نبيه أن يأمر المؤمنين بعدم الانتقام من المجرمين لأنهم إذا انتقموا منهم لم يكن لهم حق فإذا أعرضوا عن القصاص جازاهم الله بأعمالهم والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وهو من العلم وفيما أجاب به النبي ﷺ لشمعون بن لاوي بن يهودا من حواريّ عيسى عليه السلام حين سأله عن العقل إلى أن قال ﷺ (فتشعب من العقل الحلم ومن الحلم العلم ومن العلم الرشد ومن الرشد العفاف ومن العفاف الصيانة ومن الصيانة الحياء ومن الحياء الرزانة ومن الرزانة المداومة على الخير ومن المداومة على الخير كراهة الشر ومن كراهة الشر طاعة الناصح فهذه عشرة أصناف من أنواع الخير ولكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع فأما الحلم فمنه ركوب الجميل وصحبة الأبرار ورفع من الضعّة ورفع من الخساسة وتشهي الخير وتقرب صاحبه من معالي الدرجات والعفو والمهل والمعروف والصمت فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه.

وأما العلم فيتشعب منه الغنى وإن كان فقيرا والجود وإن كان بخيلا والمهابة وإن كان هينا والسلامة وإن كان سقيما والقرب وإن كان قصيا والحياء وإن كان صلفا والرفعة وإن كان وضيعا والشرف وإن كان رذلا والحكمة والحظوة فهذا ما يتشعب للعاقل بعلمه فطوبى لمن عقل وعلم.

وأما الرشد فيتشعب منه السداد والهدى والبر والتقوى والمنالة والقصد

والاقتصاد والثواب والكرم والمعرفة بدين الله فهذا ما أصاب العاقل بالرشد فطوبى لمن أقام به على منهاج الطريق.

وأما العفاف فيتشعب منه الرضا والاستكانة والحفظ والحظ والراحة والتفقه والتفقد والتعقل والخشوع والتذكر والتفكر والجود والسخاء فهذا ما يتشعب للعاقل بعفافه ورضي بالله وبقسمه.

وأما الصيانة فيتشعب منها الصلاح والتواضع والورع والإنابة والفهم والأدب والإحسان والتحبب والخير واجتناب الشر فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصيانة.

وأما الحياء فيتشعب منه اللين والرأفة والمراقبة لله في السر والعلانية والسلامة واجتناب الشر والبشاشة والسماحة والظفر وحسن الثناء على المرء في الناس فهذا ما أصاب العاقل بالحياء فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته.

وأما الرزانة فيتشعب منها اللطف والحزم وأداء الأمانة وترك الخيانة وصدق اللسان وتحصين الفرج واستصلاح المال والاستعداد للعدو والنهي عن المنكر وترك السفه فهذا ما أصاب العاقل بالرزانة فطوبى لمن توقر ولمن لم تكن له خفة ولا جاهلية وعفا وصفح .

وأما المداومة على الخير فيتشعب منه ترك الفواحش والبعد من الطيش والتحرج واليقين وحب النجاة وطاعة الرحمن وتعظيم البرهان واجتناب الشيطان والإجابة للعدل وقول الحق فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير فطوبى لمن ذكر ما أمامه وذكر قيامه واعتبر بالفناء .

وأما كراهية الشر فيتشعب منه الوقار والصدق والنصر والصبر والاستقامة

على المنهاج والمداومة على الرشاد والإيمان بالله والتوقير والإخلاص وترك ما لا يعنيه والمحافظة على ما ينفعه فهذا ما أصاب العاقل بالكراهة للشر فطوبى لمن أقام الحق لله وتمسك بعرى سبيل الله.وأما طاعة الناصح فيتشعب منها الزيادة في العقل وكمال اللب ومحمدة العواقب والنجاة من اللوم والقبول والمودة والإسراج والإنصاف والتقدم في الأمور والقوة على طاعة الله تعالى فطوبى لمن سلم من مصارع الهوى فهذه الخصال كلها تشعبت من العقل)الحديث.

أقول: إن الحلم تشعب من العقل وما بعده تشعب منه فهذه مائة خصلة تشعبت من الحلم وكل واحدة من هذه الخصال المائة لها مراتب باعتبار اختلاف مراتب من اتصف بها وعملها وقد قاموا عليهم السلام بجميع مراتب هذه الخصال على أعلى حدود الممكن منها، فهم منتهى الحلم وإنما جمعوا تلك المراتب بجميع نهاياتها لأنها كلها قد تشعبت من العقل الكامل ولم يكمله الله إلا فيمن يحب وهم صلى الله عليهم أجمعين أهل محبة الله وربما يطلق على العقل لتشعبه منه فهذه فروع الحلم في الشهادة وأصولها في الغيب وهم عليهم السلام منتهى طرفيه فافهم.

قال عليه السلام وأصول الكرم

أصول: جمع أصل وهو ما يبتني عليه الشيء والكرم: هو سخاء النفس بما تحب فيدخل فيه القيام بأوامر الله ونهيه ومنه قوله تعالى(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) أي أشدكم تقوى لله سبحانه ثم الكرم الذي هو السخاء وبذل الفواضل للمستحقين له مراتب أعلاها في الإمكان الراجح وهم في هذا المقام محاله ثم هم بعد ذلك هم أصول الكرم يعني ينابيعه ومفاتيحه وفي الدرة الباهرة من أصداف

الطاهرة في كلام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام (وأسباطنا خلفاء الدين وحلفاء اليقين ومصابيح الأمم ومفاتيح الكرم فالكليم ألبس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة) فقوله عليه السلام (مفاتيح الكرم) يراد به كونهم محال ذلك الكرم فعنهم يصل إلى غيرهم، فلذا كانوا مفاتيح الكرم وكذا قوله عليه السلام (فالكليم ألبس حلة الإصطفاء) يعني أن موسى عليه السلام لما عهدنا إليه بولايتنا والتسليم لنا والرد إلينا فأجاب ووفى لنا وعهدنا ذلك منه جعلناه من المصطفين الأخيار (وروح القدس) المعبر عنه بالعقل الأول عند الحكماء وبالعقل والقلم والحجاب الأبيض وما أشبه ذلك عند أهل الشرع عليه السلام أول من أكل من باكورة ثمار الجنان التي غرسناها بأيدينا، فإن تلك الحدائق التي في جنان الصاقورة غرسوا فيها من كل شيء فأول ما نبت روح القدس ومعناه ظاهراً أنه لما فاض الوجود على أرض القابليات كان أول ما وجد هو العقل الأول المسمى بروح القدس لا جبرائيل عليه السلام وإن كان يسمى بروح القدس كما قال تعالى (قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ)بقرينة(نزَل بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلى قَلبِكَ)ومعنى قوله (وروح القدس في جنان الصاقورة) أي في أعلى عليين من الجنان والصاقورة في اللغة باطن القحف المشرف على الدماغ والسماء الثالثة والمراد به هنا العرش لأنه هو سقف الجنان وهو من الوجود كقحف الرأس على الدماغ، وكان روح القدس أول من وجد في الجنة والجنة أول الموجودات والباكورة أول الثمرة والمراد أن أول من قبل الإيجاد روح القدس وهو ذوقه الباكورة وفي بعض الأخبار أنه أول غصن من شجرة الخلد فهم أصل ذلك الفيض فمن الكرم الذي به كانوا هم تكرموا على روح القدس

بوجوده وبما أودع فيه حين قال الله له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر فأفاض روح القدس من الكرم الذي حملوه على جميع الموجودات بوجوداتها فخرج كل شيء يحمد الله على نعمه ويشكره على آلائه وهم عليهم السلام آلاؤه ونعمه وإحسانه على جميع من دونهم وهو تأويل قوله تعالى (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إنه كان حليماً) ، على من قصّر في ولايتهم غير معاند ولا مستكبر (غَفُورًا)لمن تاب واتبع سبيله وفي الزيارة الجامعة الصغيرة (يُسَبِّحُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ جَمِيعُ خَلقِهِ وَالسلام على أَرْواحِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ) فقولنا سابقاً أعلاها في الإمكان الراجح إن ما وراء ذلك من الكرم الذاتي يتعالى عن البيان والنسبة إلى المكان وما دون ما في الإمكان الراجح من الكرم فهم صلوات الله عليهم أصوله وإلى ما لوحنا إليه في هذه الإشارات بقول علي عليه السلام (أنا فرع من فروع الربوبية) وقد قلت في قصيدتي في مرثية الحسين عليه السلام بيتاً يناسب ذكره هنا وهو:

وراحتا الدهر من فضفاض جودهم

مملوءتان وما للفيض تعطيل

أي أن راحتي الدهر من جودهم الفياض على قابليات الممكنات بواسطة الدهر أو أن المراد بالدهر أهلوه مملوئتان وفيض جودهم على القابليات لا تعطيل له أبد الأبدين ودهر الداهرين وصلى الله على محمد وآله الأكرمين الطيبين الطاهرين.

قال عليه السلام وقادة الأمم

القادة: جمع قائد وهو الجاذب للشيء إلى غايةٍ والجار إليه وفي الحديث عن علي عليه السلام (قريش قادة ذادة ، أي يقودون الجيش(الجيوش).

والأمم: جمع أمّة والمراد بها هنا جماعة من الخلق أرسل إليهم نذير وإنما قلنا من الخلق لأن الأمة لا تختص بالإنسان ولهذا قال تعالى(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)فيكون كل جماعة من الخلق من الإنسان وغيره أمة (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ) فدل الكتاب على ما يدل العقل عليه من أن كل جماعة أمة فقوله عليه السلام (وقادة الأمم) إنهم عليهم السلام قادة الأمم إلى معرفة الله ودينه، فمن أجاب قادوه إلى المعرفة لأنهم يقودون الشخص بدعائهم وتعريفهم وأمرهم وترغيبهم إلى المعرفة والدين، فمن أجاب قادوه بالمعونة والتأييد بالمدد والدعاء فإذا استجاب وعمل قادوه إلى الجنة وإن لم يجب ساقوه بإنكاره وعدم قبوله إلى عدم الاستجابة فإن لم يعمل بما أمِرَ به كما لم يقبل في الدعاء ساقوه إلى الإنكار وذادوه بإنكاره عن الإقرار ودَعوه إلى نار جهنم وبئس المصير فهم المعلمون للأمم في كل عالم، فهم الداعون الهادون لكل خلق النجدين طريق الخير وطريق الشر فلا يهتدي أحد إلا بهداهم ولا يضل ضال بخروجه عن الهدى إلا بترك ولايتهم يدل على هذا ما روي في الكافي (عَنْ أَبِي الصَّامِتِ الْحُلْوَانِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ (فَضْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا جَاءَ بِهِ آخُذُ بِهِ وَ مَا نَهَى عَنْهُ أَنْتَهِي عَنْهُ جَرَى لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مَا لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَالْفَضْلُ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم الْمُتَقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْمُتَقَدِّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِ كَالْمُتَفَضِّلِ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَالرَّادُّ عَلَيْهِ فِي صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ عَلَى حَدِّ الشِّرْكِ بِاللهِ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بَابُ اللهِ الَّذِي لا يُؤْتَى إِلا مِنْهُ وَسَبِيلُهُ الَّذِي مَنْ سَلَكَهُ وَصَلَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَلِكَ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مِنْ بَعْدِهِ وَجَرَى لِلأَئِمَّةِ عليهم السلام وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ جَعَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْكَانَ

الأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا وَعُمُدَ الإِسْلامِ وَرَابِطَةً عَلى سَبِيلِ هُدَاهُ لا يَهْدِي هَادٍ إِلا بِهُدَاهُمْ وَلا يَضِلُّ خَارِجٌ مِنَ الْهُدَى إِلاَ بِتَقْصِيرٍ عَنْ حَقِّهِمْ أُمَنَاءُ اللهِ عَلى مَا أَهْبَطَ مِنْ عِلمٍ أَوْ عُذْرٍ أَوْ نُذْرٍ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلى مَنْ فِي الأَرْضِ يَجْرِي لآخِرِهِمْ مِنَ اللهِ مِثْلِ الذِي جرَى لأَوَّلِهِمْ وَلا يَصِلُ أَحَدٌ إِلى ذَلِكَ إِلا بِعَوْنِ اللهِ وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَا قَسِيمُ اللهِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لا يَدْخُلُهَا دَاخِلٌ إِلا عَلى حَدِّ قَسْمِي).

وبالجملة هم عليهم السلام قادة الأمم لأنهم يقودونهم إلى أعمالهم بتيسير ما خُلقوا له بأسباب الألطاف المعينة على الخيرات والمانعة من الشرور إعانة لا تبلغ حد الإلجاء ومنعاً لا يرفع الاختيار وذادة الخلائق يذودونهم عما لم يتيسروا له فيذودون المؤمنين عمّا لا يحب الله بطاعتهم لهم، وبولايتهم لهم ويذودون الكافرين والمنافقين عما يحب الله تعالى بمعصيتهم وتركهم ولايتهم وقول محمد بن علي عليه السلام المتقدم (لا يَهْدِي هَادٍ إِلا بِهُدَاهُمْ) يدل على أن جميع من سواهم من الهداة من الأنبياء والمرسلين والأولياء والأوصياء والصالحين والملائكة المقربين لا يهدى أحد منهم أحداً من الخلق إلا بهداهم عليهم السلام وهم يهدون بالحق من الله سبحانه وقوله عليه السلام (وَلا يَضِلُّ خَارِجٌ مِنَ الْهُدَى إِلا بِتَقْصِيرٍ عَنْ حَقِّهِمْ) ، يدل على أن الهداية لا تمكن لأحد من الخلائق (الخلق) بدونهم فإذا تأخر عنهم أحد تأخر عن الهدى بعين تأخره عنهم وكذا المتقدم عليهم فعين التقدم عليهم والتأخر عنهم ضلالة الطريق أي الطريق إلى الله لأنهم السبيل الأعظم كما يأتي في الزيارة فإذا قصر في حقهم قصّر في الطريق إلى الله فحقت عليه الضلالة فجعل الهداية بهم والضلالة بالضلال عنهم، فالهدى ينسب إليهم لأنهم أصل الهدى والضلالة تنسب إلى نفسها كما قال تعالى(فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ)فأسند

الهداية إليه سبحانه وذلك بهم عليهم السلام وأسند الضلالة إلى نفسها لأنها مفارقتهم عليهم السلام وقال الله تعالى(يَوْمَ نَدْعُو كُل أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)فيدعى المؤمنون بهم فيتبعونهم فيذهبون بهم إلى رضوان الله حيث ذهبوا ويُدعى الضالون بأئمة الضلال فيتبعونهم وكل يتبرأ من الآخر ويلعن بعضهم بعضاً فيذهبون بهم إلى سخط الله حيث ذهبوا فهم عليهم السلام القادة الذادة كما مر صلى الله عليهم أجمعين.

قال عليه السلام وأولياء النعم

الأولياء: جمع ولي وهو المتصرف الذي يدبّر الأمور.

وفي الكافي في تفسير قوله تعالى (إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالذِينَ آمَنُوا)الآية، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام (يَعْنِي أَوْلى بِكُمْ أَيْ أَحَقُّ بِكُمْ وَ بِأُمُورِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالذِينَ آمَنُوا يَعْنِي عَلِيّاً وَأَوْلادَهُ الأَئِمَّةَ عليهم السلام إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ).

أقول: اعلم أن الله سبحانه خلقهم وجعلهم خزائن كرمه وخلق الخلق لهم، كما روي عن علي عليه السلام في حديث منه (نحن صنائع ربنا والخلق بعد صنائعنا)أي بعد أن خلقنا وصنعنا لنفسه صنع لنا الخلق فهم أولياء الله على خلقه ولله سبحانه نعم على العباد لا تحصى كما قال تعالى(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا)وجعل آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم خزائن كرمه وأولياء نعمه والنعم منها غيب، ومنها شهادة ومنها ظاهرة ومنها باطنة ومرادنا بالغيب والشهادة نعم الوجود وبالظاهرة والباطنة نعم التكليف والأول يلزمه الشرع والثاني يلزمه الوجود فمن النعم في الغيب خلقه للشخص مثلاً في مراتبه ونقله من مرتبة إلى مرتبة من أصل الماء الأول إلى أن وصل به إلى رتبة البشر في الشهادة كما قال سبحانه(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي

رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلقَةٍ)فوضعه في كل مرتبة وتربيته وتغذيته ولطفه بتدبيره وإمداده بما يصلحه ودفع ما يضرّه ويفسده فإذا بلغ فيها تمامه فيها نقله إلى طور آخر كما أشار إليه سبحانه بقوله(مَّا لكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ٭ وَقَدْ خَلقَكُمْ أَطْوَارًا)فخلقه نطفة معنوية ثم نطفة ظلية ثم نطفة صورية ثم نطفة طبيعية ثم مادية ثم مثالية فهذه ستة أطوار ثم إلى الملائكة ثم إلى الريح ثم إلى السحاب ثم إلى الماء ثم إلى الأرض ثم إلى النبات من الفواكه والبقول وما أشبه ذلك، فهذه ستة أطوار ثم إلى النطفة ثم إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم إلى العظام ثم إلى تمام الخلقة ثم إلى الحياة فهذه ستة أطوار، فخلقه سبحانه في ظلمات ثلاث كل ظلمة في ستة أطوار فهذه ثمانية عشر عالماً في الغيب والشهادة فهذه كلها نعم من الله لا تحصى خلقهم عليهم السلام وأقامهم أعضاداً لخلقه وحججاً على بريته وجعل إليهم إيصال ما يريد أن يصل من جوده وكرمه وإحسانه ونعمه إلى من يشاء من خلقه، لأن الخلق بدونهم لا يقدرون على القبول منه بغير الواسطة كما أشار علي عليه السلام في خطبة الغدير في ذكر النبي البشير النذير صلى الله عليه وآله وسلم قال عليه السلام (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه بأنه انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس وانتجبه آمرا وناهيا عنه أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه إذ كان لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار) فقوله عليه السلام (أقامه في سائر عالمه في الأداء)يشير إلى ما ذكرنا من أنه سبحانه جعل إليهم إيصال ما يريد أن يصل من جوده الخ.

وتقدم في حديث أبي جعفر عليه السلام في ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (بَابُ اللهِ الذِي لا

يُؤْتَى إِلا مِنْهُ) إلى أن قال (وَكَذَلكَ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مِنْ بَعْدِهِ وَجَرَى للأَئِمَّةِ عليهم السلام وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ ...الخ).

ومن النعم الظاهرة إرسال الأنبياء وتأمير الأوصياء واستحفاظ الحفظة واستخلاف الخلفاء، وإنابة العلماء وإقامة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمعلمين والمرشدين للمسترشدين وكذلك جميع الدعاة إلى الله وإلى ما يحب ولا ريب عند من يعرف الولي أن هذا الارسال والتأمير والاستحفاظ وما بعدها أنها آثار الولي للطف بالمكلفين وهي أعظم النعم.

والنعم الباطنة العقول التي بها تحصل المعارف والجيد والردي والخير والشر والناصح والغاش والمصلح والمفسد والضار والنافع في العاجلة والآخرة وهذه العقول لحظات عنايات من الولي ومناداة للمكلفين من الجانب اليمين وهي أعظم النعم وأنفعها لمن لم يخالف مقتضياتها بل هو النور الذي يمشى به في ظلمات النفوس من شهواتها وغواسق إنّيّاتها وظلمات الطبائع والمواد الجسمانية.

وإلى كون الأنبياء والداعين إلى الله النعم الظاهرة وكون العقول النعم الباطنة أشار صريح قوله تعالى(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)فالظاهرة الأنبياء والرسل والباطنة العقول كذا في الخبر وورد أيضا في تفسير قوله تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)أنه العقل وأطلق الرسول على العقل كما أطلق العقل على الرسول وكلما سمعت وما لم تسمع فمن تدبير الولي لمصالح غنمه وذلك لأن النعم المتأصلة في الحقيقة هم عليهم السلام روي في الكافي عَنِ الأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ قَالَ (قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا بَالُ أَقْوَامٍ غَيَّرُوا سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَعَدَلُوا عَنْ وَصِيِّهِ لا يَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ

كُفْراً وَأَحلوا قَوْمَهُمْ دارَ البَوارِ جَهَنَّمَ) ثُمَّ قَال نَحْنُ النِّعْمَةُ التِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلى عِبادِهِ وَبِنَا يَفُوزُ مَنْ فَازَ يَوْمَ القِيَامَة).

وأما من سواهم من الأخيار والخيرات من الأعمال الصالحات من كل ما يجب أن يكون فذلك من كرمهم وإحسانهم وفواضل طاعاتهم وحسناتهم وذلك كله ولايتهم ومن ولايتهم وهم أولياء ذلك كله.

وفي الكافي عَنْ أَبِي يُوسُفَ البَزَّاز قَال (تَلا أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام هَذِهِ الآيَةَ (فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ) قَال أَ تَدْرِي مَا آلاءُ اللهِ، قُلت: لا، قَال: هِيَ أَعْظَمُ نِعَمِ اللهِ عَلى خَلقِهِ وهِيَ وَلايَتُنَا).

والمراد بولايتهم هي طاعة الله في كل ما يريد من عباده من المعتقدات والأعمال والأخلاق والأقوال وغير ذلك من الواجبات والمندوبات وكلها نعم الله على عباده ومن نعمه العظمى محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فإن إيجادات الخلق وما تضمنت من الشرعيات وتكاليف المكلفين وما تضمنت من الوجودات كلها آثارهم وهم النعم التي لا تحصى، وهي نعم جليلة لا يقوم بها خلق بل كل خلق مقصرون فيها عاجزون عن أداء شكرها وهم أولياء هذه النعم التي عجز عن أداء شكرها الخلائق أجمعون وهي ممادحهم وفضائلهم مكتوبة في الألواح من الأجسام والأشباح والنفوس والأرواح كل يسبح بحمد ربه بما أوتي.

وفي الاحتجاج للطبرسي (سأل يحيى بن أكثم أبا الحسن العالم عليه السلام عن قوله تعالى (سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ) ما هي فقال هي عين الكبريت وعين اليمن وعين أبرهوت وعين الطبرية وجمة ماسيدان وجمة إفريقا وعين بلعوران (ناجروان) ونحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا ولا تستقصى)فأخبر عليه السلام بأن

هذه الأبحر السبعة التي يكنّى بها عن أقسام الموجودات من الغيب والشهادة وما بينهما من البرازخ والنور والظلمة وما بينهما من البرازخ والجامع لها كلها تفنى ولا تدرك فضلنا ولا تحيط به لأن كل بحر إنما يعد ما فيه من النعم فهذه آياتهم تتلى بألسنة عاجزة عن أداء شكرها لأن شكرها مزيد نعم جديدة وآلاء عديدة ولله در الشاعر حيث يقول شعرا:

كلما قلت أعتق الشكر رقي
جعلتني لك المكارم عبداً
أين مهل الزمان حتى أؤدي
شكر إحسانك الذي لا يؤدى

أقول: إن فيما أشرت إليه وكررت كفاية بيّنة لقوم يعقلون أنهم أولياء النعم، فإن بهم ينزل المطر وبهم تنبت الأرْض بركاتها فإن أبصرت لم تسمع إلا أصوات الشاكرين لتلك ولا ترى إلا أشباح المادحين هذا في التكويني .

وفي التدويني كذلك فإن في سورة النحل خاصة نحو إحدى وسبعين نعمة قد ملئت بالواحدة الدنيا وما فيها فانظر تجد .

قال عليه السلام وعناصر الأبرار

العناصر: جمع عنصر كقنفذ وقد تفتح الصاد وهو الأصل ومنه هذا ويستعمل في النسب ومنه لا يخالطه يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عنصره سفاح أي لا يخالطه في نسبه زناً لأن النسب أصل للشخص وفي الكبد ومنه الحديث (خَشُنَ عُنْصُرُهُ (أي) غَلظَ كَبِدُهُ).

والأبرار: جمع بَرّ بفتح الباء كسَبعْ جمعه أسباع وعُشر جمعه أعشار والبر بمعنى البار والأبرار الصادقون، وأولياء الله المطيعون والزهاد والعباد وفاعلوا الخيرات والمطهرون من الكبائر والأئمة عليهم السلام هم عناصر الأبرار من وجهين.

أحدهما: أن الأبرار هم شيعتهم من المرسلين والأنبياء والأوصياء والصالحين والملائكة، وإنما سموا شيعة لأنهم خلقوا من شعاعهم أو من المشايعة أي المتابعة لأنهم يتابعونهم في أقوالهم وأفعالهم فمنهم من خلقت روحه من شعاع أرواحهم كالأنبياء والمرسلين والمراد أنها خلقت من فاضل ضياء أرواحهم ومنهم من خُلقت روحه من فاضل طينة صورهم كالأوصياء ومنهم من خُلقت روحه من فاضل طينتهم كالمؤمنين الصالحين روي في الكافي بسنده عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَال سَمِعْتُهُ يَقُول (إِنَّ اللهَ خَلقَنَا مِنْ نُورِ عَظَمَتِهِ ثُمَّ صَوَّرَ خَلقَنَا مِنْ طِينَةٍ مَخْزُونَةٍ مَكْنُونَةٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ فَأَسْكَنَ ذَلكَ النُّورَ فِيهِ فَكُنَّا نَحْنُ خَلقاً وَبَشَراً نُورَانِيِّينَ لمْ يَجْعَل لأَحَدٍ فِي مِثْل الذِي خَلقَنَا مِنْهُ نَصِيباً وَخَلقَ أَرْوَاحَ شِيعَتِنَا مِنْ طِينَتِنَا وَأَبْدَانَهُمْ مِنْ طِينَةٍ مَخْزُونَةٍ مَكْنُونَةٍ أَسْفَل مِنْ ذَلكَ الطِّينَةِ وَلمْ يَجْعَل اللهُ لأَحَدٍ فِي مِثْل الذِي خَلقَهُمْ مِنْهُ نَصِيباً إِلا للأَنْبِيَاءِ وَلذَلكَ صِرْنَا نَحْنُ وَهُمُ النَّاسَ وَصَارَ سَائِرُ النَّاسِ هَمَجٌ للنَّارِ وَإِلى النَّارِ).

فقوله عليه السلام (مِنْ نُورِ عَظَمَتِهِ) إشارة إلى أرواحهم التي خُلقت أرواح المرسلين والأنبياء من فاضل أرواحهم وخلقت أرواح الأوصياء من فاضل طينة صورهم وخلقت أرواح المؤمنين الصالحين من فاضل طينتهم أي أجسامهم النورانية.

وفي الكافي عَنْ مُحَمَّدِ بْن عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالبٍ عليه السلام عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَال (إِنَّ اللهَ كَانَ إِذْ لا كَانَ فَخَلقَ الكَانَ وَالمَكَانَ وَخَلقَ الأنوار وَخَلقَ نُورَ

الأَنْوَارِ الذِي نُوِّرَتْ مِنْهُ الأَنْوَارُ وَأَجْرَى فِيهِ مِنْ نُورِهِ الذِي نُوِّرَتْ مِنْهُ الأَنْوَارُ وَهُوَ النُّورُ الذِي خَلقَ مِنْهُ مُحَمَّداً وَعَلِيّاً فَلمْ يَزَالا نُورَيْنِ أَوَّلَيْنِ إِذْ لا شَيْءَ كُوِّنَ قَبْلَهُمَا فَلمْ يَزَالا يَجْرِيَانِ طَاهِرَيْنِ مُطَهَّرَيْنِ فِي الأَصْلابِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى افْتَرَقَا فِي أَطْهَرِ طَاهِرَيْنِ فِي عَبْدِ اللهِ وَأَبِي طَالب عليه السلام) .

أقول: الظاهر أن المراد بنور الأنوار الذي نوِّرت منه الأنوار، هو الماء الأول الذي به حياة كل شيء وهو مس النار الذي تعلق بالزيت الذي يكاد يضيء فكان منهما العقل الأول الذي هو القلم الأعلى ويحتمل أن يكون هذا النور المشار إليه هو هذا العقل فإنه قد نورت منه الأنوار الروحية والنفسية والطبعية ولا يجوز أن يكون هذا النور المشار إليه هو المشية لأن المشية لا يخلق منه المخلوق وإنما يخلق به وهذا النور المشار إليه قال عليه السلام (وَهُوَ النُّورُ الذِي خَلقَ مِنْهُ مُحَمَّداً وَعَلِيّاً) ونور محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام إنما يطلق على الماء الأول أو العقل الأول.

وفيه (عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ قَالَ لِي أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام يَا جَابِرُ إِنَّ اللهَ أَوَّلَ مَا خَلقَ خَلقَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم وَعِتْرَتَهُ الهُدَاةَ المُهْتَدِينَ فَكَانُوا أَشْبَاحَ نُورٍ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ قُلتُ وَمَا الأَشْبَاحُ قَالَ ظِلُّ النُّورِ أَبْدَانٌ نُورَانِيَّةٌ بِلا أَرْوَاحٍ وَكَانَ مُؤَيَّداً بِرُوحٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ رُوحُ القُدُسِ فَبِهِ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ وَعِتْرَتَهُ وَلِذَلكَ خَلقَهُمْ حُلمَاءَ عُلمَاءَ بَرَرَةً أَصْفِيَاءَ يَعْبُدُونَ اللهَ بِالصَّلاةِ وَالصَّوْمِ وَالسُّجُودِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيل وَيُصَلونَ الصَّلوَاتِ وَيَحُجُّونَ وَيَصُومُونَ) .

أقول الظاهر أن المراد بالأشباح مثالهم وهو ظل النور الذي هو نفوسهم وتلك الأشباح أبدان نورانية، والدليل على أن تلك الأشباح هي مثالهم قوله عليه السلام (بلا أرواح) ولعل هذه الأبدان النورانية التي بلا أرواح هي التي سميناها بأجسامهم التي خلق من فاضلها أرواح المؤمنين الصالحين.

وبالجملة إنهم أصل الأبرار من كل من سواهم فمادة وجودهم من فاضل نور محمد ﷺ وصورتهم الناطقة من فاضل صورة علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام قال ﷺ (يا علي أنا و أنت أبوا هذه الأمة) فمن فاضل نور محمد ﷺ خُلقت موادهم التي هي الأب ومن فاضل نور علي عليه السلام الذي هو الرحمة صبغهم بصبغة الإيمان وهي الصورة وهي الأم، وعن الصادق عليه السلام (إن الله تعالى خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته فالمؤمن أخ المؤمن لأبيه وأمه أبوه النور وأمه الرحمة)فالأبرار خلقوا من أشعة أنوارهم فهم أصل الأبرار بهذا المعنى.

والثاني: إن الأبرار كانوا في أصل خلقهم كغيرهم قال الله تعالى(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ) الآية وبيان ذلك أن الخلائق في عالم الذر كانوا سواء في التكليف بمعنى أن كل واحد متمكن من الاستجابة والامتناع باختياره على اختلاف مراتبهم في القرب والبعد من المبدأ الفياض، وفي النور والظلمة فأمر الله نبيه ﷺ بأخذ الإقرار من الأنبياء فقال لهم: يقول الله لكم ألست بربكم ومحمد نبيكم وعلي وليكم وإمامكم والأئمة من ولده أولياؤكم وأئمتكم: قالوا؟ بلى آمنّا وصدّقنا وسلمنا واشهد بأننا مسلمون، ثم أمرهم أن يأخذوا من أممهم الإقرار بما أخذ منهم وكذلك الأوصياء والمرشدون والسفراء والمعلمون، فمن أجاب بقلبه ولسانه وعمل بما أمر به بجوارحه وأركانه فهم أبرار والسابقون منهم المقربون.

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام عن أبيه عن جده عليهم السلام أن رسول الله ﷺ قال لعلي (أنت الذي احتج الله بك في ابتدائه الخلق حيث أقامهم أشباحا فقال لهم أ لست بربكم قالوا بلى قال ومحمد رسولي قالوا بلى قال وعلي

أمير المؤمنين فأبى الخلق جميعا إلا استكبارا وعتوا عن ولايتك إلا نفر قليل وهم أقل القليل وهم أصحاب اليمين).

أقول: قد دل هذا الحديث وغيره مما هو أصرح منه أو مثله أن جميع الخلق إنما نجى من نجى بولايتهم والتسليم لهم والائتمام بهم وإنما هلك من هلك بتركهم الولاية ففي الظاهر أن الأبرار إنما كانوا أبراراً لأنهم توالوا بهم وتبرءوا من أعدائهم وأحبوهم وأطاعوهم واتبعوهم في طريقتهم وردوا الأمر إليهم وسلموا لهم فيما علموا وما لم يعلموا فبذلك كانوا أبراراً فهم أصل هدايتهم، وفي الحقيقة إنما قَبِل الأبرار هذه الأمور المذكورة لأنهم عليهم السلام هم أوردوهم ذلك وهم ذادوهم عن الخلاف وهم عفوا عن تقصيرهم وسدوا لهم الخلل وثبتوهم عن الزلل فالأبرار نالوا الخير بتيسيرهم وتحبيبهم الإيمان إليهم وتزيينه في قلوبهم وتكريههم الكفر والفسوق والعصيان إليهم فهم عليهم السلام أصل ما بَر به الأبرار أو هم أبروا الأبرار أي جعلوهم بأمر الله أبراراً أو حكموا عليهم ببرهم أنهم أبرار أو أنهم أدلاء العباد على البر فكان المتبعون لهم العاملون بما دَلوا عليه أبراراً حين أبرّوا لتَبرَّ شيعتهم باتباعهم أو تنبيههم أو بسوقهم وفي كل ذلك هم الأصل في ذوات الأبرار وصفاتهم وأفعالهم وإلى جميع ما ذكرنا يشير قول أبي جعفر عليه السلام رواه في كشف اليقين في حديث طويل إلى أن قال عليه السلام (وجعلهم (يعني الأئمة عليهم السلام) أئمة هدى ونورا في الظلم للنجاة واختصهم لدينه وفضلهم بعلمه وأتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين وجعلهم عمادا لدينه ومستودعا لمكنون سره وأمناء على وحيه ونجباء من خلقه وشهداء على بريته اختارهم الله وحباهم وخصهم واصطفاهم وارتضاهم وانتجبهم وانتقاهم وجعلهم للبلاد والعباد عمارا وأدلاء

للأمة على الصراط فهم أئمة الهدى والدعاة إلى التقوى) الحديث.

وفي هذا الحديث قبل هذه الكلمات قال عليه السلام (كانوا نورا مشرقا حول عرش ربهم فأمرهم فسبحوا فسبح أهل السماوات بتسبيحهم ثم أُهبطوا إلى الأرض فأمرهم فسبحوا فسبح أهل الأرض بتسبيحهم فإنهم لهم الصافون وإنهم لهم المسبحون فمن أوفى بذمتهم فقد أوفى بذمة الله ومن عرف حقهم فقد عرف حق الله)الحديث.

قال عليه السلام ودعائم الأخيار

الدعائم: جمع دِعامة بكسر الدال وهي عماد البيت والذي عليه استناد الشيء وبه قوامه ومنه الحديث (وَإنَّ لكُل شَيْ ءٍ دِعَامَةً وَدِعَامَةُ الإسْلام الشِّيعَةُ).

وفيه (دِعَامَةُ الإِسْلامِ العَقْل وَمِنْهُ الفِطْنَةُ وَالفَهْمُ وَالحِفْظُ وَالعِلمُ).

والدِّعامة أيضاً الأصَل الذي ينشأ عنه الفروع والأحوال وما يستند عليه الحائط لئلا يسقط وفي الدعاء (أسألك بِاسْمِكَ الذِي به دَعَمْتَ السَّمَاوَاتِ فَاسْتَقَلتْ) .

والأخيار: جمع خَيِّر بتشديد الياء ذو الدين والصلاح وهذه الفقرة كسابقه فإن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم هم دعامة كل خير وصلاح فإن شرط الإيمان ولايتهم وشرط التوحيد ولايتهم وشرط النبوة ولايتهم وشرط قبول الأعمال ولايتهم بل لا يكون الشخص العارف مُسلماً إلا إذا تولاهم والمراد بكون ولايتهم شرطاً للتوحيد والنبوة والإيمان وقبول الأعمال بل والإسلام أن هذه الأمور إنما هي عبارة عن ولايتهم حقيقة.

أما التوحيد فحقيقة تنزيه ذات الله عن الشريك في ذاته وصفته وفعله وعبادته ولا يتحقق في شيء من هذه الأربعة إلا بما أسسوه ودلوا عليه كما قال علي عليه السلام (نَحْنُ الأَعْرَافُ الذِي لا يُعْرَفُ اللهُ عَزَّ وَجَل إلا بِسَبِيل مَعْرِفَتِنَا)يعني يعرفنا لأننا معانيه وظاهره ويعرف بنا لأننا السبيل إليه وبابه وليس له سبيل غيرنا ولا باب إلا نحن، ويعرف بما بيّنا من صفته ووصفنا من الدليل عليه فكونهم معانيه وظاهره من ولايتهم وكونهم السبيل إليه وبابه الذي يؤتى منه من ولايتهم وكونهم معلمين للخلق وواصفين للحق من ولايتهم لأنها هي ولاية الله قال الله تعالى(فَاللهُ هُوَ الوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى)وقال تعالى (هُنَالكَ الوَلايَةُ للهِ الحَق)فهو الغنى المطلق بمعنى أنه يفتقر إليه كل ما سواه، لأن إثبات هذا المعنى لله سبحانه كمال وسلب الكمال نقص يمتنع في حق الواجب تعالى وهم عليهم السلام ظهروا بما شاء منه يعني أنهم هم مظهر ذلك الغني المطلق وهو جميع ما شاء الله منه لأنهم عليهم السلام محل مشيئته فهم محتاجون إليه سبحانه وهم به من دونه يحتاج إليهم كل شيء من عين أو معنى.

والتوحيد آية الله في الأنفس كما قال تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ)يعني حتى يتبين لهم أن الإمام هو الدليل إلى الله فلا يعرف الله إلا بسبيل معرفته على نحو ما أشرنا إليه من الوجوه الثلاثة، فظهر لمن عرف ما أشرنا إليه أن التوحيد من ولايتهم وهم دعامته كما قال الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب (فجعلتهم معادن لكلماتك وأركانا لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك .. الخ)ولا ريب أن الشيء لا يقوم ولا يتحقق إلا بأركانه.

وأما النبوة فلأنها إرسال وبعث إلى الرعية ولا شك أن ذلك لا يكون إلا من الولي والولي هو الله ومظهر الولاية في الخلق من الله فيهم فعن ولاية الله الظاهرة فيهم وبها أرسل الرسل وبعث الأنبياء لأن الولاية الأزلية هي ذاته جل وعلا والإرسال والبعث إنما يكون في الفعل وهو في الخلق فيجب أن يكون هذا البعث الخلقي الإمكاني صادراً عن ولاية إمكانية هي في الحقيقة الربوبية إذ مربوب والألوهية إذ مألوه وهي فعله ومشيته وهم محل فعله ومشيئته، فعنهم أظهر ما أظهر وفعل ما فعل وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم وإلى هذا ونحوه الإشارة بقول علي عليه السلام كما في الغرر والدرر في وصف الملأ الأعلى وهو يعني به ظاهراً الملائكة وباطناً هم عليهم السلام لأن الملائكة أمثال الأمثال قال علي عليه السلام (وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله)فتدبر كلامه صلوات الله وسلامه عليه ما أصرحه في المُدعى لمن وَعَى ومعلوم أن النبوة بعد الولاية ذاتاً وعلة لترتبها عليها.

وأما الإيمان فهو يتحقق في مقامين ، الأول: في ذاته وجملته، والثاني في أركانه.

الأول أن الإيمان نور يكتبه الله سبحانه في قلب الشخص بقلم أعماله وأقواله واعتقاداته، وذلك النور حياة لأنه روح ينفخ في قلب العبد من روح من الله سبحانه قال تعالى(أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)وقال تعالى(نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ)وقال تعالى(أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ)والعبارة عنه ظاهراً أن العبد إذا قام بما أراد الله منه كان فعله ذلك صورة الإيمان والنور والخيرات في الدنيا والآخرة كالجسد

والله سبحانه ينفخ فيه من روحه وهو معنى(كَتَبَ فِي قُلوبِهِمُ الإِيمَانَ) بقلم من المؤمن وهو القلم المصور وهو أعماله والكاتب فيه والنافخ فيه هو جبرائيل قد أعانه إسرافيل بنصف قوته وذلك عن الولي بأمر الله (وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) وتلك المنفوخ منها روح الله وهي روح الولي وكيفية النفخ كما تضع المرآة في ضوء الشمس فينعكس عنها نور فضوء الشمس نور الإمام عليه السلام أي نور إيمانه والمرآة ظاهراً قلب المؤمن ولسانه وجوارحه، وصورة المكتوب أعماله فالمادة صورة إيمان الإمام عليه السلام والإيجاد صدر بفعل الله عن الإمام عليه السلام كما تقدم وذلك كله هو ولاية الإمام عليه السلام التي هي ولاية الله.

الثاني: سنذكره في بيان (وأبواب الإيمان) مجملا.

وأما قبول الأعمال فلأن الأعمال إنما تتقبل من المتقين قال تعالى(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)والمتقي هو الذي يتقي الله بالقيام بأوامره واجتناب نواهيه والطاعة لله فرع الولي عليه السلام ومعصية الله فرع أعداء الولي عليه السلام فإذا أطاع فقد تولى وإذا لم يعص فقد تبرأ فإذا تولى وتبرأ فقد اتقى ومن اتقى قبلت أعماله لأنها أعمال صالحة وكلم طيب وقد قال تعالى(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) .

وفي ما أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج أن قال (يا محمد وعزتي وجلالي لو أن عبدا عبدني حتى ينقطع ويصير كالشن البالي ثم أتاني جاحدا لولايتهم لم أدخله جنتي و لا أظللته تحت عرشي)وإنما يتقبله ويرفع بالولاية لأن الطاعة فرع الولي عليه السلام لأنها امتثال الأمر واجتناب النهي.

هذا ظاهر القبول وباطنه هو رجوع الصفات إلى الذوات والفروع إلى الأصول وقد قررنا في الفوائد أن التابع تابع باختياره للمتبوع والمتبوع قابل له

باختياره ومريد له لما بينهما من التضايف وذلك لأن شيعتهم منسوبون إليهم ومردهم إليهم، وهذا مقتضى القبول لما بينهما من الموافقة والمناسبة وأيضا كونهم بعلمهم الخير أخياراً لأنهم جعلهم الله عن أئمتهم بفعلهم الخير أخياراً أو حكموا عليهم بعملهم أنهم أخيار فكانوا عليهم السلام دعائم للأخيار في كونهم أخياراً بالجعل أو الحكم، وفي نسبة الأعمال الطيبة إليهم وفي تقوم الأعمال الصالحة في نفسها بولايتهم والبراءة من أعدائهم وبأنها عبارة عن اتباعهم وموافقة رضاهم وفي قبولها كذلك وقد أشرت إلى كل شق والتفصيل يستلزم التطويل.

قال عليه السلام وَسَاسَةَ العِبَادِ

الساسة: جمع سائس وهو المدبِّر لأمر المَسُوس والمربي له على كمال ما ينبغي.

والعباد جمع عبد أي مملوك أو مطلق الإنسان وهو يجمع على عبيدٍ وأعبُد وعباد وعُبدون وعُبْدان وعِبدان كغُفران وغِلمان وعِبدّان كَطِرمّاح ومَعْبَدَة كَمشيخة ومعابِد وعِبِدّاء كَزِمِكّاء، وعِبّدي بكسر العين والباء المشددة وعُبُد كسُبُل وعبد كنَدُس ومعبوداء وَأعَابِدُ جمع أَعبُد.

والعبد له اصطلاح شرعي ومعنى لغوي فالاصطلاح هو قول الصادق عليه السلام (العين عِلمه بالله والباء بَونه عن الخلق والدال دنوه من الخالق بلا إشارة ولا كيف).

ويظهر من هذا أنه من العبادة وهي الطاعة وكمال أحوالها أن يكون العبد متصفاً بهذه الصفات أو من المعبّد كمعظّم المذلّل، لأن العباد قد ذُلّلوا بالتكليف الشاق أو المكرّم من الأضداد لأن الله قد كرّمه كما قال تعالى (وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي

آدَمَ)أو لأنه اتخذه عبداً كما قال ﷺ (كفاني فخراً أن أكون لك عبداً).

فالعباد في أي حال من هذه الثلاث الطاعة والتذلل والتكرّيم وغيرها، لا بدّ لهم من مدبّر حكيم وسائس عليم لأنهم عليهم السلام لا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعاً ولا موتاَ ولا حياة ولا نشوراَ، فلما خلق محمداً وآل محمد ﷺ دعاهم فأجابوا وأمرهم فأتمروا ونهاهم فانتهوا فحمّلهم علمه ودينه وأمرهُ ونهيه فأشرقت بنورهم الظلمات واستضاءت بهم الحجب والسّرادقات ثم لّما أراد أن يعرف العباد نفسه ودينه عصر نور محمد ﷺ وأهل بيته الطاهرين، فخلق من تلك العصارة أنوار شيعتهم وهو ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الله خلقني وخلق عليا وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام من نور فعصر ذلك النور عصرة فخرج منه شيعتنا فسبحنا فسبحوا و قدسنا فقدسوا و هللنا فهللوا ومجدنا فمجدوا و وحدنا فوحدوا ثم خلق الله السماوات و الأرضين وخلق الملائكة فمكثت الملائكة مائة عام لا تعرف تسبيحا و لا تقديسا ولا تمجيدا فسبحنا وسبحت (فسبحت) شيعتنا فسبحت الملائكة لتسبيحنا وقدسنا فقدست شيعتنا فقدست الملائكة لتقديسنا و مجدنا فمجدت شيعتنا فمجدت الملائكة لتمجيدنا و وحدنا فوحدت (ووحدت) شيعتنا فوحدت الملائكة لتوحيدنا و كانت الملائكة لا تعرف تسبيحا ولا تقديسا من قبل تسبيحنا و تسبيح شيعتنا فنحن الموحدون حين لا موحد غيرنا وحقيق على الله تعالى كما اختصنا و اختص شيعتنا أن ينزلنا أعلى عليين إن الله سبحانه و تعالى اصطفانا و اصطفى شيعتنا من قبل أن نكون أجساما فدعانا و أجبنا فغفر لنا و لشيعتنا من قبل أن نستغفر الله).

وفي رواية ابن عباس عنه ﷺ (ثم خلق الملائكة فسبحنا فسبحت الملائكة وهللنا فهللت الملائكة وكبرنا فكبرت الملائكة فكان ذلك من تعليمي و تعليم علي عليه السلام وكان ذلك في علم الله السباق أن الملائكة تتعلم منا التسبيح والتهليل وكل شيء يسبح الله ويكبره ويهلله بتعليمي وتعليم علي عليه السلام) الحديث.

فظهر مما ذكر أنهم هم المعلّمون للعباد في جميع طرق الرشاد كيفية السلوك والاقتصاد وإنما قيل ساسة ولم يُقل معلمون لأن السائس هو المربي لمن لا يعرف رشده لولا السائس، ولأنه يصلحه بالتدريج والتسهيل الطبيعي المطابق للحكمة بتسبيب أسباب التربية وتتميم القوابل بالمعالجة الحكميّة الإلهية المعبر عنها بسلوك سبل الرب مقتصراً عليه لا يكون من السائس شيء إلا مما جعل إليه المربّي الأكبر المتعالي سبحانه وتعالى، فإنهم صلى الله عليهم لم يجعل لهم من الأمر شيئاً إلا به (وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ يَعْلمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُل مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ)وهذا كما في قوله تعالى (فَاسْلكِي سُبُل رَبِّكِ ذُللاً)وحيث قلنا إن العباد جمع عبد أي مملوك أو مطلق الإنسان فينبغي أن يُنبّه على المراد من العبد في حق المكلّف إذا نسب إلى الأئمة عليهم السلام .

أما نسبة العبد إلى الله سبحانه فلا توقف لأحدٍ من المسلمين في أنه عبد رقٍ وعبد طاعة لا يملك شيئاً من أمره وهذا لا فائدة في ذكره إلا لتوطية الذكر بالنسبة إلى غيره ومن احتمل غير هذا فهو كافر كفر الجاهلية الأولى كما ادعي في حق عيسى عليه السلام فأنزل سبحانه قرآناً رداً عليهم قال تعالى (لنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِليْهِ جَمِيعاً).

نعم قد تقع أوهام مبنيّة على أصول باطلة يتوهم المدّعي لها صحتها ويلزم منها ذلك وهي على أنحاء شتّى.

منها من يدّعي بأن الماهيات غير مجعولة وإنما هي صور علمية ويدّعي أنها مكلفة فإن أحسنت أثابها وإن أساءت عاقبها، وأنه ليس له في الخلق إلا إفاضة الوجود نفسه عليهم ووجوداتها تابعة لها ومن أراد معرفة هذا القول والاطلاع على فساده فليراجع كلام الملا محسن في الوافي في باب الشقاوة والسعادة لأنه ممن يقول بهذا القول.

ومنها من يقول بأن المخلوقات منه بالسنخ أو بالظل ويريد به ظل الذات البحت على ما يعرفون من معنى الظل فإنه أيضاً باطل فإن الخلق لا ينتهي شيء منه إلا إلى مثله ولا ينتهي إلى الواجب وإلا لكان واجباً أو كان الواجب ممكناً تعالى ربي.

ومنها من يقول بأن الإنسان معتصر من حق لا خلق فيه وخلق لا حق فيه فهو حق وخلق كما ذهب إليه ابن عربي مميت الدين قال في الفصوص في ما نقل من الشعر

فأنا أعبُـدُ حقـاً وإنـا الله مـولانـا
وإنـا عينه فاعلم إذا ما قيل إنسانـاً
فكـن حقّاً وكـن خلقاً تكن بالله رحمانا

ومنها من يقول إنه ليس له إن شاء فعل وإن شاء ترك ومنهم الملاّ محسن قال في الوافي فيما أشرنا إليه من كلامه (فمشيته أحدية التعلق وهي نسبة تابعة للعلم، والعلم نسبة تابعة للمعلوم والمعلوم أنت وأحوالك) ، إلى أن قال (لأن

الاختيار في حق الحق تعارضه وحدانية المشيئة فنسبته إلى الحق من حيث ما هو الممكن عليه لا من حيث ما هو الحق عليه) إلى أن قال (فما شاء فإنّ الممكن قابل للهداية والضلال من حيث ما هو قابل فهو موضع الانقسام، وفي نفس الأمر ليس للحق فيه إلا أمر واحد) ، ومنها ما ذكره السيد المرتضى في رسالة له ذكر أن الله سبحانه ليس إلهاً للعرض والجوهر الفرد لأن الإله هو المنعم على المألوه، وهذان غير محتاجين إلى المدد لبساطتهما نقلته بالمعنى.

وأمثال هذه المقالات الفاسدة المستلزمة لنفي العبودية عن كثير من الخلق واستغنائهم عن الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والمعروف عندي من كلام أهل العصمة وإشاراتهم عليهم السلام أن من وقعت منه أمثال هذه وكان لا يظهر له أن مثل ذلك مناف للاعتقاد بل يرى أن ذلك هو الصواب وأنه هو مذهب أهل الحق عليهم السلام وكان من شأنه الرد إلى أئمة الهدى عليهم السلام بمعنى أنه لو تبين له أن هذا الاعتقاد مخالف لمراد الإمام عليه السلام لتركه هو على ظاهر الإسلام والله أعلم بظاهر أمره وباطنه لأن كثيراً من أحاديث أهل العصمة عليهم السلام دالّة بصريحها على أن مثل ذلك كفر ولعله محمول على ما ذكرنا.

وأما نسبتهم إلى الخلق فالمعروف عند كثير من العلماء ومن بعض الأخبار أنهم عبيد طاعة لا عبيد رقّ حتى أنّ بعضهم قال لا يجب طاعة الإمام عليه السلام فيما يخالف حكمه فلو أراد أن يصلي على الميت وله وصي في ذلك أو ولي ولم يأذن الوصي أو الولي لم يجز له التقدم في الصلاة بدون إذنه، وهذا غلط ظاهر وحكم فاسد ومثله حَكَم بعضهم في كثير من الأموال إذا منع المالك وهذا ومثله ويؤّلون أنّهم عليهم السلام أولى بهم من أنفسهم بأن طاعتهم واجبة على المكلف في جميع الأحكام الشرعية، وما يرتبط بها كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يتعلق بمصالحهم.

وهذا كلام ينبغي عدم الالتفات إليه وأن يجعل في زاوية الإهمال لما دل الدليل عليه عقلاً ونقلاً أنه عليه السلام أولى بهم من أنفسهم بالأولوية التي كانت لرسول الله وهي أن الله سبحانه وتعالى خلق الأشياء له ولأهل بيته الطاهرين وفي الحديث القدسي أو أنه في الإنجيل(خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك).

وقول علي عليه السلام (نحن صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا)أي صنعهم الله لنا واللام في (لنا) للملك وهذا المعنى هو الذي تفيده أخبارهم إشارة لأن التصريح فيه فضح بالحكمة فوجبت الإشارة للتقية.

وسألني الشيخ موسى بن محمد الصائغ الشهيد لعن الله قاتله، قال: إنّا لم نجد في كتب الرجال رجلاً من الرواة ولا فيما قَبْل سُمّي بعبد النبي ولا بعبد علي ولا عبد الحسن ولا عبد الحسين ولا عبد الرضا كما هو المستعمل الآن في زماننا مع أنه لا ينافيه الاعتقاد سواء قصدت عبودية الطاعة أم الرقية ولم يرد منع خاص من ذلك فهل الامتناع من التسمية لنص لم نقف عليه أو للتقية.

فأجبته: بأني لم أقف على اسم كذلك ممن تقدم ولا على نص بالمنع بل قد يشير بعض الأخبار ببواطنها على جواز ذلك ولعل المانع من وقوعه من بعض شيعتهم هو التقية لوجوه منها أن الخلفاء كانوا يكرهون من يتسمى باسم واحد من الأئمة فكيف يقدر أن يتسمى بعبوديته، ومنها أن التشيع كان في الزمن السابق ضعيفاً لم يكن لكثير من الشيعة قوة إيمان بحيث يعرفون مقام الإمام عليه السلام وإن كل شيء ملك له وإنما خلقت الأشياء له، وأما من كان عارفاً بذلك فلا يقدر خوفاً من الأعداء وممن لا يعرف ولقد رأينا في زماننا ببلادنا الإحساء أناساً من الناصبين يعيبون على هذه التسمية ويستهزءون ببعض من يسمّى بذلك.

ومنها أن ذلك الزمان كانت الغلاة كثيرة ولا يعرف أكثر الشيعة المعنى المدّعى للإمام عليه السلام فإذا سمعوا شيئاً من هذا النحو حملوه على الغلوّ بخلاف هذا الزمان، فإنه كثيراً ما يستعمله من لا يخطر على باله شيء من ذلك لا من كون الإمام عليه السلام مملّكاً ولا من نسبة الغلو والتقية التي كانت في الزمن السابق لم يحصل مثلها في أكثر سائر البلدان ولو وجدت مثلها كما في بلدان النجدي ابن سعود لم يسم بذلك، حتى أن كلّ من كان اسمه عبد علي تسمّى بعبد العالي وفي عبد الحسن وعبد الحسين بعبد المحسن أو عبد الله وهكذا وإلا قتلوه والذي في ظني أنه ورد التسمية بذلك إلا أني الآن عزب عني موضعه.

وبالجملة فقوله عليه السلام (وساسةَ العباد) يريد به عباد الله ولا شك أن العباد عباد الله وأنهم عليهم السلام عباد الله وإن العباد عباد لهم عباد طاعة وإنما الكلام في أن العباد عباد لهم عباد رق والأخبار في بواطن تفسيرها ودليل العقل تدل على ذلك، إلا أنه من المكتوم الذي أمروا بكتمانه ولهذا لم يذكروه صريحاً بل ربما ذكروا عليهم السلام ما يدل بظاهره على المنع من إرادة معنى الرقية، وإن لم يكن نصاً في ذلك لاحتمال التقية أو إرادة عدم البيع أو عدم تجويزه أو عدم إظهاره ولو لفظاً أو أن النفي وأراد على دعوى الزعم كما في الرواية المذكورة كما يأتي لأن الزعم ركوب مطيّة الكذب وإنما هو اليقين والحق كما هو مقتضى قوله تعالى (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم)فإن المراد منه العموم أي في كل شيء أو أن المنع من إظهاره وإطلاع المكلفين عليه إنما هو لئلا يمتنعوا من قبول أحكام الإسلام أو الإيمان، فإنهم عليهم السلام دعوا الناس إلى الإسلام وإلى الإيمان ولم يقبل أكثر الناس منهم وهم يقولون لهم: إذا آمنتم أو أسلمتم فأنتم إخواننا فكيف لو قالوا لهم: إذا آمنتم وأسلمتم

فأنتم عبيدنا ومماليكنا بل أرشدهم سبحانه على أن يقولوا إخواننا تألّفاً لهم وإمالة لقلوبهم إلى الإسلام والإيمان فقال تعالى (فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ).

فإن قلت سمّاهم إخوانهم لأنهم أحرار، ولو كانوا مماليك لما سمّاهم بذلك وهو دليل النفي.

قلت لا يلزم ذلك فإنه سمى مماليكهم بإخوانهم فقال تعالى (ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ)ولعل النفي أو المنع من إظهار ذلك لمصالح يتوقف اللطف بالمكلفين عليها ولا نحيط بها علماً أو لا نحتملها لأنهم عليهم السلام قد يتكلمون بالكلمة ويريدون بها أحد سبعين وجهاً،كما ورد عنهم ونريد بما يدلّ بظاهره على المنع ما رواه في الكافي بسنده إلى مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ الطَّبَرِيِّ قَال (كُنْتُ قَائِماً عَلى رَأْسِ الرِّضَا عليه السلام بِخُرَاسَانَ وَعِنْدَهُ عِدَّةٌ مِنْ بَنِي هَاشِم وَ فِيهِمْ إِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيسَى الْعَبَّاسِيُّ فَقَال يَا إِسْحَاقُ بَلغَنِي أَنَّ النَّاسَ يَقُولونَ إِنَّا نَزْعُمُ أَنَّ النَّاسَ عَبِيدٌ لنَا لا وَ قَرَابَتِي مِنْ رَسُول اللهِ مَا قُلْتُهُ قَطُّ وَلا سَمِعْتُهُ مِنْ (أحد) آبَائِي قَالهُ وَلا بَلغَنِي عَنْ أَحَدٍ مِنْ آبَائِي قَاله وَلكِنِّي أَقُول النَّاسُ عَبِيدٌ لنَا فِي الطَّاعَةِ مَوَالٍ لنَا فِي الدِّينِ فَليُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ).

وكلامه عليه السلام صريح في التقية عند من يفهم معاريض الكلام خصوصاً قوله عليه السلام (وَلكِنِّي أَقُول النَّاسُ عَبِيدٌ لنَا فِي الطَّاعَةِ) إذ لو لم يقل ذلك لفهم إسحاق ابن موسى العبّاسي وغيره قال ذلك تقية فلما أظهر لهم أن الناس عبيد لهم في الطاعة فهموا منه أن هذا اعتقاده ومذهبه وأنه لو اتقى لما قال ذلك وهو ع قاله لأنهم يعلمون ذلك من مذهبه ومن مذهب شيعته، فاتقى من إسحاق بإظهار ما ينافي التقية عنده، لأنه معلوم من مذهبه عليه السلام ومذهب شيعته.

والحاصل لا شك أن جميع الخلق عبيد طاعة لهم وما سوى ذلك فإن كان كذلك فقد أمسكوا عن ذكره، فعليك أن تتأسى بهم وإن لم يكن كذلك فلا يجوز لك أن تقول ما لم يقولوا، فإن قلت فأنتَ لِمَ قُلتَ ما لم يقولوا ؟ قلت لك إني قد بيّنت لك الاحتمالين فإن وجدت أنت ما وجدته أنا فقل ما وجدت من نفي أو إثبات، وإلا فلا اعتراض لك عليّ (وَاللهُ يَقُول الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل)، نعم ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال (رحم الله شيعتنا أُوذوا فينا ولم نُؤذَ فيهم شيعتنا منّا وقد خُلقوا من فاضِل طينتنا وعُجنوا بنور ولايتنا رضوا بنا أئمة ورضينا بهم شيعة، يصيبهم مصابُنا وتبكيهم أوصابناَ ويحزنُهم حزنُنا ويسرّهم سرورنا ونحن أيضاً نتألم لتألمهم ونطلّع على أحوالهم فهم معنا لا يفارقونا ونحن لا نفارقهم لأنْ مرجع العبد إلى سيده ومُعوَّله على مولاه، فهم يهجرون مَنْ عادانا ويجهرون بمدح مَنْ والانا ويباعِدُون مَنْ ناوانا اللهم أَحْي شيعتنا في دولتنا وأبقهم في ملكِنا ومملكتنا اللهم إن شيعتنا منا مُضافين إلينا فمن ذكر مُصَابَنا وبكى لأجلنا استحيى الله أن يعذبه بالنار) هـ.

وهذا ظاهره كما أشرنا إليه لأنه عليه السلام قال لأن مرجع العبد إلى سيده ومعوّله على مولاه وهذه العبارات إذا استعملت لا يفهم منها إلا معنى الرقية ولكنه ليس نصّاً صريحاً لاحتمال إرادة عبودية الطاعة كما في الحديث الأول وإن كان الاحتمال غير مساو للظاهر وإنما يبطل الاستدلال ما كان مساويا من الاحتمال لا المرجوح والله ولي التدبير وإليه المصير.

قال عليه السلام وأركان البلاد

الأركان: جمع ركنٍ وهو الجانب الأقوى.

والبلاد: جمع بلدة مثل كلاب جمع كلبة.

والمراد منها جميع بلدان الدنيا والمراد بكونهم أركان البلاد أن جميع الدنيا وما فيها لولا وجودهم فيها لساخت، لأن وجودهم علة لوجود الموجودات ووجود الموجودات قائم بوجودهم قيام صدور، لأن الشيء يتقوم بمادته وصورته ونفسه.

فأما مادة جميع بلدان الدنيا وما فيها من الأنهار والأشجار والجبال وسائر ما فيها من الجمادات والنباتات والحيوانات فمن فاضل شعاع أجسادهم ونريد بالفاضل حيث يطلق في الأخبار، وفيما كتبنا من رسائلنا وأجوبتنا هو الشعاع فمعنى فاضل شعاع أجسادهم شعاع شعاع أجسادهم وأجسادهم شعاع أجسامهم، وأما صورها فمن فاضل شعاع أشباحهم وأشباحهم هي ظل النور وهي أبدان نورانية بلا أرواح كما تقدم في الرواية .

وأما نفوسها فمن فاضل شعاع نفوس بشريتهم وهذه الثلاثة المراتب فيها من أركان العرش السفلية لأن العرش له ستمائة ألف ركن هذه منها وقد قال الله تعالى (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاء)والماء هو العلم وهو حامل العرش قبل خلق السماوات والأرض والعلم الحامل هو ما حملوه عليهم السلام من العلم لأنه هو علة بقاء وجود ما دونه فلو فقد حامله ساخت الأرض.

وفي الكافي عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَال (قَال وَاللهِ مَا تَرَكَ اللهُ أَرْضاً مُنْذُ قَبَضَ آدَمَ ع إِلا وَفِيهَا إِمَامٌ يُهْتَدَى بِهِ إِلى اللهِ وَهُوَ حُجَّتُهُ عَلى عِبَادِهِ وَلا تَبْقَى الأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَام حُجَّةٍ للهِ عَلى عِبَادِهِ).

وفيه (عَنْ أَبِي حَمْزَةَ قَال قُلتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَتَبْقَى الأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَامٍ قَال لوْ بَقِيَتِ الأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَامٍ لسَاخَتْ)يعني انخسفت بأهلها وذهبت بهم.

وفيه (عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُضَيْل عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَال قُلتُ لهُ أَتَبْقَى الأَرْضُ بغَيْرِ إِمَام قَال لا قُلتُ فَإِنَّا نُرَوَّى عَنْ أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام أَنَّهَا لا تَبْقَى بِغَيْرِ إِمَام إِلا أَنْ يَسْخَطَ اللهُ تَعَالى عَلى أَهْل الأَرْضِ أَوْ عَلى العِبَادِ فَقَال لا لا تَبْقَى إِذاً لسَاخَتْ)، يعني ليس المراد بقول أبي عبد الله عليه السلام السخط الذي تبقى معه الأرض بل المراد به السخط الذي تصير به الأرض منخسفة.

وفيه مثله (عَنِ الوَشَّاءِ قَال سَأَلتُ أَبَا الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام هَل تَبْقَى الأَرْضُ بغَيْرِ إِمَام قَال لا قُلتُ إِنَّا نُرَوَّى أَنَّهَا لا تَبْقَى إِلا أَنْ يَسْخَطَ اللهُ عَزَّ وَ جَل عَلى العِبَادِ قَال لا تَبْقَى إِذاً لسَاخَتْ)هـ، وهذا مثل سابقه.

فقد دلّت الأخبار المذكورة وغيرها على أن الأرض لو خلت من أحد منهم ظاهراً أو باطناً أو مستتراً لانخسفت بأهلها لأن قوامها بالإمام عليه السلام على نحو ما أشرنا إليه سابقاً وقولنا ظاهراً ظاهر كما في زمان ظهور أحدهم عليهم السلام وقولنا باطناً نشير به إلى الزمن المتقدم على زمان بعثة النبي فإنه لا يخلو وقت منه عن نبي داع إلى الله وإلى عبادته منذ أهبط الله آدم إلى الأرض إلى زمان بعثة النبي إلاّ أنهم ظاهراً هم أركان الأرض والبلاد، وبهم يحفظ الله البلاد لكن إنما حَفِظَ الله البلاد والأنبياء عليهم السلام بوجود إمامنا عليه السلام في كلّ زمانٍ مستترا يظهر في الصور كيف شاء الله كما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، وفي بعض الأخبار إشارة إلى أن الأنبياء عليهم السلام هم الحافظون وهم أركان البلاد كل واحد في زمانه وهذا عندي صحيح لكنهم حافظون للبلاد وأئمتنا عليهم السلام حافظون لهم وللبلاد، فالإمام عليه السلام حافظ للبلاد عن الأنبياء عليهم السلام في زمانهم والله سبحانه حافظ لخلقه بخير ما خلق من صفوته وخيرته من عباده.

وفي دعاء مفردة الوتر (وَأَنْتَ اللهُ عِمَادُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَنْتَ اللهُ قِوَامُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).

وفيه إشارة إلى أن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام عماد السماوات والأرض وأن الحسين أخاه عليه السلام قِوَام السماوات والأرض وبيان هذه الأشياء كما ينبغي بحيث يعرفه الأكثر يستلزم تطويلاً كثيراً ويلزم منه ذكر أشياء ليس للعقول فيها حظ، وإنما يعرف ذلك أصحاب الأفئدة إذا كانوا من أهل التصديق والتسليم .

وأما البيان بالإشارة ففي هذه الكلمات مما ذكرنا لكل سؤال جواب وتقرير عبرة لأولي الألباب.

قال عليه السلام وأبوابَ الإيمان

أي أنهم عليهم السلام لا يُعرَفُ الإيمان إلا عنهم ولا يُكتسب إلا منهم، ولم ينزله الله من خزائن غيبه إلا فيهم ولا يخرجه إلى أحد من الخلق إلا منهم، ولا يخرجه منهم إلا بهم ثم الإيمان منه باطن ومنه ظاهر،والباطن منه معرفة ومحبة ومنه علم وتذكّر وتفكّر ومنه يقين وثبات وجزم والظاهر منه قول ومنه عمل.

فأمّا المعرفة فمعرفة الله وتوحيده في ذاته بنفي المعاني والصفات والأضداد، وتوحيده في صفاته بتجريد جهة المعرفة عن الأنداد، وتوحيده في أفعاله عن المشاكلة والتعدد والانفراد، وتوحيده في عبادته عن مشاركة العباد، ولا يكون شيء من هذه المذكورات ولا مما يتفرع عليها حقاً إلا إذا كان بسبيل معرفتهم ، يعني بما بيّنوا وعرّفوا وبسبيل معرفتهم يعني بأنهم أبواب هذه الأشياء المذكورة، وبسبيل معرفتهم يعني أنهم أركان هذه الأمور المذكورة ،وبسبيل معرفتهم أنهم

معاني هذه الأمور المذكورة، وبسبيل معرفتهم أنهم هم هذه الأمور المذكورة، وبسبيل معرفتهم أنهم هم ظاهر هذه الأمور المذكورة.

ومعرفة رسول الله بأنه عبد الله ورسوله وحجته وعينه الناظرة وأذنه الواعية ويده المبسوطة وعضده القوية وذِكرهُ الأكبر واسمه الأعز الأجل الأكرم وفضله العام ورحمته الواسعة وبابه الذي لا يؤتى إلا منه، والنور المنور للأنوار والقلب الذي وسع الأقدار والأسرار وخيرة الجبار في جميع الأطوار وأمثال ذلك.

ومعرفة الإمام عليه السلام أنه كلما ذكر من هذه الأوصاف المذكورة للنبي وغيرها فإنه شريكه فيها إلاّ شيئين.

أحدهما: الرسالة والنبوة وما يتعلق بهما من الخواص التي اختص بها من الخواص المذكورة في كتب أصحابنا رضوان الله عليهم مما خفف الله فيها على نبيه كما قال الله تعالى(ما أَنْزَلنا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقى)أو شدّد عليه لأنه المراد كما قال تعالى(لا تُكَلفُ إلاَّ نَفْسَكَ)أو كرّمه بها كما قال الله تعالى(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّك فَتَرْضى)(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)وذلك أمور منها ما قال صلى الله عليه وآله وسلم (كتب علي الوتر و لم يكتب عليكم و كتب علي السواك و لم يكتب عليكم و كتبت علي الأضحية و لم تكتب عليكم).

ومنها وجوب التخيير لنسائه بين المقام وبين مفارقته كما في قوله تعالى(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدّنْيا وَزِينَتِها)الآية ، أو أن التخيير نفسه طلاق لمن اختارته كما قيل، ومنها قيام الليل قال تعالى(قُم الليْل)وفي المبسوط، أنه أي الوجوب منسوخ بقوله تعالى (وَمِنَ الليْل فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلةً لكَ)فلا يكون من الخواص وفي التذكرة استدل على الوجوب بهذه الآية، ومنها خائنة الأعين

وهو الإشارة بها، ومنها تحريم نكاح الإماء بالعقد وتحريم نكاح الكتابيات على القول بجوازه على الأمة وتحريم الاستبدال بنسائه، بمعنى أنه يطلق واحدة ويتزوج أخرى لقوله تعالى (وَلا أَنْ تَبَدَّل بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ)، وتحريم الزيادة عليهنّ حتى نسخ بقوله تعالى(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْللنا لكَ أَزْواجَكَ) .

والمنع من الكتابة والشعر لإظهار الإعجاز وإن كان قد ورد في بعض أحاديثنا أنه كان يكتب ويقرأ باثنين وسبعين لساناً وتحريم نزع لامته إذا لبسها قبل لقاء العدو، وهذا كله من التشديدات.

ومن التخفيف أنه أبيح له أن يتزوج بغير عدد وأن يتزوج ويطأ بغير مَهر، وأن يتزوج بلفظ الهبة، وله ترك القسم بين زوجاته، وله أن يصوم صوم الوصال، وأن يصلي قاعداً بقائمين وأخذ الماء من العطشان، والطعام من الجائع، وإن اضطُرا إليهما، ويحفظ نفسه الشريفة لأنه أولى وحفظ نفسه أهم.

ومن التكريم له ﷺ أن أزواجه أمهات المؤمنين فيجب احترامهن ويحرم نكاحهن، وبعث للناس كافة، وجعل خاتم النبيين ونصر بالرعب من مسيرة شهر، وخص بالشفاعة، وكان تنام عينه ولا ينام قلبه ويتضاعف ثواب من أطاعت من نسائه ﷺ وعقاب من عصت، وإذا نظر إلى امرأة ورغب فيها وجب على زوجها طلاقها ويبقى معجزه وهو القرآن إلى انقضاء النظام وغير ذلك.

وثانيهما: إنه ثانٍ للنبي ﷺ وتالٍ له فلا يساويه لذاته.

ومعرفة شيعة الإمام عليه السلام كما تعرف الشعاع من الشمس، فإن الشعاع إنما يظهر مستنيراً إذا كان مستمداً من الشمس وإلا فإنه من حيث نفسه لا نور له، بل

هو من حيث نفسه ظلمة،فكذلك الشيعي فإنما هو مؤمن وعارف وصالح وناج بمتابعة إمامه والأخذ عنه والاقتداء به فبقدر اقتدائه بإمامه وطاعته له ومعرفته به، يكون قدره وإيمانه وبحسب ذلك تجب موالاته تبعاً لوجوب موالاة إمامه عليه السلام كما أشار إليه في الدعاء (أُوَالِي مَنْ وَالوا وَأُجَانِبُ مَنْ جَانَبُوا).

ومعرفة أعدائهم والبراءة منهم ومن أتباعهم فالمؤمن يعرف أعداء علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام بسيماهم وفي لحن القول، ولقد سمعت ممن أثق به ينقل عن بعض أولئك الناصبين يقول (لا شك أن علياً كرم الله وجهه أفضل من سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وأعلم وأشجع وأتقى إلاّ انّه يجب عليك أن تعتقد بأنّ أبا بكرٍ وعمر أفضل من عليّ وأعلم وأشجع وأتقى فقال بعض الحاضرين: منهم من جهالهم والله يا سليمان وكان ذلك القائل لعنه الله اسمه سليمان ما أقدر على ذلك ولا تطيعني نفسي إذا كان علي أفضل وأعلم وأشجع وأتقى أن أقول: هما أفضل وأعلم وأشجع وأتقى قال سليمان: بلى، هذا واجب في المذهب قال ذلك الرجل ما أعرف إلا إذا كانا أفضل).

فانظر بعقلك إلى لحن قول هذا المناصب المعاند بعد إقراره بفضل عليّ كيف ينكره ويؤوله أن هذا واجب في المذهب.

وأما المحبة فهي فرع المعرفة فمن عرف الخير أحبه وهي في كل مقام بحسبه وتفصيل ذلك بالنسبة إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى نبيه وإلى أوليائه صلوات الله وسلامه عليهم وأولياء أوليائه يطول به الكلام.

وأما العلم فهو أن ينتقش في خيالك صور ما صدقت به واطمأننت عليه، فإنّ هذه الصورة التي انتقشت في خيالك معناها في قلبك والتصديق بها والاطمئنان

عليها كلها في قلبك وحقيقتها بلا كيف تنجلي في فؤادك فتكون هذه المنتقشة آية معرفة ربّك ونبيّك وأئمتك وشيعتهم، والتسليم لهم والبراءة من أعدائهم إلا أنّ تلك الآية بواسطة أو بوسائط فيكون ذلك داعياً للخوف المستلزم للنجاة وللرجاء المستلزم للطلب والعمل وللمعرفة المستلزمة للحب الماحي بصدقه لكل اعتبار سوى اعتبار المحبوب.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام (فَإذَا تَحَقَّقَ العِلمُ فِي الصَّدْرِ خَافَ وَإذَا صَحّ الخوْفُ هَرَبَ وَإذَا هَرَبَ نَجَا وَإذَا أَشْرَقَ نُورُ اليَقِينِ في القَلبِ شَاهَدَ الفَضْل وَإذَا تَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ الفَضْل رَجَا وَإذَا وَجَدَ حَلاوَةَ الرَّجَاءِ طَلبَ وَإذَا وُفِّقَ للطَّلبِ وَجَدَ وَ إذَا تَجَلى ضِيَاءُ المَعْرِفَةِ في الفُؤَادِ هَاجَ رِيحُ المَحَبَّةِ وَ إذَا هَاجَ رِيحُ المَحَبَّةِ اسْتَأْنَسَ في ظِلال المَحْبُوبِ وَ آثَرَ المَحْبُوبَ عَلى مَا سِوَاهُ وَبَاشَرَ أَوَامِرَهُ وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ وَاخْتَارَهُمَا عَلى كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِمَا وَإذَا اسْتَقَامَ عَلى بِسَاطِ الأُنْسِ بِالمَحْبُوبِ مَعَ أَدَاءِ أَوَامِرِهِ وَ اجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ وَصَل إلى رُوحِ المُنَاجَاةِ وَالقُرْبِ، وَمِثَال هَذِهِ الأُصُول الثَّلاثَة كَالحَرَمِ وَالمَسْجِدِ وَالكَعْبَةِ فَمَنْ دَخَل الحَرَمَ أَمِنَ مِنَ الخَلقِ وَمَنْ دَخَل المَسْجِدَ أَمِنَتْ جَوَارِحُهُ أَنْ يَسْتَعْمِلهَا فِي المَعْصِيَةِ وَمَنْ دَخَل الكَعْبَةَ أَمِنَ قَلبُهُ مِنْ أَنْ يَشْغَلهُ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالى).

وأمّا التذكر والتفكر فهو أن تعالج نفسك بعدم الغفلة وبالتوجه بقلبك إلى عظمة الله سبحانه وإلى ما يريده منك ليسعدك به في الدارين حتى يكون التذكر والإقبال إلى الله سبحانه في كل ما يراد منك طَبْعاً لنفسك، بحيث لو خاطبك شخص فلا تتوجه له إلا بالعرض كما قال الشاعر في التوجه نحو المحبوب:

وأُديم نحـوَ محدِّثي نَظـري
أن قد فهمتُ وعندكم عقلي

ولقد ورد أن علامة المؤمن هو أن كلامه ذكر وصمته فكر ونظره اعتبار وورد أن(تَفَكُّر سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ)وذلك أن يتوجه بقلبه إلى آثار العظمة والقدرة في الخلق فإذا نظر وجد ما لا يحيط به الوصف ويَعْرِفُ مقام صاحب الأمر والنهي، فإذا عرف ذلك ثبت عنده بلا تردد أنه لا فخر إلا في طاعته وطلب رضاه بأنه لا يكون مطلوب في الدنيا والآخرة حاصلاً لأحد إلا منه قال تعالى(مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ)فعند ذلك يعرف إنه لا يحسن طاعته وخدمته لغرضٍ غيره لأنّه أهل ذلك فيطلب بامتثال أمره رضاه فيرضى منه بكل نعمة وبلاء، فإذا كان كذلك كان مرضياً عند ربّه فيذكر ربّه في نفسه عند ذكر عظمته ونعمته وبلائه في الحياة وفى المات وفي القبور وعند نفخ الصور وفي النشور وحيث تصير إليه الأمور.

وفي الكافي عَنْ زُرَارَةَ عَنْ أَحَدِهِمَا عليهما السلام قَال (لا يَكْتُبُ المَلَكُ إِلا مَا سَمِعَ وَقَال اللهُ عَزَّ وَجَل وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً فَلا يَعْلَمُ ثَوَابَ ذَلِكَ الذِّكْرِ فِي نَفْسِ الرَّجُل غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَل لِعَظَمَتِهِ).

وفيه بإسناده إلى أَبِي المَغْرَاءِ الخَصَّافِ رَفَعَهُ قَال (قَال أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام مَنْ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَل فِي السِّرِّ فَقَدْ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً إِنَّ المُنَافِقِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ اللهَ عَلانِيَةً وَلا يَذْكُرُونَهُ فِي السِّرِّ فَقَال اللهُ عَزَّ وَجَل يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلا قَليلا) .

وأما اليقين والثبات والجزم فمذكور في دعائم الإيمان في حديث الكافي الذي نذكره الآن.

وأما الظاهر فمنه قول وعمل والأحاديث في بيان ذلك متكثرة ، روي في الكافي عن أَبِي عَمْرٍو الزُّبَيْرِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَال (قُلتُ لَهُ أَيُّهَا العَالِمُ

أَخْبِرْنِي أَيُّ الأَعْمَال أَفْضَل عِنْدَ اللهِ قَال مَا لا يَقْبَل اللهُ شَيْئاً إِلا بِهِ قُلتُ وَ مَا هُوَ قَال الإِيمَانُ بِاللهِ الذِي لا إِلهَ إِلا هُوَ أَعْلى الأَعْمَال دَرَجَةً وَأَشْرَفُهَا مَنْزِلةً وَ أَسْنَاهَا حَظّاً قَال قُلتُ أَ لا تُخْبِرُنِي عَنِ الإِيمَانِ أَ قَوْلٌ هُوَ وَ عَمَلٌ أَمْ قَوْلٌ بِلا عَمَلٍ فَقَال الإِيمَانُ عَمَلٌ كُلُّهُ وَالقَوْل بَعْضُ ذَلكَ العَمَل بِفَرْضٍ مِنَ اللهِ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ وَاضِحٍ نُورُهُ ثَابِتَةٍ حُجَّتُهُ يَشْهَدُ لهُ بِهِ الكِتَابُ وَيَدْعُوهُ إِليْهِ قَال قُلتُ صِفْ لِي جُعِلتُ فِدَاكَ حَتَّى أَفْهَمَهُ قَال الإِيمَانُ حَالاتٌ وَدَرَجَاتٌ وَطَبَقَاتٌ وَمَنَازِل فَمِنْهُ التَّامُّ المُنْتَهَى تَمَامُهُ وَمِنْهُ النَّاقِصُ البَيِّنُ نُقْصَانُهُ وَمِنْهُ الرَّاجِحُ الزَّائِدُ رُجْحَانُهُ قُلتُ إِنَّ الإِيمَانَ ليَتِمُّ وَيَنْقُصُ وَيَزِيدُ قَال نَعَمْ قُلتُ كَيْفَ ذَلكَ قَال لأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالى فَرَضَ الإِيمَانَ عَلى جَوَارِحِ ابْنِ آدَمَ وَقَسَّمَهُ عَليْهَا وَفَرَّقَهُ فِيهَا فَليْسَ مِنْ جَوَارِحِهِ جَارِحَةٌ إِلا وَقَدْ وُكِّلتْ مِنَ الإِيمَانِ بِغَيْرِ مَا وُكِّلتْ بِهِ أُخْتُهَا فَمِنْهَا قَلبُهُ الذِي بِهِ يَعْقِل وَيَفْقَهُ وَيَفْهَمُ وَهُوَ أَمِيرُ بَدَنِهِ الذِي لا تَرِدُ الجَوَارِحُ وَلا تَصْدُرُ إِلا عَنْ رَأْيِهِ وَ أَمْرِهِ وَمِنْهَا عَيْنَاهُ اللتَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَ أُذُنَاهُ اللتَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا وَيَدَاهُ اللتَانِ يَبْطِشُ بِهِمَا وَرِجْلاهُ اللتَانِ يَمْشِي بِهِمَا وَ فَرْجُهُ الذِي البَاهُ مِنْ قِبَلِهِ وَلسَانُهُ الذِي يَنْطِقُ بِهِ وَرَأْسُهُ الذِي فِيهِ وَجْهُهُ فَليْسَ مِنْ هَذِهِ جَارِحَةٌ إِلا وَقَدْ وُكِّلتْ مِنَ الإِيمَانِ بِغَيْرِ مَا وُكِّلتْ بِهِ أُخْتُهَا بِفَرْضٍ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ اسْمُهُ يَنْطِقُ بِهِ الكِتَابُ لهَا وَيَشْهَدُ بِهِ عَليْهَا).

والحديث طويل في بيان ذلك والاستدلال عليه من القرآن من أراده طلبه.

وفي الكافي أيضاً بالإِسْنَادِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَال (سُئِل أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنِ الإِيمَانِ فَقَال إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَل جَعَل الإِيمَانَ عَلى أَرْبَعِ دَعَائِمَ عَلى الصَّبْرِ وَاليَقِينِ وَالعَدْل وَالجِهَادِ فَالصَّبْرُ مِنْ ذَلكَ عَلى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلى الشَّوْقِ وَالإِشْفَاقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلى الجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ رَجَعَ عَنِ

المُحرَّمَاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَليْهِ المُصِيبَاتُ وَمَنْ رَاقَبَ المَوْتَ سَارَعَ إِلى الخَيْرَاتِ وَاليَقِينُ عَلى أَرْبَعِ شُعَبٍ تَبْصِرَةِ الفِطْنَةِ وَتَأَوُّلِ الحِكْمَةِ وَمَعْرِفَةِ العِبْرَةِ وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ فَمَنْ أَبْصَرَ الفِطْنَةَ عَرَفَ الحِكْمَةَ وَمَنْ تَأَوَّلَ الحِكْمَةَ عَرَفَ العِبْرَةَ وَمَنْ عَرَفَ العِبْرَةَ عَرَفَ السُّنَّةَ وَمَنْ عَرَفَ السُّنَّةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ مَعَ الأَوَّلِينَ وَاهْتَدَى إِلى التِي هِيَ أَقْوَمُ وَنَظَرَ إِلى مَنْ نَجَا بِمَا نَجَا وَمَنْ هَلكَ بِمَا هَلكَ وَإِنَّمَا أَهْلكَ اللهُ مَنْ أَهْلكَ بِمَعْصِيَتِهِ وَأَنْجَى مَنْ أَنْجَى بِطَاعَتِهِ وَالعَدْلُ عَلى أَرْبَعِ شُعَبٍ غَامِضِ الفَهْمِ وَغَمْرِ العِلمِ وَزَهْرَةِ الحُكْمِ وَرَوْضَةِ الحِلمِ فَمَنْ فَهِمَ فَسَّرَ جَمِيعَ العِلمِ وَمَنْ عَلِمَ عَرَفَ شَرَائِعَ الحُكْمِ وَمَنْ حَلمَ لمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً وَالجِهَادُ عَلى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلى الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَالصِّدْقِ فِي المَوَاطِنِ وَشَنَآنِ المُنَافِقِينَ فَمَنْ أَمَرَ بِالمَعْرُوفِ شَدَّ ظَهْرَ المُؤْمِنِ وَمَنْ نَهَى عَنِ المُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْفَ المُنَافِقِ وَأَمِنَ كَيْدَهُ وَمَنْ صَدَقَ فِي المَوَاطِنِ قَضَى الذِي عَليْهِ وَ مَنْ شَنِئَ المُنَافِقِينَ غَضِبَ للهِ وَمَنْ غَضِبَ للهِ غَضِبَ اللهُ لهُ فَذَلكَ الإِيمَانُ وَدَعَائِمُهُ وَشُعَبُه)هـ.

وكل ما سمعت من أركان الإيمان ودعائمه وأقسامه من ظاهر وباطن وقول وعمل ومن تقسيماته على الجوارح والقوى والمشاعر والحواس الظاهرة والباطنة من فروعهم وشعاع ولايتهم ومن مرسوم هديهم وسبيل سنتهم، ولا يقبل الله شيئاً إلا بولايتهم واتباعهم.

روى في الكافي في حسنة عَنْ زُرَارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام إلى أن قَال (ذِرْوَةُ الأَمْرِ وَسَنَامُهُ وَمِفْتَاحُهُ وَبَابُ الأَشْيَاءِ وَرِضَا الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالى الطَّاعَةُ للإِمَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ثُمَّ قَال إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالى يَقُول مَنْ يُطِعِ الرَّسُول فَقَدْ أَطاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلى فَما أَرْسَلناكَ عَليْهِمْ حَفِيظاً أَمَا لوْ أَنَّ رَجُلا قَامَ ليْلهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ

مَالِهِ وَحَجَّ جَمِيعَ دَهْرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ وَلايَةَ وَلِيِّ اللهِ فَيُوَالِيَهُ وَيَكُونَ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ بِدَلالَتِهِ إِلَيْهِ مَا كَانَ لَهُ عَلَى اللهِ جَل وَعَزَّ حَقٌّ فِي ثَوَابِهِ وَلا كَانَ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ)الحديث.

فالإيمان فرعهم وصفتهم لأنه عبارة عن ولايتهم وهي الدين الخالص(أَلا للهِ الدِّينُ الخالِصُ)وهي دينهم عليهم السلام لأنّهم لا يدينون الله إلا بولايتهم.

وإلى هذا أشار الباقر عليه السلام لأَبِي الجَارُودِ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ حاجَتِهِ (هَاتِ حَاجَتَكَ قُلتُ أَخْبِرْنِي بِدِينِكَ الذِي تَدِينُ اللهَ عَزَّ وَ جَل بِهِ أَنْتَ وَأَهْل بَيْتِكَ لأَدِينَ اللهَ عَزَّ وَجَل بِهِ قَال إِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الخُطْبَةَ فَقَدْ أَعْظَمْتَ المَسْأَلَةَ وَاللهِ لأُعْطِيَنَّكَ دِينِي وَدِينَ آبَائِيَ الذِي نَدِينُ اللهَ عَزَّ وَجَل بِهِ شَهَادَةَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَالإِقْرَارَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَالوَلايَةَ لِوَلِيِّنَا وَالبَرَاءَةَ مِنْ عَدُوِّنَا وَالتَّسْلِيمَ لأَمْرِنَا وَانْتِظَارَ قَائِمِنَا والاجْتِهَادَ وَالوَرَعَ)هـ.

وهذا دينهم وهو الولاية وهو الإيمان والصفة لا تقوم بدون الموصوف والفرع لا يتحقق إلا بالأصل فهم أبواب الإيمان عليهم السلام فلا يوجد الإيمان إلا عنهم ولا ينزل إلى شيعتهم منهم إلا بهم، ولا يصعد إلى الله ولا يقبله إلا بهم ولا قُبِل إلا لهم ولم يُمدح به أحد غيرهم فهو ممادحهم تتلى على ألواح الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين والشهداء والصالحين، وكل ساكن ومتحرك وكل رطب ويابس، وكل مقبل بإقباله وكل مدبر بإدباره فثبت أنهم أبواب الإيمان في جميع الأحوال.

قال عليه السلام وأمناء الرحمن

الأمناء: جمع أمين وهم عليهم السلام أمناء الرحمن يعني أن الرحمن سبحانه ائتمنهم على دينه في حفظه عن التغيير والتبديل لعلمه تعالى أنهم يحفظونه لعدم ما ينافي ذلك فيهم من أحد أمور سبعة.

الأول: أنهم معصومون ومطهّرون من الرجس فلا يظلمون بتضييع الأمانة لشهوة أو تكبر أو حسد أو غير ذلك من الذمائم النفسانية.

الثاني: أنهم لا يجري عليهم السهو والنسيان لأن ذلك إنما يحصل لمن يلتفت وهم سلام الله عليهم لا يلتفت منهم أحد لأن الله أمرهم بذلك فقال تعالى(وَلا يَلتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)ومن لم يلتفت لم يَسْهُ ولم يغفل ولم ينس.

الثالث: أنهم علماء فلا يجهلون فهم مراقبون مراعون لما يراد منهم.

الرابع: أنهم مظاهر قدرة الله فلا يحصل منهم عجز عن تحمل ما حمّلهم الله تعالى من غيبه.

الخامس: إنّ الذي استُحفظوه هو لوازم ذواتهم والذوات لا تفارق لوازمها لأنّهم خزائن الغيب وتلك المخزونة عندهم صفاتهم التي مظاهرها حقائق الخلائق.

السادس: أنه سبحانه ائتمنهم على أنفسهم بأن يحبسوها على طاعته ويحفظوها عن معصيته، فإنها هي غيبه الذي عنده مفاتِحُهُ لا يعلمها إلا هو وهي نفسه التي لا يعلم ما فيها عيسى عليه السلام وهي النفس الملكوتية الإلهية فهي ذات الله العليا وشجرة طوبى وسدرة المنتهى وجنة المأوى.

السابع: أنه سبحانه ائتمنهم على مشيته وربوبيته إذ مربوب فجعلهم محال مشيئته وحملة إرادته فهم (بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)فحفظها أن لا يجدوا لأنفسهم ولا لشيء عن ميولاتها ولا لشيء عن مشيئاتها اعتبار وجود بل ولا وجود اعتبار.

وإنما ذكر الرحمن دون الله والرحيم لأن الرحمن هو الجامع لصفات الإضافة وصفات الخلق وبصفته الرحمانية استوى على عرشه وهي الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وهي التي ملأ الرحمن منها خزائن غيبه، وأظهر عنها أفاعيله وصنائعه وأبان بها أوامره ونواهيه، ومدّ عنها سرادقات قدسه وفضله وعلاّ عنها بنيان عفوه وعدله وبسط بها بساط كرمه وآلائه، ونشر فيها بوابل أنعمه مبسوط حمده وثنائه وفتق الأجواء وشق الأرجاء وبثّ في أفعاله ما قد برأه من الإنس والجن وسائر الحيوانات، ومن المسبحين الصافين والزاجرين والتالين والمدبرين وأجرى الأقلام بما مضت به الأحتام وأقام لازمات الإيجاب بما اقتضته إطلاقات الأسباب ويسّرها بدواعي الأشواق عند نوازع الأذواق، وقدّر الأقوات وأنبت النبات في الأرض الكفات للأحياء والأموات، وجعل بلطيف صنيعه إلى عباده كل شيء سبباً لشيء ومسبباً لآخر ودليلاً ومدلولاً ومبتلي ومبتلى به وكتاباً لشيء ومكتوباً في شيء إلى غير ذلك من الشؤون والأحوال التي ينقطع دونها المقال، ولا يجد العقل فيها المجال.

وفي جميع ما أشرنا إليه في كل جزئي وجزء وذات وصفة مما في جميع العوالم لم يخلق الله شيئاً من جميع ما أومأنا إليه من مخلوقاته إلا أشهدهم خلقه وأنهى علمهم إليهم وهم الحجة عليهم، وقد يعبر عن ذلك الإشهاد بعرض ولايتهم على الخلق ففي السرائر لابن إدريس بن جامع البزنطي عن سليمان بن خالد قال(سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول ما من شي ء و لا من آدمي و لا إنسي و لا جني و لا ملك في السماوات إلا و نحن الحجج عليهم و ما خلق الله خلقا إلا و قد عرض ولايتنا عليه و احتج بنا عليه فمؤمن بنا و كافر و جاحد حتى السماوات و الأرض و الجبال الآية يعني والشجر والدواب).

والحاصل أنهم أمناء الرحمن لأنه سبحانه ائتمنهم على جميع ما استوى به من رحمانيته على عرشه وأمرهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها فأدّوا إلى كل ذي حق حقه حتى انتهوا إلى أنفسهم، فأدّوا إليها جميع مالها من الحق والاستحقاق فأمرهم حينئذٍ أن يؤدّوا الأمانات إلى أهلها فعرفوه بما أعطاهم فسبحوه بما له وحمدوه بما هو حقائقهم وهلّلوه بما وجدوا وكبّروه بما لهم وعرّفهم ما ذلك الأمر فقالوا إِنَّا للهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ وإلى ذلك الإشارة بقول سيد الشهداء صلوات الله وسلامه عليه (إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار و هداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها و مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

قال عليه السلام وسلالة النبيين

السلالة: بضم أوله هي الخلاصة فسلالة الشيء ما انسل من صفوته، سميت بذلك لأنها تسل من الكدر أو هي ما تسل من الشيء القليل والسلالة النطفة لأنها خلاصة الطعام والشراب وصفو الغذاء ويكنى بالسلالة عن الولد أو عن الولد الصافي وسلالة النبيين أولادهم قال الشيخ محمد تقي المجلسي رحمه الله في شرح الفقيه في شرح هذه الفقرة (فإنهم ذرية نوح وإبراهيم وإسماعيل ظاهراً ومن طينة الأنبياء والرسل روحاً وبدناً، كما نطقت به الأخبار المتواترة).

وظاهر كلامه أنهم سُلّوا من طينة الأنبياء أي صفيت أو خلصت أرواحهم وأبدانهم من طينة الأنبياء، وهذا يدل على أنهم من حقيقة واحدة وأنه لا يلزم أن يكون المسلول أعلى من المسلولة منه لأن الولد سلالة أبيه ولا يلزم أن يكون

أفضل منه، وإن جاز ذلك لدليل آخر لما دلّت عليه الأخبار وانعقد الإجماع من الشيعة أن محمداً ﷺ خير الخلق وأن علياً نفسه بنص القرآن والاتحاد محال فكان المراد به المماثلة ومماثل الأفضل أفضل فيكون علي عليه السلام أفضل الخلق بعد محمد ﷺ وما يجري لعلي عليه السلام يجري لولده الأحد عشر الطيبين وهذا التفصيل مع تسليمه لا يستلزم اختلاف الطينتين كما هو ظاهر كلامه تغمده الله برحمته وقد تقدم من أحاديثهم ما يدل على أن الطينة التي خلقوا منها لم يكن لأحد من الخلق فيها نصيب ثم خلق من فاضل طينتهم أي من شعاعها كما نبّهنا عليه سابقا خلق من ذلك طينة شيعتهم ولم يجعل لأحد فيما خلق منه شيعتهم نصيباً إلا الأنبياء، والأحاديث في ذلك متكثرة جداً ويدل على هذا قوله تعالى(وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ)فأخبر أن إبراهيم الذي هو من أفاضل أولي العزم من شيعة علي عليه السلامبنص الأحاديث الكثيرة وقد دلّت أحاديثهم أن شيعتهم خلقوا من شعاع نورهم قال أمير المؤمنين عليه السلام (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله قال ابن عباس: كيف ينظر بنور الله؟ قال عليه السلام : لأنّا خلقنا من نور الله وخلق شيعتنا من شعاع نورنا، فهم أصفياء أبرار أطهار متوسّمون نورهم يضيء على من سواهم كالبدر في الليلة الظلماء)فقد أخبر عليه السلام أن الله خلق شيعتهم من شعاع نورهم فإذا كان الأنبياء خلقوا من شعاع نورهم ولا ريب أن نورهم تحت حقيقتهم وأن ذلك الشعاع الذي خلقت منه حقايق الأنبياء تحت نورهم فكيف يكونون عليهم السلام خلصوا من طينة الأنبياء عليهم السلام نعم في الظاهر خلصوا منها على معنى أن وضع أنوارهم في صلب آدم عليه السلام فهم عليهم السلام ينتقلون من صلب إلى رحم وهم ودائع الله عند الأنبياء حتى أدوا وديعة الله كما أمرهم سبحانه إلى صلب عبد المطلب

فانقسم منه إلى صلب عبد الله وأبي طالب ﷺ وكانت تلك الأنوار تعلّقت بالنطف الطيبة تعلق ما بالقوة بها بالفعل كتعلّق الشجرة في غيب النواة بالنواة، أي بشهادتها ومما قال في هذا المعنى العباس بن عبد المطلب في هذا المعنى في مدح النبي ﷺ قال:

من قبلها طبت في الظلال وفي
مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت
ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد
ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم
إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من
خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض
وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي
النور وسبل الرشاد نخترق

وأمّا في الباطن فإن تلك الأصلاب الشامخة التي تستقر فيها، والأرحام المطهرة التي تستودع فيها قشور لتلك الألباب أحاطت بها كإحاطة الأشعة

بالسراج، ومدبرون بتلك الأرباب تقدرها في سائر أطوارها بمقتضى الأسباب فهي مفارقة لتلك المحال الشريفة في التقدير و إن كانت مقارنة لها في التدبير ولأجل هذا كان كل من انتقل إليه ذلك النور المفارق أشرق وجهه وغرّته نوراً حتى يعرف بذلك إلى أن ينتقل منه إلى الرحم الطاهرة فيسلب منه النور ويتلألأ بوجه الحامل به إلى أن تضع الجنين، فيخرج مشرقاً بها فيه وتسلب أمّه النور وهو قول الباقر عليه السلام (مازال ذلك النور ينتقل من الأصلاب والأرحام ، من صلب إلى صلب ، ولا استقر في صلب إلا تبين عن الذي انتقل منه انتقاله ، وشرف الذي استقر فيه)الحديث وهكذا حتى انفصلت الأنوار من عبد الله وأبي طالب وانجلت الأسرار من كل جانب ، وليس ذلك إلا لأنهم متعيّنون متميزون وإن كانوا قد تعلّقوا بالمحال الشريفة.

ولقد روي أن خديجة رضي الله عنها لما حملت بفاطمة كانت تسمع منها في بطنها التسبيح والتحميد والتهليل ثم كانت تعلم أمها أحكام دينها وهي في جوفها، فمعنى كونهم سُلالة النبيّين أنهم أُودعوا في أصلابهم وهم أنوار كونيّة وأشباح نورانية لا أنّهم نطف مادية وإن عُبّر عنها بالنطف لأن النطف في أخبار أهل العصمة عليهم السلام أكثر ما تستعمل في التي من عالم الغيب كما في تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن الحلبي عن ابي عبد الله عليه السلام قال (إن النطفة تقع بين السماء والأرض على النبات والثمر والشجر فيأكل الناس منه والبهائم فتجري فيهم).

ومعلوم أن هذه النطفة ليست مادية والاستدلال بكونها تقع بين السماء والأرض على أنها مادية غلط لأنها في الحديث الآخر ما معناه أن في الجنة شجرة تسمّى المزن، يقطر منها قطر على النبات والبقول فما أكل منها مؤمن أو كافر إلا

خرج من صلبه مؤمن ، ومعلوم أن الجنة فوق فلك البروج ولو كانت مادية لما جاز أن تخرق فلك البروج والسماوات السبع، وتوجيهها بأن الملائكة تحملها أو أنها قوة هو ما أشرنا إليه من أنها ليست مادية، وما في الكافي والتهذيب بإسنادهما عن سعيد بن المسيب قال سألت علي بن الحسين إلى أن قال في مراتب دية الجنين قلت له (أرأيت تحوله في بطنها إلى من حال إلى حال أبروح كان ذلك أو بغير روح ؟ قال: بروح عدا الحياة القديم المنقول في أصلاب الرجال وأرحام النساء ولولا أنه كان فيه روح عدا الحياة ما تحوله عن حال بعد حال في الرحم وما كان إذا على من يقتله دية وهو في تلك الحال).

فقوله عليه السلام (بروح عدا الحياة القديم) يريد به في الظاهر النفس النامية النباتية، فإنه لولاه لم ينتقل من النطفة إلى العلقة ولا من المضغة إلى العظم، ولا من العظم إلى أن يكسى لحماً، وليس المراد به النفس الحيوانية لأنها لا مدخل لها في النمو لعدم ممازجتها للأجسام ولأنها قبل الأجسام ولهذا استثناها عليه السلام بقوله (عدا الحياة القديم) فإن الحيوانية الحسيّة ليست من الأجسام بل هي من وراء الأفلاك يعني من نفوسها وإنما سمّاها بالقديم لأنها سابقة على الروح النباتية، والقديم يحتمل أن يراد به ما كان قبل الزمان ذاتاً وإن كانت بعد الزمان ظهورا ويحتمل أن يراد به القديم الشرعي، أي ما كان له ستة أشهر كما في قوله تعالى (حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيم) بمعنى أنه سابق بالذات فيكون المراد من سلالة النبيين إما بمعنى الصفوة والخلاصة من النبيين وإن لم يكونوا من نوع طينتهم لكن لما كانت الحكمة تقتضي في كل نازل التعلق بالمحال المناسبة له في مراتب النزول في كل شيء بحسبه، ولم تكن في المحال أشرف من أصلاب النبيين تنزلوا

فيها حتى سُلّوا وتخلصوا منها فقيل: سلالة النبيين ، أو بمعنى أولاد النبيين لأن الولد سلالة أبيه .

وأما لأن المراد من النبيين محمد ﷺ خاصة لأنه قد يقال هذا اللفظ ويراد منه محمد ﷺ كما روي في تفسير قوله تعالى(فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا).

عن أبى الصباح الكناني عن أبى جعفر عليه السلام قال (أعينونا بالورع فإنه من لقى الله منكم بالورع كان له عند الله فرجا، إن الله عز وجل يقول(وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُول فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا) فمنا النبي ﷺ ومنا الصديق والشهداء والصالحون).

وعن محمد بن سليمان عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لأبي بصير(يا أبا محمد لقد ذكركم الله في كتابه فقال (فَأُوْلَـئِكَ) إلى (وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا) فرسول الله ﷺ في الآية النبيون ونحن في هذا الموضع الصديقون والشهداء وأنتم الصالحون فتسَموا بالصلاح كما سمّاكم الله عز وجل).

وروى أنس بن مالك قال (صلى بنا رسول الله ﷺ في بعض الأيام صلاة الفجر ، ثم أقبل علينا بوجهه الكريم فقلت له: يا رسول الله أرأيت أن تفسر لنا قوله تعالى(فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا) فقال ﷺ: أما النبيون فأنا، وأما الصديقون فأخي علي عليه السلام وأما الشهداء فعمي حمزة ، وأما الصالحون فابنتي فاطمة وأولادها الحسن والحسين عليهم السلام) والحديث طويل.

وفي تفسير علي بن إبراهيم وأما قوله(وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُول فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا) قال النبيين رسول الله ﷺ ، والصديقين علي عليه السلام والشهداء الحسن والحسين، والصالحين الأئمة، وحسن أولئك رفيقا ، القائم من آل محمد عليهم السلام) .

فإذا اشتهر عندهم عليهم السلام إطلاق النبيين على محمد ﷺ كما سمعت وما لم تسمع فَلك أن تريد بقوله عليه السلام سلالة النبيين سلالة رسول الله ﷺ وعلى هذا الوجه فيتّجه مراد محمد تقي من السلالة كما تقدم، فإنهم عليهم السلام قد سُلّوا من محمد جدهم ﷺ سَل النور من النور كما أشار إليه أمير المؤمنين صلوات الله عليه حيث قال علي عليه السلام (أنا من محمد كالضوء من الضوء).

ثم اعلم أن ما ذكرنا من معنى السلالة هو المعنى اللغوي أولاً وبعده المعنى المراد في بواطن التفسير، وأما ماهيتها بالعبارة الحكمية على الميزان الشرعي إذا أريد منها ما يكون سلالة مادية، فاعلم أن السلالة هي النطفة، والنطفة مؤلفة من نطفة معنوية ملكوتية ونطفة هيولانية جسمانية أما النطفة المعنوية الملكوتية فإنها تنزل قطرة من شجرة المزن كما مر في الحديث وهي قطرة من درة الوجود لحظها بعين إرادته سبحانه فذابت ماء من خشيته وهي نور ذائب، يعني تنزل من معاني العقل إلى رقيقة من رقائق الروح، ثم منها إلى صورة من صور اللوح المكتوبة فيه، ثم أذابها حتى مزجها بذرة من ذرات الهباء الجوهري ثم حملها الأملاك وأجروها في قوى الأفلاك وسلّمتها إلى الرياح وتقبلتها من السحاب كل دَلآح، وألقتها في الأمطار حتى سرت في البقول والثمار وجرت في الطعام وخالطت غذاء الأنام وخلصت من أثقال الكيلوس وشعور الكيموس حتى جاورت النفوس، ثم

نزلت نطفة من مني يمنى فصار ما فيها بالقوة من المادة بالفعل وما فيها بالفعل من الحياة والحساس بالقوة، فإذا كرت عليها الملائكة الأربعة بالرياح الأربع تنقّلت من طور النطفة إلى العلقة، ومنها إلى المضغة ومنها إلى العظام، ثم يكسى لحما فإذا تمت خلقته كان ما فيه بالقوة من الحياة والشعور بالفعل.

وروى القمي بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن آبائه عليهم السلام ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (إن الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقا بيده ثم ذكر ما قال: الله للملائكة في أمر خلق آدم إلى أن قال فاغترف ربنا عزوجل غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات وكلتا يديه يمين فصلصلها في كفه حتى جمدت فقال لها منك اخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والائمة المهتدين والدعاة إلى الجنة وأتباعهم إلى يوم القيامة ولا ابالي ولا اسأل عما أفعل وهم يسألون ، ثم اغترف غرفة اخرى من الماء المالح الاجاج فصلصلها في كفه فجمدت ثم قال لها منك اخلق الجبارين والفراعنة والعتاة واخوان الشياطين والدعاة إلى النار إلى يوم القيامة واشياعهم ولا ابالي ولا اسأل عما افعل وهم يسألون قال وشرطه في ذلك البداء ولم يشترط في اصحاب اليمين ثم اخلط المائتين جميعا في كفه فصلصلهما ثم كفهما قدام عرشه وهما سلالة من طين ثم امر الله الملائكة الأربعة الشمال والجنوب والصبا والدبوران يجولوا على هذه السلالة من الطين فأمرؤها وأنشؤها ثم انزوها وجزوها وفصلوها وأجروا فيها الطبايع الأربعة الريح والدم والمرة والبلغم فجالت الملائكة عليها وهى الشمال والجنوب والصبا والدبور واجروا فيها الطبايع الأربعة، الريح في الطبايع الأربعة من البدن من ناحية الشمال والبلغم في الطبايع الأربعة من ناحية الصبا

والمرة في الطبايع الأربعة من ناحية الدبور والدم في الطبايع الأربعة من ناحية الجنوب، قال فاستفلت النسمة وكمل البدن فلزمه من ناحية الريح حب النساء وطول الامل والحرص، ولزمه من ناحية البلغم حب الطعام والشراب والبر والحلم والرفق، ولزمه من ناحية المرة الحب والغضب والسفه والشيطنة والتجبر والتمرد والعجلة، ولزمه من ناحية الدم حب الفساد واللذات وركوب المحارم والشهوات ، قال أبو جعفر وجدناه هذا في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام).

أقول قد بيّن عليه السلام أن السلالة مركّبة من غرفة اليمين وغرفة اليمين التي هي من الماء العذب هي طينة النبيين وهى الصورة الإنسانية وهيكل التوحيد بعد أن كسرها ثم عركها بيده، وقد أشار تعالى إلى ذلك العرك بقوله الحق(لِنَبْلوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)(ليَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)وهو معنى فصلصلها حتى أقرت بالإخلاص حتى جمدت واستقرّت طيناً ثابتاً بعد أن كانت ماء سيّالاً ومعنى اغترافه لها بيمينه هو قولها بلى مصدّقة عارفه مسلّمة لقوله ألست بربك، ومحمد نبيك، وعليّ وليك وإمامك، والأئمة من بنيه أئمتك، وجمودها بذلك كقوله تعالى(إِنَّ الذِينَ قَالوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)ومثل(وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)ومثل(وَلاَ يَلتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ)فقال لها منكِ أخلق النبيين والمرسلين .. الخ.

ومن غرفة الشمال وغرفة الشمال التي هي من الماء الأجاج، هي طينة الجبارين الفراعنة والعتاة وهي الصورة الشيطانية وهيكل الجحود والطغيان بعد أن كسرها وعركها بيده وهو قوله تعالى(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَليْهِمْ إِبْليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِّنَ المُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لهُ عَليْهِم مِّن سُلطَانٍ إِلا لنَعْلمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)فصلصلها حتى جحدت وجمدت واستقرّت

طيناً منتناً، بعد أن كانت ماءً لزجاً رجراجاً وذلك حين عرض عليها التوحيد فقبلت وعرض عليها النبوة فسكتت فترددت في توحيدها وارتابت، فلّما عَرَضَ عليها الولاية أنكَرَت الأمر بها فجحدت التوحيد وكذبت الداعي إليها فأنكرت النبوة وهو تأويل قوله تعالى(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) وذلك أنه عظم عليه وعلى جنده إقرارهم بالتوحيد والنبوة فقال لجنده: أظنّ أنّهم لا يقبلون الولاية فيجحدون التوحيد والنبوة فلما وقع منهم جحود الولاية وعدم قبولها قال إبليس لجنده: إن ظني فيهم قد صدق فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ الآية.

فخلق الله تعالى من صفوة الأولى الأنبياء والمرسلين وأهل العصمة عليهم السلام ، ومن كثيف الثانية أئمة الضلال والدعاة إلى النار، ثم خلط الفاضلين من الطينتين بعد أن أذاب كل فاضل على حدة ثم جمعهما وعركهما وصَلصَلهما في كفّه وهو تأويل قوله تعالى(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيها لتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى) .

وفي أصل درست عن محمد الأحول عن حمران بن أعين قال: قال أبو عبد الله عليه السلام (إن أول وقوع الفتن أحكام تُبْتَدَع وهوى يتبع يخالف فيها حكم الله يتولى فيهما رجال رجالاً، ولو أن الحق أخلص فعمل به لم يكن اختلاف ولو أن الباطل أخلص فعمل به لم يخف على ذي حِجىً ولكن يؤخذ ضِغث من هذا وضغث من هذا فيضرب بعضه بعض، فعند ذلك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم منا الحسنى).

ثم كفأهما أي كبّهما تحت عرشه يعني تحت الحجاب الأحمر من عرشه فلّما امتزجا بالتعفين الصلصالي كان ذلك الشيء سلالة من طين وهذا في الظاهر مادي إلا أن ما كان فيها من العلوي غيب في هذا المادي، كالشجرة في غيب

النواة وهذا الغيب هو الحياة القديم الذي أشار إليه علي بن الحسين عليه السلام في الحديث المتقدم وهذا الغيب في المادي وهو الغصن المغروس في أرض الأرحام والملائكة الأربعة هم الزارعون وهم الساقون لهذا الغصن والمُدبرون كما في قوله تعالى(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)فأول ما يتلقاه الدبور فإذا أدخله الحمام توجه له الجنوب فعفنه وحله وصفاه الدبور وألقى عنه الغرائب الصبا وعقده الشمال ثم حله الجنوب ثانياً وصفاه الدبور وألقى عنه الغرائب الصبا ثانياً وعقده الشمال ثانيا وهكذا حتى يظهر الغيب بآثاره في الشهادة وشرح ذلك لا يسعه هذا الكلام فظهر أنهم سُلالة النبيين على هذه المعاني التي أشرنا إليها سابقاً، وهي أنه إن أريد بالسُلالة المادية كان المعنى أن نطفهم النورانية حين تنزلها هبطت في المواد الطيبة إلى الأصلاب الطاهرة ويكون النبيين أعمّ وتسمى حينئذٍ خلاصة وإن أريد بها النورانية فسَلها سَل ما تعلقت به أو أن النبيين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال عليه السلام وصفوة المرسلين

الصفوة: مثلثة الصاد الخلاصة وقد تقدم الكلام في الأنبياء والمرسلين في الجملة والمعنى في هذا كمعنى سابقه، وأما كونهم صفوة المرسلين فعلى ظاهر الحال أن طينتهم وطينة الأنبياء واحدة كما دلّ عليه كثير من الروايات فأخذت طينتهم من صفوة تلك الطينة، وجعل الباقي طينة الأنبياء فقيل صفوة المرسلين إلا أن أحاديثهم عليهم السلام تدل على أن طينتهم لم يجعل فيها لمخلوق نصيب وقد تقدم في رواية محمد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام فإنه قال(لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيباً) فأبان عليه السلام انفراد طينتهم عن كل أحد حتى الأنبياء والمرسلين

بدليل قوله عليه السلام بعد ذلك(وخلق أرواح شيعتنا من أبداننا وأبدانهم من طينة مخزونة أسفل من تلك الطينة ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيباً إلا الأنبياء والمرسلين)الحديث، وقد تقدم فإنه أدخل طينة الأنبياء والمرسلين في طينة شيعتهم التي هي أسفل طينتهم فإذا أُدخلت طينتهم في طينة الأنبياء والمرسلين، كان ذلك لملاحظة مقابلة طينة الجاحدين والكافرين وإلا فلا تدخل لأن طينتهم خلقها الله ولم يكن خلق فخلق من فاضلها أي من عرقها وشعاعها أرواح النبيين والمرسلين، وأرواح النبيين والمرسلين قبل طينتهم لأن طينتهم من فاضل شعاع أرواحهم ويدل على أنهم في أرواحهم سابقون وكذا طينتهم ما رواه في رياض الجنان عن جابربن عبد الله قال (قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أول شيء خلقه الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيّك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً فخلق العرش من قسم والكرسي من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله ثم جعله أقساماً: فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثم جعله أجزاء فخلق الملائكة من جزء والشمس من جزء، والقمر والكواكب من جزء، وأقام القسِم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثم جعله أجزاء فخلق العقل من جزء والعلم والحلم والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثم نظر إليه بعين الهيبة فرشح ذلك النور وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبيّ ورسول ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين).

فانظر إلى هذا الحديث وصراحته في أن أرواح الأئمة عليهم السلام كانوا ولم يكن شيء فمكثوا يسبحون الله ويهللونه قبل خلق السموات والأرض بما لا يدخل تحت حصرنا ولقد روي عن علي عليه السلام ما معناه وقد سئل (كم بقي العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض؟ فقال عليه السلام: أتُحسن أن تحسب، فقال: نعم فقال: أخشى ألا تحسن قال: بلى قال: لو صُبّ خردل حتى سَدّ الفضاء وملأ ما بين الأرض والسماء ثم أذن لك وعمرت مع ضعفك أن تنقله حبة حبة من المشرق إلى المغرب حتى ينفد، لكان ذلك أقل من جزء من مائة ألف جزء من مثقال الذر مما بقي العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض واستغفر الله عن التحديد بالقليل).

فتفكّر في معنى هذا الحديث فإذا حصل لك معرفة ذلك بالتقريب فاعرف أن ذلك يدل على ما لا يتكيف ولا يوصف، وأنوارهم عليهم السلام قبل كون العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض بمدة إقامة نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنوار أهل بيته الطاهرين صلى الله عليه وعليهم في مقام القرب وذلك المقام لا تقدير له ولا نهاية إلا عند الله تعالى، وسبق أنوار الأنبياء والمرسلين حين تعينهم بمدة إقامة العرش والكرسي وحملتهما في مقام الحب ومدة إقامة القلم واللوح والجنة في مقام الخوف، ومدة إقامة الملائكة والشمس والقمر والكواكب في مقام الرجاء، ومدة إقامة العقل والعلم والحلم والعصمة والتوفيق في مقام الحياء، وكل مدة من هذه المُدد ما شاء الله تعالى ولم يتبيّن لي خصوص كمية أعدادها إلا أن الأعداد الواردة في نوع هذه المقامات مختلفة، فمنها ثمانون ألف سنة، ومنها سبعون ألفاً، ومنها أربعة عشر ألفاً، ومنها اثنا عشر ألفاً، ومنها غير ذلك وفي بعضها أكثر مما ذكر وفي بعضها أقل ثم نظر الله سبحانه إلى ذلك النور بعين الهيبة فرشح ذلك النور إلى آخر ما ذكر في الحديث السابق.

فإذا عرفت ما ذكرنا تبيّن لك أن أنوارهم عليهم السلام سابقة على أنوار النبيّين بما لا يتناهى وهو تأويل قوله تعالى(قُل لوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِّكَلمَاتِ رَبِّي لنَفِدَ البَحْرُ قَبْل أَن تَنفَدَ كَلمَاتُ رَبِّي وَلوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)وهو كناية عن عدم انتهاء فضائلهم وسبق ابتدائهم فإذا ظهر لك أنهم بعد أن خلقهم الله وأمرهم بالإدبار لتشييد النظام، فأخذوا يتنزلون من مقام إلى مقام، وكلما وصلوا مقاماً في نزولهم بقوا فيه يسبحون الله بكل لسان، يمكن في ذلك المقام من كل لغة إلى أن وصلوا إلى آخر مقام من مقامات الاختصاص، فلما حصلوا هناك ولحظهم سبحانه بعين الهيبة رشح من أنوارهم تلك القطرات المذكورة وهي مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، خلق الله من تلك القطرات من كل قطرة روح نبي أو مرسل ... الخ .

ظهر لك أن إطلاق صفوة المرسلين لا يراد منه إلا أنه سبحانه اصطفاهم واختارهم من الأنوار الخالصة التي هي ضد الظلمات كما أشرنا إليه سابقاً بعد أن اجتمعت العالية حين نزلت بالسافلة فنظر سبحانه إليهم مجتمعين في صعيد الحشر الأول من الذر فاصطفى السابقين إلى دعوته والسابقون في الإجابة الثانية هم السابقون في الإجابة الأولى صلى الله عليهم أجمعين .

قال عليه السلام وعترة خيرة ربّ العالمين

قال محمد تقي في شرح الفقيه هنا العترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأقربون وهم أهل بيته كما ورد متواتراً عنه صلى الله عليه وآله وسلم (إني تارك فيكم الثقيلن كتاب الله وعترتي أهل بيتي).

والخيرة بسكون العين وفتحها المختار وفي معاني الأخبار بإسناده عن أبي

سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال(إني أوشك أن أدعى فأجيب فإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، كتاب الله عز وجل حبل ممدود بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا بماذا تخلفوني فيهما).

وفيه أن أبا العباس تغلب سئل عن معنى قوله ﷺ (إني تارك فيكم الثقلين لِمَ سُميا بالثقلين؟ قال: لأن التمسك بهما ثقيل).

وفيه قال (سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى قول رسول الله ﷺ إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي من العترة فقال عليه السلام أنا والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين تاسعهم مهديهم وقائمهم لا يفارقون كتاب الله ولا يفارهم حتى يردوا على رسول الله ﷺ حوضه) .

أقول: في هذا الحديث الشريف أن العترة هي جميع الأئمة عليهم السلام وهذا هو المعلوم من مراد رسول الله ﷺ وإن كان قد يخص بأصحاب الكساء تبعاً لظواهر بعض الأخبار، وأن باقي الأئمة يدخلون من جهة اللزوم وقوله عليه السلام (لا يفارقون كتاب الله) يعني به أنهم في جميع أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم ومعقتداتهم لا يخرجون فيها عما حكَمَ به كتاب الله وبيّنه نَبِيّهُ ﷺ في الصغيرة والكبيرة والدقيقة والجليلة وقوله عليه السلام (ولا يفارقهم) أنه لم يظهر منه حق لأحد من الخلق في جميع الأحوال والأقوال والأعمال والاعتقادات في ظاهر ولا باطن ولا ظاهر ظاهر، ولا باطن باطن ولا تأويل ولا باطن تأويل ولا قصة ولا مثال، ولا اعتبار ولا استدلال ولا أخبار ولا حكم ولا علم ولا غير ذلك مما يطابق الشرعي الواقعي أو الوجودي إلا بهم وعنهم ولهم .

والعترة: بكسر أوّله في اللغة، قال: حدثني أبو العباس تغلب قال: حدثني ابن الأعرابي قال: العترة قطاع المسك الكبار في النافجة، وتصغيرها عتيرة، ومثلها الريقة العذبة، وشجرة تنبت على باب وجار الضب قال تغلب وأحسبه أراد وجار الضبع لأن الذي للضب مكو، وللضبع وجار.

أقول: في القاموس والوجار بالكسر والفتح جحر الضبع وغيرها.

قوله وغيرها لا يدل على أنه يستعمل في الضب أيضا ثم قال : وإذا خرجت الضب من وجارها تمرغت على تلك الشجرة فهي لذلك لا تنمو ولا تكبر، والعرب تضرب مثلا للذليل والذلة فيقولون : أذل من عترة الضب ، والعترة: ولد الرجل وذريته من صلبه فلذلك سميت ذرية محمد ﷺ من علي وفاطمة عليها السلام عترة ، قال تغلب فقلت لابن الاعرابي: فما معنى قول أبي بكر في السقيفة : نحن عترة رسول الله ﷺ ؟ قال : أراد بلدته وبيضته ، وعترة محمد ﷺ لا محالة ولد فاطمة عليها السلام ، والدليل على ذلك رد أبي بكر وإنفاذ علي عليه السلام بسورة براءة ، وقوله ﷺ : أمرت أن لا يبلغها عني إلا أنا أو رجل مني فأخذها منه ودفعها إلى من كان منه دونه ، فلو كان أبو بكر من العترة نسبا دون تفسير ابن الأعرابي أنه أراد البلدة لكان محالا أخذ سورة براءة منه ، ودفعها إلى علي عليه السلام .

وقد قيل أن العترة: الصخرة العظيمة يتخذ الضب عندها جحرا يأوي إليه وهذا لقلة هدايته.

وقد قيل أن العترة: أصل الشجرة المقطوعة التي تنبت من أصولها وعروقها، والعترة في غير هذا المعنى قول النبي ﷺ (لا فرعة ولا عتيرة) قال الاصمعي (كان الرجل في الجاهلية ينذر نذرا على أنه إذا بلغت غنمه مائة أن يذبح رجبية

وعتايرة فكان الرجل ربما بخل بشاته فيصيد الظباء ويذبحها عن غنمه عند آلهتهم ليوفي بها نذره ، وأنشأ الحارث بن حلزة يقول:

عنتا باطلا وظلما كمـا يعتـــر

عن جحـرة الربيض الظبـاء

يعني يأخذونها بذنب غيرها كما يذبح أولئك الظباء عن غنمهم وقال الأصمعي والعترة: الريح، والعترة أيضا: شجرة كثيرة اللبن، صغيرة تكون نحو توهاما ويقال: العتر: الذكر ، يقال عتر يعتر عترا: إذا أنعظ، وقال الرياشى: سألت الأصمعي عن العترة فقال : هو نبت مثل المرزنجوش ينبت متفرقا).

قال مصنف هذا الكتاب: والعترة علي بن أبي طالب وذريته من فاطمة وسلالة النبي ﷺ ، وهم الذين نص الله تبارك وتعالى عليهم بالإمامة على لسان نبيه ﷺ ، وهم اثنا عشر أولهم علي، وآخرهم القائم عليه السلام على جميع ما ذهبت إليه العرب من معنى العترة ، وذلك أن الأئمة عليهم السلام من بين جميع بني هاشم ومن بين جميع ولد أبي طالب عليهم السلام كقطاع المسك الكبار في النافجة، وعلومهم العذبة عند أهل الحل والعقد وهم الشجرة التي أصلها رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام فرعها، والأئمة من ولده أغصانها، وشيعتهم ورقها، وعلمهم ثمرها وهم عليهم السلام أصول الإسلام على معنى البلدة والبيضة، وهم عليهم السلام الهداة على معنى الصخرة العظيمة التي يتخذ الضب عندها جحرا يأوي إليه لقلة هدايته، وهم أصل الشجرة المقطوعة لأنهم وتروا وظلموا وجفوا وقطعوا ولم يوصلوا فنبتوا من أصولهم وعروقهم ، لا يضرهم قطع من قطعهم، وإدبار من أدبر عنهم ، إذ كانوا من قبل الله منصوصا عليهم على لسان نبي الله ﷺ، ومن معنى العترة هم المظلومون

المأخوذون بها لم يجرموه، ولم يذنبوه، ومنافعهم كثيرة، وهم ينابيع العلم على معنى الشجرة الكثيرة اللبن، فهم عليهم السلام ذكران غير إناث على معنى قول من قال: إن العترة هو الذكر، وهم جند الله عزوجل وحزبه على معنى قول الأصمعي: أن العترة الريح، قال النبي صلى الله عليه وآله (الريح جند الله الأكبر) في حديث مشهور عنه صلى الله عليه وآله والريح عذاب على قوم ورحمة لآخرين، وهم عليهم السلام كذلك، كالقرآن المقرون إليهم بقول النبي صلى الله عليه وآله (إني تارك (مخلف) فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي قال الله عزوجل (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا) وقال عزوجل (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ) وهم عليهم السلام أصحاب المشاهد المتفرقة على المعنى الذي ذهب إليه من قال: أن العترة هو نبت مثل المرزنجوش ينبت متفرقا، وبركاتهم منبثة في المشرق والمغرب)انتهى.

ما نقلته من معاني الأخبار للصدوق وإنما اكتفيت بما ذكره لأنه كاف في معناه في اللغة وأما البيان المتعلق بغير اللغة فهو لا يفيد إلا ببيان ما هو موضوع له وذلك هو مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

وأمّا الخيرة بسكون الياء وفتحها فهو المختار والمراد رسول الله ووصفه كما قال (يا علي لا يعرفك إلا الله وأنا ولا يعرفني إلا الله وأنت ولا يعرف الله إلا أنا وأنت).

وكما قال علي عليه السلام في خطبة يوم الغدير والجمعة قال علي عليه السلام (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه بأنه انفرد

عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس وانتجبه آمِراً وناهيا عنه، أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه إذ كان لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار، ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار لا إله إلا هو الملك الجبار قَرَنَ الاعتراف بنبوته بالاعتراف بلاهوتيته واختصه من تكرمته بما لم يلحقه فيه أحـد من بريته فهو أهل ذلك بخاصته وخلته إذ لا يختص من يشوبه التغير ولا يخالل من يلحقه التظنين وأمر بالصلاة عليه مزيدا في تكرمته وطريقاً للداعي إلى إجابته فصلى الله عليه وآله وسلم وكرم وشرف وعظم مزيدا لا يلحقه التقييد ولا ينقطع على التأبيد) وقال في وصف العترة الطاهرة ﷺ بعد هذا الكلام بلا فاصلة (وأن الله تعالى اختص لنفسه بعد نبيه من بريته خاصة علاّهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته وجعلهم الدعاة بالحق إليه، والأدلاء بالإرشاد عليه لقرن قرن وزمن زمن أنشأهم في القدم قبل كل مذروء ومبروء أنوار أنطقها بتحميده، وألهمها شكره وتمجيده وجعلها الحجج له على كل معترف له بملكوت الربوبية وسلطان العبودية واستنطق بها الخُرسات بأنواع اللغات بخوعاً له بأنه فاطر الأرضين والسموات وأشهدهم خلقه وولاهم ما شاء من أمره، وجعلهم تراجم مشيته وألسن إرادته عبيداَ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون يحكمون بأحكامه ويستنون بسنته، ويعتمدون حدوده ويأدون فرضه ولم يَدَعِ الخلق في بهماء صماء ولا في عمياء بكماء بل جعل لهم عقولاً مازجت شواهدهم وتفرقت في هياكلهم حققها في نفوسهم واستعبد لها حواسّهم فقرر بها على أسماع ونواظر وأفكار وخواطر، ألزمهم بها حجته وأراهم بها محجته وأنطقهم عما شهدته بألسن ذَرِبَةِ

بما قام فيها من قدرته وحكمته وبيّن عندهم بها ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة وإن الله لسميع بصير شاهد خبير).

فقوله ﷺ (يا علي لا يعرفك... الخ)، يشعر بأن جميع خلق الله بعدهما لا يعرفهما كنه معرفتهما، وربما استشكل بعضهم في هذا فقال الأئمة الطاهرون على هذا لا يعرفون كنه جدهم وأبيهم، وهذا غريب لأنهم قد ورثوا جميع ما وصل إلى محمد وعلي ومن المعلوم أن من جملة ذلك معرفة أنفسهم ولا يجوز أن ينفرد واحد من الحجج بعلم عن غيره من الحجج مع أنه شريكه في استحفاظ الدين.

والجواب أنه لما كان الشيء لا يعرف إلا بصفته إلا أن يكون مع المعروف في مقام واحد فيعرفه به لما تقرر أن العلم عين المعلوم فأنت تعرف زيدا مثلاً بصفته التي في خيالك، وتلك الصورة هي معلومك وهي علمك بزيد أي بصفته الانتزاعية التي هي علمك فإن اجتمعت مع زيد في مكان بحيث تشاهده علمته به لا بصورته الانتزاعية فإنها هي عمله بصورته ولو لم تجتمع معه في مقام لما علمت ذاته إلا بصفته لأنها هي العلم بصفته، ورسول الله ﷺ هو أصلهم وكذا علي عليه السلام للأئمة عليهم السلام وهم فروعه والفرع لا يجتمع مع الأصل ليعرفه به لأن الأصل في المقام الأول والفرع في المقام الثاني فلا يعرفه بالكنه وإنما يعرفه بالصفة فقوله ﷺ (لا يعرفك إلا الله وأنا) يعني معرفته بالكنه لأنه في مقام الأصل ولا يعرفه بالكنه إلا من كان في مقامه.

وقول علي بن أبي طالب عليه السلام (استخلصه في القدم) يريد بهذا القدم إما الإمكان الراجح الذي هو إمكان المشية أي بأن جعله محلاً لمشيته لأنه هو الذي يسع ذلك ولا يسعه غيره، كما قال تعالى في الحديث القدسي(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن).

وإما القدم الزماني والدهري يعني استخلصه قبل الزمان في الدهر أو قبل الدهر في السرمد، وأما القدم اللغوي فهو السبق المطلق بالنسبة إلى المتأخر، وأما القدم الشرعي فيصدق على من كان له ستة أشهر يسمى قديماً كما هو مشهور في الأخبار وعند الفقهاء وقد يراد به قبل هذا العالم، كما قال ﷺ (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين)، وقال علي عليه السلام (كنت ولياً وآَدم بين الماء والطين) نقله ابن أبي جمهور في كتابه المجلي.

قوله عليه السلام (انفرد) يعني رسول الله ﷺ (عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس) يريد به أنه ﷺ بما هو هو انفرد فلا مشاكل له ولا مماثل له في خلق الله فلم تتعلق مشية الله ولا تتعلق بشيء يساويه إلا نفسه ﷺ وليس في الإمكان أشرف منه ولا يساويه إلا ذاته ولا يدانيه إلا علي عليه السلام فقوله عليه السلام (آمِراً وناهيا) يريد أنه جعله مظهر أمره ونهيه في تكاليف العباد عن مراده تعالى.

وقوله عليه السلام (أقامه في سائر عالمه) يريد به أنه سبحانه جعله ظاهره في جميع الخلق ووجهه الذي يتوجه إليه العباد.

قوله عليه السلام (في الأداء) يريد أنه سبحانه في كل شيء أراد الله أن يؤديه إلى أحد من خلقه فإنه لا يمكن لأحد أن يتلقى الفيض من جهة الحق إلا بواسطته ﷺ، لأنه الرابطة بين الحكمين ومقتضى الرابطة التوسط لتوقف ترتب الآَثار من المقبولات والقابلات عليه ﷺ .

وقوله عليه السلام (قرن الاعتراف بنبوته بالاعتراف بلاهوتيته) أراد أن ما وراء رتبته ووجوب معرفته لا يكلف الله العباد بذلك لأنهم لا يحتملونه فلا يتوقف وجودهم ولا نظام دينهم ودنياهم عليه.

وقوله ﷺ (إذ لا يختص من يشوبه التغيير.. الخ) يريد به بيان علة الاختصاص من الحكيم العليم وأنها كونه لذاته سراجاً منيراً وإنه لعلى خلق عظيم لا إله إلا الله رب كل شيء ومالكه.

وقوله ﷺ (وأمر بالصلاة عليه ..الخ) يشير به إلى أن ذلك من الله سبحانه رفع لشأنه وبيان لأن هذه العبادة ثناء منه على نبيه ﷺ كما يليق بمقامه ﷺ فإنه ﷺ مقترن بالوجود الراجح وذلك لا غاية له ولا نهاية ولا بدء له في الإمكان ولا أولية له إلا من الله الذي لا يكون غاية لشيء ولا آخر له في الوجود، كذلك إلا إلى الله الذي لا إله إلا هو فافهم فإنه مسلك أدق من الشعر وأحد من السيف يصعد السالكون فيه ألف سنة ويمكثون في وسطه خمسين ألف سنة وينزلون ألف سنة فاصبر صبراً جميلاً.

وقوله ﷺ في أهل البيت ﷺ (وأن الله اختص لنفسه بعد نبيه ﷺ فيه إشارة إلى أنهم ﷺ مساوون لمحمد ﷺ في كل ما يريد الله سبحانه لجميع المخلوقات وإن اختلفوا من حيث مراتب ذواتهم أو كانوا مترتّبين عليه ﷺ بدليل قوله (بعد نبيه ﷺ).

وقوله ﷺ (علاّهم بتعليته) يراد منه وجهان أحدهما: أنهم إنما بلغوا ما بلغوا بمحمد وهو كذلك ، وثانيهما: أن الله رفعهم إلى المكان الذي رفعه ﷺ إليه لأن مقامهم من مقامه وطينتهم واحدة ونورهم واحد، وإن كان ﷺ هو السابق وهم التابعون لكنهم ﷺ به رأوا ما رأى وسمعوا ما سمع.

وقوله ﷺ (لقرنٍ قرن وزمن زمن) يشير إلى أن الله سبحانه جعلهم الدعاة بالحق إليه في جميع العوالم الألف ألف وفي جميع الأوقات يظهرون في كل عالم من جنسه ظاهراً وبسر علته وقيوميته باطناً.

وقوله عليه السلام (أنشأهم في القدم قبل كل مذروء ومبروء أنوار أنطقها ..الخ) يريد بالقدم المعنى الذي ذكر في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمذروء هنا في التقدير والمبروء في الأعيان أنطقها فحمدته بحقائقها وشكرته على ذواتها فسبحه الخلائق بهم ومجدوه بذكرهم وفي الزيارة الجامعة الصغيرة (يسبح الله بأسمائه جميع خلقه والسلام على أرواحكم وأجسادكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وقوله عليه السلام (وأشدهم خلقه وولاهم ما شاء من أمره) يريد أنه سبحانه خلقهم له وخلق الخلق لهم، وأشهدهم خلق خلقِه وولاهم ما شاء من أمره لأنهم محال مشيته.

وقوله عليه السلام (وجعلهم تراجم مشيته) يريد أنهم يفعلون بمشية الله فمشية الله لا تعرف إلا بفعلهم فهم المترجمون لمشيته وألسن إرادته يعني أن إرادته تنطق بالمفعولات وبيان العبارة عنها هو فعلهم فهو الناطق عن مشيته وأفعالهم وأقوالهم وأعمالهم ألسُن مشيته.

وقوله عليه السلام (بل جعل لهم عقولاً مازجت شواهدهم ..الخ) يشير إلى أنه سبحانه جعل عقولهم يعني المكلفين تدرك المعاني بنفسها وتدرك الرقائق بممازجتها للأرواح، وتدرك الصور بممازجتها للنفوس وتدرك الأشباح بممازجتها للحس المشترك، وتدرك الألوان بممازجتها للعيون وتدرك الأصوات بممازجتها للآذان وتدرك الروائح بممازجتها لحَلَمَات الآنافِ وتدرك الملموسات بممازجتها لبشرات اللامسين وهذه المشاعر ظاهرها وباطنها إنما تحسّ بمدركاتها ويُحِسّ صاحبها بتلك المدركات بالعقول لا غير والمراد بممازجة العقول لها ظهورها بإدراكاتها فيها واستعمالها لها فيما يراد منها.

واعلم أني إنما ذكرت بعض بيان ما ذكر في هذه الكلمات من خطبته ليحصل في ذكرها فائدة غير مجرد الاستشهاد بها على مقامه ومقام أهل بيته صلوات الله عليهم.

وفي قوله عليه السلام (رب العالمين) الرب هو المالك (الملك) والصاحب والسيد والمصلح والمربي والمدبر والمنعم، وهذه الأحكام السبعة معان للرب وبإضافته إلى العالمين تظهر فائدة إضافته في المالك والمربي والسيد والمصلح والمدبر والمنعم، وأما الصاحب فإذا أريد به المالك أريد هنا وإن أريد به معناه المشتق من المصاحبة فيجوز أيضا إطلاقه على الله تعالى بمعنى أنه مع كل شيء وبمعنى المحيط بكل شيء كما في الدعاء (يا صاحب كل نجوى ومنتهى كل شكوى) أي إنه الحاضر عندها والمحيط بها والمطلع عليها والذي بأمره تقوّمت النجوى، وإذا لوحظ في هذا المضاف معنى المربي والمصلح والمدبر والمنعم كان في إضافة الخيرة إليه أنه هو المربي بأمر الله لسائر الخلق، والمصلح لما فسد منهم والمدبر لهم بما فيه صلاحهم من الأوامر والنواهي والتأديبات الإرشادية التي بها نالوا حظوظهم من الدرجات والمقامات العاليات، أو أن الله سبحانه لشدة اعتنائه بتربية عباده وحسن تدبيره لهم وإصلاحهم وجزيل نعمه عليهم اختار منهم لإيصال هذه الخيرات إليهم خير خلقه لأنه كان شديد العنايه بما فيه صلاح نظامهم ودينهم ودنياهم ونفوسهم، ولذلك أخبر سبحانه عن هذه الصفات البالغة فيه كمال الغاية فيما هي له بحسب الرتبة الإمكانية، قال تعالى(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ).

والعالمين جمع عالم بفتح اللام اسم لما يعلم به كالخاتم لما يختم به، غلب فيما

يعلم به الصانع سبحانه مما سوى الله أو أنه اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين وقيل يراد به هنا الناس لأن كل واحد منهم عالم مستقل لأنه أنموذج من العالم الكبير ولأن فيه جميع ما في العالم الكبير من الأفلاك والأرض وأقواتها وما فيها من الجبال والشجر والمطر والبرق والرعد والنبات وغير ذلك، مما يعلم به الصانع سبحانه وَجُمِعَ لئَلا يتوهم أن الألف واللام لاستغراق أفراد شخص واحد أي أجزاؤه، وإن كان يمكن تصحيح ذلك على تكلف بمعنى إرادة جميع أمثاله في أحواله وأقواله وأفعاله وأعماله لأنها أمثاله، فإنك إذا رأيت زيداً قائماً يوم الأحد وقاعداً يوم الاثنين وآكلاً يوم الثلاثاء، وزانياً يوم الأربعاء، ومصليّاً يوم الخميس مثلاً فكلما التفت خيالك إلى زيد يوم الأحد رأيته في كل حال قائماً وفي يوم الاثنين في كل حال قاعداً وهكذا فلا تزال ما دمت حيّاً كلما التفت إلى تلك الحال من زيد، رأيت ذلك المثال عاملاً وإن مات زيد وهذه هي أمثاله وصفات أعماله وأفراده فلو أدخلت لام الاستغراق على الواحد لاستغراق أفراده بهذا المعنى جاز إلا أنه لا يتبادر عند الإطلاق ولا يصلح لخطاب العوام، فلما جمع كان الجمع لاستغراق الأجناس وحرف التعريف لاستغراق أفراد الجنس ودل هذان الاستغراقان المضافان إلى الرب جل وعلا على أنه سبحانه اختار محمداً لأجل إصلاح جميع بريته وتربيتهم وإصلاحهم وإرشادهم وتبليغهم المراتب العالية ﷺ الطاهرين.

قال عليه السلام ورحمة الله وبركاته

الرحمة هنا لعل المراد بها الرحمة المكتوبة الخالصة من جميع مكارة العدل والمتخلصة للكرم والفضل، وهذه هي الرحمة الخاصة وقد تقدم بعض بيانها وقد أشار الإمام عليه السلام في تفسيره في بيان هذه الرحمة الخاصة بالمؤمنين وهي صفة الرحيم

قال عليه السلام وأما قوله الرحيم فإن أمير المؤمنين عليه السلام قال (رحيم بعباده المؤمنين ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة وجعل منها رحمة واحدة في الخلق كلهم فبها يتراحم الناس وترحم الوالدة ولدها وتحنو الأمهات من الحيوان على أولادها فإذا كان يوم القيامة أضاف هذه الرحمة الواحدة إلى تسع وتسعين رحمة فيرحم بها أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم يشفعهم فيمن يحبون له الشفاعة من أهل الملة حتى أن الواحد ليجيء إلى مؤمن من الشيعة فيقول له اشفع لي فيقول له وأي حق لك علي فيقول سقيتك يوما ماء فيذكر ذلك فيشفع له فيشفع فيه ويجيء آخر فيقول إن لي عليك حقا فيقول وما حقك فيقول استظليت بظل جداري ساعة في يوم حار فيشفع له فيشفع فيه فلا يزال يشفع حتى يشفع في جيرانه و خلطائه و معارفه و أن المؤمن أكرم على الله تعالى مما يظنون).

ثم اعلم أن الرحمة بمعنى العطف وإيصال الفضائل أو دفع المكارة، أو هي الحياة في عالم الغيب بل وفي الشهادة وبمعنى المغفرة فعلى الأول والثاني قوله عليه السلام (يَا بَارِئَ خَلقِي رَحْمَةً بِي وَ قَدْ كَانَ عَنْ خَلقِي غَنِيّاً)وعلى الثالث قوله تعالى (لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ)وعلى الرابع قوله تعالى(فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها) وعلى الخامس قوله تعالى (أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)فإذا عطفت على(السلام) كما تقدم من معناه كانت بمعناه أو هو لدفع المكارة والرحمة لجلب الفواضل والفضائل الدينية والبركة محركة النماء والزيادة والسعادة.

قال في القاموس (وبارك على محمد وآل محمد أدِمْ له ما أعطيته من التشريف والكرامة، وتبارك الله تعالى تقدس وتنزه)هـ، فعطف البركة على الرحمة يفيد

تنمية رحمته لهم وزيادتها والدعاء لهم بإسعادهم بالقرب منه لهم ولأتباعهم.

قال محمد تقي رحمه الله في الشرح هنا (والبركة الدنيوية والأخروية أو الأعم منهما ومن الدينية وقد تقدم أنها لطف لنا، فإن مراتبهم عند الله تعالى بحيث لا تقبل الزيادة إلا بحسب المراتب الدنيوية وظهورهم على الأعادي وإعلانهم كلمة الله تعالى وهما أيضاً لنا) هـ.

أقول أراد من الدنيوية المال والجاه والأولاد وجميع الأسباب التي للمعاش في هذه الدنيا، كالمساكن والمتاجر وغيرها، والأخروية الأعمال الصالحات والثواب الذي هو صورها وأراد بالأعم منهما ومن الدينية أن البركة في نعم الدنيا وفضائلها وفي الأعمال وثوابها وفي كيفية العلم بها وكيفية العمل والمعونة على فعل تلك الأعمال التي هي أحوال الدين.

قوله (وقد تقدم أنها لطف لنا) يعني أن صلواتنا عليهم تزكية لنا وكفارة لذنوبنا فجميع ما يقع منا كدعائنا وأعمالنا وصلواتنا عليهم لا ينتفعون به وإنما نفع ذلك راجع إلينا، ثم قال فإن مراتبهم عند الله تعالى بحيث لا تقبل الزيادة إلا بحسب المراتب الدنيوية، ويريد أنهم عليهم السلام لا تزيد الأعمال في درجاتهم سواء كانت الأعمال منهم أو من شيعتهم وربما يستدل على ذلك بما روي من أنهم عليهم السلام لو شاءوا خزائن الدنيا وسألوا الله تعالى ذلك لأعطاهم ذلك ولا ينقص من حظوظهم يوم القيامة كما كان لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين أتاه جبرائيل عليه السلام بمفاتح خزائن الدنيا وقال (هذه مفاتح خزائن الدنيا) الحديث.

ومنها أنه أتاه ميكائيل فقال له (يا محمد عش ملكا منعما و هذه مفاتيح خزائن الأرض معك و تسير معك جبالها ذهبا وفضة ولا ينقص لك فيما ادخر لك

في الآخرة شيء فأومأ إلى جبرئيل عليه السلام وكان خليله من الملائكة فأشار إليه أن تواضع فقال بل أعيش نبيا عبدا آكل يوما ولا آكل يومين وألحق بإخواني من الأنبياء)الحديث.

ولو كان العمل يزيد في مقامهم لكان تسلطهم على خزائن الدنيا ينقص مراتبهم عند الله لأن صبرهم على شدة الفقر والحاجة لله تقرباً إليه ومحبة لما يحب من مفارقة الدنيا أفضل، وأحب إلى الله وأقرب وفي بعض الأخبار ما يصلح دليلاً له أيضاً إلا أن هذا شيء جار على الظاهر،وأمّا على ما هو الواقع فإنهم عليهم السلام أعلى مقاماً مما ذكره وأجل قدراً مما وصفه ومع هذا كله فلا يلزم منه أنهم لا ينتفعون بأعمالهم أو أعمال شيعتهم ولا أن مراتبهم لا تقبل الزيادة عند الله، فإن من تتبع أخبارهم ولاحظ المراد منها ظهر له أنهم ينتفعون بأعمالهم بل لا ينالون شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا بالأعمال، وفي الحديث القدسي حديث الأسرار (يا أحمد هل تدري لأي شي ء فضلتك على سائر الأنبياء قال صلى الله عليه وآله وسلم اللهم لا ، قال باليقين وحسن الخلق وسخاوة النفس ورحمة بالخلق وكذلك أوتاد الأرض لم يكونوا أوتادا إلا بهذا).

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام (أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ قَال لرَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِأَيِّ شَيْ ءٍ سَبَقْتَ الأَنْبِيَاءَ وَأَنْتَ بُعِثْتَ آخِرَهُمْ وَخَاتَمَهُمْ قَال إِنِّي كُنْتُ أَوَّل مَنْ آمَنَ برَبِّي وَأَوَّل مَنْ أَجَابَ حِينَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالوا بَلى) فَكُنْتُ أَنَا أَوَّل نَبِيٍّ قَال بَلى).

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَال (سُئِل رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِأَيِّ شَيْ ءٍ سَبَقْتَ وُلدَ آدَمَ قَال إِنِّي أَوَّل مَنْ أَقَرَّ برَبِّي إِنَّ اللهَ أَخَذَ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالوا بَلى فَكُنْتُ أَوَّل مَنْ أَجَابَ)هـ.

فبين ﷺ أنه إنما كان أفضل وأسبق لأنه سبقهم إلى الإجابة فلو لم تزد الأعمال في درجاتهم لما كان السبق إلى الإجابة سبباً في تفضيله على جميع الخلق وقال ﷺ (تناكحوا تناسلوا فإني مُباهٍ بكم الأمم الماضية والقرون السالفة يوم القيامة ولو بالسقط) هـ ، فإن المباهاة افتخار يرجع إلى النفس، والروايات الدالة على أنهم ترتفع درجتهم بالأعمال لا يمكن معارضتها لموافقة الأصل وقالوا عليهم السلام لشيعتهم (أعينونا بورع واجتهاد).

وأدنى ما يوجه به أنكم أعينونا على الشفاعة لكم فإنكم إن تورعتم كفيتمونا مؤنه الشفاعة وإلا احتجنا إلى الشفاعة لكم، وما دل من الأخبار على أنهم لا ينتفعون بأعمال شيعتهم ودعائهم لهم فأدنى ما يقال إنهم لا ينتفعون بذلك لأنفسهم وأما أنهم لا ينتفعون به لشيعتهم فلا على أن كون شيعتهم محتاجين إلى فاضل حسناتهم وأعمالهم لا ينافي انتفاعهم بأعمال شيعتهم باعتبار كما قلنا فإن الشجرة تنتفع بورقها في نفسها بمعنى تزداد بها قوة ونضارة وحسناً، وإن كانت الورق محتاجة في جميع أحوالها إلى الشجرة فإنها لا تبقى بدونها ولا تستمد إلا منها فالشجرة علة وجودها والمؤمن ورقة من شجرتهم.

(روى أبو حمزة الثمالي أنه سئل الباقر عليه السلام عن قوله تعالى (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ) فقال (قال رسول الله ﷺ أنا أصلها وعلي فرعها والأئمة أغصانها وعلمنا ثمرها وشيعتنا ورقها يا أبا حمزة إن المؤمن ليولد من شيعتنا فتورق ورقة فيها ويموت فتسقط منها ورقة).

وأيضاً فإن قوله (فإن مراتبهم عند الله تعالى بحيث لا تقبل الزيادة) إن أراد به عند الله تعالى في سابق علمه الذي هو ذاته فكل الخلائق كذلك، لا فرق بينهم

وبين الشجر وغيره فكل شيء عنده بمقدار لا يزيد فيه زايد ولا ينقص منه ناقص، فقد جف القلم بالنسبة إلى علم الله في كل شيء، وإن أراد به في أنفسها فكل الخلائق تقبل الزيادة كما تقبل النقصان لا فرق بينهم في ذلك وبين سائر الخلائق وكيف لا تقبل مراتبهم الزيادة وقد أخبر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز قال تعالى لنبيه ﷺ (وقُل رَبِّ زِدْنِي عِلماً)وقال ﷺ اللهم زدني فيك تحيراً وقد أخبر تعالى في كلامه القدسي في حديث الأسرار عن ذلك قال تعالى(يا محمد وجبت محبتي للمتحابين في ووجبت محبتي للمتعاطفين في ووجبت محبتي للمتواصلين في و وجبت محبتي للمتوكلين علي و ليس لمحبتي علم و لا غاية و لا نهاية وكلما رفعت لهم علما وضعت لهم علما أولئك الذين نظروا إلى المخلوقين بنظري إليهم و لم يرفعوا الحوائج إلى الخلق بطونهم خفيفة من أكل الحرام نعيمهم في الدنيا ذكري ومحبتي ورضائي عنهم)هـ.

يعني أن صلتي لأهل محبتي لا تنقطع أبدا كلما رفعت لهم علماً وضعت لهم حلماً فهم أبداً طالبون مني المدد والزيادة، وأنا أبداً أمُدهم بالصلة والإفادة فهذا وأمثاله مما تدل عليه الآثار ومن أنهم أبدا في الزيادة.

وأما دلالة العقول الصحيحة على ذلك فهي أظهر شيء لمن يفهم، ومما يدل عليه العقل من ذلك فهو ما أتلو عليك فاستمع لما يتلى(إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)وهو أنه قد قام الدليل على أن جميع الخلق من الحيوانات والنباتات والجمادات لا تستغني في بقائها عن المدد، بل تحتاج إليه في كل لحظة ولو جاز بقاؤها لحظة بدون المدد لجاز استغناؤها إلى الأبد فهي أبداً محتاجة إلى المدد، بل ليست شيئاً إلا به فالشيء منها دائما تأتيه أشياء لم تكن عنده وتذهب منه أشياء

إلا أنه أبدا يمده مما له مما ذهب عنه فهو أبدا في الزيادة والسير الشديد الحثيث إلى الله تعالى، فالمؤمن أبداً يقرب من ربه تعالى وربه أمامه يسير به إليه كما في الدعاء (تُدْلجُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُدْلجِ مِنْ خَلقِكَ)ومع أنه يقرب في كل لحظة إلى الله تعالى لا تقصر المسافة بينهما أبد الآبدين ودهر الداهرين، فمدده منه إليه فهو نهر يجري وكرة مستديرة تدور على نقطة لا إلى جهة فلا محور لها سوى وجهها من مشية الله وهذا هو الذي نريد به من قولنا أن الله سبحانه يمده بما ليس عنده بل بمدد جديد به يترقى ويزيد وإن كان ذلك الجديد هو ما مر عليه خرج عنه إلى العدم الإمكاني السرمدي ثم يحدثه بعد أن لم يكن ويختص به حين خصص به وكان لا يختص به قبل أن يختص به، وتعين له حين عين له وتعين له.

وبالجملة فهم عليهم السلام أبداً يأتيهم المدد من الله لا بقاء لهم بدونه وكذلك سائر الخلق إلا أنه في كل شيء بحسبه، فإذا تقرر أنهم يقبلون الزيادة لذواتهم من قبل المبدء الفياض ولا يجوز أن يأتيهم ما ليس منهم وإلا لتغيرت الحقائق ولا أن يذهب عنهم ما هو منهم وإلا لتغيّرت الحقائق، ويلزم من تغيّرها بطلان الثواب والعقاب لأن الشخص على هاتين الحالتين أبدا طري مغائر للأول فتذهب في كل آن أعماله من خير وشر فيعود ولا ثواب له ولا عقاب عليه، ويلزم منه بطلان التكليف لعدم الفائدة ويلزم منه بطلان الإيجاد والخلق لعدم الفائدة وهذا باطل بالضرورة فلا بد أن يكون ما يعود إليهم إنما هو منهم وقد دل الدليل على أن شيعتهم منهم من فاضل طينتهم وعجنوا بماء ولايتهم وجميع الأعمال الصالحة فرعهم ومن ولايتهم فإذا عمل العامل من الشيعة عملاً لهم أو دعا لهم أو صلى عليهم كان ذلك مدداً لهم في كل رتبة بما يناسب لها فهم ينتفعون بأعمال شيعتهم،

ولا يلزم من ذلك أنهم كيف يستمدون مما ليس لهم لأن أعمال شيعتهم منهم ولهم ولهذا كانت ذنوب شيعتهم عليهم ولا يلزم منه(لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى)لأن أوزار شيعتهم عليهم لأنهم منهم وصفتهم والأعمال صفات العاملين وصفة الصفة صفة، نعم هذا في المقام الذي يجتمعون فيه مع شيعتهم وأما ما يفارقونهم فيه من المقامات العالية التي لا يصل إليها الشيعة فلا ينتفعون فيه بأعمال الشيعة، نعم ينتفعون في كل مقام بأعمالهم فهم في كل حال وفي كل مقام(عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْل وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ).

قال عليه السلام السَّلَام على أئمّة الهدى

الأئمة بالياء والهمزة جمع إمام وهو هنا المقصود والدليل والهادي والمقدم لأنهم عليهم السلام المقصودون لكل خير والهداة إلى طريق النجاة والسعادة والنجاح والمقدّمون.

والهدى الرشاد والدلالة، وهداه أرشده ودلّه يتعدى بنفسه نحو (اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ)وباللام نحو(إِنَّ هَـذَا القُرْآنَ يِهْدِي للتِي هِيَ أَقْوَمُ)، وبإلى نحو(وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم)ونقل عن صاحب الكشاف أن هداه لكذا أو إلى كذا إنما يقال إذا لم يكن في ذلك فيَصِل بالهداية إليه وهداه كذا لمن يكون فيه فيزداد أو يثبت ولمن لا يكون فيَصِل.

وقد يقال لا نزاع في الاستعمالات الثلاث إلا أن منهم من فرق بأن معنى المتعدّي بنفسه هو الإيصال إلى المطلوب، ولا يكون إلا فعل الله فلا يستند إلا إليه كقوله تعالى(لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)ومعنى المتعدّي بحرف الجر هو الدلالة على ما يوصل إليه فيسند تارة إلى القرآن وأخرى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

قيل وهداية الله تعالى تتنوع أنواعاً لا يحصيها عدّ لكنها تنحصر في أجناس مترتبة.

الأول: إفاضة القوى التي يتمكن بها العبد من الاهتداء إلى مصالحه كالقوى العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

والثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد.

والثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

الرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام والمنامات الصادقة، وهذا القسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء.

وطلب الهداية وغيرها من المطالب قد يكون بلسان القول وقد يكون بلسان الاستعداد فما يكون بلسان الاستعداد لا يتخلّف عنه المطلوب، وما يكون بلسان القول ووافقه الاستعداد استجيب وإلا فلا.

فإن قلت فعلى هذا لا حاجة إلى لسان القول.

قلت يمكن أن يحصل في بعض استعداد المطلوب من الطلب بلسان القول فالاحتياط أن لا يترك الطالب الطلب بلسان القول فبالنسبة إلى بعض المراتب يطلب بلسان الاستعداد وفي بعضها بلسان القول انتهى كلامه.

أقول: هذا الكلام لم يكن في التفسير والذي في التفسير قال هدى إن أصله أن يتعدى باللام أو بإلى كقوله تعالى(إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ)(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)فعومل معاملة اختار في قوله تعالى(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ)ومعنى طلب الهداية وهم مهتدون طلب زيادة الهدى بمنح الألطاف كقوله تعالى(وَالذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)(وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)هـ.

أقول: في الكلام الأول لعل مأخذ الفرق الأول وهو قوله تعالى إن هداه لكذا أو إلى كذا الخ، أنه إذا عُدّي بنفسه كان الفعل متصلاً بالمفعول بلا موصل وهذا يدل على حصول المطلوب له وإنما الفائدة الزيادة من المطلوب أو الثبات عليه بخلاف المتعدي بغيره فإنه دالّ على عدم الاتصال والحصول حين الإسناد، ولعل الفرق الثاني ممن فرق هو أن ما لا يحتاج إلى شيء كان في فعله مستغنياً فيوصل إلى المطلوب بنفس فعله فيقال(اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ)ولأنه سبحانه لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه وغيره لا يقدر على ذلك، وإن كان الله سبحانه أقدره على الإيصال إلى ما يوصل إلى المطلوب إلا أن الإيصال إلى المطلوب لا يقدر عليه لجواز أن يمحوه الله سبحانه قال سبحانه لنبيه(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)ثم لما كانت زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني كان (هدى) إذا عُدّي باللام أقل وساطة منه إذا عدّي بإلى ولما كان محمد ﷺ إنما يهدي بالقرآن، كان القرآن نفسه أقرب وساطة فيستعمل في الإيصال إلى طريق المطلوب باللام لبساطة لفظها بالنسبة إلى (إلى) ويستعمل في حق النبي ﷺ في الإيصال إلى طريق المطلوب بإلى لأنه إنما يوصل بالقرآن قال الله تعالى(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلكِن جَعَلنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم)وقوله تعالى (نَّهْدِي بهِ) لا ينافي أنه يوصل إلى المطلوب لأنه يوصل إلى المطلوب بالقرآن، ولا ضرر لأنه لم يذكر المطلوب بحرف الجر وإنما ذكر آلة الهداية والطالب وأيضاً لا ينافي كون القرآن آلة للهداية ما قلنا من أنه سبحانه يوصل بفعله بلا توسط غيره، لأن القرآن وجه من الفعل وقد برهنا عليه في مباحثاتنا وكذلك قوله تعالى(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) بدون

ذكر وساطة القرآن في هداية النبي ﷺ لأن هذا معلوم من القرآن والأحاديث المتكثرة بأنه ﷺ إنما يهدي بالقرآن ألا تسمع قوله تعالى(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ) وقد سئل أحدهم عليه السلام أكان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان قال: نعم قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان).

واعلم أن هذه المسألة إذا أردنا بيان ما يتوجّه عليها أو على بعض شقوقها يطول الكلام فيه ونخرج عن الحد إلا أني أعطيك كلاماً مجملا وهو أن الله سبحانه فاعل، وكان من لطفه بخلقه أن يفعل بالسبب وهو أقرب إلى السبب من نفسه ومن المسبب وأقرب إلى المسبب من نفسه ومن سببه لأنه جاعل السبب سبباً، فإذا قيل هداك الله الصراط المستقيم أو هداك بالقرآن أو بنبيّه الصراط المستقيم كان كل ذلك حقاً والمعنى واحد لا يختلف في شيء إلا أنه قد بيّن جهة السببية وهو الفاعل للسبب والمسبب وهو المسبب بلا سبب، وإذا قلنا إن محمداً ﷺ إنما يهدي بالقرآن فهو حق، ولا ينافيه كونه أفضل من القرآن لأن كونه أفضل من القرآن هو المقتضي للتوسط فافهم.

وأما ما ذكر من الأجناس المرتبة الأربعة فهو كلام جيد إلا أن فيه شيئاً لا يهتدي إليه إلا من هداه الله إليه بنور الأئمة الطاهرين عليهم السلام وهو قوله فما يكون بلسان الاستعداد لا يتخلّف عنه المطلوب وهو أني أقول ما كان بلسان الاستعداد فهو مقتضٍ لعدم التخلف بما جعله الله كذلك فإن وقع فهو كذلك وإن لم يقع فهو كذلك لأنّ الله جعله مقتضياً إن أذن له وإلا فالأشياء واقفة ببابه منتظرة للإذن معلّقة بين العطاء والرد فليس لشيء من الخلق شيء من الأمر لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فإياك أن تخرج عن هذه الدرع الحصينة ولاء أهل بيت محمد عليهم السلام فإنه من التفت عن هذا السمت المستقيم(فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)فقوله عليه السلام (السلام على أئمة الهدى) يريد أنهم هم أدلة الهدى وهم الهدى والمرشدون والهادون بالهدى كما قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم (قُل هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)فهذه الدقيقة التي أشرنا إليها من هذا السبيل سبيل محمد الذي يدعو فيه إلى الله تعالى وهو سبيل أهل بيته عليهم السلام وهم الأئمة الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، وأما توجيه ما في التفسير فإنه يريد أن كونه متعدياً بنفسه على خلاف الأصل فعلى هذا لا يكون استعماله بدون حرف الجر لله في هدايته ولا عبارة موضوعة على ما يوصل إلى المطلوب ولا إلى ما يوصل إلى المطلوب وإنما الاستعمال والتخصيص لغرض آخر.

والحاصل الذي تقتضيه الأدلة أنهم مهديون من الله سبحانه وهم(لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْل وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ)وأنهم هادون بالله إلى الله سبحانه فيوصلون إلى المطلوب، وإلى ما يوصل إلى المطلوب بل هم المطلوب والمطلوب ثوابهم وظاهر إضافة الأئمة عليهم السلام إلى الهدى الاختصاص والواقع كذلك لأنهم مع الحق والحق معهم وفيهم وبهم ومنهم ولهم فلا يفارقهم الهدى ولا يفارقونه، فافهم ما أجملنا لك فقد جمعت في هذه الكلمات تفسير الظاهر والباطن وباطن الباطن وليس طلب أزيد من هذا.

قال عليه السلام ومصابيح الدجى

المصابيح جميع مصباح وهو السراج المركب من نار ودهن.

فأما النار التي في المصباح فالمراد منها ظهورها وأثرها وهو مادة السراج وصورته الدهن وإذا تكلس الدهن بحرارة النار وتلطف وكان دخاناً استضاء بأثر النار وظهورها فالاستضاءة من الدخان عن النار أي انفعل بالاستضاءة عن أثرها ومسها، وإنما المراد من النار التي في المصباح لا التي هي الحرارة واليبوسة فإنها غيب في هذا الظهور فالنار في هذه المصابيح المذكورة هي المشية وظهورها ومسها هو الوجود المحدث بالمشية كالدلالة المحدثة عن اللفظ التام، والدهن في السراج كالمعنى الميت قبل وقوع دلالة اللفظ فإنه ليس شيئاً كما أن الاستضاءة من الدخان الدهني قبل تعلّق فعل النار به ليست شيئاً، وهذا المس الذي هو كالدلالة هو الماء المنزل من السحاب الثقال على البلد الميت، فالماء الذي جعل منه كل شيء حيّ هو الوجود والبلد الميت هو القابلية والثمرات المخرجة به هي الموجودات وأولها العقل، قال أبو محمد العسكري عليه السلام (وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة)والباكورة أول الثمرة أي أول ثمرة الوجود وأول من ذاقها أي قبلها روح القدس وهو العقل الكلي وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش فالمصباح هو العقل الكلي فعقولهم التي هي شيء واحد تقسّم في هياكل التوحيد مصابيح الدجى.

والدجى: جمع دُجية بضم أوله وسكون الجيم وهي الظلمة، والمراد بها ظلمات العدم والشك والجهل والفناء فبهم في الأول ظهرت الموجودات، وبهم في الثاني استقر اليقين والثبات، وبهم في الثالث أفيض العلم على ألواح القابليات، وبهم في الرابع علت الدرجات وحصلت المكرمات والسعادات وقد تقدم في ما أشرنا إليه سابقاً أن لهم ثلاث مقامات:

الأول: مقام المعاني وهو أعلاها.

والثاني: مقام الأبواب وهو دون الأول.

والثالث: مقام الإمامة والحجة البشرية وهو دون الثاني.

وكونهم مصابيح الدجى يصلح للمقامين الأخيرين، أما مقام الإمامة فإنهم هداة الخلق والدعاة إلى الحق سبحانه فيكشفون بدعوتهم وهديهم عمّن اقتدى بهم واهتدى بهديهم ظلمات الجهل والضلالة، فمن اقتدى بهم واستضاء بنورهم فقد نجا وبلغ من الخيرات الغاية القصوى فهم في هذه الرتبة مصابيح دجى الجهل والشك والفناء.

وأما مقام الأبواب فإنهم هم المصباح الذي استضاءت به مصابيح الأكوان والأعيان، والأديان والأعمال والأحوال والأقوال والأفكار وجميع أطوار من دونهم، لأنهم في هذا المقام باب الوجود فكل شيء يصل إلى الخلق من خلق ورزق وممات وحياة فمنهم يعني أن فعل الله يتعلق بتلك الأشياء بواسطتهم فبهم تستنير الأكوان وعنهم تظهر الأعيان فهم مصابيح الدجى لكشفهم تلك الظلمات.

وفي الكافي بإسناده (عَنْ صَالِحِ بْنِ سَهْلٍ الهَمْدَانِيِّ قَال (قَال أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام فِي قَوْل اللهِ تَعَالى (اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَلأَرْضِ مَثَل نُورِهِ كَمِشْكاةٍ) فَاطِمَةُ عليها السلام (فِيها مِصْباحٌ) الحَسَنُ عليه السلام (المِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ) الحُسَيْنُ عليه السلام (الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) فَاطِمَةُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ بَيْنَ نِساءِ أَهْل الدُّنْيا (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ) إِبْرَاهِيمُ عليه السلام (زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) لا يَهُودِيَّةٍ وَلا نَصْرَانِيَّةٍ (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ) يَكَادُ الْعِلمُ يَنْفَجِرُ بِهَا (وَلوْ لمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ) إِمَامٌ مِنْهَا بَعْدَ

إِمَام (يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ) يَهْدِي اللهُ للأَئِمَّةِ مَنْ يَشَاءُ (وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثال للنَّاسِ)الحديث.

فضرب الله لنورهم مثلاً وهو المصباح لأن نورهم وفاضل وجودهم قد لاح شعاعه على سائر الأشباح، فبهم قامت الأعيان ولهم خلقت الأكوان وعلى سبيلهم وهديهم دار الإسلام والإيمان ولله در القائل شعراً في علي عليه السلام :

يا جوهراً قام الوجود به

الناسُ بعدكَ كلهم عَرَض

قال عليه السلام وأعلام التقى

الأعلام جمع عَلم كأسباب جمع سبب وهو الجبل الذي يعلم فيه الطريق فهم الجبال التي يعلم بها طريق التقى.

والتّقى أصله الوقا فأبدلت الواو تاء ولما أدخلت عليها اللام الشمسية أدغمت فيها وفي الفعل إذا دخلت عليه تاء الافتعال أدغمت التاء في التاء فقيل اتقى يتّقي كافتعل يفتعل.

وقيل في تقوى الله ثلاثة وجوه:

أحدها وهو أحسنها أن معناها أن يُطاع ولا يُعصى ويُشكر ولا يُكفر ويُذكر ولا يُنسى وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه سئل عن قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) فقال عليه السلام (يطاع ولا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر).

وثانيها أنه المجاهدة في الله وألا تأخذه فيه لومة لائم وأن يقام له بالقسط في الخوف والأمن وهذا عن مجاهد.

وثالثها أن يتقي جميع معاصي الله وهذا عن أبي علي الجبائي نقلت هذه الوجوه الثلاثة في قوله تعالى(اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ).

وقيل على الوجه الثاني والثالث أنها منسوخة بقوله تعالى(فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ولو قيل أنها منسوخة على الثالث خاصة، لأن المجاهدة لا تنافي تقوى الله على الاستطاعة لم يكن بعيداً بل ولو قيل إنها غير منسوخة على الثالث أيضاً لم يكن بعيداً كما هو المنقول عن ابن عباس والجبائي وطاووس لأن ذلك لا ينافي التقوى بالاستطاعة، والذي يظهر لي أن الآية المذكورة منسوخة كما هو المروي عنهما عليهما السلام ليس لأن معناها أحد الوجوه الثلاثة المذكورة بل لأن معناها أن الله سبحانه قد حكم ألا يقوم له أحد من خلقه بحقّه، فلو كان التكليف على حسب حق الله سبحانه وتعالى لكان تكليفاً بما لا يطيقه الخلق ويدل على هذا قول علي بن الحسين سيد العابدين عليه السلام في السجود بعد الرابعة من صلاة الليل فتأمل قوله عليه السلام تجد أن الله سبحانه كما لا يعدله شيء كذلك لا يقوم بحقه أحد.

قال عليه السلام (إلهي وعزتك وجلالك وعظمتك لو أني منذ بدعت فطرتي من أول الدهر عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين سرمد الأبد بحمد الخلائق وشكرهم أجمعين لكنت مقصرا في بلوغ أداء شكر أخفى نعمة من نعمتك علي ولو أني كربت معادن حديد الدنيا بأنيابي وحرثت أرضيها بأشفار عيني وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات والأرضين دما وصديدا لكان ذلك قليلا في كثير ما يجب من حقك علي و لو أنك إلهي عذبتني بعد ذلك بعذاب الخلائق أجمعين وعظمت للنار خلقي وجسمي وملأت جهنم وأطباقها

مني حتى لا تكون في النار معذب غيري ولا يكون لجهنم حطب سواي لكان ذلك بعدلك علي قليلا في كثير ما استوجبته من عقوبتك)هـ.

فانظر بعين بصيرتك وأمعن نظر قريحتك فيما ذكر عليه السلام هل يمكن حصول هذا من أحد من الخلق المكلفين، بل يمتنع وقوع ذلك ومع هذا لم يجعله حالة تقوى الله حق تقاته بل جعله كما هو الواقع تقصيراً في حق الجبار جل جلاله بحيث لو عذب فاعل ذلك الذي لا يمكن وقوعه من المكلّف لكان قليلا في جانب عدله على ذلك الفاعل لتقصيره في تلك الحال في خدمة الملك المتعال جل جلاله، فيكون هذا وجه تطرّق النسخ على الآية من جهة أن التكليف لا يحسن في الملّة السمحة السهلة لا ما ذكر في الوجه الثاني والثالث.

وقيل أن الآية الثانية مبيّنة للمراد من الأولى لا ناسخة معنى(اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)الذي تقدرون عليه على جهة الملّة الحنفية السهلة السمحة التي هي جهة الاستطاعة، وهذا القول حَسنٌ إذا لم يلاحظ مدلول العبارة الظاهرة ثم على تسليم صحة هذا الوجه فما الفائدة في العدول عن النسخ إلى التبيين، لأن النسخ هنا لا يراد منه نفي التقوى بالكلية وإنما يراد منه التخصيص ولا معنى للتبيين المذكور إلاّ تخصيص ذلك العموم .

والتقى الخشية والخوف من الله سبحانه في الغيب عند ملاحظة سطوات الجبروت ومنه قوله تعالى (وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ)(وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى).

والتقى تعظيم عظمة العظيم واستشعار جلاله وعظم شأنه وسعة كبريائه ومنه قوله تعالى(لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى)يعني تعظيماً لشعائر الله عظم شأنه، والتقى

الطاعة والعبادة الخالصة بأن يتّقي كلما ينافي أمر الله ومنه قوله تعالى(وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)يعني خير الأعمال الطاعات الخالصة لوجه الله تعالى والأصل فيها تطهير الظواهر وتنزيه القلوب من الذنوب للقيام بخدمة المحبوب كما قال تعالى(وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ).

والتقوى ثلاث تقوى العوام وهي فعل الواجبات وترك المحرمات، وتقوى الخواص وهي فعل الواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات،وتقوى خواص الخواص وهي فعل الواجبات الظاهرة التي تضمنتها الشريعة الحقة على ما قرره أهل العصمة عليهم السلام ، مما فرضه الله وشرعه ووصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ، ومندوبات العوام فإنهم يعني خواص الخواص لا يرضون لأنفسهم ترك ما هو راجح الفعل وعمل الواجبات الأخلاقية التي تضمنتها علوم الطريقة ومندوباتها فإنها لازمة على السابقين لأنهم لما قرأوا (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٭ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)عرفوا أن مَن بيّن الله له في نفسه شيئاً حتى رأى أن فعله أرجح من تركه بوجه ما، فلم يعمل به ويبادر إليه فقد أعرض عنه ومن أعرض عن ما ينبغي إلى ما لا ينبغي فقد كذب بالحق لأنه إن كان صادقاً فيما يدعيه من معرفة هذا الشيء، أنه ينبغي له أن يعمل به وأنّ تركه مرجوح وتركه لا لمرجح لتركه، وإن كان من دليل خارج صحيح فقد كذب بالحق الذي يعرفه بأن فعله أرجح من تركه ومن كذب بالحق بعمله مع تصديقه به في نفسه فقد استهزأ بالله وآياته ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى (قُل أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ)ومن استهزأ بالله لأنه لم يطع ربّه فيما أمره به

بعد التعريف والتصديق والقبول والمعاهدة على الوفاء واستهزأ بآياته التي بينها له وأقر بها واعترف وعاهد عليها واستهزأ برسوله ﷺ ، لأنه قد أجابه إذ دعاه إلى الإسلام والإيمان والتصديق واعترف بما عرفه وعاهد عليه مرة بعد أخرى فسوف يأتيه أنباء ما كان به يستهزأ، وترك جميع محرمات الشريعة ومكروهاتها وترك جميع محرمات الطريقة ومكروهاتها ومرجوحاتها في كل حال وإقامة منار التوحيد بتوحيده في الذات والصفات والأفعال والعبادة وفي السر والنور والخيال والحس المشترك، وفي السمع والبصر والحسّ.

وبالجملة حيثما وجد الحق ومحض الصدق حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما فيه بأس ومراتب التقى في نفسه وباعتبار العالمين مختلفة غير محصورة في العد وفي كل مرتبة يجد أهلها عليها عَلماً من آل محمد ﷺ دالاً على طرقها ومنيراً لما أدلهم من ظلمات أحوالها مُسهلاً لسلوكها معيناً لسالكيها على سلوكها مسدداً لما نقص من دواعيهم إليها متمما لقابلياتها ومقبولاتها بل هم في كل رتبة من التقى قادة أهلها وأئمتهم في تعليمهم وإنما قال أعلام التقى أي جبال التقى لفوائد:

منها أن الجبال رواسي فهم الذين تثبت بهم التقى، ومنها أنهم علامات لطرقها كالجبال، ومنها أن كل من وصل إلى مرتبة منها رآهم عليهم السلام فيها بحال عظمة لا يقدر أن يصفهم فيها كما في تأويل قوله تعالى(إِنَّكَ لن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلن تَبْلغَ الجِبَال طُولاً)بمعنى أن من وصل إلى مقام من مراتب التقوى رآهم فيها أربابها وأدلاءها وأساسها وأنها لهم خلقت لتعظيمهم ورفع شأنهم سنت وعلى حسب ما هم أهله قدرت ولتشييد سلطانهم شُرّعَتْ فالفعل الواجب منهم وترك الحرام عنهم وفعل المندوب فيهم وترك المكروه لهم وحفظ الأسرار عن

الأغيار بهم وهو قول علي عليه السلام جذب الأحدية لصفة التوحيد فهم أعلام التقى بكل معنى وعلى كل احتمال وبكل اعتبار صلى الله عليهم أجمعين.

قال عليه السلام وذوي النهى

ذوي جمع ذي بمعنى صاحب إلا أنه أكثر ما يستعمل في مقام الشرف والثناء، وصاحب يستعمل فيهما وفي ضدّهما على السواء فإذا ذُكِرا في شيء في حالتين كان (ذو) للمدح و(صاحب) للذم وإذا كان المقام يقتضي المدح والثناء في الحالين استعمل (ذو) في الغيب واللطيف والباطن و (صاحب) في الشهادة والغليظ والظاهر، مثال الأول قوله تعالى في مقام الثناء(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا)، وفي مقام اللوم والعتب قال تعالى(فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ)ومثال الثاني(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) وفي الدعاء (يَا صَاحِبَ كُلِّ نَجْوَى وَيَا مُنْتَهَى كُلِّ شَكْوَى).

ومن الثاني وذوي النهى لأن النهى من الغيب واللطيف والباطن.

والنهى جمعُ نُهية بالضم فيهما وهي العقل سمي نهية لأنه ينهى صاحبه عن القبائح أو ينتهي إليه صاحبه ويردّه إليه فيترك بمحبته القبائح ويفعل باختياراته الأوامر.

وفي القمي عن عمّار بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال (سألته عن قول الله عز وجل(إِنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لأُولي النُّهى) قال نحن والله أولو النهى فقلت جعلت فداك وما معنى أولي النهى قال ما أخبر الله به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مما يكون بعده من ادعاء فلان الخلافة والقيام بها والآخر من بعده والثالث من بعدهما وبني أمية فأخبر

رسول الله ﷺ وكان ذلك كما أخبر الله به نبيه، وكما أخبر رسول الله ﷺ عليا وكما انتهى إلينا من علي فيما يكون من بعده من الملك في بني أمية وغيرهم فهذه الآية التي ذكرها الله في الكتاب (إِنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهى) فنحن أولي النهى الذي انتهى إلينا علم هذا كله فصبرنا لأمر الله فنحن قوام الله على خلقه وخزانه على دينه نخزنه ونسره ونكتتم به من عدونا كما اكتتم رسول الله ﷺ حتى أذن الله له في الهجرة وجاهد المشركين فنحن على منهاج رسول الله ﷺ حتى يأذن الله لنا في إظهار دينه بالسيف وندعو الناس إليه فنضربهم عليه عودا كما ضربهم رسول الله ﷺ بدءا).

وهذا المعنى من معاني أولي النهى أي الذين تنتهي إليهم علوم كل الخلق أو ينتهي إليهم العلم بالخلق كما يشير إليه هذا الحديث.

ومن معاني ذوي النهى أي الذين هم النهاية وفي الزيارة (ليس لي وراء الله وورائكم يا ساداتي منتهى).

أو تنتهي إليهم الأمور أو إذا انتُهي بكم إلى حقائقهم فأمسكوا ، فهم ذووا العقول الكاملة لا سواهم، وأصل المسألة أن العقل واحد وهو عقل محمد ﷺ وهو يظهر في محمد ﷺ، ثم يظهر في عليّ عليه السلام ثم في الحسن عليه السلام ، ثم في الحسين عليه السلام ثم القائم عليه السلام ثم الأئمة الثمانية على ترتيب ظهورهم في الدنيا ثم فاطمة عليها السلام وهذا العقل وإن كان واحداً فإنّه يتعدد في الأئمة عليهم السلام كتعدّد البدل، مثاله محمد ﷺ كالسراج وعلي سراج شُعِل منه فمحمد قبل علي وبعد وجود علي عليه السلام كان مُساوياً لمحمد ﷺ وعليّ قبل الحسن عليه السلام وبَعْدَ وجود الحسن كانَ مساوياً لعلي عليه السلام وهكذا فليس يتعدد إلا في التعلق كمثل السراج فإنه واحد في النار وإذا شعلت

منه سُرُج لم تتعدد النار إلا باعتبار التعلّق، وإلى هذا المعنى أشار علي عليه السلام بقوله (أنا من أحمد كالضوء من الضوء) .

ولو كان متعدداً لتعدد بالاختلاف كما لو كان الثاني ظهور الأول كالنور من المنير أو مُشككا كاختلاف أجزاء النور بسبب قربها وبعدها من المنير فإنها لاختلافها كمّاً ورتبة متعددة ولا كذلك ذلك النور الذي هو عقلهم صلى الله عليهم فإنه شيء واحد، وإن اختلف رتبة باعتبار تقدم المتقدم منهم كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو متّفق متحد كماً وإن اختلف رتبة، فلهذا لم يزد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أحد من الأئمة بشيء إلا تقدمه ذاتاً وكذلك سائر التفاضل بينهم وهو وإن كان التفاوت به عظيماً، لكن النور الوارد على تلك الحقيقة الشريفة بعينه وكليته وارد على حقيقة عليّ عليه السلام وعلى حقيقة الحسن والحسين والأئمة التسعة وفاطمة عليهم أجمعين السلام،كما إذا أشعلت سراجاً من سراج لا أنه ينتقل عن الأول إلى الثاني فيلزم خلو كل أول ولا أنه يظهر على الثاني ليكون الظهور ضعيفاً ناقصاً فلا يساوي الأول في ذلك النور بل كله شيء واحد وإنما كان بعضهم أفضل من بعض لأجل تقدم حقيقة الفاضل وبالتقدم بوجود حقيقته لا غير كان أفضل وفي ذلك الفضل العظيم لأن هذا الحرف لا يقدر من دونه على تحمله ولهذا قال علي عليه السلام (أَنَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم) .

وقد يطلق على الروح الذي هو من أمر الله.

وفي تفسير علي بن إبراهيم بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله (وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ) قال (السماء في هذا الموضع أمير المؤمنين عليه السلام والطارق الذي يطرق الأئمة عليهم السلام من عند ربهم مما يحدث بالليل والنهار وهو الروح الذي مع الأئمة عليهم السلام يسددهم قلت (والنَّجْمُ الثَّاقِبُ قال ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) .

وفي بصائر الدرجات عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول (إن منا لمن يعاين معاينة وإن منا لمن ينقر في قلبه كيت وكيت وإن منا لمن يسمع كوقع السلسلة كما تقع في الطست قال قلت فالذين يعاينون ما هم قال خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل).

وفي عيون الأخبار بإسناده عن الحسن بن الجهم عن الرضا عليه السلام قال: إن الله عز وجل قد أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك لم تكن مع أحد ممن مضى إلا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي مع الأئمة منا تسددهم وتوفقهم وهو عمود من نور بيننا وبين الله عز وجل) .

فإن قلت قد تكثرت الروايات أن هذه الروح تكون مع الأنبياء عليهم السلام ، من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فما الجمع بينها وبين هذه الأخبار الدالة على أنها لم تكن مع أحد ممن مضى إلا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ...الخ.

قلت الجمع بينهما من وجهين.

الأول: إن هذه الروح إنما كانت عند الأنبياء عليهم السلام بواسطتهم فلم تكن عند الأنبياء حقيقة كما تقول إن عبد زيد ينفع عمرواً بإذن سيده فإنه يصدق على هذا العبد أنه لم يكن مع عمرو وإن نفعه بإذن مولاه وهذا ظاهر.

الثاني إن الملك المذكور إنما يكون مع الأنبياء السابقين بوجه من وجوهه ولم يكن بكليّته إلا مع محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وقد بيّنا أن هذا هو العقل.

وفي الكافي عن مُحَمَّدِ بْن مُسْلم عَنْ أَبِي جَعْفَر عليه السلام قَال (لَمَّا خَلقَ اللهُ العَقْل اسْتَنْطَقَهُ ثُمَّ قَال لهُ أَقْبِل فَأَقْبَل ثُمَّ قَال لهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ ثُمَّ قَال لهُ وَعِزَّتِي وَجَلالي مَا خَلقْتُ خَلقاً هُوَ أَحَبُّ إِليَّ مِنْكَ وَلا أَكْمَلتُكَ إِلا فِيمَنْ أُحِبُّ).

فقوله تعالى (وَلا أَكْمَلتُكَ إِلا فِيمَنْ أُحِبُّ) يبيّن على أنه لم يكمله إلا في محمد وآله ﷺ إذ لا حبيب له إذا أطلق يتبادر إليه الإطلاق إلا محمد وآله ﷺ.

فإن قلت ما الجمع بين ما ذكر في رواية عيون الأخبار أن هذه الروح ليست بملك ومثلها كثير أنه خلق أعظم من الملائكة، وبين ما ورد في القرآن بأنه ملك قال تعالى(وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) على ما روي فيه وذكر في بعض وجوه تفسيره أنه ليس المراد به الجنس بل مَلكٌ ومعنى ما روي فيه هنا أنه ملك يقوم وحده صفاً وجميع الملائكة من السموات وملائكة الحجب والسرادقات وحملة العرش وجميع ما خلق الله من الملائكة صفاً ويكون هو أعظم منهم.

قلت هو من العالين الأربعة المعبّر عنهم بأركان العرش (نور أحمر منه احمرّت الحمرة، ونور أصفر منه اصفرّت الصفرة، ونور أخضر منه اخضرّت الخضرة، ونور أبيض منه ابيض البياض، ومنه ضوء النهار).

وليست هذه الأربعة من الملائكة لأن الملائكة حروف من حروف الوجود وهذه هي الكلمات التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وإنما تسمى هذه الروح التي هي أحد الأربعة وهو عبارة عن الركن الأصفر، وقد يطلق ويراد منه الأبيض إنما يسمى ملكاً في بعض الأحوال نظراً إلى ما بينهما من مشاكلة الصفة والفعل فإنّ الملك كان مستتراً محتجباً بلطافة جسمه ولهذا تسمى الملائكة بالجنة كما حكي عن القائلين بأن الملائكة بنات الله قال تعالى(وَجَعَلوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)، فشابهت الأنوار العالون الملائكة في هذه الصفة وأيضاً ملك أصله مألك فَقُدّمت اللام وأخرت الهمزة ووزنه مَفْعَل، مأخوذ من الألوكة وهي الرسالة ثم تركت الهمزة لكثرة الاستعمال فقيل ملك

بالتحريك فلما جمعوه ردوه إلى أصله، يعني قبل الحذف لا قبل التقديم والتأخير فقالوا ملائك فزيدت التاء للمبالغة أو لتأنيث الجمع.

وعن ابن كيسان (أنه فعال من الملك)فحذفت الألف تخفيفاً، ونقل عن أبي عبيدة أنه (مفعل يعني ملاك من لأك إذا أرسل في ملكه شيئاً وليس في ملكه شيء)أي لا يملك شيئاً فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال بعد نقل حركتها إلى ما قبلها أو من الملك أي القهر فإن الملائكة مظاهر القهر أو لأنهم مماليكه أو من قوله عبد مملكة ومملكة بفتح الميم وضمها، إذا مُلك ولم يملك أبواه، ومنه الحديث (لا يدخل الجنة سيئ الملائكة) يعني سيئ الصنع إلى مماليكه ويقال فلان حسن الملائكة أي حسن الصنع إلى مماليكه وسميت الملائكة لأنهم رسل كما قال تعالى(جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً)أو جعلوا رُسُلاً إلى من سيكون أو لأنهم مظاهر القهر، أو لأنهم مماليك ابتداء أو لأنه أحسن صنعهم حتى قيل في قوله تعالى(وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلناهُمْ فِي البَرِّ وَ البَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلقْنا تَفْضِيلاً)أنه أخرج جنس الملائكة من التفضيل عليهم وإن كان الحق أنهم داخلون أو أحسن إليهم أو أحسن إلى عباده بهم.

وفي كل هذه الوجوه يحصل التشابه بين الروح وبين الملائكة وإن كانت هذه الوجوه في جانب الروح أقوى منها في جانب الملائكة فيسمى بالملك في هذه الوجوه أولى من الملائكة، وإنما نفى كونه ملكاً بالمعنى المعروف من الملك فإنه ليس من جنس الملائكة، وإنما الملائكة خُلقت من فاضل شعاعه لأن أرواح الأنبياء عليهم السلام خلقوا من شعاعه والملائكة خُلقت من شعاع أرواح الأنبياء عليهم السلام فهم صلى الله عليهم ذَووا النهى على الحقيقة يعني أصحاب العقول الكاملة،

وإنما ذكرنا في تعريف العقول الروح وإن كان إنما يراد منه عند الإطلاق غير العقل، أما النفس التي هي محل الصور واللوح المحفوظ، وأما الروح الكلية التي خلقت من شعاعها البراق وهي الرقائق الحقيقية وبرزخ الذرين وتحت هذا الورق الخضر وورق الآس إلا أنها قد يطلق ويراد منها العقل ولاسيما في هذا الموضع فافهم راشداً.

قال عليه السلام وأولي الحجى

قال الشارح رحمه الله كإلي العقل والفطنة انتهى.

أقول:(أولي) على وزن رُمي مبنياً للمجهول في النصب والجر وأولوا على وزن حُبُك في الرفع والواو، في الحالين يؤتى بها للفرق بين أولى وإلى حرف جر وكذا في أولوا وأولاء وأولئكَ وأولاتْ كلها للفرق بينها وبين ما يشبهها في الصورة في النقش، ولهذا تسمى هذه الواو واو الفارقة، وأولوا قيل جمع لا واحد له من لفظه وقيل اسم جمع واحده (ذو) وأولات للإناث واحدها ذات وأولا جمع ويمدّه لا واحد له من لفظه أو واحده يكون (ذا) في المذكر و(ذه) في المؤنث ومعناه كما تقدم في ذوي النهى والحِجى: بكسر الحاء المهملة العقل والفطنة والمقدار وهو مفرد جمعه أحجاء كآلاء جمع (إلى) بكسر الهمزة بمعنى النعمة وهو من حَجى به كرَضى به أولع به ولزمه أو عداه من الأضداد أو من حَجي به كغني بمعنى جدير أي حقيق به قال علي عليه السلام في الشقشقية (فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى).

ومن تحجى بالسر أي حفظه أو من تحجى عند الشيء وقف أو تحَجّاه منعه، أو من حجا بالمكان حجواً أقام به أو من حاجيته محاجاة وحِجاء فحجوته أي

فاطنته فغلبته، أو من الحجا أي الستر كما في الحديث (من بات على ظهر بيت ليس عليه حجا فقد برئت منه الذمة)أي ليس عليه ستر يمنعه من السقوط وإنما أتى بالجمع في النهى والمفرد في الحجى للسجّع وإلا فقد تقدّم أن الجمع هناك ليس لأن عقولهم متعددة حقيقة وإنما هو لموافقة التعدد ظاهراً فهنا أدل على الباطن وهناك أدلّ على الظاهر.

وعلى أخذه من حجى به كرضى للزومه للحق ومحبته له لما بينهما من كمال الموافقة أو للحقائق لأنهما من واد واحد ومن عدا لشيء لأنه أبداً مفارق للباطل ماقت له في جميع أحواله، ومن حجي كغني بمعنى جدير لأنه حقيق بطهارة مداركه ومتعلّقاته ومن تحجى بمعنى حَفِظ لأنه يكتم ما وصل إليه مما دونه ولا يهمل ما وصل إليه مما فوقه، ومن تحجى عنده لأنه لا يقدم على المظنون مع إمكان المعلوم ولا على الموهوم مع إمكان المظنون عند فقد المعلوم حال التكليف أو الحاجة ومن تحجّى بمعنى منعه لأنه يمنع صاحبه عن الباطل، كما يمتنع هو منه ومن حجا بمعنى أقامه لأنه لا ينتقل عن اليقين إلا إلى يقين يقابله أرجح منه بمرجح ذاتي أو خارجي يوجب الانتقال فيكون الأول بذلك المرجح ليس بيقين في الحقيقة بالنسبة إلى اليقين المنتقل إليه وإلا لم ينتقل منه.

ومن حاجيته أنه ينزع إلى مداركه قبل ما يتوجه إليها غيره من المشاعر وإن توجّه الغير إليها قبله سبقه على الإدراك إذ ليس إدراك إلا به فهو يحجو غيره منها ويغلبه.

ومن الحجا أي الستر لأنه يستر عيوب صاحبه بحسن نظره أو يمنعه عن فعل ما تبدو به عورته فهو يستره لمنعه عن الكشف فهم عليهم السلام أولو الحجى على المعنى الأول، والثاني والثالث والرابع والسادس والتاسع على أحد معنييه.

أما على الخامس فلا على إطلاقه لأنهم لا يفقدون المعلوم ولا يصيرون إلى مظنون ولا موهوم، وإذا صاروا إلى شيء منها بالنسبة إلى غيرهم فهو عندهم معلوم واجب المصير إليه عليهم إما للتقية أو لبيان الجواز أو التخيير أو التعليم والتسهيل على الرعية وغير ذلك.

وأما على السابع فيصح لهم على نحو خاص فإنهم لا ينتقلون عن يقين إلى يقين أرجح منه قبل الانتقال وإنما ينتقلون عن الأول إذ انقضت مدة العمل به ولو وقت الانتقال وكتبت مدة اليقين المنتقل إليه ووقع تكليفهم به فهم أبداً في راجح بخلاف غيرهم فإنه يجوز أن يكون المنتقل إليه قبل الانتقال أرجح من المنتقل منه في الواقع الوجودي أو التكليفي بالنسبة إلى ذلك الغير ولم يصل إليه الترجيح أو لم يعرف الترجيح ولعل آخر قام بالراجح مع بقاء ذلك الغير على ما هو مرجوح في نفس الأمر بل قد يكون الراجح قد وصل إليه وعرفه، وأقام على المرجوح إمّا لأنس نفسه بالمرجوح له أو لخلوده إلى قاعدة عنده مع ظهور الرجحان له عند نفسه فركن إلى المرجوح للقاعدة ولعل الفساد من القاعدة ولم يعثر على خللها أو لغرض آخر دنيوي يصرف فكره إلى تلفيق مرجّحات البقاء على الأول وهو يعلم وهو لا يعلم وذلك من قوله تعالى(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)وقوله تعالى(وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)وهم عليهم السلام مطهرون عن هذه الأمور كلها.

وأما على الثامن فيصح لهم ذلك على أنهم عليهم السلام لذاتهم وفطرتهم التي فطرهم الله عليها هم السابقون وهم الغالبون بلا مماراة ولا مغالبة لأنهم حزب الله(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)ولأنهم سبقوا ولا مسابق فإذا وجد فهو لاحق وتابع

ومتعلم أو حاسد قاصر منحط عن مقامهم قد خرّ من دون سماء رتبتهم من حيث حسد ونظر (فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق).

قال عليه السلام وكهف الورى

الكهف: غار واسع في الجبل فإن كان صغيراً قيل له غار والمنغور والمراد هنا في الجبل كالبيت، كهف والمراد هنا الملجأ والحاوي للشيء والمأوى له.

وفي الحديث (الدعاء كهفُ الإجابة كما أن السحاب كهف المطر)يعني أن الدعاء مظنّة تضمن الإجابة، كما أن السحاب مظنة تضمن المطر يعني أنهم عليهم السلام ملجأ الورى أي ملجأ الخلق والمراد بالورى الخلق، والمراد بالخلق هنا الناس. هذا ظاهر اللغة وظاهر العبارة ولهذا ذكر في كونهم ملاذاً ما يناسب الأفهام وإلا ففي الحقيقة فهم ملجأ جميع المخلوقات كانت الأنبياء إذا قصّروا التجئوا إليهم وتشفعوا بهم فيُشفع لهم.

روى الصدوق في أماليه بإسناده عن معمُر بن راشد قال سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول (أتى يهودي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقام بين يديه يحد النظر إليه فقال يا يهودي ما حاجتك قال أنت أفضل أم موسى بن عمران النبي الذي كلمه الله وأنزل عليه التوراة والعصا وفلق له البحر وأظله بالغمام فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنه يكره للرجل أن يزكي نفسه ولكني أقول إن آدم عليه السلام لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي فغفرها الله له وإن نوحا لما ركب في السفينة وخاف الغرق قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فنجاه الله عنه وإن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار

قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وإن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما نجيتني فقال الله جل جلاله لا تخف إنك أنت الأعلى يا يهودي إن موسى لو أدركني ثم لم يؤمن بي و بنبوتي ما نفعه إيمانه شيئا ولا نفعته النبوة يا يهودي ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى بن مريم لنصرته فقدمه وصلى خلفه).

وقال علي بن الحسين عليه السلام (حدثني أبي عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يا عباد الله إن آدم لما رأى النور ساطعا في صلبه إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره رأى النور ولم يتبين الأشباح قال يا رب ما هذه الأنوار وقال الله عز وجل أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشي إلى ظهرك ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح فقال آدم يا رب لو بينتها لي فقال الله عز وجل انظر يا آدم إلى ذروة العرش فنظر آدم ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره كما ينطبع وجه الإنسان في المرآة الصافية فرأى أشباحنا فقال ما هذه الأشباح يا رب قال الله يا آدم هذه الأشباح أفضل خلائقي وبرياتي هذا محمد وأنا الحمد والمحمود في أفعالي شققت له اسما من اسمي وهذا علي وأنا العلي العظيم شققت له اسما من اسمي وهذه فاطمة وأنا فاطر السماوات والأرضين أفاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل قضائي وأفاطم أوليائي عما يبيرهم ويشينهم فشققت لها اسما من اسمي وهذا الحسن وهذا الحسين وأنا المحسن المجمل شققت اسمهما من اسمي هؤلاء خيار خلقي وكرام بريتي بهم آخذ وبهم أعطي وبهم أعاقب وبهم أثيب فتوسل

بهم إلي يا آدم وإذا دهتك داهية فاجعلهم إلي شفعاءك فإني آليت على نفسي قسما حقا لا أخيب بهم آملا ولا أرد بهم سائلا فلذلك حين نزلت منه الخطية دعا الله عز وجل بهم فتاب عليه وغفر له) انتهى.

فهذا وأمثاله من الأحاديث الدالة على أنّهم هم الملجأ والملاذ فلا يستجيب الله الدعاء إلا بهم لأنهم ذمامه المنيع الذي لا يُطاول ولا يحاول، أي لا يضام جارهم ولا يُرام حماهم ولا يَعْدِلهم شيء، أَلا تَسْمَع قول الضالين يوم القيامة لمّا كشف لهم عن الحقّائق حتى عرفوا أنّ ما ينسب للمعبود من الأحوال المرتبطة بالخلق هي بعينها ما لهم عليهم السلام فطاعتهم عين طاعة الله ومعصيتهم عين معصية الله فمن أطاعهم فقد أطاع الله فلما كشف لهم هذه الحقائق (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) يعني تطيعونهم في معصية وليّ الله (هَل يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)أي ينجونكم من النار أو ينجّون أنفسهم منها(فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ) يعني الضالين (وَالغاوُونَ) يعني المضلين المطاعين في معصية الله تعالى (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) يعني قرناؤهم من الشياطين الذين زيّنوا لهم ماضيهم وغابرهم (قالوا) أي الضالون (وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ) مع الغاوين (تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) أي والله الذي هو الهادي لمن أطاعه وآمن به لقد كنا في ضلالٍ مبين بمخالفته وطاعة أعدائه(إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمِينَ)يعني جعلناكم مساوين لرب العالمين حيث أمرنا بطاعة وليّه وأمرتمونا بمعاداة وليّه وطاعة عدوّه فاتبعناكم وتركنا مالكنا ومصلحنا ومربينا وهادينا ومدبّر أمورنا فلما كشف لهم في الآخرة عن الحقائق ورأوا أنّهم عليهم السلام لا يَعْدِلهم شيء ولا يدنو من مقامهم شيء قالوا ما حكى الله عنهم فمن اعتصم بهم حُفِظَ من شر كل غاشم وطارق من خلق الله الصامت

والناطق لأنّ الله سبحانه خلقهم قبل كل شيء ثم خلق الأشياء وأشهدهم خلقها وأنهى إليهم علمها وجعلهم ملاذ كل شيء ومرد كلّ شيء وإليهم إياب كل شيء وعليهم حساب كلّ شيء.

روى المفيد ﵀ في الاختصاص والصّفار في البصائر بإسنادهما إلى أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ ثابت بن دينار قال (سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ ﵇ يَقُولُ: مَنْ أَحْلَلنَا لَهُ شَيْئاً أَصَابَهُ مِنْ أَعْمَالِ الظَّالِمِينَ فَهُوَ لَهُ حَلالٌ لأَنَّ الأَئِمَّةَ مِنَّا مُفَوَّضٌ إِلَيْهِمْ فَمَا أَحَلُّوا فَهُوَ حَلالٌ وَمَا حَرَّمُوا فَهُوَ حَرَام) .

وفي الاختصاص بإسناده عن محمد بن سنان قال (كنت عند أبي جعفر ﵇ فذكرتُ اختلاف الشيعة فقال: إنّ الله لم يزل فرداً متفرداً في الوحدانيّة ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة ﵈ فمكثوا ألف دهر، ثم خلق الأشياء وأشهدهم خلقها وأجرى عليها طاعتهم وجعل فيهم ما شاء، وفوّض أمر الأشياء إليهم في الحكم والتصرّف والإرشاد والأمر والنهي في الخلق لأنهم الولاة فلهم الأمر والولاية والهداية فهم أبوابه ونوابه وحجابه يحللون ما شاء ويحرّمون ما شاء، ولا يفعلون إلاّ ما شاء عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون فهذه الديانة التي مَن تقدّمها غرق في بحر الإفراط، ومن نقّصهم عن هذه المراتب التي رتّبهم الله فيها زهق في بحر التفريط ولم يوف آل محمد حقهم فيما يجب على المؤمن من معرفتهم. ثم قال: خذها يا محمد فإنها من مخزون العلم ومكنونه).

وفي البصائر بإسناده عن زرارة قال سمعت أبا جعفر ﵇ وأبا عبد الله ﵇ يقول (إن الله فوض إلى نبيه أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم ثم تلا هذه الآية(ما آتاكُمُ الرَّسُول فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا).

فلمّا خلق الخلق وأشهدهم أمر الخلق وأنهى علم الخلق إليهم وأمر جميع الخلق من الصامت والناطق بطاعتهم وأنه لا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا عن أمرهم، كانوا مردّ جميع الأعيان والمعاني. ولعل ما أشار علي عليه السلام في خطبته في تنـزيه الخالق جلّ وعلا بقوله (انتهى المخلوق إلى مثله) يشير في باطن تفسيره إلى هذا، ومما يدل على ذلك ما في كتاب محمد بن شاذان بن نعيم بخطه عن حمران بن أعين قال (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يحدث عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنّ رجلاً كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام مريضاً شديد الحمّى فعاده الحسين بن علي عليه السلام فلما دخل من باب الدار طار الحمّى عن الرجل فقال: قد رضيتُ بما أوتيتم به حقّاً حقاً والحمّى لتهرب منكم فقال له والله ما خلق الله شيئاً إلاّ وقد أمره بالطاعة لنا، يا كبّاسة قال فإذا نحن نسمع الصوت ولا نرى الشخص يقول: لبيْك. قال: أليس أمرك أمير المؤمنين عليه السلام ألا تقربي إلا عدواً أو مذنباً لكي يكون كفارة لذنوبه فما بال هذا؟ وكان الرجل المريض عبد الله بن شداد الهادي الليثي).

وروى هذا الحديث ابن شهر آشوب عن زرارة بن أعين.

فإذا ظهر لك مما أشرنا إليه ومن الروايات أنهم ملجأ الكل فاعلم أنه قد ذكرنا في مواضع كثيرة أنهم باب الله إلى الخلق وباب الخلق إلى الله تعالى، وبعد ما عرفتَ أنّ كل شيء من الله وأنه سبحانه ليس له باب إلى الخلق إلا هم عليهم السلام وأن الشرط الأعظم والركن الكلي في وجودات الخلق وماهياتهم وقوابلهم هو وجودهم عليهم السلام لأن الله سبحانه اتخذهم أعضاداً لخلقه فإذا تحقق لك هذه الأمور ثبت عندك أنّهم الملجأ والملاذ والمرجع في كلّ شيء صدر عن مشية الله بعدهم من عين أو معنى جوهر أو عرض ذات أو صفة حال أو ظرف أو بُعدٌ جسمي أو بعد مكاني أو بعد زماني.

والحاصل أن كل شيء يلتجأ إليهم في جهة فقره وتختلف حوائج السائلين إليهم فمنهم في خلق أو رزقٍ أو حياةٍ أو مماتٍ ومنهم في نموٍ وغذاءٍ ومنهم في بقاءٍ وحفظ ومنهم في طلب ورجاءٍ ومنهم في استجارةٍ ووقاء إلى غير ذلك على حسب استعداداتهم وهو قول عليّ بن الحسين عليه السلام (إلهي وقف السائلون ببابك ولاذ الفقراء بجنابك) يا شافي يا كافي يا معافي يا أرحم الراحمين.

قال عليه السلام وورثة الأنبياء

قال محمد تقي المجلسي في الشرح فإنهم ورثوا كل علم وكتاب وفضيلةٍ وكمال، كان لهم حتّى عصى موسى وعمامة هارون والتابوت والسكينة وخاتم سليمان ، كما روي في الأخبار المتواترة بل روي أنهم آتاهم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين هـ.

أقول: يراد من كونهم ورثوا الأنبياء أحد معنيين.

أحدهما: أن جميع خواص الأنبياء وآثارهم ومتروكاتهم المختصة بهم للآخرة أو للإبلاغ والتعريف وإقامة الدين وغيرها ممّا أعدّوه لطاعة الله تعالى ورثوه كما أشار إلى بعضه محمد تقي رحمه الله.

وثانيهما: أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً بمعنى أن كل ما تركوا من حطام الدنيا لم يعدّوا شيئاً من ذلك ميراثاً وإنما ورثوا العلم، فمعنى كونهم ورثة الأنبياء أنهم ورثوا جميع ما عندهم من العلوم مما أدركوه من الوحي بواسطة الملك أو الإلهام أو الفهم وما تخاطبه به الحيوانات والجمادات والنباتات وهفيف الرياح وجريان المياه ولمعان البروق وأصوات الرعود وتَغَطْمُطُ البحار وزهر

الأشجار، وقد جمع الله لهم ما فرقه في سائر خلقه مع ما لم يقسمه بين أحد من خلقه سواهم.

وفيه معانٍ أُخَر منها أنّ ما ثبت للأنبياء عليهم السلام من وجوب الطاعة والعصمة والأعمال وغير ذلك فإنهم قَدْ وَرِثوه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم (عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيل)، فكانوا وارثين للأنبياء في وجوب الطاعة والإعذار والإنذار.

ومنها أن ما ثبت للأنبياء عليهم السلام من تلك الصفات الحميدة التي بها بُعِثوا ولأجلها أرسلوا هي من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعليهم وعنهم صدرت وبنورهم وُجدت ولسلطانهم قُدّرت وللثناء عليهم نُشرت فهي صفات أنوارهم ومظاهر آثارهم، فهي لهم وهم الوارثون وهو قوله تعالى(وَ نَحْنُ الوارِثُونَ)ومعنى هذه الآية قوله تعالى(وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ).

ومنها أن الأنبياء من رَشح عرق نورهم يعني أن أرواحهم خلقت من رَشْح أنوار محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك بعدَ خلق أنوارهم بألف دهرٍ وما كان أوّلاً يكون آخراً فإليهم ترجع الأنبياء إلى أن يفنوا فيهم، فهم الوارثون للأنبياء ولهم أعمالهم فهم يرثون أعمالهم كما تقدّم، فإذا قلتَ ورثة الأنبياء فالمراد بهذه الوراثة كل معنى مما أشرنا إليه ومما لم نشر إليه.

ومما يدل على الوراثة الظاهرة ما رواه في الكافي بسنده عَنْ سَعِيدٍ السَّمَّانِ قَالَ (كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام إِذْ دَخَل عَلَيْهِ رَجُلانِ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ فَقَالا لَهُ أَفِيكُمْ إِمَامٌ مُفْتَرَضُ الطَّاعَةِ قَال فَقَال لا قَال فَقَالا لَهُ قَدْ أَخْبَرَنَا عَنْكَ الثِّقَاتُ أَنَّكَ تُفْتِي وَتُقِرُّ وَتَقُول بِهِ وَنُسَمِّيهِمْ لكَ فُلانٌ وَ فُلانٌ وَ هُمْ أَصْحَابُ وَرَعٍ وَتَشْمِيرٍ وَهُمْ مِمَّنْ لا يَكْذِبُ فَغَضِبَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَقَال مَا أَمَرْتُهُمْ بِهَذَا فَلَمَّا رَأَيَا الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ

خَرَجَا فَقَال لي أَ تَعْرِفُ هَذَيْنِ قُلتُ نَعَمْ هُمَا مِنْ أَهْل سُوقِنَا وَهُمَا مِنَ الزَّيْدِيَّةِ وَهُمَا يَزْعُمَانِ أَنَّ سَيْفَ رَسُول اللهِ ﷺ عِنْدَ عَبْدِاللهِ بْنِ الحَسَنِ فَقَال كَذَبَا لعَنَهُمَا اللهُ وَاللهِ مَا رَآهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ الحَسَنِ بِعَيْنَيْهِ وَلا بِوَاحِدَةٍ مِنْ عَيْنَيْهِ وَلا رَآهُ أَبُوهُ اللهُمَّ إلا أَنْ يَكُونَ رَآهُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ فَإِنْ كَانَا صَادِقَيْنِ فَمَا عَلامَةٌ فِي مَقْبَضِهِ وَمَا أَثَرٌ فِي مَوْضِعِ مَضْرَبِهِ وَإِنَّ عِنْدِي لسَيْفَ رَسُول اللهِ ﷺ وَإِنَّ عِنْدِي لرَايَةَ رَسُول اللهِ ﷺ وَدِرْعَهُ وَلامَتَهُ وَمِغْفَرَهُ فَإِنْ كَانَا صَادِقَيْنِ فَمَا عَلامَةٌ فِي دِرْعِ رَسُول اللهِ ﷺ وَإِنَّ عِنْدِي لرَايَةَ رَسُول اللهِ ﷺ المِغْلبَةَ وَإِنَّ عِنْدِي أَلوَاحَ مُوسَى وَعَصَاهُ وَإِنَّ عِنْدِي لخَاتَمَ سُليْمَانَ بْنِ دَاوُدَ وَإِنَّ عِنْدِي الطَّسْتَ الذِي كَانَ مُوسَى يُقَرِّبُ بِهِ القُرْبَانَ وَإِنَّ عِنْدِي الاسْمَ الأَعْظَمْ الذِي كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ إِذَا وَضَعَهُ بَيْنَ المُسْلمِينَ وَالمُشْرِكِينَ لمْ تَصِل مِنَ المُشْرِكِينَ إِلى المُسْلمِينَ نُشَّابَةٌ وَإِنَّ عِنْدِي لمِثْل الذِي جَاءَتْ بِهِ المَلائِكَةُ وَمَثَل السِّلاحِ فِينَا كَمَثَل التَّابُوتِ فِي بَنِي إِسْرَائِيل كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيل فِي أَيِّ أَهْل بَيْتٍ وُجِدَ التَّابُوتُ عَلى أَبْوَابِهِمْ أُوتُوا النُّبُوَّةَ وَمَنْ صَارَ إِليْهِ السِّلاحُ مِنَّا أُوتِيَ الإِمَامَةَ وَلقَدْ لبِسَ أَبِي دِرْعَ رَسُول اللهِ ﷺ فَخَطَّتْ عَلى الأَرْضِ خَطِيطاً وَلبِسْتُهَا أَنَا فَكَانَتْ وَكَانَتْ وَقَائِمُنَا مَنْ إِذَا لبِسَهَا مَلأَهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالى).

وفي الكافي بسنده عَنْ أَبَانٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَال لمَّا حَضَرَتْ رَسُول اللهِ ﷺ الوَفَاةُ دَعَا العَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ المُطَّلبِ وَأَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَال للعَبَّاسِ يَا عَمَّ مُحَمَّدٍ تَأْخُذُ تُرَاثَ مُحَمَّدٍ وَتَقْضِي دَيْنَهُ وَتُنْجِزُ عِدَاتِهِ فَرَدَّ عَليْهِ فَقَال يَا رَسُول اللهِ ﷺ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنِّي شَيْخٌ كَثِيرُ العِيَال قَليل المَال مَنْ يُطِيقُكَ وَأَنْتَ تُبَارِي الرِّيحَ قَال فَأَطْرَقَ رسول الله ﷺ هُنَيْئَةً ثُمَّ قَال يَا عَبَّاسُ أَتَأْخُذُ تُرَاثَ مُحَمَّدٍ وَتُنْجِزُ عِدَاتِهِ وَتَقْضِي دَيْنَهُ فَقَال بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي شَيْخٌ كَثِيرُ العِيَال قَليل المَال وَأَنْتَ تُبَارِي الرِّيحَ قَال أَمَا إِنِّي سَأُعْطِيهَا مَنْ يَأْخُذُهَا بِحَقِّهَا ثُمَّ قَال يَا عَلِيُّ يَا أَخَا مُحَمَّدٍ أَ تُنْجِزُ

عِدَاتِ مُحَمَّدٍ وَتَقْضِي دَيْنَهُ وَتَقْبِضُ تُرَاثَهُ فَقَال نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ذَاكَ عَلِيَّ وَلِي قَال فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ حَتَّى نَزَعَ خَاتَمَهُ مِنْ إِصْبَعِهِ فَقَال تَخَتَّمْ بِهَذَا فِي حَيَاتِي قَال فَنَظَرْتُ إِلَى الخَاتَمِ حِينَ وَضَعْتُهُ فِي إِصْبَعِي فَتَمَنَّيْتُ مِنْ جَمِيعِ مَا تَرَكَ الخَاتَمَ ثُمَّ صَاحَ يَا بِلال عَلَيَّ بِالمِغْفَرِ وَالدِّرْعِ وَالرَّايَةِ وَالقَمِيصِ وَذِي الفَقَارِ وَالسَّحَابِ وَالبُرْدِ وَالأَبْرَقَةِ وَالقَضِيبِ قَال فَوَ اللهِ مَا رَأَيْتُهَا غَيْرَ سَاعَتِي تِلْكَ يَعْنِي الأَبْرَقَةَ فَجِيءَ بِشِقَّةٍ كَادَتْ تَخْطَفُ الأَبْصَارَ فَإِذَا هِيَ مِنْ أَبْرُقِ الجَنَّةِ فَقَال يَا عَلِيُّ إِنَّ جَبْرَئِيل أَتَانِي بِهَا وَقَال يَا مُحَمَّدُ اجْعَلْهَا فِي حَلْقَةِ الدِّرْعِ وَاسْتَذْفِرْ بِهَا مَكَانَ المِنْطَقَةِ ثُمَّ دَعَا بِزَوْجَيْ نِعَالٍ عَرَبِيَّيْنِ جَمِيعاً أَحَدُهُمَا مَخْصُوفٌ وَالآخَرُ غَيْرُ مَخْصُوفٍ وَالقَمِيصَيْنِ القَمِيصِ الذِي أُسْرِيَ بِهِ فِيهِ وَالقَمِيصِ الذِي خَرَجَ فِيهِ يَوْمَ أُحُدٍ وَالقَلانِسِ الثَّلاثِ قَلَنْسُوَةِ السَّفَرِ وَقَلَنْسُوَةِ العِيدَيْنِ وَالجُمَعِ وَقَلَنْسُوَةٍ كَانَ يَلبَسُهَا وَيَقْعُدُ مَعَ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَال يَا بِلال عَلَيَّ بِالبَغْلَتَيْنِ الشَّهْبَاءِ وَالدُّلْدُل وَالنَّاقَتَيْنِ العَضْبَاءِ وَالقَصْوَاءِ وَالفَرَسَيْنِ الجَنَاحِ كَانَتْ تُوقَفُ بِبَابِ المَسْجِدِ لِحَوَائِجِ رَسُول اللهِ ﷺ يَبْعَثُ الرَّجُل فِي حَاجَتِهِ فَيَرْكَبُهُ فَيَرْكُضُهُ فِي حَاجَةِ رَسُول اللهِ ﷺ وَحَيْزُوم وَهُوَ الذِي كَانَ يَقُول أَقْدِمْ حَيْزُومُ وَالحِمَارِ عُفَيْرٍ فَقَال اقْبِضْهَا فِي حَيَاتِي فَذَكَرَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّ أَوَّل شَيْءٍ مِنَ الدَّوَابِّ تُوُفِّيَ عُفَيْرٌ سَاعَةَ قُبِضَ رَسُول اللهِ ﷺ قَطَعَ خِطَامَهُ ثُمَّ مَرَّ يَرْكُضُ حَتَّى أَتَى بِئْرَ بَنِي خَطْمَةَ بِقُبَا فَرَمَى بِنَفْسِهِ فِيهَا فَكَانَتْ قَبْرَهُ وَرُوِيَ أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عليه السلام قَال إِنَّ ذَلِكَ الحِمَارَ كَلمَ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَال بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ فَقَامَ إِلَيْهِ نُوحٌ فَمَسَحَ عَلَى كَفَلِهِ ثُمَّ قَال يَخْرُجُ مِنْ صُلبِ هَذَا الحِمَارِ حِمَارٌ يَرْكَبُهُ سَيِّدُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُهُمْ فَالحَمْدُ للهِ الذِي جَعَلنِي ذَلكَ الحِمَارَ)انتهى.

قوله (فتمنيت من جميع ما ترك) يعني أن علياً عليه السلام كان في نفسه لو لم أدرك من

متروكات رسول الله ﷺ إلا هذا الخاتم لكفاني شرفاً وفخراً لأنّه ﷺ قال له: تختم بهذا في حياتي فزيّنه بزينته في حياته إشعاراً بأنه حلاه بكلّ حلية ورقّاه إلى كلّ مقام ظاهراً كالخاتم، وباطناً بأن كان خاتم الوصيين وزينتهم كما كان هو ﷺ كذلك، والسحاب اسم عمامة له ﷺ .

وقوله ﷺ: أقدم حيزوم يريد أنه يخاطبه بالإقدام فيجيبه سمّاه باسم فرس جبرائيل عليه السلام فرس الحياة لأن هذه فرس حياة الإسلام فخاطبه بما خطاب جبرائيل عليه السلام فرسه بذلك يوم بدر وعُفير، كَزُبير اسم الحمار الذي يسمى باليعفور كذا قيل وقيل: أن عُفيراً حمار للنبي ﷺ غير يعفور فله حماران وفي القاموس و(بلا)(لام) حمار للنبي ﷺ أو هو عُفير كزبير انتهى ، فتدبر فيما ذكرنا لك من معنى كونهم ورثة الأنبياء عليهم السلام .

قال عليه السلام والمثل الأعلى

قال محمد تقي المجلسي في الشرح المثل: محرّكة الحجة والحديث والصفة والجمع المثل بضمتين ويمكن قراءته بهما فإنّهم حجج الله تعالى الله سبحانه أعلاهم، والمتصفون بصفات الله تعالى فهم صفته وصفاته على المبالغة أو مثل الله تعالى بهم في قوله(اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مَثَل نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) كما روي في الأخبار الكثيرة بل ادعى بعض أصحابنا الإجماع أيضاً أنّها نزلت فيهم انتهى .

أقول: قد يفرق بين المِثْل محرّكة وبين المِثْل بكسر الميم وسكون الثاء فالأول كما ذُكِر الحجة وهو الدليل وهو مذكور في مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال تعالى (وَتِلكَ الأَمْثال نَضْرِبُها للنَّاسِ)جمع مَثَلٍ محرّكة بمعنى الآيات الدالة على التوحيد

كما قال تعالى (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)قال تعالى(وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ)، يعني ما يعقل الاستدلال بها أي بهذه الأمثال التي هي الآيات والأدلة إلاّ العالمون بها وبكيفية الاستدلال بها.

وأما المثل محرّكة بمعنى الحديث فمذكور في مواضع منها في وجه من قوله تعالى(إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ)أي شرّفناه بالنبوة وصيرناه عبرةً عجيبةً كالمثل السائر لبني إسرائيل وكذا في قوله تعالى(يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ)، أي ضربت لكم قصة عجيبة وذلك لأنّ العرب قد تسمّي الصفة والقصة الرائقة لاستحسانها أو لاستغرابها مثلاً ، نَعَمْ إنما يستعمل المثل بمعنى الحديث، والقصة إذا أرادوا أن يقصّوا شيئاً بالتشبيه والتمثيل ويكون بمعنى الصفة كقوله تعالى(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)أي صفتها وبمعنى الصورة كما في حديث الميت (مُثِّلَ لَهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَمَلُهُ)الحديث. أي صوِّر له.

والثاني وهو المِثل بكسر الميم بمعنى الشبه والنظير، ففي حديث كميل عن أمير المؤمنين عليه السلام (يا كميل مات خزان الأموال والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة) .

قال بعض شرّاح هذا الحديث الأمثال جمع مَثَل بالتحريك وهو في الأصل بمعنى النظير ثم يستعمل في القول السائر الممثل الذي مضربه بمورده ثم في الكلام الذي له شأن وغرابة وهذا هو المراد بقوله عليه السلام (وأمثالهم في القلوب موجودة) أي أن حكمهم ومواعظهم محفوظة عند أهلها يعملون بها ويهتدون بمنارها، انتهى.

أقول: هذا الكلام لا بأس به على الظاهر إلا أن ظاهره أنه لا يجوز غير هذا المعنى وهذا ليس بشيء، لأن المراد أن العلماء مذكورون بصورهم وأمثالهم في قلوب من نظر في علومهم وقرأ كتبهم وتلك الصور الخيالية هي أمثال العلماء لأن زيداً لظاهر إذا ظهر في الصور الخيالية يكون بدلاً من زيد في الظهور بتلك الصفة المذكور بها، ومثالاً له فإن (قائماً) بدل من زيد في ظهوره بالقيام ومثاله وصورة لفاعليته للقيام ويكون المعنى أنّ ذكرهم بصورهم بسبب أقوالهم واختياراتهم وإيراداتهم للمسائل موجود أو أن ما يرجّحه العالم صورته في الباطن صورة العالم لأنه صفته والوصف صورة الموصوف قال تعالى(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَليمٌ)، فذلك الحكم الذي في قلوبهم من ذلك العالم الميت مثاله وصورته أو سبب ذكره بصورته أو كناية عما يُذكر به من الثواب عند الله بسبب ما خَلفَ من العلوم النافعة، وعلى كل تقدير ففي الظاهر المَثَل محرّكاً غير المثل بكسر الميم لأن المِثل بكسر الميم هو الشبه والنظير ولا معنى لكونهم مثلاً ونظيراً لأن المعلوم أنهم خير خلق الله فلا يكونون نظيراً ولا مثلاً لأحدٍ من الخلق وإلا لكان خيراً منهم، ولا للمعبود بالحق جل وعلا لأنه لا شبه له ولا نظير فلا يصلح المِثل بكسر الميم ، وأما بالتحريك فيحسن لأنّهم آية الله وحجج الله والأمثال التي ضربها الله لخلقه وقصة الحق وصفته بمعنى إذا أردت أن تعرف أنباء الأولين وأحوال الأنبياء مع أممهم، فانظر فيهم فتجد أحوالهم وصفاتهم تقص عليك ما كان في سنة الأولين فتجد حجةَ معصوماً مفترض الطاعة عالماً بكل ما يحتاج إليه الرعية محفوظاً عن الخطأ والغفلة والزلل والسهو والذنب صغيره وكبيره مستجاب الدعوة مظهراً للمعجزات من اتّبعه وآمن به نجا، ومن تخلّف عنه

هلك فإذا نظرت بعين البصيرة علمت أنّهم عليهم السلام قصص الله الحق لما مضى وأخبار الله الصدق عما يأتي وهديهم وسننهم سنن الله وهديه وطريق الحق وسبيله وقد أشار عليه السلام إلى مثل هذا المعنى بقوله (اعْرِفُوا اللهَ بِاللهِ وَالرَّسُول بِالرِّسَالَةِ وَأُولي الأَمْرِ بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوف والنهي عن المنكر).

يعني أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة أولي الأمر، فإذا لم يجده لم يكونوا أولى الأمر لأن الشيء الذي يُنسب إلى صفة إنما يجرف بتلك الصفة لا بدونها.

وأما كونهم المثل الأعلى فلأن الأمثال كثيرة غيرهم فإنه قد يكون هذا الوصف جارياً في غيرهم بأن يكون مثلاً من أمثال الحق على نحو ما أشرنا إليه كما قال تعالى في حق عيسى عليه السلام على نبينا وآله و عليه السلام (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقالوا أ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لكَ إِلاَّ جَدَلاً بَل هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلناهُ مَثَلاً لبَنِي إِسْرائِيل)يعني حين ضربنا لهم المثل الحق بأن جعلنا لهم عيسى فيهم مثلاً لولينا في سائر خلقنا ضربوا في معارضتك يا محمد المثل الباطل جدلاً منهم ليدحضوا به الحق فقالوا أ آلهتنا خير أم هو أي ما يريد محمد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم.

في الكافي عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَال بَيْنَا رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ذَاتَ يَوْم جَالساً إِذْ أَقْبَل أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَال لَهُ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِنَّ فِيكَ شَبَهاً مِنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ لوْ لا أَنْ تَقُول فِيكَ طَوَائِفُ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لقُلتُ فِيكَ قَوْلا لا تَمُرُّ بِمَلإٍ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ أَخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلتَمِسُونَ بِذَلكَ البَرَكَةَ قَال فَغَضِبَ الأَعْرَابِيَّانِ وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَعِدَّةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَهُمْ فَقَالوا مَا

رَضيَ أَنْ يَضْرِبَ لابْنِ عَمِّهِ مَثَلا إلاَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَأَنْزَل اللهُ عَلى نَبيِّهِ ﷺ فَقَال (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً) إلى قوله(لجَعَلنا مِنْكُمْ) يَعْنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ (مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلفُونَ)الحديث.

وفي المجمع (يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم)الحديث ، فلما سمعوا ذلك قال المنافقون: إنما ذكر ذلك وشبهه بعيسى ابن مريم لأنّه يريد أن نعبده كما عبد النصارى عيسى.

وبهذا المعنى قال أئمة المنافقين إنما نصّ عليه ليتولّى علينا ونحن أولى منه، فقوله تعالى حكاية عنهم(أَ آلهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُو) أراد سبحانه به الحكاية عن أئمة المنافقين أنهم يقولون(أ آلهتنا) أولى بالاتباع والعبادة خير أم ولاية عليّ وطاعته قال الله تعالى لنبيّه ﷺ(ما ضَرَبُوه) أي هذا المثل إلا جدلاً فقوله تعالى(جَدَلاً)كما ذكره بعضهم حيث قال: دليل الحق المثل ودليل الباطل الجدل بل قد يكون المثل الحق جارياً على شيء لأنّ الله سبحانه ما خلق شيئاً إلا وهو مَثَلٌ لشيء وله مثل حتى أن الدنيا الدنية ضرب الله سبحانه لها مثلاً حقا فقال(إِنَّما مَثَل الحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلطَ بِهِ نَباتُ الأرض).

إلا أنّ الأمثال تتفاوت في الدرجات صاعدة حتى تنتهي إلى آل محمد صلى الله عليه وعليهم فكل شيء مثلهم ومثل لهم وليس فوقهم مَثَل، فهم الأمثال العليا ثم أنه قد ثبت أنهم الأمثال العليا بالنص والإجماع.

فما المراد بكونهم أمثالاً مع أن المَثَل محرّكاً لا يكون إلا بياناً وصفة والبيان والصفة لا شك في كونهما أنزل رتبة من المبين والموصوف فإذا لم يكن شيء أعلا رتبة منهم فكيف يكونون أمثالاً.

فالجواب من وجوه.

الأول: أنّ المراد من قوله تعالى(وَلَهُ المَثَل الأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالأرْضِ)هو معنى التنزيه أي كلما ذُكِر وصف شريف أو وضيع أو ضُرِبَ مثل دني أو رفيع، وجب أن يقال الله تعالى أكبر من أن يوصف وأجلّ من أن يكيّف، وأعلى من أن يمثّل أو يشبّه وأعظم من أن يقاس وأرفع من أن يعرف كيف هو في سر وعلانية إلا بما دلّ على نفسه، لأن التمثيل تحديد وتوصيف وتكييف وأعلى منه ومن كل تمثيل وتكييف أن يقال هو أكبر من أن يُمثل و يُكيّف وأعظم من أن يوصف فهذا المثل الأعلى إذا كان ذلك فيهم عليهم السلام .

والثاني: إنّ أعلى الأمثال وهو المثل الدّال على التنزيه ونفي التشبيه ونفي المعلوميّة والإحاطة بوجه ما هو له سبحانه، يعني يملكه وهو خلقه مِثْل ما قيل في قول علي بن الحسين عليه السلام (لكَ يَا إِلهِي وَحْدَانِيَّةُ العَدَدِ) أي هي لك وملكك وخلقك فلا تجري عليك ويكون المعنى أن التعريف الذي به يعرف الله من أنه ليس كمثله شيء ولا ضدّ له ولا نِد له ولا شريك.

وأمثال هذا من الأمور الدّالة على التوحيد الخالص بحسب الإمكان مثل معرفة النفس على ما أشرنا إليه في شرح حديث كميل في قوله عليه السلام (كشف سبحات الجلال من غير إشارة) هو آية ضربها الله يُعْرَفُ بها كما قال تعالى(سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآْفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ)، فذلك مَثَل أعلى لمعرفته التي هو ظهوره لخلقه بهم وهذا في كل شخص وأعلى هذه الأمثال محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فهم المثل الأعلى يعني هياكل التوحيد العليا وهي أول هيكل خلقه وهي أربعةَ عشر هيكلاً.

الثالث: أنّه سبحانه خلق الخلق على غير مثال سبق بل خلق كل شيء على ما هو عليه، وهو المراد من الحديث على أحد وجوهه قوله ﷺ (أَنَّ اللهَ خَلقَ آدَمَ عَلى صُورَتِهِ)أي على ما هو عليه باعتبار قابليته للهيئات والتخطيط والكينونات فمعنى أنهم المثل الأعلى أن الله جل وعلا خلقهم على أحسن صورة يقتضيها الإمكان وهي ما هم عليه من الهيئة والكينونة كما أشار إليه سبحانه بقوله تعالى(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم) ، وهو الإنسان الكامل وهو محمد وآله الاثنا عشر وفاطمة عليهم السلام (ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَل سافِلِينَ)، يعني أقبح صورة يحتملها الإنسان وهو الإنسان الناقص وهو أعدى أعدائهم لعنهم الله فالصور أعلاها أحسَنُها وهو صور محمد وآله صلى الله عليه وعليهم، وأقبحها صور أئمة المنافقين وما بينهما بالنسبة كلّ ما قرب من الأحسن أحسن وكل ما قرب من الأقبح أقبح، فهم عليهم السلام أمثالهم وهم الأمثال العليا.

والرابع: أنّه سبحانه لما خلق الخلق على ما هم عليه اقتضت قابلياتها على حسب حدودها صوراً ظاهرة وباطنة، فكان فيهم مَن صورته حسنة ظاهراً وباطناً وفيهم من صورته قبيحة ظاهراً وباطناً، وفيهم من صورته قبيحة ظاهراً حسنة باطناً وفيهم من صورته حسنة ظاهراً قبيحة باطناً وهذه الأجناس الأربعة كل واحد منها اختلفت أفرادُهُ على جهة التشكيك لاختلاف المشخصات من مكملات القابليّات فمن كانت صورهم حسنة ظاهراً وباطنا أعلاها صور محمد وآله ﷺ وتلك الصور إنما كانت في غاية الحسن والكمال ظاهرا وباطناً، لأن مادتها ومشخصاتها وقوابلها ومكمّلاتها كلها أنوار لا ظلمة فيها أصلا إلا ما تتحقق به ظهوراً، فكانت طِبْقَ فعل الله لذاته فهم محال مشيّته، فلما كانت

تلك الصور والهيئات والكينونات كادت أن تكون مطلقة بحيث لا تتوقف على شرط كما أشار سبحانه إليها في كتابه(يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلوْ لمْ تَمْسَسْهُ نارٌ)وذلك لتخلّصِها من الأكوان التركيبية اصطفاها وارتضاهَا واختصها ونسبها إلى نفسه فجعلها أمثاله كما اختص الكعبة ونسبها إلى نفسه فقال بيتي فهم أمثاله العليا.

والخامس: لما كانت معاني زيد كقيامه وقعوده وقدرته وعلمه وحركته وسكونه ونفسه وروحه وعقله ووجوده وماهيّته وذاته وصفاته وأفعاله وأقواله وأعماله وجميع أحواله أمثالاً له وأبدالاً له منه في جهة ما اتّصَفَ به أو ماله وقد قالوا أنهم معانيه كما في رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال (يا جابر عليك بالبيان والمعاني، قال فقلت وما البيان والمعاني؟ قال فقال علي عليه السلام أما البيان فهو أن تعرف الله سبحانه ليس كمثله شيء فتعبده ولا تشرك به شيئا وأما المعاني فنحن معانيه ونحن جنبه ويده ولسانه وأمره وحكمه وعلمه وحقّه إذا شئنا شاء الله ويريد ما نريده) الحديث.

فانظر كيف فسَّرَها بالمعاني وهي جنبه ويده ... إلخ، وهي أمثاله وأبداله فسمّاها معانيه ومعاني الشيء أمثاله لأنها صفة كينونته وهذا المعنى يجري في جميع الخلائق وإلى هذا أشار علي عليه السلام وقد سُئِل عن العالم العلويّ فقال (صور عارية عن المواد عالية عن القوة و الاستعداد تجلى لها فأشرقت و طالعها فتلألأت وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد).

فقوله عليه السلام (وألقى في هويّتها مثاله فأظهر عنها أفعاله) يريد بالمثال الذي ألقاه

في هويّتها هو ما تعرف لها من وصف معرفته الذي هو ذاتها إذ ليس لها هوية غير ذلك الوصف الملقى ويجري أيضاً في كل جهة وذرّة من ذرات الوجود إلا أنه لا يمكن إيجاد أعلى منهم صلى الله عليهم فهم المثل الأعلى.

وإن قلنا أنّ الأمثال جمع مِثل بكسر الميم كأحمال جمع حمل استلزم ثبوت النظير والشبيه وهو في الباطن وباطن الباطن يصح في وجهين:

أحدهما: أنّ المراد بالمِثل هو النفس إذا كشف عنها سُبُحات الجلال يعني سُبُحاتها من غير إشارة، لأن الإشارة من سُبُحاتها فإذا أزلت السبحات وجرّدتها عن جميع الاعتبارات ظهر لك أنها آية الله ودليله وصفة معرفته ومثل صفة فعله والمعنى أنه سبحانه إذا تعرف لشيء فإنما ذلك ليعرفه ولا يعرفه بصفة غيره، وإنما يعرفه بصفته وتلك الصفة هي ذات العبد وتلك الصفة التي هي ذات العبد لها شؤون وصفات وهي سُبُحاتها فبالسبحات تعرف الذات لأنّها صفتها وبالذات يُعرَف محدثها لأنها صفته ولا يجوز أن يكون ما تعرف به لك غير ذاتك لأنه لو كان ذلك كذلك لكان يجوز أن تكون ذاتك موجودة وأنت لا تعرفه، إذا لم يتعرف لك بشيء ويلزم من ذلك استغناؤك عن مدده وإلا تكون موجوداً به لأنّ كونك موجوداً به يلزم منه أن تكون أثر فعله، فتدل عليه بأصل إيجادك لأن الموجود أثر الإيجاد والإيجاد أثر الموجِد، فيدل ولا يعني بالتعرف لك إلا هذا وهو قوله تعالى(فِطْرَتَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيل لِخَلقِ اللهِ ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ)، فإذا ظهر لك وجود المِثل بكسر الميم في ذوات الموجودات عند تجريدها عن الفرقات أي مثل صفته التي تعرف بها لك وهي صفة خلقٍ لا تشبه شيئاً من الخلق، عرفتَ أن تلك الأمثال تختلف اختلافاً كثيراً متفاوتاً تفاوتاً كثيراً وأعلى تلك الأمثال

محمد وآله صلى الله عليهم أجمعين فهم المِثل الأعلى بكسر الميم وعلى ما جوّزه الشارح محمد تقي المجلسي رحمه الله من جواز القراءة بضمتين يصحّ هذا المعنى.

وثانيهما: ما قيل إنّ جميع العالم اسم الله تعالى وربما استدل على هذا بما في الكافي من حديث الأسماء (أن الله خلق اسماً بالحروف غير متصوّت، وباللفظ غير منطق إلى أن قال: فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معا ليس واحد منها قبل الآخر فأظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق إليها وحجب واحداً منها)الحديث.

وقد ذكرتْ لشرحه رسالة من أراد الوقوف على ذلك طلبها وفيها أن المراد بهذا الاسم هو جميع ما سوى الله والأسماء الثلاثة التي ظهرت عالم الجبروت، أي العقول وعالم الملكوت أي النفوس وعالم الملك أي الأجسام والجزء المحجوب هو فعل الله المسمى بالمشية والإرادة والإبداع ومعلوم أن الاسم علامة المسمّى، ومعلوم أن العلامة لا تفارق المعلّم بل السِمَّةَ هي صفة الموسوم ولا يُراد بالمِثل بكسر الميم إلا هذا أي مثل جهة السمة والعلامة فإذا قلنا هم مثله لا نريد به مثل الذات لأن ذلك كفر وزندقة وإنما نريد أنهم خَلقَهم آيات يستدل بهم عليه كما يدل الأثر على صفة المؤثر من تلك الجهة، فهم مثله أي مِثل صفةٍ تدل عليه كما قال عليّ عليه السلام (صفةُ استدلالٍ عليه لا صفة تكشف له) وقد كررنا هذا المعنى في رسائلنا فإيّاك أن تتوهم إذا أُطلق المَثَل بالتحريك أو بكسر الميم أن يراد بالمماثلة بينه وبين الذات الواجب تعالى ذاته عن المثل وعن ضرب المثل له إنما ذلك بين الشيء الذي هو الأثر وبين الفعل الذي به التأثير فالمماثلة له، وجميع ما يرد من الخلق من إضافة وبيان وانتهاء وتوصيف وتعريف كذلك وإلى هذا المعنى أشار علي عليه السلام في مقام تنزيه الذات قال عليه السلام (انتهى المخلوق إلى مثله وألجأه الطلب إلى شكله) فافهم فهم المَثَل الأعلى بكل معنى مما أشرنا إليه تلويحاً وتصريحا.

قال عليه السلام والدّعْوة الحسنى

قال الشارح محمد تقي رحمه الله فإنهم أحسن الدعاة إلى الله أو دعوة الله الخلق إلى متابعتهم أفضل الدعوات هـ.

يُراد بالدعوة الحسنى وجوه.

الأول: أنّ المراد بالدعوة الحسنى دعوة إبراهيم عليه السلام مثل قوله تعالى (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ)واللسان الصدق هم الأئمة عليهم السلام وقوله (وَجَعَلها يعني إبراهيم في دعوته (كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَهُمْ يَرْجِعُونَ)والكلمة الباقية في عقبه الأئمة عليهم السلام وقوله(وَاجْعَلنَا مُسْلَمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلمَةً لك)والأمة المسلمة لله الأئمة عليهم السلام ، ويُحتمل أن يراد من هذا قوله(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ)إذا أريد التجنب التام الحقيقي فإن من عصى الله لم يتجنب كل معبود سواه لأن من اتبع شهوة نفسه فقد عبدها قال الله تعالى(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)فإن من اتخذ إلهه هواه فقد عبد صنماً.

وفي العيّاشي (عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له أخبرني عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من هم قال أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنو هاشم خاصة، قلت فما الحجة في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم قال قول الله(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْماعِيل رَبَّنا تَقَبَّل مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ رَبَّنا وَاجْعَلنا مُسْلمَيْنِ لكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلمَةً لكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَليْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فلما أجاب الله إبراهيم و إسماعيل وجعل من ذريتهما أمة مسلمة و بعث فيها رسولا منها يعني من تلك الأمة، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ردف إبراهيم عليه السلام دعوته الأولى بدعوة الأخرى

فسأل لهم تطهيرا من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصح أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم، فقال(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْللنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فهذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأمة المسلمة التي بعث فيها محمد ﷺ إلا من ذرية إبراهيم لقوله(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ).

فهذا من معنى الدعوة الحسنى أي دعوة إبراهيم عليه السلام .

الثاني: أنهم أهل الدعوة الحسنى على حذف مضاف والدعوة الحسنى إنهم يدعون إلى الإيمان وإلى الجنة التي هي الحسنى كما في قوله تعالى(لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)وذلك أنهم دعوا الخلق عن بَعْثِ رسول الله ﷺ في أصل الإيجاد فعمل الخلائق في قبولهم الإيجاد بحكمتهم عليهم السلام فحسنت صورة من أحسن عملاً وقبحت صورة من عمل سوءاً ثم دعوهم في الذّر الأول فأجاب من أحسن عملاَ لأن طينته طابت بالإجابة الأولى وأنكر من أساء إجابةً لامتناعه عن الإجابة أوّل مرة ثم ظهروا لهم في الذّر الثاني ودعوهم إلى توحيد الله ونبوة محمد ﷺ والولاية لعلي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام فمنهم من آمن ومنهم من كفر ثم إنهم كانوا أهل تلك الدعوة الأولى في هذه الدنيا فمن آمن بها آمن به سابقاً فقد فاز ومن أنكر بذلك حقت عليه الكلمة وهو قوله تعالى(فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْل)وذلك التكذيب صدر منهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى فاستحبوا العمى على الهدى فأخبر الله سبحانه تعالى عما هم عليه بقوله تعالى(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلمًا وَعُلوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)، فلما كانوا هم الدعاة إلى الله من أصل الوجود إلى هذه الدنيا بالعلم والهدى والكتاب المنير عذراً أو نذراً

بالحجج القاطعة والأدلة اللامعة، إلى أن ردّد عليهم محمد بن عبدالله ﷺ في هذه الدنيا الحجة وحملهم على المحجة فأخبرهم الله في كتابه المجيد عن ذلك التأسيس وهذا التشييد فقال(هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولى). فبلغت حجة الله وتمت كلمته (وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلعَبِيدِ).

الثالث: أنّهم دعوة الله التي دعا بها عباده إلى طاعته ومحبته ورضاه أما على معنى أن الله سبحانه دعاهم إلى سبيله يعني الطريق الموصل إلى رضاه ومحبته وهم ذلك السبيل وإليه الإشارة بقوله تعالى(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُول أَأَنتُمْ أَضْللتُمْ عِبَادِي هَؤُلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيل* قَالوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لنَا أَن نَّتَّخذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء)، وقوله تعالى(وَقَالوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا).

أو على معنى أنهم كلماته التامات فالدعوة بهم، أو أنهم أسماؤه الحسنى فدعاهم بأسمائه وأمر العباد أن يدعوه بها، فالدعوة بهم عنده هي الدعوة الحسنى أو على معنى أنه دعاهم بسبيله يعني أنه تعالى دعاهم إلى طاعته ورضاه بسبيله وهم سبيله أي دعا عباده بهم عليهم السلام إلى ما فيه نجاتهم السرمدية وسعادتهم الأبدية فبهم وبتوسطهم تمت الدعوة وائتلفت الفرقة بأن دعا الله عباده على ألسنتهم أو بأنوارهم أبصر العباد الطريق إلى الله أو قووا على الإجابة والإبصار لأن قوة العباد على الطاعات وقوة عقولهم ومشاعرهم إنما هي من فاضل نورهم فبفاضل قوتهم قَووا وبنور هدايتهم اهتدوا ، أو بتحملهم عن محبيهم عوائق الموبقات وصلوا أعلى الدرجات وأمثال ذلك فهم الدعوة الحسنى.

الرابع: أن الله سبحانه دعا بعض خلقه إلى الحق بقبوله الحق منه بمعنى

جعلهم أهل الحق بقبولهم عنه وهي الدعوة الحسنى، ودعا بعض خلقه إلى خلاف ذلك بتركهم الحق ومنعهم إطاقة القبول منه فجعلهم أهل الباطل بتركهم الحق، وأخذهم الباطل وبعدم القبول منه وهي الدعوة السوأى فسبق للمؤمنين خير ما سبق في الكتاب بالمعرفة والقبول وسبق للمنافقين شرّ ما سبق في الكتاب بجحودهم وعدم القبول منه وهم عليهم السلام حملة الجعل بالقبول والإيمان بل هم الجعل الحق الذي هو الدعوة الحسنى وأعداؤهم جُعِلت بهم الدعوة السُّوأى وإليه الإشارة بقوله تعالى في أهل الدعوة السوأى(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى)فهي سفلى بجعله لهم بكفرهم كما قال تعالى(بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)، وقال في أهل الدعوة الحسنى(وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا)بذاتها لا بجعل غيرِ كونها على ما هي عليه من الخير.

الخامس: أنه سبحانه دعا عباده إلى طاعته وهي على أنحاء شتى أعلاها ما دعا إليه من حبهم وولايتهم والتسليم لهم والرد إليهم والتوكل على الله وعلى ولايتهم لأن ذلك يحطّ الذنوب، وفي ما نقله ابن طاوس تغمّده الله برحمته عن الحجة عجل الله فرجه في الدعاء للشيعة حيث قال عليه السلام (اللهم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوه اتكالا على حبنا).

وفي الحديث القدسي ما معناه (أقسم بعزتي وجلالي إني أدخل الجنة من أحب علياً عليه السلام وإن عصاني، وإني أدخل النار من أبغض علياً وإن أطاعني).

فكان ما دعا إليه من حبهم أفضل العبادات وهي أحسن ما دعا إليه عنده.

السادس: أنه دعا عباده إلى طاعتهم عليهم السلام ولما كانت أحوالهم مستهلكة في خدمته فليس لهم التفات إلى شيء سواه كانت طاعتهم مستلزمة لجميع

أنواع الطاعات من التوحيد فما دونه إلى إرش الخدش فما فوقه ولم تكن طاعة في الحقيقة تخرج عن طاعتهم لأنّهم باب الوجود وسر المعبود فكان دعوته إلى طاعتهم أفضل فتكون هي الدعوة الحسنى.

قال عليه السلام وحُجَج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى

قال الشارح محمد تقي المجلسي رحمه الله احتج الله وأتم حجته بهم على أهل الدنيا بأن جعل لهم المعجزات الباهرة والعلوم اللدنية، والأخلاق الإلهية والعقول الربانية فهداهم بهم إليه، ويحتج بهم في الآخرة بعد الموت أو في القيامة، والأولى كرّر للتأكيد أو السجع أو هي صفة الحجج فإنهم أولى حجج الله كما تقدم أو يقرأ بأفضل التفضيل فإنهم أكمل حجج الله تعالى هـ.

أقول: الحجج جمع حجّة بالضم وهي البرهان والبرهان قد يكون بالقول وقد يكون بإحداث مثل المستدل عليه في الجهة المدّعي ثبوتها أو مثاله وهذا أبلغ في إثبات الدعوى لأنه لا يحتمل الخطأ لأنه إيجاد صفة الدعوى ولا توجد الصفة إلا بعد ثبوت الموصوف، وأما البرهان القولي فإنّه لفظ يدّعي دلالته على المدّعي، والدلالة اللفظية قد تشتبه بسبب اختلاف الأذواق وعدم فهم بعضها إذا انفرد عن الحسّ ولسعة فضاء الخيال وكثرة الأشكال فيه وسرعة حدوثها، وقد تسمع اللفظ فيحدث لها مقتضى جهة المرجوحية وأمثال هذا من مرجّحات البرهان المثلي والمثالي، ولما كان هذا المعنى غير معهود عند الناس بعد إدراكه عليهم إلا ببيان المشافهة، وأما بالكتابة فيحتاج إلى بسطٍ طويل ولأجل هذا تركنا ذكره.

ثم إنّهم عليهم السلام أعظم حجج الله على خلقه لأنه سبحانه خلقهم وأودع

في حقائقهم كل كمال ممكن من علم وكرم وحكم وحلم وجزم وحزم وفهم وعقل وعزم وفضل وفصل وذكر وفكر وبصر وصبر وزهد وورع وتقوى ويقين وتسليم ورضا وشجاعة وسماحة ونباهة ونجابة واستقامة واقتصاد، وما أشبه ذلك من صفات كمالات الدين والدنيا وخَلق ما سواهم وأمرهم بطاعتهم وجعلهم الوسيلة إليه في كل أمر مطلوب وخير مرغوب،ولا يمكن لأحد من الخلق رد وساطتهم إذا رجع إلى عقله وفهمه وإلى ما تعرف العامة والخاصة ولا بميزان شريعة من الشرائع ولا بمقتضى طبيعة من الطبائع بل مَن قَبِل منهم علم أنهم أهل ذلك وكل من لم يقبل منهم يعلم أنّه في ذلك مقصر تارك الاستقامة ومتجنب للحق لأن الله سبحانه عرّف كل شيء من خلقه من بني آدم ومن الجان والشياطين والملائكة وسائر الحيوانات والنباتات والجمادات والجواهر والأعراض والذوات والصفات والأعيان والمعاني وكل شيء ظهر عن مشية الله سبحانه مقام آل محمد ﷺ وشرّفهم وعظّم شأنهم وقرب منزلتهم عنده وأنّه ليس له باب غيرهم ولا سبيل إليه إلا منهم.

وفي مختصر بصائر سعد بن عبد الله الأشعري للحسن بن سليمان الحلّي ما رواه من كتاب منهج التحقيق بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال (إن الله تعالى خلق أربعة عشر نورا من نور عظمته قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا فقيل له يا ابن رسول الله عدهم بأسمائهم فمن هؤلاء الأربعة عشر نورا فقال محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وتسعة من ذرية الحسين وتاسعهم عليهم السلام قائمهم ثم عدهم بأسمائهم ثم قال نحن والله الأوصياء الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ ونحن المثاني التي أعطاها الله نبينا ونحن شجرة النبوة ومنبت الرحمة

ومعدن الحكمة ومصابيح العلم وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وموضع سر الله ووديعة الله جل اسمه في عباده وحرم الله الأكبر و عهده المسئول عنه فمن وفى بعهدنا فقد وفى بعهد الله ومن خفره فقد خفر ذمة الله وعهده عرفنا من عرفنا وجهلنا من جهلنا نحن الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملا إلا بمعرفتنا ونحن والله الكلمات التي تلقاها (آدَمُ مِنْ رَبِّهِ فَتابَ عَليْه) إن الله تعالى خلقنا فأحسن خلقنا وصورنا فأحسن صورنا وجعلنا عينه على عباده ولسانه الناطق في خلقه ويده المبسوطة عليهم بالرأفة والرحمة ووجهه الذي يؤتى منه وبابه الذي يدل عليه وخزان علمه وتراجمة وحيه وأعلام دينه والعروة الوثقى والدليل الواضح لمن اهتدى وبنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار وجرت الأنهار و نزل الغيث من السماء ونبت عشب الأرض وبعبادتنا عبد الله ولولانا ما عرف الله وأيم الله لولا وصية سبقت وعهد أخذ علينا لقلت قولا يعجب منه أو يذهل منه الأولون والآخرون)انتهى.

ومن طرقهم ما هو أعظم مما سمعت وأكبر مما اطلعت عليه وعلمت فهم حجج الله البالغة كما قال تعالى(قُل فَللّهِ الْحُجَّةُ البَالغَةُ فَلوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)لأنهم محال مشيّته وهم الكلمة التامة، كما قال تعالى(وَتَمَّتْ كَلمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّل لكَلمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَليمُ)وهو قوله تعالى حكاية عن نبيّه ﷺ(قُل مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلهُ مِن تِلقَاء نَفْسي).

وأمّا أهل الدنيا فقيل يحتمل أن يراد بأهلَ الدنيا الموجودون فيها وما بعده تفسير وتفصيل له، فيُراد بأهل الآخرة العاملون لها بالعبادات وبأهل الدنيا المباشرون لها بالمعاملات ولا شك أنهم عليهم السلام الحجج على الفريقين بإظهار الكرامات والأخلاق الربانية وبالهداية وتعليم الآداب.

أما جعل الأولى للتأكيد هنا أو صفة أو أفعل التفضيل فلا يخلو شيء منها عن تكلّف بشهادة الذوق، وأمّا السجع فيحصل بترك الدنيا هـ.

وقوله (أما جعل الأولى ... الخ) اعتراض على ما ذكره الشارح محمد تقي رحمه الله كما ذكرنا عنه أولاً وهذا اعتراض في محلّه وهو أيضاً في قوله (الحجج على الفريقين بإظهار الكرامات ... الخ) لأن قوله بإظهار الكرامات يعني المعجزات متوجه يعني أن ظهور المعجزات على أيديهم مصدق لما يدعونه من أنهم حجج الله على عباده مفترضوا الطاعة لأنه تعالى لا يصدق بالمعجزات الكاذب.

أما قوله بالهداية وتعليم الآداب فلا معنى لجعله دليل الحجية لأنه أعم من المدّعي وما أشرنا إليه هو دليل الحجيّة لمن يَفْهم.

والمراد بأهل الدنيا كلّ مَن وجد فيها مَنْ مضى ومَن بقي من لدن هبوط آدم إلى قيام قائم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه،وهي مأخوذة من الدناءة لخستها كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله تعالى(وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لجَعَلنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)إلى أن قال(وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)أو من الدنو لأنها قبل الآخرة فلتقدمها على الآخرة سميت بذلك كما أن الآخرة سميت بذلك لتأخرها.

والمراد بالآخرة هنا ما بعد الموت، لأن القبر أول منزل من منازل الآخرة فيكون المعنى أنّهم حجج الله على أهل البرزخ وأهل الآخرة في الحشر والنشر وعند الصراط،وفي المواقف الخمسين فيه التي كل موقف منها كألف سنة مما تعدون وفي الجنة والنار وليس هذا الذكر للدنيا والآخرة والأولى حصراً

لحجيّتهم بل هم حجج الله على كل من دخل في الوجود مما دون العرش الأعلى، فهم حجج الله على من سيكون بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار،كما رواه في الخصال عن جابر بن يزيد قال (سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل (أَ فَعَيِينا بِالخَلقِ الأَوَّل بَل هُمْ فِي لبْسٍ مِنْ خَلقٍ جَدِيدٍ) فقال: يا جابر تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جدد الله عز وجل عالما غير هذا العالم وجدد خلقا من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه وخلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم وسماء غير هذه السماء تظلهم لعلك ترى أن الله عز وجل إنما خلق هذا العالم الواحد وترى أن الله عز وجل لم يخلق بشرا غيركم بلى والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين)هـ.

ولا شك أنّهم عليهم السلام حجج الله على هؤلاء لأن أخبارهم كلها ناطقة بأنهم حجج الله على جميع خلقه وأن الله لم يخلق خلقاً قبلهم ولا معهم وأنهم بقوا أشباحاً نورانية يسبحون الله عز وجل ألف دهر قبل الخلق ثم خلق الخلق وأشهدهم خلقهم وأجرى عليهم طاعتهم وجعل فيهم ما شاء وفوض أمر الأشياء إليهم في الحكم والتصرف والإرشاد والأمر والنهي كما في الروايات عنهم.

والمراد بالأولى رجعة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو قيام قائمهم عجل الله تعالى فرجه أو الأعم منهما، وإنما سميت أولى بالنسبة إلى الآخرة، فيقال لهذه الأيام الثلاثة الدنيا والأولى والآخرى فإن أريد بالأولى الرجعة فهي التي تظهر فيها الجنتان المدهامتان وما وجهه به الشارح من التكرير خلاف الأصل وما احتمل فيها من فتح الألف،لأنه أفعل التفضيل خلاف الظاهر وجعلها صفة الحجج خلاف

الأصل والظاهر معاً، لأن هذه الأوقات الثلاثة متغايرة كما ورد في تأويل قوله تعالى(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ)ففي الخصال عن مثنى الحنّاط قالت (سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول أيام الله عز وجل ثلاثة يوم يقوم القائم و يوم الكرة و يوم القيامة).

وفي تفسير علي بن إبراهيم رحمه الله في تفسيره أنه روي في الحديث (أن أيام الله ثلاثة يوم القائم عليه أفضل الصلاة والسلام و يوم الموت ويوم القيامة).

أقول: وجه الاستدلال بهاتين الروايتين أنه جعل قيام القائم عليه السلام أو الرجعة يوماً غير يوم القيامة المعبر به عن الآخرة وغير الدنيا فهذا اليوم لا يصلح أن يطلق عليه الدنيا لأن بنيتها للتفضيل، فهي أدنى من الكرّة ومن قيام القائم عليه السلام ولا الآخرة لأن القيامة بعده وهي الآخرة فهو غير الآخرة وغير الدنيا، وليس هنا إلا الدنيا و الرجعة وقيام القائم عليه السلام أو الآخرة.

ويصلح أن يكون الأولى بالنسبة إلى الأخرى وإنما ذكر في تأويل الأيام الثلاثة قيام القائم عليه السلام ، والرجعة والآخرة ولم يذكر الدنيا لأنه في مقام التهديد والتخويف والوعيد بما سيقع عليهم من العذاب ولا يكون ذلك إلاّ في هذه الأيام المذكورة في الروايتين لأن الدنيا محلّ التذكير وإنما قلنا نحن أن الأيام ثلاثة الدنيا وقيام القائم عليه السلام أو الرجعة أو الأعم منهما والآخرة لأن قيام القائم والرجعة في الجنس واحد من جهة العدل وإقامة الحق ورفع الظلم ودكّ سدّ التقية، وإن اختلفا في عدم رجوع إمام الزمان عليه السلام لأن الرجوع قد يراد منها الحياة بعد الموت والقائم عليه السلام حي موجود، وإذا فرقنا بينهما قلنا قيام القائم عليه السلام أوّلاً وهو يحكم سبعين سنة في مدة سبع سنين على أكثر الروايات لأن السنة في زمانه بعشر سنين فإذا مضى من ملكه تسع وخسمون سنة خرج الحسين عليه السلام وهو أوّل الرجعة

فكان اليومان متداخلين متشابهين متوافقين هو مدة ملك آل محمد ﷺ أوّله قيام القائم عليه السلام وهذا الذي يترجّح في خاطري من المراد بالأولى.

ولو أردنا بالأولى الدنيا كما ذكره الأكثر فالفائدة في الذكر مرتين أحد وجهين.

الأول: أن الدنيا دنياوان دنيا ملعونة ودنيا بلاغ،فالدنيا الملعونة ما سُلكَ فيها بخلاف مراد الله، والدنيا البلاغ ما سلك فيها على حسب مراد الله بأن يتخذها منزل سفر ليأخذ منها متاعه إلى الآخرة، فالدنيا لفظها ناطق بالخسة والأولى لفظها ليس فيه ذلك فيراد بالدنيا الدنيا الملعونة ويراد بالأولى الدنيا البلاغ لأن لفظ الأولى حصل منه الغرض وهو تقدمها على الآخرة وحصول الدنو.

والثاني: أن المراد بالدنيا ولاية الأول والثاني كما روي عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى(بَل تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيا)ما معناه أنه ولاية الأول (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى) هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام).

ويكون المعنى أنهم عليهم السلام حجج الله على أعدائهم ومواليهم.

وقوله: و(الأُولى) يراد بها الدنيا المعروفة بالمعنى الأعم من الدنيا الملعونة والدنيا البلاغ، وذكرها من باب إيهام التناسب كما في قوله تعالى(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)فإنه مراد بالنجم النَبْت المعروف ويوهم أن يكون المراد منه الكوكب لمناسبته لما قبله في قوله(الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)، وإنما أتى للدنيا اليوم بالأولى ليدلّ على اليوم ولم يُؤت للآخرة اليوم كما أُتي للدنيا أتى للدنيا اليوم بالأولى، لأن الدنيا إذا استعملت في الولاية الباطلة قد لا يفهم منها إلا الدنيا الملعونة فتبقى الدنيا البلاغ لا دليل على كونهم حججا فيها فأتي بما يدل عليها أي البلاغ

وهو الأولى بخلاف الآخرة فإنها إذا استعملت في الولاية الحق دلّت على الآخرة اليوم لمطابقتها لها فلا يحتاج إلى ذكر شيء آخر كما احتيج هناك، ويحتمل أن يكون المراد أنه في ذكر كونهم حججاً يريد به على أهل الدنيا من أنها محل إنكار أهلها لهم وعدم قبول أكثرهم إمامتهم، وعدم معرفتهم بهم وعدم اقتدائهم بهم بل يقتدون بأعدائهم، فتبين أنهم كانوا حججاً عليهم على جهة الخصوص في هذه الدنيا التي ما عرفوا حقوقهم فيها ثم إنه التفت إلى حكم العموم فإنهم حجج في الدنيا والآخرة على جهة العموم على الطائع والعاصي والمكلف وغيره من الخلق الصامت والناطق، فقال والآخرة والأولى وإنما أخر الأولى مراعاة للسجع وكراهة اجتماع المترادفين بلا فاصلة وإنما أتى بالأولى ولم يأت بالدنيا لأنه ذكر هذا اللفظ أولاً فأتى بمرادفه دفعاً للتكرير اللفظي.

قال عليه السلام ورحمة الله وبركاته

قال الشارح عطف على السلام ويمكن جعل كل واحدٍ من السلام والرحمة والبركات في كل واحدٍ من الجمل لمعنى غير السابق هـ.

وقيل ويحتمل النصب بالعطف على سابقه ترجيحاً لقرب المعطوف عليه وكونهم رحمة الله وبركاته ظاهر هـ.

فعلى العطف (السلام عليكم) أي حافظ عليكم أو على أحد المعاني المتقدمة ورحمة الله منبسطة عليكم محيطة بكم شاملة لكم، حتى تكونوا بفاضلها شافعين لشيعتكم ومحبيكم ولهذا قال أعداؤهم(فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيم فَلوْ أَنَّ لنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)الذين تعمهم رحمة الله كما قال تعالى(وَكَانَ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)وقال تعالى(فَسَأَكْتُبُهَا للذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)، يعني أن الرحمة كتبت للمؤمنين فكون رحمة الله على الأئمة يكون على معنى ما تقدم من السلام أي عليكم يعني تلزمكم الرحمة للمؤمنين بكم والمحبين لكم وبركاته عليكم أي أنّه بارك في حسنات محبيكم حتى تكون حسنة أحدهم بسبعمائة لأجل محبته قال تعالى(كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء)وهذا مثل لشيعتهم ومحبيهم في أعمالهم وإليه الإشارة بقوله تعالى(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ).

فعلى العطف يكون وبركاته عليكم فيكون حاصل المعنى أن الله ينزل عليهم بركات من السماء والأرض لأنهم عليهم السلام أهل الإيمان والتقوى ففتح عليهم البركات من محمد وعلي عليهما السلام فالبركات فيهم أنّه يكون من صلب كل واحد منهم مائة ولد في كرتهم .

وفي تفسير العياشي عن المفضل بن محمد الجعفي قال (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ) قال الحبة فاطمة صلوات الله عليها والسبع السنابل سبعة من ولدها سابعهم قائمهم، قلت الحسن قال إن الحسن إمام من الله مفترض طاعته ولكن ليس من السنابل السبعة أولهم الحسين و آخرهم القائم، فقلت قوله (فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) قال يولد للرجل منهم في الكوفة مائة من صلبه وليس ذاك إلا هؤلاء السبعة).

وعلى الوجه الآخر كما مرّ من نزول البركات في حسنات محبّيهم في كتاب ثواب الأعمال عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَال (إِذَا أَحْسَنَ العَبْدُ الْمُؤْمِنُ ضَاعَفَ اللهُ عَمَلَهُ

بِكُلِّ حَسَنَةٍ سَبْعَمِائَةِ ضِعْفٍ وَذَلكَ قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَل وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ).

وفي ما مرّ من رواية داود بن كثير الرقّي إلى أن قال(وَخَلقَ شِيعَتَهُمْ أَخَذَ عَليْهِمُ المِيثَاقَ وَأَنْ يَصْبِرُوا وَيُصَابِرُوا وَيُرَابِطُوا وَأَنْ يَتَّقُوا اللهَ وَوَعَدَهُمْ أَنْ يُسَلِّمَ لَهُمُ الأَرْضَ المُبارَكَةَ وَالحَرَمَ الآمِنَ)الحديث.

فالله بهم يفتح البركات من السماء والأرض وهم عليهم السلام يسلمونها إلى شيعتهم ومحبّيهم في أنفسهم وذرياتهم وأعمالهم وهو قوله عليه السلام (ورحمة الله وبركاته) أي وبركاته عليكم أن تسلّموا فاضلها إلى شيعتكم وعلى شيعتكم أن يسلموا فاضل ذلك إلى محبيكم وهذا اقتباس من قوله تعالى(رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَليْكُمْ أَهْل البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ).

في كتاب معاني الأخبار (أن الصادق عليه السلام سلم على رجل فقال له الرجل و عليكم السلام و رحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه فقال لا تجاوزوا بنا قول الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَليْكُمْ أَهْل البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).

وفي أصول الكافي بسنده إلى أَبِي عُبَيْدَةَ الحَذَّاءِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَال (مَرَّ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السلام بِقَوْمٍ فَسَلمَ عَليْهِمْ فَقَالوا عَليْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِضْوَانُهُ فَقَال لهُمْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام لا تُجَاوِزُوا بِنَا مِثْل مَا قَالتِ المَلائِكَةُ لأَبِينَا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام إِنَّمَا قَالوا رَحْمَةُ اللهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَليْكُمْ أَهْل البَيْتِ).

ويجوز أن يكون المراد برحمة الله صلواته أو صلته أو وصله يعني هو الذي يصلي عليكم وملائكته أي يمدهم بمدد الهدى والصلة العطيّة أي يعطيهم من كل ما سألوه والوَصْل وصل الولاية بالنبوّة أو وصل الشعاع بالمنير والتابع بالمتبوع.

في تفسير الإمام عليه السلام قال وتفسير قوله عز وجل (الرَّحْمنِ) أن الرحمن مشتق من الرحمة وقال قال أمير المؤمنين عليه السلام سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (قال الله تعالى أنا الرحمن وهي من الرحم شققت لها اسما من اسمي من وصلها وصلته ومن قطعها بتته ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام إن الرحم التي اشتقها الله تعالى من اسمه بقوله أنا الرحمن هي الرحم رحم محمد صلى الله عليه وآله وسلم) .

فالرحمة بمعنى الصلة ولهذا كانت الرحمة مشتقة من الرحمن من وصلها بمعنى أنه لم يبدل ما يراد لها وصله الله تعالى لأن ذلك هو معنى الرحم ومن قطعها أي لم يجعل معاملته معها بما يوافق معناها بالوصل قطعه الله قال الله تعالى (وَالذِينَ يَصِلونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَل وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ٭ وَالذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ)إلى قوله تعالى (سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)ومن قطعها أنزل الله في حقه قرآناً قال تعالى (وَالذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) في عالم الذّر بأنهم يصلون الرحم حين أخذ عليهم العهد والميثاق بذلك وعاهدوه على ذلك (وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَل وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ) بقطعهم الرحم التي أمر الله بوصلها (أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

وأما البركات ففي الآية المتقدمة(وَلَوْ أَنَّ أَهْل القُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ)فالبركات التي من السماء مطر من الرحمة يحيي به الأرض قال تعالى(فَانظُرْ إِلى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)والبركات التي من الأرض ثمرات ذلك المطر فالمطر العلم وهو من السماء والثمرات التي من الأرض ثمرات العلوم ، وفي بصائر الدرجات بإسناده إلى نصر بن قابوس قال (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل

(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَماءٍ مَسْكُوبٍ وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ) قال يا نصر إنه ليس حيث تذهب الناس إنما هو العالم و ما يخرج منه) أي ما يخرج من العالم من ثمار العلم النابت من تلك الأشجار في بيوت الجبال والشجر، ومما يعرشون فيفيض الله البركات على الناس وعلى أنعامهم وهو تأويل قوله تعالى(فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلى طَعَامِهِ ⋆ أَنَّا صَبَبْنَا المَاء صَبًّا ⋆ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ⋆ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ⋆ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ⋆ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ⋆ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ⋆ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ⋆ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)فأنزل الله سبحانه في تلك الحدائق حدائق الحكمة حبّاً، وهي علوم المعارف الإلهية عن الفؤاد المورثة للمحبة وعنباً وهي العلوم، الموجبة للسكر الإلهي وهو الغيبة عن الخلق وقضباً لأنعامكم وهو العلوم المشتملة على حفظ المقاصد الخمس أو بعضها من الحافظة للدماء والحافظة للأبدان، كالأمر بالاقتصاد في الأكل والشرب والنهي عن الإسراف فيهما، وتحريم الميتة والطين والدم المسفوح وما يضر بالبدن ، ومن تحريم الخمر والمفسدة للعقل أو المضعفة له ، وزيتوناً من العلوم التي تؤدي إلى حسن الخلق والتأديبات الإلهية وحسن الديانة والكرم والشجاعة والتقوى والزهد في الدنيا وما أشبه ذلك ، ونخلاً وهي العلوم المؤدية إلى تناول الأحوال الإنسانية الناطقية وما أشبه ذلك ، وحدائق غلباً من العلوم الجامعة لحفظ المقاصد الخمس ظاهراً وباطنا ، وفاكهة من العلوم التي هي الأحكام الشرعية الوجودية ، وأبّاً وهي العلوم التي تجري على تكاليف العوام وعامة الناس وهم الأنعام كما قال الباقر عليه السلام (الناس كلهم بهائم إلا قليل من المؤمنين والمؤمن قليل والمؤمن قليل) وهذا تأويل تعالى (مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ).

فعلى هذا يكون المعنى من تقدير وبركاته عليكم إما ما ينزل عليهم من نحو ما ذُكر وأمثاله مما لهم وإما ما ينزل عليهم مما عليهم إيصاله إلى المستحقين.

قال عليه السلام السلامُ على محالِّ معرفةِ الله

وفي بعض النسخ (على محلّ معرفة الله) بالإفراد.

قال الشارح محمد تقي رحمه الله أي لم يعرف الله حق معرفته إلا هم وما عُرِف الله إلا منهم ومن تعريفهم ، فإنهم أكمل مظاهر أسمائه تعالى وصفاته الحسنى والقراءة بالمفرد للدلالة على أنهم عليهم السلام كنفسٍ واحدة في المعرفة، فإنّها لا تختلف باختلاف باقي الصفات هـ.

اعلم أنّه لمّا كان الوجود مع كثرة تنزلاته وأجزائه وجزئياته وصفاته وأفعاله، ومتعلقات أفعاله أوجده الله على هيئة شخصٍ واحدٍ وجب أن يكون جميع مراتبه وتنزلاته وأجزائه وجزئياته وصفاته وأفعاله ومتعلقات أفعاله جارية في إيجادها وانوجادها كل فرد منها على ما جرى عليه الوجود ، كنفسٍ واحدة فإذا نظرنا إلى الشيء الواحد وجدنا أعلاه ذاته المجردة عن النسب والسبحات ومن دونها ميولاته وإراداته وهي أفعاله الذاتية، ومن دون ذلك ما يبدو له من الفعل وهو الفعل الظاهر وهذه الأفعال الظاهرية آلات الأفعال الذاتية، ولما كانت جميع ما أشير إليه من الوجود من كل أو جزء أو كلي أو جزئي ذات أو صفة علة أو معلول كل ذلك أحدثها فعل الله سبحانه لا من شيء وجب أن يكون أول ما يوجد عن الفعل لا من شيء ولا لشيء هو ذات الشيء المجردة عن جميع السبحات ثم أحدث بها لها ميولاتها وإراداتها التي هي الأفعال الذاتية ثم أحدث عنها الأفعال الظاهرة وقد ذكرنا في مواضع متعددة هنا وفي غير هذا الشرح من رسائلنا أن

معرفة الله لا يمكن حصولها إلا بتعرفه وتعريفه لمن يريد أن يعرفه نفسه وتعريفه هو وصفه لعبده والشيء إنما يعرف بوصفه وذلك الوصف الذي يعرف به هو حقيقة ذات العبد وليس له حقيقة غيرها وهذا التعرف والتعريف الذي هو ذات العبد أحدثه الله بفعله يعني أنه صفة الفعل الخاص بهذا من الفعل المطلق وهيئته كما أن الكتابة هيئة حركة يد الكاتب فهيئة الكاتبة تدل على هيئة حركة اليد من الكاتب فكانت هيئة ذات العبد التي هي تعريف الله هيئة مشيئة الله الخاصة به فالأثر يدل على المؤثر الذي هو الفعل والفعل يدل على الفاعل لأن الفعل هو ظهور الفاعل به فالذات التي هي أعلى المراتب بحقيقتها معرفة الله لأنها صفته ولهذا قال النبي ﷺ (من عرف نفسه فقد عرف ربه)جعل معرفة النفس عين معرفة الله لأنها الصفة فهي المِثل بكسر الميم الذي لا يشبهه شيء ولو كان يشبهه شيء والحال أنه من عرفه عرف ربه لزم أن يكون الله يعرف بغير صفته وأن يكون لصفته شبيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والله سبحانه لا يعرف بغيره وإلا لكان الغير مشابها له ولا يجوز كما مر أن تكون تلك الذات غير صفته وإلا لكانت موجودة قبل صفته لتقع صفته عليها وهذا باطل لأن تلك الذات إنما حدثت بالفعل فيجب أن تشابه صفته لأنها أثره فتكون هي الصفة ولو لم تشابه صفة الفعل لم تكن محدثة عنه فتكون مشابهة لما أحدثت به أو أنها ليست محدثة فمعنى كون تلك الذات محل معرفة الله أنها هي معرفة الله وإنما قيل هي محل المعرفة بناء على سر اللغة من أن الشيء محل لنفسه لا محل لغيره وإذا رأيت أن شيئا محل لغيره فهو في الحقيقة محل نفسه وإلا لم يتحقق ظهوره وكونه محلا لغيره جهة خارجة عن كونه محلا لنفسه فافهم .

فكونهم عليهم السلام محال معرفة الله يراد منه أنهم معرفة الله ولا تعجب من هذا المعنى

فإنه إذا فهمته رأيته من الأمور البديهية وكيف تكون أنت معرفة الله حيث قال ﷺ (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ولا يكونون معرفة الله وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا)، وقد ذكرنا ثلاثة وجوه في معنى هذا الحديث ، أحدها هذا المعنى وقد تقدم.

فإذا عرفت فاعلم أن كونهم محال معرفة الله إذا تنزلت عن هذا المعنى الذي أشرنا إليه له معانٍ أُخر.

أحدها: أنّ الله سبحانه جعلهم خزائن معرفة الخلق سواهم، بمعنى أن كلّ من عرف ربه فإنما نزلت عليه المعرفة منهم كما قال تعالى(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلوم).

وثانيها: أن كل معرفة عند أَحد من الخلق إنما كانت صحيحةً لأنها أخذت عنهم فهم محال معرفة غيرهم.

وثالثها: أن كل معرفة إذا لم تَرِدْ عليهم لم تتجاوز إلى الله لأنهم هم أبواب الله لا غير بمعنى أنها غير مطابقة للمعروف إذ المعرفة صفة وإذا لم تكن الصفة مقترنة بجهة الموصوف كانت لنفسها أو لغيره ولا جهة لله في الإمكان غيرهم .

ورابعها: أن كل معرفة إذا لم تضف إليهم وتنسب كانت عدماً إذ لا وجود لشيء بدون فاضل وجودهم لأنّهم علة الإيجاد يعني العلة المادية.

وخامسها: كما أن كل مادة فمن فاضل وجودهم كذلك جميع صور الحق فمن هيئات الرحمة وهي هم لأنّهم علة الانوجاد يعني العلة الصورية.

وسادسها: أنهم عليهم السلام إذا وردت عليهم معرفة عبدٍ فإن سقوها من حوضهم استقامت معرفته وحييت وإلا ماتت وتفرقت ولم تكن شيئاً كما قال تعالى(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا).

وسابعها: أنهم عليهم السلام هم المقدِّرُون لمعارف الخلائق والمقسمون لها بأمر الخالق (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْل وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ)فهذه الوجوه وغيرها في كلها هم عليهم السلام محال معرفة الله لأن معرفة الله حينئذٍ عندهم ومعهم وفيهم وبهم وإليهم ولهم.

قال عليه السلام ومساكن بركة الله

المساكن: جمع مسكن وهو محل الاستقرار والسكون والمراد منها عدم الانتقال والتحول والمراد من معنى المساكن والمعادن والمحال واحد فيما ذكرنا من التفسير، لأن هذه المساكن هي بركة الله لا أن البركة مغايرة للمساكن فيما لها، أما فيما لسائر الخلق فيما دونهم فإنها مغايرة لهذه المساكن وتفصيلها لسائر الخلق غيرهم بالنسبة إلى المساكن ما تقدم في محال معرفة الله ، فقد أشرنا هناك إلى اتحاد المحال والمعرفة فيما له لهم وتعدّد أنواع المعرفة فيما لسائر الخلق بالنسبة إلى ذواتهم عليهم السلام على سبعة وجوه ففصّل بركة الله على سائر الخلق بالنسبة إلى تلك المساكن كما تقدم سالكاً سبل ربك ذُللاً فافهم.

وقال الشارح محمد تقي رحمة الله عليه أي بهم يبارك الله على الخلائق بالأرزاق الصورية والمعنوية، كما تدل عليه الأخبار المتواترة ونبّه عليه المحقق الدواني في شرح الهياكل هـ .

أقول: يريد بالأرزاق الصورية أرزاق الطعام والشراب واللباس والمال بأنواعه، وما خلق لكم في الأرض مختلفاً ألوانه من كل شيء محسوس تتوقف عليه المعيشة وأمر النظام من حيوان ونبات ومعدن وبالأرزاق المعنوية العلوم والعقول والأفهام والإلهامات والإدراكات بجميع أنواعها، والهدايات

والتوفيقات والأعمال الصالحة وعقول الصنائع والمصانعات في الأحوال والأقوال والإمدادات في الأعمار وتأخير الآجال وتدبير النفوس والمنازل والبلدان، بل التعقلات والتخيلات والتوهمات والتصورات والحركات والسكنات واللحظات والأنفاس والخطرات والبدوات وكل شيء عنه وبه مما ينتفع به فإنه رزق ينزل إليه بقدر من سماء الخزائن وذلك قوله تعالى(وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)مع قوله تعالى(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلومٍ)والأحاديث عنهم عليهم السلام تشير إلى ذلك كله.

قال عليه السلام ومعادن حكمة الله

قال الشارح رحمه الله كما ورد متواتراً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة صلوات الله عليهم أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أنا مدينة العلم وعلي بابها).

وعلومهم علومه صلوات الله عليهم والحكمة هي العلوم الحقيقية الإلهية ولا ريب أن علومهم عن الله تعالى بل عين علم الله تعالى .

أقول: المعدِن بكسر الدال هو الأصل ومحل الإقامة للشيء أو منبت أصله وقد تقدم ذكره والحكمة هي العلم كما ذكر الشارح رحمه الله من حديث (أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها) والحديث الآخر (أنا مدينة العلم وعلي بابها) والمراد واحد فهنا المراد من هذا العلم الأعم أو العلم العملي أو اللدني أو الذوقي أو أن العلم الذي هو الحكمة أفضل العلوم بأفضل المعلومات وفي مجمع البحرين لفخر الدين بن طريح (والحكمة العملية ما لها تعلّق بالعمل كالطب والحكمة العلمية ما لها تعلق بالعلم كالعلم بأحوال أصول الوجودات الثمانية الواجب والعقل والنفس والهيولى والصورة والجسم والعرض والمادة).

أقول: هذه التي سمعت عنه وعن غيره أكثرها ممزوجة لغوية مع اصطلاحية أما اللغة فمنها كلام أهل اللغة الظاهرة، ومنها كلام أهل اللغة الحقيقية التي نزل القرآن عليها ظاهره على ظاهرها، وباطنه على باطنها، وأهل العصمة عليهم السلام نطقوا في أحاديثهم بالصورتين، وأما أهل الاصطلاح فعلى حسب أفهامهم ومذاقاتهم وأصولهم وضعوا اصطلاحهم كما ذكر في مجمع البحرين مما سمعت مما يلزم عليه من الاختلاط والاختلاف في المعتقدات وفي معرفة أحوال الموجودات لو أريد بالحكمة ما ذكره، وفي القاموس (والحكمة بالكسر العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل)هـ.

أقول: وصاحب القاموس لم يكن من أهل الولاية لو كان من أهل الولاية لذكرها في معاني الحكمة، لأن استعمال الحكمة فيها أولى من غيرها مما ذكر وأكثر استعمالاً بل كل موضع من القرآن ذكر فيه الحكمة أو الحكم، فإنما يراد به الولاية أو ما يستلزمها هذا يشار إليه من جهة اللفظ في الجملة لأن البحث فيه أيضاً من جهة اللفظ يطول ولا فائدة فيه كثيرة.

وأما من جهة المعنى المراد فإنّه عليه السلام ذكر أنّهم صلوات الله عليهم معادِن لحكمة الله، والمراد بحكمة الله الحادثة المرتبطة بالحوادث لأن الحكمة الذاتية الأزلية هي ذاته تعالى وأول ما صدر عن فعله تعالى الحكمة الحقيقية وهي آية الحكمة الحقيّة وهي ذاتهم القدسيّة فذاتهم حكمة الله وولايته على جميع خلقه، حتى أنّه سبحانه لتلك الحكمة أعطى كل شيء ما له فيما هو عليه لذاته وهذا النظم الطبيعي الذي ليس شيء أكمل منه لأنه صفة الكامل، وأثره وآيته الدالة على كمال ذاته هو الحكمة التي هي ما الكون عليه وهي من الحكمة التي هي ذاتهم عليهم السلام كالشعاع

من المنير، وذاتهم آية الله العليا لحكمته التي هي ذاته تعالى فذكرنا لما يجري عليه لفظ الحكمة في العبارة للبيان والتعريف مع ملاحظة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) ثلاث مراتب.

المرتبة الأولى للذكر الحكمة الحقيّة وهي عبارة عن عنوان الحق أي للحق سبحانه.

والمرتبة الثانية للذكر الحكمة الحقيقية وهي ذواتهم القدسية وهي آية حكمة الله التي هي ذاته ومجلاها.

والمرتبة الثالثة: ولايتهم بالله على سائر خلقه فبها صدرت أكوانهم عن الاختراع وأعيانهم عن الإبداع وهياكلهم عن القدر وتمموا عن القضاء فحكمة الله في المرتبة الثالثة هم معادِنُها ومصادِرُها و مواردها وهم معها أينما كانت.

وفي المرتبة الثانية هم حكمة الله وهم معادنها وما في الثالثة من الثانية كما تقدم في محال معرفة الله من الوجوه السبعة.

والمراد من الحكمة العلم الإحاطيّ الذوقي مقروناً بما يرتبط به من العمل، وهذا في كل شيء بحسبه بعد ما تعرف أن العلم عين المعلوم وأن الذي هو صورة المعلوم يراد به نفس العلم بالصورة، فعلمك بزيد هو صورته في خيالك يعني أن الصورة التي في خيالك هي علمك بها، وزيد عين علمك به نفسه لا صورته ففي كل رتبة من الإدراك العلم نفس المعلوم فأعمالك نفس علمك بها وأنفاسك عين علمِك بها، وحركتك عين علمك بها وسكونك عين علمك به فالعلم عمل والعمل علم، وبعد أن تعرف أن العلم منك كيدك منك فكونهم معادِنَ حكمة الله معنى ذلك أنهم معنى الأول وعين الثاني وقوام الثالث وفي الكافي قال أمير

المؤمنين عليه السلام (إنا أهل البيت شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم).

وفيه عن خيثمة قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام (يا خيثمة نحن شجرة النبوة وبيت الرحمة ومفاتيح الحكمة ومعدن العلم وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وموضع سر الله، ونحن وديعة الله في عباده ونحن حرم الله الأكبر ونحن ذمة الله ونحن عهد الله، فمن وفى بعهدنا فقد وفى بعهد الله ومن خفرها فقد خفر ذمّة الله وعهده).

فذكر في الحديث الأول أنهم معدن العلم وهو الحكمة فيصح في المراتب الثلاث وفي الحديث الثاني أنهم مفاتيح الحكمة ويصحّ في الثالثة صريحاً وقد يستعمل في الثانية، وأما إذا استعمل في الأولى فعلى تأويل الثالثة ومن الأولى ويمكن التأويل في الثانية ويكون التغاير بالاعتبار.

وقول الشارح محمد تقي رحمه الله (ولا ريبَ أن علومهم من الله تعالى) فيراد منه أن علومهم الله سبحانه أحدثها فيهم وجعلهم أوعية للعلم وخزائن للحكمة لا أن المراد أنها انفصلت من القديم فإن ذلك كفر.

وقوله رحمه الله (بل عين علم الله) يراد منه أن علومهم جعلها علمه بهم وبمن دونهم وإن كان له علم بمن دونهم غير هذا العلم وهو عين من هو دونهم، وإن كان لنا أن نؤول علومهم على معنى يشمل كلّ من سواهم لأنّا أردنا أن العلم عين المعلوم وأن ذلك الغير مادته من شعاعهم، وذلك الشعاع هو علم وصورته من شعاع رحمتهم في المؤمنين وهو أيضاً علمٌ ومن عكس شعاع رحمتهم وهو شعاع غضبهم في الأعداء وهو أيضاً علم فعلى هذا المعنى ليس لله علم مخلوق

بمن هو دونهم إلا علومهم أو عن علومهم، وعلى الأول له علم مخلوق بمن هو دونهم غير علومهم أو عن علومهم، وكل هذا مبنيّ على العَيْنية كما هو الحق في المسألة، وإنما قلنا: إنه على ذلك المعنى ليس لله علم مخلوق بمن هو دونهم غير علومهم أو ما هو عن علومهم لأنّهم باب الله إلى خلقه وباب خلقه إليه ولم يجعل بفضله على محمد وآله ﷺ وعلى خلقه له باباً لإفاضته وعلمه وخلقه ورزقه وإحيائه وإماتته غير محمد وآله ﷺ .

قال عليه السلام وحفظة سرّ الله

قال الشارح محمد تقي رحمه الله أسرار الله هي علومه لا يجوز إظهارها إلا للكُمَّل مثل: سلمان وكميل كما سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن الحقيقة فقال: ما لكَ والحقيقة؟ فقال أولستُ صاحب سرّك ...الخ) وقال الصادق عليه السلام (لو علم أبوذر ما في قلب سلمان لقال رحم الله قاتل سلمان) وقالوا صلوات الله عليهم، (إن حديثنا صَعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبيّ مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان).

وفي خبر آخر بدون لفظ الاستثناء ويظهر من خبر موسى والخضر عليهما السلام أن كل أحد ليس له قابلية فهم جميع العلوم .

أقول: المراد من كونهم عليهم السلام حفظة سر الله أنهم لا يظهرونه أو لا يظهرون منه إلا ما يحتمل على من يحتمل كما دل عليه كثير من أحاديثهم كما روي عن عليّ عليه السلام وقد سئل عن مسألتين فأجاب فيهما، وسئل ثالثة فقال ما معناه ليس كل العلم يقدر العالم أن يفسره، لأن من العلم ما يحتمل ومنه ما لا يحتمل ومن الناس

من يحتمل ومنهم من لا يحتمل، أو أنهم لا يظهرون منه شيئاً إلا لبعضهم أو لبعض خواصهم بخصوصه لنصّ تقدّم إليهم من الله سبحانه كما رواه في بصائر الدرجات عن الصادق عليه السلام (إن حديثنا صعب مستصعب شريف كريم ذكوان ذكيّ وَعِرُ لا يحتمله ملك مقرّب، ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن قيل فمن يحتمله قال من شئنا)، وفي رواية نحن نحتمله.

فظاهره أن من أحاديثهم ما لا يحتمله غيرهم ومن أحاديثهم ما لا يحتمله أحد من غيرهم إلا بخصوص مشيّتهم عن أمر من الله خاص ولا شك في هذين عندي

وفي كتاب معاني الأخبار عن أبي الحسن عليه السلام في تفسيره (إنما معناه أن الملك لا يحتمله في جوفه حتى يخرجه إلى ملكٍ مثله، ولا يحتمله نبي حتى يخرجه إلى نبي مثله، ولا يحتمله مؤمن حتى يخرجه إلى مؤمن مثله، إنما معناه ألا يحتمله في قلبه من حلاوة ما هو في صدره حتى يخرجه إلى غيره)هـ.

أقول: وهذا أيضاً قسم من أحاديثهم ولم يكن عدم الاحتمال محصوراً فيه وإنما ذكره عليه السلام بصورة الحصر لأنّه عنى هذا القسم الخاص وإلا فكون بعض أحاديثهم مما لا يحتمله غيرهم مما لاشك فيه وقد ذكر محمد بن الحسن الصّفّار أنّه (وجد في بعض الكتب ولم يروه بخط آدم بن علي بن آدم قال عمير الكوفي (معنى حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل)، فهو ما رويتم أن الله تبارك وتعالى لا يوصف، ورسوله لا يوصف والمؤمن لا يوصف فمن احتمل حديثهم فقد حدهم ومَن حدهم فقد وصفهم ومن وصفهم بكمالهم فقد أحاط بهم وهو أعلم منهم).

وأما أن في أحاديثهم ما لا يحتمل إلا بخصوص تعليم فظاهر ومنه معرفة المنزلة بين المنزلتين في القدر في أفعال العباد الاختيارية وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال سئل عن القدر والجبر فقال(لا جبر ولا قدر ولكن منزلة بينهما فيها الحق التي بينهما لا يعلمها إلا العالم أو من علّمها إياه العالم)هـ.

فأخبر عليه السلام أن معرفة المنزلة بين المنزلتين لا تنال إلا بتعليم العالم فلا يعرفها نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان إلا بتعليم الإمام عليه السلام .

فإن قلت أي فرق بينها وبين غيرها فإن كلّ مسألة لا تُعْلم إلا بتعليم الإمام عليه السلام ولا سيما على ما عندكم.

قلت: هذا حق ولكن الكلام مبني على المتعارف ولو سلمنا قلنا المراد بالتعليم الخاص لا الإلهام والإمداد بالفهم والتوفيقات فإنها لا يحصل لها لا بالتعليم لكن هو أعم، بل أكثرها بالتعليم العام كما هو الظاهر وإذا لاحظنا الأمر الواقعي الحقيقي قلنا: لا فرق بينها وبين غيرها بل كل شيء بتعليم خاص إلا أنا نقول هنالك أيضا لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن إلا بالتعليم الخاص.

أو يكون معنى (حفظة سرة الله) أنهم لا يغيرون فيه ولا يبدلونه فما كان ذاتاً لهم فإنهم يحفظونه عن التغيير بدوام التعهد وحفظ ما لهم وما لغيرهم بالعلم والعمل كما يراد منهم لأن ما لهم هي الصفات الأفعالية فتجرى عنهم كما شاء الله لأنهم محال مشيته وهم أيضاً حفظة سر الله أي يحفظون ما لله منهم له كما أمروا إذا أريد بسر الله أمرهم وولايتهم كما في بصائر الدرجات عن الصادق عليه السلام (إن

أمرنا سر مستسر وسر لا يفيده إلا سر وسر على سر وسر مقنع بسر).

وعنه عليه السلام (إن أمرنا هذا مستور مقنّع بالميثاق من هتكه أذله الله).

وعنه عليه السلام (إن أمرنا هو الحق وحق الحق وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن وهو السر وسر السر وسر المستسر وسر مقنع بالسر).

فكونهم حفظة له أي قائمون بمقتضاه أو بتبليغ دواعيه أو مؤسسون لأساس بنيانه به أو لأساس بنيان متعلقاته أو تعلقاته، أو راعون له حافظون له عن مغالطة المشبهين والمحرفين والملبسين للدين وعن دعوى القائلين (اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ★ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)وعن انتحال المبطلين الذين يلحدون في أسمائه أو أن العبارة عنه في أحاديثهم لا بد وأن تكون بالإشارة والسر وفي البصائر عن أبي جعفر عليه السلام قال(إن حديثنا هذا تشمئز منه قلوب الرجال فمن أقر به فزيدوه ومن أنكره فذروه إنه لا بد من أن تكون فتنة يسقط فيها كل بطانة ووليجة حتى يسقط فيها من كان يشق الشعر بشعرتين حتى لا يبقى إلا نحن وشيعتنا)هـ.

وعنه عليه السلام (إن حديث آل محمد صعب مستصعب ثقيل مقنّع أجرد ذكوان لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان أو مدينة حصينة فإذا قام قائمنا نطق وصدّقه القرآن)هـ.

أقول وهو قوله تعالى(هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا).

وعن الصادق عليه السلام في تفسير ذكوان ذكي أبدا وأجرد طري أبداً ومقنع مستور، وعن الصفار(أما الصعب فهو الذي لم يركب بعد وأما المستصعب فهو الذي يُهرب منه إذا رُأي وأما الذكوان فهو ذكاء المؤمنين وأما الأجرد فهو الذي

لا يتعلق به شيء من بين يديه ولا من خلفه وهو قول الله تعالى(اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ) فأحسنُ الحديث حديثنا لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله حتى يحده لأن من حدّ شيئاً فهو أكبر منه)هـ. رواه المفضل عن أبي جعفرٍ عليه السلام .

فالولاية سر الله وهي ذاتهم وصفاتهم وأفعالهم وأمرهم ونهيهم وأحاديثهم تجري بنسبة ما تدل عليه فإن كانت لذكر الأول كانت لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وإن كانت لذكر الثاني كانت لا يحتملها إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وإن كانت لذكر الثالث احتملها العلماء وإن كانت لذكر الرابع كانت يحتملها عامة المكلفين كما قالوا عليهم السلام (إنا لا نخاطب الناس إلا بما يعرفون).

فكان من سر الله الذي لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان إن أحاديثهم عليهم السلام يظهرونها على الأنحاء الأربعة وهذا من كونهم حفظة لسر الله، ومن ذلك السر أيضاً أنهم عليهم السلام يعلمون كلّ شيء ولا يعلمون الغيب ولا يجوز نسبة علم الغيب إلى أحد منهم وهم يعلمون كل ما في الغيب والشهادة، كما يأتي في فقرات الزيارة (اصطفاكم لعلمه وارتضاكم لغيبه واختاركم لسرّه) فمن نظر إليهم بالعقل المنحط وجدهم يعلمون الغيب، ومن نظر إليهم بالعقل المستوي وجدَهم هم الغيب وهم خزائن الغيب، وهم مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو يعني إلا الله ، ومن نظر إليهم بالعقل المرتفع وجدهم لا يعلمون الغيب (قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ)فالمؤمن الممتحن قلبه من له هذه العقول الثلاثة وهذه المرتبة من سر الله وهم لها حافظون، ومن حفظهم لها أن ما علموه وأخبروا به مما كان ومما يكون

ومما يحدث في الوقت بعد الوقت أنه وراثة من رسول الله ﷺ وتفهيم في كتاب الله لأن هذا من مكنون العلم الذي لا يعلمه إلا الثلاثة الأصناف وهو سر الله، فهم يحفظون سر الله فلا يذيعونه إلى أحد غيرهم فإذا علموا به الأصناف الثلاثة لم يكونوا بذلك مذيعين لأن الثلاثة الأصناف ليسوا من الأغيار، وهذا مراد الشارح رحمه الله بقوله(لا يجوز إظهاره إلا للكمل) وهو حسن ، وقوله (مثل سلمان وكميل) فنقول فيه أما سلمان فهو كما قال وفوق ما يقول ، وأما كميل فهو ممن له معرفة واطلاعه على الأسرار إنما هو بالنسبة إلى غيره من سائر الناس وعلي عليه السلام لم يقرّه على عموم ما ادّعاه بقوله(بلى) لأنه عليه السلام استدرك الجواب عمّا يتوهم التقرير على مدّعاه بقوله (ولكن يرشح عليك ما يطفح مني) والرشح عرق الطافح وشعاعه يعني أن الذي ألقي إليك إنما هو رشح من ظاهر ما أظهره، إما بمعنى أنك لا تدرك من كلامي الذي أظهره إلا رشح النداوة من الزّق المملوء ماء ، أو بمعنى أني لا أظهر لك إلا رشحاً وقشراً مما هو ظاهر ما أريده لا باطنه ، وفي كلها لم يكن مقرّاً له على ادعائه.

لا يقال إن هذا من الأسرار وإن كان عند عليّ عليه السلام من رشح ظاهره لأن جميع الخلائق بالنسبة إلى الإمام عليه السلام هكذا.

لأنّا نقول هذا الكلام وإن كان حقاً بحسب إطلاقه لكنّه عليه السلام لا يعرض بما يختصون به ليكون هذا من أعلى الدرجات لكميل، وإنما يعرض بما يخاطب به خواصّه وأصحاب سرّه كسلمان فكان مقام كميل ما يرشح كالنداوة والعرق مما يطفح عن مقام سلمان وقوله (زدني بياناً) لا يدلّ على أنه عرف مراد الإمام عليه السلام وإنما يَدُلّ على أنه عرف شيئاً وطلب زيادة البيان لما عرف ولعل علياً عليه السلام إنما

أجابه لينقله إلى أهله ولو كان هو من أهله لما قال له ابتداءً (ما لك والحقيقة).

والحاصل أن كميلاً ليس من أهل تلك الأسرار المشار إليها وإن كان له حظ في بعض ما يسرّ عن سائر الناس وليس كسلمان، فإنّ أبا ذر أفضل من كميل وهو لا يحتمل ما في قلب سلمان .

وقول الشارح ﵀ (وفي خبر آخر بدون لفظ الاستثناء) يريد به ما ذكرناه أولاً وذكرنا وجه الجمع.

وقوله (ويظهر من خبر موسى ﵇ والخضر ..الخ) فيه إنّه يوهم حصر الدليل على هذا المعنى فيه والمعروف من القرآن والسنة وأدلة العقل أن هذا من الأمور القطعيّة.

قال ﵇ وحملة كتاب الله

قال الشارح ﵀ فإن القرآن كما أنزل وعلومه كما هي عندهم وفيه علوم الأولين والآخرين كما ورد في المتواتر من الأخبار هـ.

أقول الحملة جمع حامل والمراد بحمل القرآن حفظ لفظه على جميع ما يحتمل فيه من وجوب وراجح وحرام ومرجوح وجائز، وحفظ معناه بجميع ما يحتمل من ظاهرٍ وظاهرِ ظاهرٍ وظاهرِ ظاهرِ ظاهرٍ وهكذا وباطنٍ وباطنِ باطنٍ وباطنِ باطنِ باطنٍ وهكذا وتأويلٍ وتأويل تأويلٍ وتأويل تأويل تأويلٍ ، بما يرجع إلى الكل وإلى السورة وإلى الآية وإلى الكلمة وإلى الحرف والذي يرجع إلى الحرف يرجع إلى الفكري والعددي واللفظي والرقمي وإلى الأحوال والأوضاع والأطوار والوصل والفصل والإدغام والإظهار والإخفاء وحرف مكان حرف

وكلمة من حروف كلمتين كمثل حصب جهنم فإن حصب من كلمتين فالحاء من الحطب والحصى والحجارة والصاد من الحصى والباء من الحطب وأمثال ذلك مما انطوى على أسرار الوجودات.

وفي التوحيد عن الباقر عليه السلام أن وفدا قدم من فلسطين عليه عليه السلام فسألوه عن مسائل فأجابهم، ثم سألوه عن الصمد، فقال تفسيره فيه (الصمد خمسة أحرف فالألف دليل على إنيته وهو قوله عزوجل (شهد الله أنه لا إله إلا هو) وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس، واللام دليل على إلهيته بأنه هو الله، والاألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان ولا يقعان في السمع ويظهران في الكتابة دليلان على أن إلهيته بلطفه خافية لا تدرك بالحواس ولا تقع في لسان واصف، ولا أذن سامع، لأن تفسير الإله هو الذي أله الخلق عن درك ماهيته وكيفيته بحس أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواس، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة دليل على أن الله سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه كما أن لام الصمد لا تتبين ولا تدخل في حاسة من الحواس الخمس، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف، فمتى تفكر العبد في ماهية البارئ وكيفيته أله فيه وتحير ولم تحط فكرته بشئ يتصور له لأنه عز وجل خالق الصور، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عز وجل خالقهم و مركب أرواحهم في أجسادهم.

وأما الصاد فدليل على أنه عز وجل صادق وقوله صدق وكلامه صدق ودعا عباده إلى اتباع الصدق بالصدق ووعد بالصدق دار الصدق وأما الميم فدليل على ملكه وأنه الملك الحق لم يزل ولا يزال ولا يزول ملكه وأما الدال فدليل على دوام

ملكه وأنه عز وجل دائم تعالى عن الكون والزوال بل هو عزوجل يكون الكائنات، الذي كان بتكوينه كل كائن، ثم قال عليه السلام لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عزوجل حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان و الدين والشرائع من الصمد).

وهذا الذي سمعت عنه من العلوم التي أشار إليها بنوع من أحوال الحروف وهو الإدغام وأحواله، وما يراد منه ، والحروف أنفسها ، ومن ذلك أحوال النزول وأحوال التأويل والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والظاهر والمجمل والمبين والعام والخاص والمطلق والمقيّد والأمر والنهي، وغير ذلك مما يجري منها في أوطار الأكوان وأطوار الأعيان من الدهر والزمان مما هو مصدر كل موجود والمراد بالكتاب الذي هم حملته هو الكتاب التدويني الذي هو طبق الكتاب التكويني، وهو يجتمع مع العقل الأول المسمّى بروح القدس وروح من أمر الله وقد أشار الله سبحانه إلى هذا في كتابه (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا)وتقدم في الحديث أن هذه الروح لم تكن مع أحد ممن مضى إلا مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام، وبيّنا أنها وجدت مع كل نبي وولي ووصي بوجه من وجوهها ولم يجمعها كلها إلا محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن لأنه بعد تلك المرتبة الجامعة افترقا فكان جهة منه ملكاً وجهة قرآناً وكل منهما مبني على صاحبه وفي الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال (ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب وما جمعه وحفظه كما أنزل الله إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده).

وبإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال(ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء عليهم السلام).

وبإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال(قد ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أعلم كتاب الله وفيه بدؤ الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي إن الله يقول (فيه تبيان كل شيء).

وبإسناده عنه عليه السلام قال (نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله).

وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال(إنّا أهل بيتٍ لم يزل الله يبعث فينا من يعلم كتابه من أوّله إلى آخره وإن عندنا من حلال الله وحرامه ما يسعنا كتمانه ما نستطيع أن نحدث به أحداً) .

وفي رواية أخرى(إن من عِلم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه لو وجدنا أوعيةً أو مستراحاً لقلنا والله المستعان).

وفي تفسير العياشي أيضاً عنه عليه السلام (إن الله جعل ولايتنا أهل البيت قُطب القرآن وقطب جميع الكتب عليها، يستدير محكم القرآن وبها نوّهت الكتب ويستبين الإيمان وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقتدى بالقرآن وآل محمد وذلك حيث قال في آخر خطبة خطبها (إني تارك فيكم الثقلين الثقل الأكبر والثقل الأصغر) فأما الأكبر فكتاب ربي وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما)هـ

أقول: ما أورد على هذا الحديث الأخير من إشكال كونهم الثقل الأصغر قد أجبنا عنه في أجوبتنا لمسائل الملاّ كاظم السمناني فمن أراده طلبه من هناك.

وبالجملة هم حملة كتاب الله كله بل بكل معنى في كل عالم لكل غاية ومن جملة كونهم حملة للكتاب كونه مهيمناً على جميع الكتب(لا يَأْتِيهِ البَاطِلِ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا

مِنْ خَلفِهِ) أيضاً من ذلك وهنا احتمالات ترجع إلى التأويل، منها أن كل شيء من العالم علم بنفسه كما تقدمت الإشارة إليه والعالم هو كتاب الله وهم عليهم السلام حملة هذا الكتاب بالعلم والإبلاغ والتبليغ والقبض والبسط في كل الشرعيات الوجودية والوجودات الشرعية، ومنها أنهم حملته بالعلة المادية والصورية والفاعلية والغائية، ومنها أن القرآن هو العرش التدويني وهم عليهم السلام الماء الذي به كل شيء حي وكان عرشه على الماء ، ومنها أن القرآن هو الدين عند الله وعند أوليائه إما لأنه دين برأسه أو لأنه علة كل دين لله وتفصيله ومنشؤه وهم حملة ذلك، ومنها أنه الفعل الثاني وهم صلى الله عليهم محال الفعل الأول والفعل الثاني فهم حملته، ومنها كما تقدمت الإشارة إليه أنه روح من أمر الله وهم حملته، ومنها أنه اللوح المحفوظ في الأكوان وفي الألفاظ وهو يرجع إلى الأول وهم حملته وكان محفوظاً بحملهم إياه(وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ بَل هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ).

قال عليه السلام وأوصياء نبي الله

قال الشارح رحمه الله فإنه ورد متواتراً من طرق العامة والخاصة أنهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأوصياؤه وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أوصى إلى أمير المؤمنين عليه السلام إلى المهدي عليه السلام وأوصى كل منهم إلى الإمام الذي بعده إلى المهدي صلوات الله عليهم أمور الأمة وكانت الوصاية كناية عن التخليف كما تقدم انتهى.

أقول: إن ثبوت النص من النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الاستخلاف قد ورد من طرق المنكرين لذلك متواتراً من طرق متعددة ذكرنا كثيراً منها في أجوبة المسائل التوبلية ومن طرق الشيعة كذلك حتى بلغ الضرورة بحيث لا يكاد أحد يسأل

عن ذلك، وهذا ظاهر لا إشكال فيه لكن ما المراد من هذه الوصاية هل هي نيابة وكالة أم نيابة بدل أم نيابة مثل، والقائلون أنهم أوصياء رسول الله ﷺ متفقون على أنهم قائمون مقامه ولا يتكلمون بشيء من هذه الاحتمالات الثلاث إلا أن من عرف مقاصدهم في معتقداتهم يجد منها هذه الاحتمالات الثلاث.

فمنهم طائفة يعتقدون أنهم عليهم السلام ليس بين محمد ﷺ وبينهم مناسبة ذاتية تقتضي التبليغ لا ابتداء ولا بالانضمام، وإنما بينهما كما بين الوكيل والموكل لأنه ﷺ لما حضرته الوفاة أوصى إلى علي عليه السلام ولو أوصى إلى غيره لجاز ذلك، ولهذا أول ما عرض الوصية على عمه العباس ولو قَبِل كان صالحاً وهم وإن كانوا لا يقولون بهذا الكلام لفظاً، لكن لسان حالهم ينطق عن اعتقادهم بمعنى هذا لأن اعتقادهم أنه ﷺ صاحب الرياسة والنبوة والولاية له وهم علماء حكماء أتقياء أقوياء في طاعة الله وفي تحمل الأثقال الإلهية لا يدانيهم سواهم في هذه الصفات والحكيم تقتضي حكمته ألا يستنيب في أمره إلا من يقوم به وهم صالحون لهذا الأمر فأقامهم مقامه كما يقيم المالك الأجنبي وكيلاً على عمل في ماله من بيع وشراء ولم يكن ذلك منه لمقتض ذاتي.

ومنهم طائفة لسان حالهم يقول: إنهم صالحون لهذا المنصب ابتداء لأنهم هم ومحمد ﷺ في مقام سواء إلا أنه لما كان محمد صاحب الابتداء وهو مساوٍ لهم وجب نقل الأمر لاقتضاء مستقل غير مأخوذ فيه ابتدائية محمد ﷺ، ولهذا لم يكن له اختيار وربما استدل لهم بما في تفسير العياشي عن جابر الجعفي قال(قرأت عند أبي جعفر عليه السلام قول الله عز وجل (لَيْسَ لكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْء) قال بلى، والله إن له من الأمر شيئاً وشيئاً وشيئاً وليس حيث ذهبت ولكني أخبرك أن الله تبارك

وتعالى لما أمر نبيه ﷺ أن يظهر ولاية علي عليه السلام فكر في عداوة قومه له ومعرفته بهم، وذلك للذي فضله الله عليهم في جميع خصاله كان أول من آمن برسول الله ﷺ وبمن أرسل وكان أنصر الناس لله ورسوله وأقتلهم لعدوهما وأشدهم بغضا لمن خالفهما وفضل علمه الذي لم يساوه أحد ومناقبه التي لا تحصى شرفاً فلما فكر النبي ﷺ في عداوة قومه له في هذه الخصال وحسدهم له عليها ضاق عن ذلك فأخبر الله تعالى أنه ليس له من هذا الأمر شيء ، إنما الأمر فيه إلى الله أن يصيّر علياً وصيه وولي الأمر بعده فهذا عنى الله وكيف لا يكون له من الأمر شيء وقد فوض الله إليه أن جعل ما أحل فهو حلال وما حرّم فهو حرام قوله(مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)هـ.

وجه الاستدلال أنه حين الوصية لما فكر قال له(لَيْسَ لكَ مِنَ الأَمْرِشَيْءٌ)وأصرح من هذا ما في التفسير المذكورعن جابر قال (قلت لأبي جعفر عليه السلام قوله لنبيه ﷺ(لَيْسَ لكَ مِنَ الأَمْرِشَيْءٌ) فسره لي ، قال : فقال أبو جعفر عليه السلام لشئ قاله الله ولشئ أراده الله تعالى، يا جابر إن رسول الله ﷺ كان حريصا على أن يكون علي عليه السلام من بعده على الناس، وكان عند الله خلاف ما أراد رسول الله ﷺ، قال قلت فما معنى ذلك قال نعم عنى بذلك قول الله لرسوله(لَيْسَ لكَ مِنَ الأَمْرِشَيْءٌ) يا محمد في علي الأمر إلي في علي عليه السلام وفي غيره ، ألم أتل عليك يا محمد فيما أنزلت من كتابي إليك(آلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) إلى قوله(فَلَيَعْلَمَنَّ) قال فوض رسول الله ﷺ الأمر إليه)هـ.

أي أراد أن يكون في علي عليه السلام خاصة فأبى الله إلا أن يكون فيه، وفي أعدائه ولولا ملاحظة عدم الاستناد والانضمام لما كان الأمر فيه وفي عدوه وفي هذا

الأخير دلالة على الأول في الجملة وإلا لما كان في العدو فالوصي بدل مستقل وليس كالاحتمال الأول لأن الأول أن الوصي كالوكيل يعمل في مال الغير كما أمر، وهذا الثاني الوصي مالك يعمل في ملكه فهو كالبدل فاستنابة الأول استنابة وكالة واستنابة الثاني استنابة بدل.

ومنهم طائفة لسان حالهم يقول وأنا منهم بلسان حالي ومقالي إن استنابتهم ووصايتهم استنابة مِثل بكسر الميم ومعنى ذلك أنهم صالحون لهذا المنصب بمقتضى ذواتهم صلوح مماثلة، يعني مراعى فيهم تبعية محمد ﷺ وأنهم في المقام الثاني فهم مِثل بكسر الميم والمثل ملحوظ فيه المشابهة والتبعية وإن كانوا من طينة واحدة لكن لا يجوز حين كان محمد وعلي صلى الله عليهما وآلهما نوراً واحداً قسم نصفين أن يقال فقال لنصف كن علياً وقال للنصف الآخر كن محمداً، بل يجب أن يقال (فقال للنصف كن محمداً، وقال للنصف الآخر كن علياً) وهوقول علي عليه السلام (أنا من محمد كالضوء من الضوء) فالضوء الثاني مِثل للأول لا مستقل ولا أجنبي ولا ابتدائي بل هو كالمالك المتصرف في الملك بتمليك المالك الأول، فوصايتهم نيابة مِثل بكسر الميم وهو المساوي التابع وهذه الاحتمالات الثلاثة حصلت متفرقة في المؤمنين على حسب معتقداتهم يعرفها من عرف في لحن أقوالهم، وإن كانوا هم لا يشعرون بتفصيلها وأنا ألقيت لك البذر في أرض صالحة منقاة وغطيته عن الطير وسقيته لك بماء الكوثر فلا تغفل عن سقيه وإصلاحه لتأكل من ثمره حبّاً وعنباً وزيتوناً ونخلاً.

ثم اعلم أن الله سبحانه خلقهم لنفسه وخلق الخلق لهم كما قال علي عليه السلام (نحن صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا) يعني خلقوا لنا فأول من خلق

محمد ثم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم القائم عليه السلام ثم الأئمة الثمانية ثم فاطمة على محمد وآله الطيبين أفضل الصلاة وأزكى السلام، فكان محمد صلى الله عليه وآله نبياً على أهل بيته فبقوا يعبدون الله سبحانه ألف دهر قبل الخلق فلما خلق النبيين بعث محمداً صلى الله عليه وآله وعليهم إليهم بشيراً ونذيراً ثم خلق سائر الخلق فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فلما خرجوا إلى الدنيا وهذه الدنيا أول الرجوع إلى الله كان الأنبياء المتأخرون في البدء متقدمين في العود فظهروا بالنبوة وأشادوا الدين وحفظوه بالإيصاء إلى الأوصياء المنتجبين حتى انتهى الحال إلى محمد صلى الله عليه وآله فانتهت الوصاية إليه وإلى أهل بيته صلى الله عليه وآله روى الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله أنا سيد النبيين، ووصيي سيد الوصيين، وأوصياؤه سادة الأوصياء ، إن آدم سأل الله عزوجل أن يجعل له وصيا صالحا، فأوحى الله عز وجل ذكره إليه إني أكرمت الأنبياء بالنبوة، ثم اخترت خلقي وجعلت خيارهم الأوصياء ثم أوحى الله عز وجل إليه يا آدم أوص إلى شيث، فأوصى آدم إلى شيث، وهو هبة الله بن آدم عليه السلام، وأوصى شيث إلى ابنه شبان، وهو ابن نزلة الحوراء التي أنزلها الله على آدم من الجنة فزوجها ابنه شيثا ، وأوصى شبان إلى مجلث وأوصى مجلث إلى محوق، وأوصى محوق إلى غثميشا وأوصى غثميشا إلى أخنوخ وهو إدريس النبي، وأوصى إدريس إلى ناخور ودفعها ناخور إلى نوح النبي عليه السلام، وأوصى نوح إلى سام، وأوصى سام إلى عثامر، وأوصى عثامر إلى برعيثاشا وأوصى برعيثاشا إلى يافث، وأوصى يافث إلى بره ، وأوصى بره إلى جفيسه وأوصى جفيسه إلى عمران، وأوصى عمران إلى إبراهيم الخليل، وأوصى إبراهيم الخليل إلى ابنه إسماعيل، وأوصى إسماعيل إلى إسحاق، و أوصى إسحاق

إلى يعقوب، وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى يثريا وأوصى يثريا إلى شعيب، ودفعها شعيب إلى موسى بن عمران، وأوصى موسى بن عمران إلى يوشع بن نون ، وأوصى يوشع ابن نون إلى داود، وأوصى داود إلى سليمان، وأوصى سليمان إلى آصف بن برخيا وأوصى آصف بن برخيا ، إلى زكريا ودفعها زكريا إلى عيسى بن مريم، وأوصى عيسى إلى شمعون بن حمون الصفا، و أوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا ، وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر، و أوصى منذر إلى سليمة، وأوصى سليمة إلى بردة، ثم قال رسول الله ﷺ ودفعها إلي بردة، وأنا أدفعها إليك يا علي، وأنت تدفعها إلى وصيك، ويدفعها وصيك إلى أوصيائك من ولدك واحد بعد واحد حتى يدفع إلى خير أهل الأرض بعدك ولتكفرن بك الأمة، ولتختلفن عليك اختلافا شديدا، الثابت عليك كالمقيم معي والشاذ عنك في النار، والنار مثوى للكافرين).

فدل هذا الحديث على ثبوت الوصاية وإن الوصاية منذ كان آدم إلى أن وصلت إلى بردة ودفعها بردة إلى النبي ﷺ والنبي ﷺ دفعها إلى أوصيائه الاثنى عشر واحداً، بعد واحد إلى الحجة عليه السلام فهم أوصياء رسول الله ﷺ وفي الحقيقة والأمر الواقعي جاءت وصايتهم من الله سبحانه كما في حديث اللوح وغيره إلا إني أحب أن أورده تبركاً وإن كان الأمر ظاهراً لما فيه من الفوائد والأسرار، ولما في ذكره وكتابته وقراءته من الثواب العظيم الذي تعجز الخلائق عن إحصائه وهو ما رواه في الكافي بسنده عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَال (قَال أَبِي لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَمَتَى يَخِفُّ عَلَيْكَ أَنْ أَخْلوَ بِكَ فَأَسْأَلكَ عَنْهَا فَقَال لهُ جَابِرٌ أَيَّ الأَوْقَاتِ أَحْبَبْتَهُ فَخَلا بِهِ فِي بَعْضِ الأَيَّامِ فَقَال لهُ يَا جَابِرُ أَخْبِرْنِي

عَنِ اللوْحِ الذِي رَأَيْتَهُ فِي يَدِ أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَا أَخْبَرَتْكَ بِهِ أُمِّي أَنَّهُ فِي ذَلِكَ اللوْحِ مَكْتُوبٌ فَقَالَ جَابِرٌ أَشْهَدُ بِاللهِ أَنِّي دَخَلتُ عَلى أُمِّكَ فَاطِمَةَ عليها السلام فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهَنَّيْتُهَا بِوِلادَةِ الحُسَيْنِ وَ رَأَيْتُ فِي يَدَيْهَا لوْحاً أَخْضَرَ ظَنَنْتُ أَنَّهُ مِنْ زُمُرُّدٍ وَرَأَيْتُ فِيهِ كِتَاباً أَبْيَضَ شِبْهَ لوْنِ الشَّمْسِ فَقُلتُ لهَا بِأَبِي وَأُمِّي يَا بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا هَذَا اللوْحُ فَقَالتْ هَذَا لوْحٌ أَهْدَاهُ اللهُ إِلى رَسُولِهِ ﷺ فِيهِ اسْمُ أَبِي وَاسْمُ بَعْلِي وَاسْمُ ابْنَيَّ وَاسْمُ الأَوْصِيَاءِ مِنْ وُلدِي وَأَعْطَانِيهِ أَبِي لِيُبَشِّرَنِي بِذَلِكَ قَالَ جَابِرٌ فَسَأَلتُهَا أَنْ تَدْفَعَهُ إِليَّ لأَنْظُرَ مَا فِيهِ فَدَفَعَتْهُ إِليَّ فَسُرِرتُ بِهِ سُرُورًا عَظِيماً فَقُلتُ لها يَا سَيِّدَةَ النِسَاءِ هَل تَأْذَنِي أَنْ أَكْتُبَ نُسْخَة فَقَالتْ إِفْعَل فَأَخَذْتُهُ وَنَسَخْتُهُ عِنْدِي فَقَالَ أَبِي عليه السلام فَهَل لكَ يَا جَابِرُ أَنْ تَعْرِضَهُ عَليَّ قَالَ نَعَمْ فَمَشَى مَعَهُ أَبِي إِلى مَنْزِلِ جَابِرٍ فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مِنْ رَقٍّ فَقَالَ يَا جَابِرُ انْظُرْ فِي كِتَابِكَ لأَقْرَأَ أَنَا عَليْكَ فَنَظَرَ جَابِرٌ فِي نُسْخَةٍ فَقَرَأَهُ أَبِي فَمَا خَالفَ حَرْفٌ حَرْفاً فَقَالَ جَابِرٌ فَأَشْهَدُ بِاللهِ أَنِّي هَكَذَا رَأَيْتُهُ فِي اللوْحِ مَكْتُوباً بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ لمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَنُورِهِ وَسَفِيرِهِ وَحِجَابِهِ وَدَلِيلِهِ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ مِنْ عِنْدِ رَبِّ العَالمِينَ عَظِّمْ يَا مُحَمَّدُ أَسْمَائِي وَاشْكُرْ نَعْمَائِي وَلا تَجْحَدْ آلائِي إِنِّي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلا أَنَا قَاصِمُ الجَبَّارِينَ وَمُدِيلُ المَظْلومِينَ وَدَيَّانُ الدِّينِ إِنِّي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلا أَنَا فَمَنْ رَجَا غَيْرَ فَضْلِي أَوْ خَافَ غَيْرَ عَدْلِي عَذَّبْتُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالمِينَ فَإِيَّايَ فَاعْبُدْ وَعَليَّ فَتَوَكَّل إِنِّي لمْ أَبْعَثْ نَبِيّاً فَأُكْمِلتْ أَيَّامُهُ وَانْقَضَتْ مُدَّتُهُ إِلا جَعَلتُ لهُ وَصِيّاً وَإِنِّي فَضَّلتُكَ عَلى الأَنْبِيَاءِ وَفَضَّلتُ وَصِيَّكَ عَليّاً عَلى الأَوْصِيَاءِ وَأَكْرَمْتُكَ بِشِبْليْكَ وَسِبْطَيْكَ حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ فَجَعَلتُ حَسَناً مَعْدِنَ عِلمِي بَعْدَ انْقِضَاءِ مُدَّةِ أَبِيهِ وَجَعَلتُ حُسَيْناً خَازِنَ وَحْيِي وَأَكْرَمْتُهُ بِالشَّهَادَةِ وَخَتَمْتُ لهُ بِالسَّعَادَةِ فَهُوَ

أَفْضَل مَن اسْتُشْهِدَ وَأَرْفَعُ الشُّهَدَاءِ دَرَجَةً جَعَلتُ كَلمَتِيَ التَّامَّةَ مَعَهُ وَحُجَّتِيَ البَالغَةَ عِنْدَهُ بِعِتْرَتِهِ أُثِيبُ وَأُعَاقِبُ أَوَّلُهُمْ عَلِيٌّ سَيِّدُ العَابِدِينَ وَزَيْنُ أَوْلِيَائِيَ المَاضِينَ وَابْنُهُ شِبْهُ جَدِّهِ المَحْمُودِ مُحَمَّدٌ البَاقِرُ لعِلمِي وَالمَعْدِنُ لحِكْمَتِي سَيَهْلكُ المُرْتَابُونَ فِي جَعْفَرِ الرَّادُّ عَليْهِ كَالرَّادِّ عَلِيَّ حَقَّ القَوْل مِنِّي لأُكْرِمَنَّ مَثْوَى جَعْفَرٍ وَلأَسُرَّنَّهُ فِي أَشْيَاعِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَوْلِيَائِهِ أُنتجبتْ بَعْدَهُ مُوسَى فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ حِنْدِسٌ لأَنَّ خَيْطَ فَرْضِي لا يَنْقَطِعُ وَحُجَّتِي لا تَخْفَى وَأَنَّ أَوْلِيَائِي يُسْقَوْنَ بِالكَأْسِ الأَوْفَى مَنْ جَحَدَ وَاحِداً مِنْهُمْ فَقَدْ جَحَدَ نِعْمَتِي وَمَنْ غَيَّرَ آيَةً مِنْ كِتَابِي فَقَدِ افْتَرَى عَلَيَّ وَيْلٌ للمُفْتَرِينَ الجَاحِدِينَ عِنْدَ انْقِضَاءِ مُدَّةِ مُوسَى عَبْدِي وَحَبِيبِي وَخِيَرَتِي فِي عَلِيٍّ وَلِيِّي وَنَاصِرِي وَمَنْ أَضَعُ عَليْهِ أَعْبَاءَ النُّبُوَّةِ وَأَمْتَحِنُهُ بِالاضْطِلاعِ بِهَا يَقْتُلُهُ عِفْرِيتٌ مُسْتَكْبِرٌ يُدْفَنُ فِي المَدِينَةِ التِي بَنَاهَا العَبْدُ الصَّالِحُ إِلى جَنْبِ شَرِّ خَلقِي حَقَّ القَوْل مِنِّي لأَسُرَّنَّهُ بِمُحَمَّدٍ ابْنِهِ وَخَليفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَوَارِثِ عِلمِهِ فَهُوَ مَعْدِنُ عِلمِي وَمَوْضِعُ سِرِّي وَحُجَّتِي عَلى خَلقِي لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِهِ إِلا جَعَلتُ الجَنَّةَ مَثْوَاهُ وَشَفَّعْتُهُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْل بَيْتِهِ كُلُّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ وَ أَخْتِمُ بِالسَّعَادَةِ لابْنِهِ عَلِيٍّ وَلِيِّي وَنَاصِرِي وَالشَّاهِدِ فِي خَلقِي وَأَمِينِي عَلى وَحْيِي أُخْرِجُ مِنْهُ الدَّاعِيَ إِلى سَبِيلِي وَالخَازِنَ لعِلمِيَ الحَسَنَ وَأُكْمِل ذَلكَ بِابْنِهِ م ح م د رَحْمَةً للعَالمِينَ عَليْهِ كَمَال مُوسَى وَبَهَاءُ عِيسَى وَصَبْرُ أَيُّوبَ فَيُذَلُّ أَوْلِيَائِي فِي زَمَانِهِ وَتُتَهَادَى رُءُوسُهُمْ كَمَا تُتَهَادَى رُءُوسُ التُّرْكِ وَالدَّيْلمِ فَيُقْتَلونَ وَيُحْرَقُونَ وَيَكُونُونَ خَائِفِينَ مَرْعُوبِينَ وَجِلينَ تُصْبَغُ الأَرْضُ بِدِمَائِهِمْ وَيَفْشُو الوَيْل وَالرَّنَّةُ فِي نِسَائِهِمْ أُولئِكَ أَوْلِيَائِي حَقّاً بِهِمْ أَدْفَعُ كُل فِتْنَةٍ عَمْيَاءَ حِنْدِسٍ وَبِهِمْ أَكْشِفُ الزَّلازِل وَأَدْفَعُ الآصَارَ وَالأَغْلال أُولئِكَ عَليْهِمْ صَلوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ قَال عَبْدُ

الرَّحْمَنِ بْنُ سَالِمٍ قَالَ أَبُو بَصِيرٍ لَوْ لَمْ تَسْمَعْ فِي دَهْرِكَ إِلا هَذَا الْحَدِيثَ لَكَفَاكَ فَصُنْهُ إِلا عَنْ أَهْلِهِ).

والنصوص في أنهم أوصياء رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصى.

قال عليه السلام وذرية رسول الله ﷺ ورحمة الله وبركاته

قال الشارح رحمه الله فإن أولاد البنت أيضا من الذرية كما قال تعالى في عيسى بن مريم أنه من ذرية نوح عليه السلام مع أنه ابن البنت.

أقول إنهم عليهم السلام ذرية رسول الله ﷺ فإنه ﷺ قال في حق الحسن والحسين عليهما السلام إنهما ابناي والأصل في الاستعمال الحقيقة ودعوى المجاز غير مسموعة لأن الحقيقة إما باستعمال اللغة أو الشرع ، وإذا تدبرت اللغة والشرع ونظرت في أسرارهما رأيت أن اختصاص أصالة الولد بابن الإبن دون ابن البنت شيء عادي منشؤه استقباح انتساب البنت حتى يأنفوا عن ذكر البنت وانتسابها وأما في أصل اللغة فلا ، ولا سيما إذا قلنا أن واضع اللغة كما هو الحق هو الله سبحانه، وقد أشار إلى هذا المدعى في كتابه كما يأتي ذكره ، وأما الاستناد في تلك الدعوى إلى قول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فمما ذكرت لك من الأنفة والإحن الجاهلية ألا تراهم لا يحبون البنات أصلا، بل كان كثير منهم يقتلون البنات وقد حكى الله سبحانه عنهم وذكر قصتهم قال تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ⋆ يَتَوَارَى

مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ) وأنت إذا نظرت أصل خلقة الولد والبنت وجدتهما متساويين كل منهما من نطفة أمشاج، وأمشاج مفرد لا جمع ومشجه مزجه، والمعنى أن الولد ذكرا كان أم أنثى يتكون من النطفتين معا نطفة الأب ونطفة الأم يمتزجان جزء من الأب وجزءان من الأم وكذلك قوله تعالى(خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ⋆ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)أي من صلب الرجل وترائب المرأة يعني صدرها لأن منيها يخرج منه.

وقد دل النص عن الحسن بن علي عليه السلام ما معناه أن الإنسان يتكون من أربعة عشر شيئا أربعة من أبيه وهي العظم والمخ والعصب والعروق ، وأربعة من أمه وهي الجلد واللحم والدم والشعر وستة من الله الحواس الخمس والحياة وذلك في الذكر والأنثى فإذا كان تولده من الأب والأم على حد سواء كانا في النسبة إلى الأبوين سواء .

وإن قيل إن كان جانب الأب في الولد أقوى إلا أنه منهما قطعا ولهذا يشتركان في الميراث منه وفي وجوب الطاعة وفي كثير من الأحكام، وأيضا الذرية والعترة سواء وقد سمي النابت من الشجرة بعد قطعها عترة وهو من أصلها وهي الذرية ، وإنما سميت بذلك لأنها تنبت من الأصل والولد والبنت سواء فيه ولا اختصاص للولد بشيء غير البنت، والأخبار الآتية صريحة في المدعى وأنى يعدل بهم عن جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى ما استدل به الخصم بأن بني بناتنا أبناء الرجال الأباعد فإن الحسن والحسين عليهما السلام إبنا علي عليه السلام الأقرب الذي هو نفس محمد بنص القرآن ونص النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال(أنت نفسي التي بين جنبي)وروحه

حيث قال (أنت مني بمنزلة الروح من الجسد)ورأسه حيث قال على ما رواه الخصم (أنت مني بمنزلة الرأس من الجسد)وشقه في الأصل خلقهما الله نورا واحدا لم ينقسما إلا في عبدالله وأبي طالب ، وقد قال ﷺ (ذرية كل نبي من صلبه وذريتي من صلب علي عليه السلام)وليس قوله ﷺ هذا دليلا للخصم ولا بيانا للمغايرة وإلا لما قال (وذريتي) وإنما هو لبيان اتحادهما لأنه نفسه فلا فارق إلا النبوة ولهذا قال علي عليه السلام في خطبته(ثم إن الله خصصكم بالإسلام واستخلصكم له لأنه اسم سلامة وجماع كرامة اصطفاه الله فبهجه وبين حججه وأزف أزفه وحده ووصفه وجعله رضى كما وصفه و وصف أخلاقه وبين أطباقه ووأكد ميثاقه من ظهر وبطن ذي حلاوة وأمن فمن ظفر بظاهره رأى عجائب مناظره في موارده ومصادره ومن فطن بما بطن رأى مكنون الفطن وعجائب الأمثال والسنن فظاهره أنيق وباطنه عميق لا تنقضي عجائبه ولا تفنى غرائبه فيه ينابيع النعم و مصابيح الظلم لا تفتح الخيرات إلا بمفاتيحه ولا تنكشف الظلم إلا بمصابيحه فيه تفصيل وتوصيل وبيان الاسمين الأعلين اللذين جمعا فاجتمعا لا يصلحان إلا معا يسميان فيعرفان يوصفان فيجتمعان قيامهما في تمام أحدهما في منازلهما لهما جرى بهما ولهما نجوم وعلى نجومهما نجوم)انتهى.

فذكر الاسمين الأعلين اللذين جمعا في نور واحد فاجتمعا في صلب واحد وبطن واحد ، إلى أن قسما في عبدالله وأبي طالب لا يصلحان أي النبوة والولاية أو النبي والولي إلا معا لأن كل واحد تمامه بصاحبه يسميان فيعرفان محمد وعلي ،أي فيعرفان بتعدد اسميهما أنهما اثنان ويوصفان فيجتمعان نبي وولي.

فإذا عرفت ما أشرنا إليه عرفت أن ابني علي الحسن والحسين ابنا رسول الله ﷺ حقيقة هذا كله راجع إلى الاعتبار لمن كان له اعتبار.

وأما الأخبار ففي تفسير العياشي عن بشير الدهان عن أبي عبد الله عليه السلام قال (والله لقد نسب الله عيسى ابن مريم في القرآن إلى إبراهيم عليه السلام من قبل النساء، ثم تلا(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ)إلى قوله(وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى).

وفي عيون الأخبار في باب جمل من أخبار موسى بن جعفر عليه السلام مع هارون الرشيد ومع موسى بن المهدي حديث طويل بينه وبين هارون وفيه ثم قال كيف قلتم أنا ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعقب وإنما العقب للذكر لا للأنثى و أنتم ولد لبنته ولا يكون لها عقب فقلت أسألك يا أمير المؤمنين بحق القرابة والقبر ومن فيه إلا ما أعفيتني عن هذه المسألة فقال لا أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم كذا أنهي إلي ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله تعالى وأنتم تدعون معشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه بشيء لا ألف ولا واو إلا وتأويله عندكم واحتججتم بقوله عز وجل(ما فَرَّطْنا فِي الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم فقلت تأذن لي في الجواب قال هات قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلياسَ) من أبو عيسى يا أمير المؤمنين فقال ليس لعيسى أب فقلت إنما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أمنا فاطمة عليها السلام).

وفي تفسير علي بن إبراهيم قال(وكان بين موسى وبين داود خمسمائة سنة وبين داود وعيسى ألف سنة ومائة سنة).

وعن أبي الجارود قال قال أبو جعفر عليه السلام (يا أبا الجارود ما يقولون في الحسن والحسين قلت ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فبأي شيء احتججتم عليهم قلت بقول الله في عيسى ابن مريم(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ) إلى قوله (كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) فجعل عيسى من ذرية إبراهيم واحتججنا عليهم بقوله تعالى(فَقُل تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ) قال فأي شي ء قالوا قال قلت قالوا قد يكون ولد البنت من الولد ولا يكون من الصلب قال فقال أبو جعفر عليه السلام والله يا أبا الجارود لأعطينكها من كتاب الله آية تسمى لصلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يردها إلا كافر قال قلت جعلت فداك و أين قال حيث قال الله(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ وَأَخَواتُكُمْ) إلى قوله (وَحَلائِل أَبْنائِكُمُ الذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ) فسلهم يا أبا الجارود هل يحل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نكاح حليلتهما فإن قالوا نعم فكذبوا والله وإن قالوا لا فهما والله ابنا رسول الله لصلبه وما حرمت عليه إلا للصلب).

فانظر إلى صراحة هذه الأحاديث ولا سيما الأخير حيث قال (فهما والله ابناه لصلبه وما حرمت عليه إلا الصلب) أي ما حرمت عليه الحليلة إلا الصلب لأن حليلة الابن الذي ليس من الصلب لم تحرم عليه لأنه ليس ابنا كابن الزوجة فإنه يسمى ابنا كما في قوله تعالى(وَإِذْ قَال إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ)فإنه ليس أبا لإبراهيم في الحقيقة وإنما هو زوج أمه وإنما أبوه الحقيقي تارخ فإذا ثبت بالنصوص من القرآن والأخبار وبالمحكم من الاعتبار بأن الحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصلبه ثبت أنهم ذرية رسول الله صلى الله عليه وعليهم أجمعين والحمد لله رب العالمين .

قال عليه السلام السلام على الدعاة إلى الله

قال الشارح رحمه الله الدعاة جمع الداعي إلى معرفته وعبادته والتخلق بأخلاقه تعالى كما قال(قُل هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)انتهى.

أقول كونهم الدعاة إلى الله لا شك فيه إنما الإشكال والصعوبة في معرفة ذلك ومعرفة المدعو إليه ومعرفة المدعو به ومعرفة المدعو فيه فهذه أربع جهات في المراد بكونهم الدعاة إلى الله تعالى.

الأول: معرفة كونهم الدعاة إلى الله تعالى قد أشرنا مرارا أنهم عليهم السلام باب الله إلى خلقه وأنهم أعضاد للخلق، قد اتخذهم خالقهم بعد أن خلقهم وحدهم ليس معهم خلق يعبدون الله ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويكبرونه ويعظمون جلاله وعظمته ألف دهر، ثم خلق لهم الخلق من أشعة أنوارهم فحيث كانوا هم العلة الفاعلية لأنهم في ذلك محال مشية الله وهم العلة المادية، لأن جميع الخلق خلقوا من شعاع أنوارهم وذلك الشعاع قائم بأنوارهم قيام صدور ، وهم العلة الصورية لأن كل فرد من جميع الخلائق من الغيب والشهادة ومن الجواهر والأعراض، فصورته إن كان طيبا من أنوار هياكلهم أو من أنوار هياكل هياكلهم وهكذا لأنهم رحمة الله ومظاهر رحمة الله ومظهروا رحمة الله والأشباح تلوح على أشباحهم وأشباح أشباحهم وأشباح أشباح أشباحهم وهكذا ، وهم العلة الغائية لأن الله سبحانه إنما خلق الخلق لهم وإيابهم إليهم وحسابهم عليهم وإن كان خبيثا فصورته من عكس أنوار هياكلهم كما قال تعالى(فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ) فالسور سور المدينة مدينة العلم رسول الله صلى الله عليه وآله والباب باب مدينة العلم علي عليه السلام باطنه الرحمة وهي

ولايته وظاهره أي خلفه وخلافه من قبله أي قبل خلافه وعداوته ، العذاب فحيث كانوا كما ذكرنا وجب أن يشهدهم الله خلق خلقه، وأن ينهي إليهم علمهم وأن يكونوا أولياء وجوداتهم وشرع وجوداتهم وتكليفاتهم، ووجودات تكليفاتهم هذا مقتضى الحكمة الإلهية وهو أنه سبحانه إنما يخلق الأشياء على ما هي عليه بحسب مقتضياتهم وليس في الحكمة الإلهية ولا منها أن ذلك يجري في شيء دون شيء بل في كل شيء بكل شيء في كل شيء بحسبه وذلك هو مقتضى قابليات الخلائق، فلا يصح أن يسبح الله شيء بدون داع من الله سبحانه يدعوه إلى ذلك ويعلمه كيف يسبح ويدله إلى ما يراد منه وهذا على سبيل الإجمال ظاهر لا يرتاب فيه، وإذا بينا كيفية ذلك ارتاب فيه الجاهلون ولكنا نشير إلى ذلك.

فنقول قد قلنا أنه لا يجوز أن يكون شيء من خلق الله يسبح الله تعالى قبل أن يأتيه داع من الله سبحانه يدعوه إلى الله ويعلمه مراد الله منه وكيفية تسبيحه لأن عبادته توقيفية في حق جميع عباده لأنهم لا يعرفونه بالكنه ولا يعرفه أحد إلا بما تعرف له به ، فلو سبحه من لا يعرفه قبل أن يعرفه ما يريد منه لجاز أن يذكره بما لا يليق بجلاله فوجب في الحكمة واللطف بالعباد أن يعلمهم قبل أن يطلب منهم وفي الحديث (ليس على العباد أن يعلموا حتى يعلمهم الله) فلما ثبت بنص القرآن ونص السنة والإجماع أن كل شيء يسبح الله تعالى قال الله(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ)وكل شيء يسبح بحمده فإنما يسبح بعد تعليم الله له ما يريد منه وإنما ذلك بالوسائط والعلل كما كان وجوده فظهر بما لوحنا لك أنهم عليهم السلام دعاة جميع الخلق إلى الله سبحانه.

الثاني: معرفة المدعو إليه وهو الله سبحانه وهذا أول ما يراد من المدعو لأن

هذه المعرفة يتوقف كل شيء عليها، ثم لما كانوا في المقام الذي وضعهم الله سبحانه فيه أنهم العلة الفاعلية والمادية والصورية والغائية لجميع الخلائق كما أشرنا إليه، كانوا لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون فعلموا جميع رعيتهم معرفة ربهم كل فرد بقدره كما قال الله تعالى(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)أي أنزل من سماء الخزانة وهو قوله(وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)مَاء وهو هنا معرفة الله (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) أي فكل شيء من خلق الله من عين أو معنى غيب، أو شهادة ذات أو صفة عرف الله بنسبة قابليته لذلك الماء النازل من الخزائن بمفاتيح الغيب فقوله سبحانه(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ) يعني من عين أو معنى أو غيب أو شهادة ذات أو صفة وإنما يسبح الله بحمده بعد أن عرفه ولم يعرفه إلا بتعريفه فكل شيء يعرف الله سبحانه على قدره، وأن الذرة لتزعم أن لله زبانيتين وقد تقدم في الحديث أنه ما خلق الله شيئا من خلقه إلا و أوجب طاعتنا عليه كما في قول الحسين عليه السلام لعبد الله بن شداد فهذا تصريح في تلويح.

الثالث: معرفة المدعو به قد أشرنا سابقا وصرحنا في كثير من رسائلنا ومباحثاتنا أن كل شيء أمم أمثالكم(وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ)(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)فكل شيء من الخلق رعية وغنم للعلل الكاملة والأمثال العليا فالمبلغ عن الله منهم مع علو شأنهم وارتفاع مكانهم له حالتان.

الأولى : أن ينزل المقام الذي فيه المدعو فيدعوه بلسانه ويبين له بلغته سواء كان جمادا أو نباتا أو حيوانا ذاتا أو صفة عينا أو معنى.

الثانية: أن يرفع مقام المدعو حتى يخاطبه في مقام الإنسانية وإن كان من كل صنف من الخلائق كما تقدم في كلام الحسين عليه السلام حيث قال للحمى التي أصابت

عبد الله ابن شداد وقد تقدم قال لها (يا كباسة، قال فإذا نحن نسمع الصوت ولا نرى الشخص يقول لبيك قال أليس أمير المؤمنين أمرك ألا تقربي إلا عدوا أو مذنبا لكي تكوني كفارة لذنوبه فما بال هذا).

واعلم أن هذه المطالب لا يجوز فيها التصريح إلا بالإشارة مع أني ما كتمت ولا رمزت وإن كنت أجملت فافهم.

الرابع معرفة المدعو فيه قد ذكرنا مرارا أن مدار الدعوة على أمرين.

الأول: بالشرع الوجودي و هو جهتان.

الأولى : دعوة الإيجاد حين سأل الفقراء حوائجهم من ربهم واقفين ببابه الكريم، فدعوهم إلى الله تعالى حين أوجدهم وأغناهم، الثانية دعوة شرع الإيجاد فأعطاهم في إيجادهم ما سألوه فدعوهم في الأولى بقوابلهم وفي الثانية بمقبولاتهم والثاني بالوجود الشرعي وهو جهتان، الأولى دعوة التكليف في الذر الأول حتى صلحوا وفي الذر الثانى حتى قبلوا وأنكروا.

والثانية: دعوة إيجاد ذلك الشرع بقوابل أعمالهم من مدد أمره ونهيه(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلوا)ففي الجهة الأولى أتاهم الداعي بما ذكرهم به ربهم كما قال تعالى(بَل أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ)، وفي الجهة الثانية أتاهم الداعي بما ذكروا به ربهم(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ)فالتكليف كما ذكرهم والجزاء كما ذكروه فبنسبة الوجود والشرع في الأول وبنسبة الشرع والوجود في الثاني دعوا كل شيء إلى نسبتيه في دعوتيهم فهم الدعاة إلى الله سبحانه كما سمعت وذلك لأن الله سبحانه جعلهم خزان علمه وولاة أمره فهم الداعون بأمره والعاملون بعلمه وفي الكافي عن علي عن عمه قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقوله(نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة وحي الله).

وفيه عن سورة بن كليب قال قال لي أبو جعفر عليه السلام (والله إنا لخزان الله في سمائه وأرضه لا على ذهب ولا فضة إلا على علمه).

وفيه عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال (قلت له جعلت فداك ما أنتم قال نحن خزان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، نحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الارض).

وفيه عن علي بن جعفر عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال قال أبو عبد الله عليه السلام (إن الله عزوجل خلقنا فأحسن خلقنا، وصورنا فأحسن صورنا، وجعلنا خزانه في سمائه وأرضه، ولنا نطقت الشجرة، وبعبادتنا عبد الله عز وجل ، ولولانا ما عبد الله) .

وقول الشارح رحمه الله (إلى معرفته وعبادته والتخلق بأخلاقه تعالى) يشير به إلى العلوم النافعة التي أشار صلى الله عليه وآله وسلم إليها في قوله(إنما العلم ثلاثة آية محكمة وفريضة عادلة وسنة قائمة)فالآية المحكمة هي معرفة الله والفريضة العادلة علم اليقين والتقوى وهو علم الأخلاق والسنة القائمة هي العلوم الشرعية الفرعية المعروفة بعلم الفقه عرفا وهذا بعض ما يدعون إليه لأن كل حق إنما هو منهم وعنهم وهم الدعاة إليه من كل علم وعمل واعتقاد وغير ذلك .

قال عليه السلام والأدلاء على مرضاة الله

قال الشارح رحمه الله فإنهم يدلون الخلائق بالشريعة الحقة إلى ما يوجب رضاه من مراتب القرب لله وإلى الله تعالى وفي الله ومع الله أقول الأدلاء جمع الدليل كالأعزاء جمع العزيز والأخلاء جمع الخليل والدليل المرشد والدال، وما يستدل به وكونهم

و بالمعنى الأول هو بمعنى الفقرة الأولى أي الدعاة أو أخص منه لأن الدليل يدعو بحجة والداعي قد يخلو من الحجة، ولا ينافي هذا استعمال الداعي فيمن لا يدعو إلا بحجة وربما استدل على الفرق باستعماله عليه السلام بالدعاة إلى الله على أنه اعم وبالأدلاء على مرضات الله لأن الله تعالى لا يشتبه بغيره ليتوقف الدعوة إليه على الدليل، بخلاف مرضاته فإن الأفعال التي ترضيه تشتبه بالأفعال التي تسخطه لا يفرق بينهما بالنسبة إلى النفس أو الفاعل إلا بالدليل والتعيين، وربما استدل على هذا بكون معرفة الله عقلية ولا يجوز التقليد فيها لإمكان إدراك المكلفين للحق فيها بخلاف الأعمال فإنها لا يمكن للعقول مجردة عن الاستناد إلى النص معرفة ما يرضي الله منها غالبا إلا بخصوص التعيين والنص ولهذا جاز فيه الأخذ بظاهر الدليل وجاز التقليد، هذا ولا نريد بأن الداعي قد يدعو بغير الدليل إلا بملاحظة المعنى اللغوي فلا فرق فيما نحن فيه بين اللفظين إلا في الوجه الثاني من الدليل فإنه يستعمل بمعنى ما يستدل به بخلاف الداعي فإنه لا يستعمل بمعنى ما يدعى به إلا على تأويل بعيد عن الأوهام، وإن كان صحيحا على معنى أن كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم داعيا إلى الله تعالى أن الله سبحانه دعا عباده إليه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم فيكون الداعي بمعنى ما يدعى به وهذا معنى صحيح حقيقي إلا أن المعنى فيه مخالف لما تعرفه الناس ولهذا لم نذكره سابقا فالدليل الدال المرشد بالحجة والبرهان القاطع فالمدلول عليه ما لله فيه رضى وهو معرفته بسبيل معرفتهم بأنهم معانيه وأنهم أبوابه وأنهم حجته على عباده وأمناؤه في بلاده وبمحبيهم وشيعتهم، يعني أن العاقل العارف بما نقول إذا رأى المؤمن من شيعتهم واستبطن أحواله في اعتقاده وفي أعماله وأقواله وأفعاله وأحواله عرف ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن

محمدا ﷺ عبده ورسوله، وأنهم حجج الله على خلقه وأمناؤه على سره لأنهم أي الشيعة هم الحرف الرابع من الاسم الأعظم ولا تحصل المعرفة التامة إلا بالاسم التام، وأما مطلق الاسم ومطلق الصفة فقد تحصل به مطلق المعرفة ومعرفتهم عليهم السلام في مراتبهم الثلاث مرتبة المعاني ومرتبة الأبواب ومرتبة الإمام عليه السلام وقد تقدم بعض الإشارة إلى بيان المراتب الثلاث ومن الإشارة إلى ذلك أنهم في الأولى معاني جميع الصفات التي هي المنتهى في التعلقات وهي فوق الولاية التي هي الثانية وهو قول علي عليه السلام (ظاهري إمامة وباطني غيب لا يدرك) فالإمامة هي الولاية الثالثة، والولاية الثانية مرتبة الأبواب والغيب الذي لا يدرك هو ذات الذوات وقول علي عليه السلام (أنا ذات الذوات والذات في الذوات للذات) فذات الذوات به تذوتت الذوات وإليه ينتهي جميع تعلقات الذوات ، فهذه غاية المرتبة الأولى وليس وراء هذه مرتبة في الإمكان.

وأما قوله (والذات في الذوات للذات) فغير ما نحن بصدده والطريق مسدود والطلب مردود وهذا ما يناسب الإشارة إلى المرتبة الأولى من معرفتهم التي فيها رضى الله مما دلوا عليه مضافا إلى ما تقدم وبيان ما ذكرنا لا يجوز أزيد من هذا وإنهم عليهم السلام في المرتبة الثانية أبواب جميع الآثار والصفات أي أن الصفات القدسية الذاتية ليس لها باب في تجليات أسمائها ومظاهر آثارها إلا هم عليهم السلام ، وليس لتلك الآثار والمظاهر باب لمقبولاتها وتلقيها تلك الفيوضات وتقومها تقوم صدور أو تحقق غيرهم وهذا في كل شيء في المواد والصور والأعمال والأقوال والأحوال في الجبروت والملكوت والملك، والفرق بين هذا والأولى أنهم في هذه أبواب وفي تلك مدينة وأنهم عليهم السلام في المرتبة الثالثة ظاهر الأولتين وجامع المعنى والعين

فهذه الثالثة حالة من الأولى، وصورة من الثانية يظهرون بأبدان نورانية يطئون على أعلى الفلك الأعلى بظاهر سعيهم ونهر الزمان تحت أقدامهم يجري لا تبتل منه أقدامهم يمشون على الأرض هونا.

وعن محمد بن النعمان عن سلام قال (سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) قال هم الأوصياء من مخافة عدوهم).

ومعنى قوله (عباد الرحمن) هذا تخصيص وتشريف والمراد أفاضل عباده الذين يمشون على الأرض هونا أي بالسكينة والوقار والطاعة غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين ولا مفسدين وقال أبو عبد الله عليه السلام (الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتجبر).

وهذه الصفات وما بعدها من الصفات في هذه الآيات لا توجد إلا في الأئمة الهداة عليهم السلام من تفسير محمد بن العباس بن الماهيار فهم في الثالثة أيضا عين الله الناظرة ورحمته الواسعة وأذنه الواعية ، ومعرفة شيعتهم ومحبيهم بأنهم أهل الإيمان لم يتيقن غيرهم وأهل الإسلام ليس على ملة الإسلام غيرهم ولم يسلم رسول الله من أذى أحد من الخلق إلا منهم(وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ اليَمِينِ فَسَلامٌ لكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ) وإنهم من أئمتهم عليهم السلام بل هم معهم من شجرة واحدة كما في رواية الثمالي رحمه الله أنه سأل الباقر عليه السلام عن قول الله تعالى(شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) فقال عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا أصلها وعلي فرعها والأئمة أغصانها وعلمنا ثمرها وشيعتنا ورقها يا أبا حمزة هل ترى فيها فضلا قال قلت لا والله لا أرى فيها قال فقال يا أبا حمزة والله إن المولود يولد من شيعتنا فتورق ورقة منها ويموت فتسقط ورقة منها) الحديث.

وعن أبي الحسن عليه السلام في حديث طويل قال(وإن شيعتنا لمكتوبون ومعروفون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله الميثاق علينا وعليهم ويردون مواردنا، ويدخلون مداخلنا، ليس على ملة إبراهيم خليل الرحمن غيرنا وغيرهم إنا يوم القيامة آخذون بحجزة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ونبينا آخذ بحجزة ربه، وإن الحجزة النور، وشيعتنا آخذون بحجزتنا، من فارقنا هلك، و من تبعنا نجا، والمتبع لولايتنا لاحق والجاحد لولايتنا كافر، ومتبعنا ومتبع أوليائنا مؤمن، لا يتبعنا كافر، ولا يبغضنا مؤمن، من مات وهو محبنا كان حقا على الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا، وهدي لمن اقتدى بنا)الحديث

وهو طويل أخذنا منه شيئا مما يدل على علو رتبة شيعتهم ومحبيهم وهم فيما يعاملهم الله على أعمالهم لكرامتهم على الله سبحانه مثل ما قال الصادق عليه السلام لمن قرأ عنده(فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) فلمن يسأل إذا لم يسأل عن ذنبه إنس ولا جان قال قلت لا أدري قال عليه السلام إنما أنزل الله فيكم وذا والله المؤمن من شيعتنا لا يسأل منكم الإنس والجن وإن الله تعالى ليولينا حسابه ويأمرنا ما كان من حسنة نظهرها وما كان من سيئة نسترها وإن الله تعالى لا يطلع على ذنب مؤمن أحدا من خلقه إجلالا لعبده المؤمن) هـ.

وإنه سبحانه لم يجعل لموت عبده المؤمن أجلا حتى يهم بموبقة، فإذا هم بموبقة قبضه الله إليه قبل أن يهم رأفة به وإنما يقبض روحه باختياره، فإذا علم منه كراهة الموت تردد في قبض روحه حتى يحب لقاء الله لأن من قبضت روحه قبل أن يحب لقاء الله ختم له بالسوء وكذا معرفة حقوق الإخوان وصلة الأرحام ومعرفة العدل في الأحوال وهو التوسط بين طرفي التفريط والإفراط كالشجاعة

بين الجبن والتهور، وكالعقل بين البلادة والجربزة،كالكرم والجود والسماحة والسخا بين البخل واللوم والخسة والدناءة والإسراف والتبذير والعبث والسفه وأمثال ذلك وكذا معرفة الزهد والورع والتقوى والتجافي عن دار الغرور والخمول وأمثال ذلك وكذا الصدق في كل المواطن مع الله والتيقظ وذكر الله على كل حال بالقول والعمل وعدم الغفلة وكذا الأعمال البدنية المذكورة في كتب الشريعة والأدعية وغير ذلك من كل حركة وسكون ونوم ويقظة وانتباه وغفلة ظاهرة وباطنة، مما لله فيه رضى ففي كل ذلك دقيقه وجليله كليه وجزئيه هم الأدلاء عليه، بل كلما لم يدلوا عليه لم يكن لله فيه رضى لأن رضى الله سبحانه في الحق وترتيب الأشياء وجريانها على أسبابها ومقاديرها ومقتضياتها ولا يكون شيء من ذلك إلا بهم لما قلنا إنهم العلة الفاعلية لأنهم محال المشية والعلة المادية لأن جميع الأشياء موادها في كل كون من أشعة أنوارهم والعلة الصورية لأن صور جميع الأشياء في كل عين من أشعة أشباحهم المعبر عنها بنور الرحمة وهيكل التوحيد، ومن عكس ذلك الأعداء المعبر عنها بهياكل الغضب والسخط والعلة الغائية لأنهم هم لله سبحانه وخلق كل ما سواهم لهم كما ذكرنا سابقا مكررا كما قال الشاعر شعر:

أعـد ذكر نعمـــان لنـــا إن ذكـــره

هـو المسك ما كررتـه يتضـوع

فإن جرت الأشياء على مقتضى الأسباب والترتيب الطبيعي والنظم الذاتي كما ينبغي كان ذلك حقا والله سبحانه يقول الحق ويهدي إلى الحق ويحب الحق ويرضاه، وإلا فإن استنكفت الأشياء عن مقتضى أسبابها وسلكت غير ترتيبها

الطبيعي كفرت بنعمة ربها ولا يرضى لعباده الكفر هذا إذا فسرنا الدليل بالدال والمرشد وإذا فسرنا بالمستدل به فهم الحجة التي تستدل بها العقول على كل حق، فيستدل بهم على الله وعليهم وعلى محبيهم وعلى فروعهم من جميع الاعتقادات والأحوال والأعمال والأقوال من كل ما يحبه الله ويهواه ويرضاه فأولوا الألباب يستدلون بهم عنهم على كل خير مرغوب وشر مرهوب وفي كامل الزيارة للشيخ الثقة جعفر بن محمد بن جعفر بن قولويه عن عبد الله بن حماد البصري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل في ذكر وصف الإمام عليه السلام قال(وهو الدليل على ما تشاجرت فيه الأمة والآخذ بحقوق الناس والقيام بأمر الله والمنصف لبعضهم من بعض، فإذا لم يكن معهم من ينفذ قوله وهو يقول(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) فأي آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق) ، وقال(وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها) فأي آية أكبر منا)الحديث.

فقول الله تعالى(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ) يدل بباطنه كما في هذا الحديث الشريف أنهم الآيات الكبرى كما قال علي عليه السلام (ليس لله آية أكبر مني ولا نبا أعظم مني).

فهم الآيات حيث وقعت في القرآن أي آيات الله الدالة بالأدلة القطعية عليه سبحانه وعلى أنفسهم وعلى شيعتهم وعلى كل شيء من الحق مثلا ، هل تجد احتمالا فيما أمروك به أنه ليس لله فيه رضى بوجه، ما كما يجوز الاحتمال فيما صدر عن غيرهم إلا ما قطع أنه عنهم كإخبار سائر المعصومين بل لا يجد العاقل العارف شيئا يصدر في الحقيقة عنهم وإنما يراه يصدر عن الله كما يجد أن حركة الرجل العاقل لا تصدر عن مقتضى جارحته، وإنما تصدر عن عقله وإن كانت تصدر عن اليد فإن المحرك لها هو العقل بواسطة الآلات فافهم الإشارة عن

قول الله تعالى(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى) بل من نظر إليهم عليهم السلام بعين البصيرة عرف ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنهم حجج الله وخزانه على سره وحكمته وأولياؤه على أمره ونهيه وعلى جميع خليقته وعرف أن الدين عند الله الإسلام والحاصل كلما سمعت من أمور الاعتقادات الحقة والأحكام الشرعية والآداب الإلهية التي وردت بها هذه الملة الحنيفية وجميع ما أتى به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم من أحوال النشأتين وكل ما دعى إليه من كل ما به صلاح الدارين، إذا نظرت وعرفتهم كما عرفوك تشهد بحقية ذلك كله وأنه تدبير حكيم عليم خبير بصير لطيف عطوف رحيم بعباده، قد أحسن إليهم بجوامع مصالحهم فإن لم تر ما وصفت لك ونبهتك عليه من الأسرار، فاسئل الله سبحانه أن يصلح وجدانك ويعرفك الحق كما هو حق، فإذا عرفت هذا عرفت أنه لم يخلق شيئا جعله دليلا أوضح من أئمتك عليهم السلام دليلا وبيانا وسبيلا وبرهانا، ولا أصرح من دلالتهم ولا أصح من مقالتهم ولا أصدق من حالتهم فهم الآيات التي يستدل بها على كل مطلوب قال الله سبحانه(وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ)(وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)،وقال تعالى(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)فهم الدليل وعليهم الدليل ومنهم الدليل وبهم الدليل ولهم الدليل وعنهم الدليل ولا يحتمل المقام أكثر من هذا الكلام والسلام على أولي الأفهام.

قال عليه السلام والمستقرين في أمر الله

قال الشارح بعد أن أثبت نسخة (المستوفزين) في الأصل قال: أي المسارعين في الائتمار بأوامره الواجبة والمندوبة مطلقا أو في أمر الإمامة وفي بعض النسخ

(المستقرين) وهو أظهر هـ.

أقول المستوفزين بالفاء بعدها زاي بمعنى المستعجل والمعنى أنهم المسارعون إلى القيام بأوامر الله من الواجبات والمندوبات، وعلى نسخة الأصل المشهورة (والمستقرين) بمعنى الثابتين في أمر الله تعالى أي الثابتين في خدمة القيام بأمره وعبوديته بحيث لم يفقدهم ، حيث يأمر ويندب ولا يراهم حيث ينهي فهم القائمون بحقيقة العبودية أو فيما أمروا به من العمل وفيما يريد منهم أن يعملوه من تدبير الصنع وإيصال الإفاضات إلى مستحقيها من خلق ورزق وحياة ومماة مما دار عليه قوام النظام كما أشار إليه سبحانه(وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ يَعْلمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)أي بأمره فيما يخصهم من التكليف وبأمره الذي هو ظهوره لما سواه بهم فيما يخصهم من التعريف يعملون كما أمرهم وفيما سواهم من رعاياهم من دعائهم إلى الله وإلى ما أمر به من طاعته ونهيهم عن معاصي الله كما حدد لهم من معاصيه ، وأبان لهم من مناهيه(يَعْلمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) منهم حين قال أقبل فأقبل إليه من التخليصات والخلوصات(وَمَا خَلفَهُمْ) منهم حين قال أدبر فأدبر إليهم من التنزلات والتذللات حتى أوصل بهم إلى كل ذي حق حقه من الإمدادات والتخصيصات والتعيينات التي هي مقتضى ذواتهم (وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى) دينه يعني لمن أذن له كما قال(وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لهُ)أن يشفع وهم قد أذن لهم أن يشفعوا لمن شاؤوا وهو من ارتضى الله سبحانه دينه بأن يكون مؤمنا بهم وبولايتهم أي لا يصلون إلا من كان متصلا بذاته بهم، أي من فاضل نورهم

خلقه الله من أمره الوجودي ومن أمره القولي(وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) لأنهم لا قوام لهم إلا بأمره الوجودي كما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ)ولا قوام لسلطانهم إلا بأمره القولي مشفوعا بالوجودي وكل ذلك من قبضته لم يخرج عن يده شيء فهم أبدا منه مشفقون خائفون(وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ) أنا أنا من دونه أي أنى يمكن لذاتي أن تتقوم من دون أمره الوجودي، أو أن سلطاني من دون أمره القولي (فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) ولما كان فعله جاريا في الأشياء على ما هي عليه وكان ما هم عليه أنهم لله وحده واستعمالهم لغيره على خلاف ما هم عليه، وهو خلاف الحكمة فخلقهم له واصطفاهم لنفسه وحصرهم في أمره وهو قوله تعالى(وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ) أي لا يعملون إلا بأمره فأفاد سبحانه بتقديم أمره على يعملون فوائد:

الأولى حصر عمله في أمره.

الثانية أن الباء للسببية.

الثالثة التقديم لمراعاة النظم فإن كونهم عاملين مترتب على أمره لأن الأمر علة العمل.

الرابعة أن الأمر مادة الوجودي التشريعي النوعية والعمل صورته الشخصية والمادة النوعية مقدمة على الصورة الشخصية، وأما أن المادة متقومة بالصورة فالمراد بها المادة الشخصية لا المادة النوعية فإنها سابقة علي الصورة الشخصية وإنما قلنا إن الأمر مادة نوعية لأنه لا يتحقق أنه مادة طاعة أو معصية إلا بالعمل فالعمل هو المشخص له.

ثم اعلم أن قوله (المستقرين في أمر الله) يجوز فيه أن يكون المعنى في

استقرارهم في الأمر عدم انتقالهم عنه إلى أمر غيره وعدم انفكاكهم عن العمل به كما في قوله(يُسَبِّحُونَ اللَيْلِ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)وأن الله سبحانه ذرأهم في أمر الله كما قال(جَعَلَ لكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ)وهذه المعاني قد ذكرناها وإنما أعدتها بطور آخر للبيان.

قال عليه السلام والتامين في محبه الله

قال الشارح رحمه الله في مراتبها الثلاث من محبة الذات لذاته ولصفاته الحسنى ولأفعاله الكاملة، ومن ذاق حلاوة المحبة يستنشق من جميع رواياتهم سيما الأخبار الواردة فيها وفي أسبابها من (الرضا) والزهد والتسليم وغيرها في جميع مراتبها، وأنهم كاملون والمراد من المحبة العشق وإنكار العشق بالنسبة إلى الله تعالى لعدم فهم معناه وعدم القابلية هـ.

أقول: التامين جمع تام وهو بمعنى الكامل لغة والتام الذي ليس بزايد ولا ناقص والكامل الذي ليس بناقص، وقد يستعمل التام فيما ليس بناقص والكامل في الزائد على التمام والتام في العدد هو ما ساوى كسوره كالستة والكامل هو ما اشتمل على أول فرد وهو الثلاثة وأول زوج وهو الأربعة بناء على أن الاثنين يسمى مفردا لا زوجا، لأنه أول الأعداد ولا يكون أول الأعداد زوجا أو أنه يسمى كاملا باعتبار أن الشيء لا يكمل إلا بأربع طبائع وثلاث كيان، يعني حرارة ورطوبة وبرودة ويبوسة ونفس وروح وجسد والتام في الحروف ما ساوى بيناته زبره وذلك حرف واحد لا غير وهو السين ولهذا كان اسما لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وآل ياسين وفي الحروف الأبجدية في الخامس عشر والذي يخطر ببالي أن التمام

بمقام الإمام عليه السلام أكمل كما أن الكمال بمقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتم إلا أن الصفات منهم عليهم السلام تكاد تتحد لاتحاد الأصل لأن نورهم واحد لأن أولهم محمد وأوسطهم محمد وآخرهم محمد وكلهم محمد.

فقوله عليه السلام (والتامين في محبة الله) إن فسر التام بما ليس بزايد ولا ناقص جاز تخصيص المحبة بالحقيقة المحمدية، وإن فسر بالمعنى المراد من الكامل وهو الزائد على التمام جاز تخصيص المحبة بفلك الولاية وعلى التفسيرين يجوز التخصيص كما يجوز التعميم فهم تامون في ذواتهم وفي صفاتهم وفي أفعالهم ، وفي آثار أفعالهم ، أي هم كما ينبغي فيما ينبغي، أي هم التامون في علة الإيجاد وهو عالم المحبة والتعين الأول في قوله تعالى(كنت كنزا مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف).

فالمحبة علة الخلق وهم محال تلك العلة التي هي المحبة وهم تامون فيها، أي لا يكون منهم ما ليس في المحبة ولا من المحبة ما ليس فيهم بل هم المحبة ولهذا ورد في قوله تعالى(كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ)أن الحبة فاطمة عليها السلام والسنابل منها سبع سنابل الحسين والتسعة من ذرية الحسين عليه السلام، والمائة حبة ما يكون من صلب كل واحد منهم في الرجعة من الذرية الخاصة وفي قوله تعالى(إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى)الحب المحب لهم وخصوصا لفاطمة عليها السلام، ولقد وردت الروايات المتكثرة من الفريقين بمعنى إنما سميت فاطمة فاطمة لأن الله سبحانه فطم محبها ومحب محبها ومحب محب محبها من النار ومما ذكر بعضهم بناء على كمال سيدة النساء عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها أفضل الصلاة وأزكى السلام في بيان الكمال الشعوري والكمال الظهوري أن الكمال الظهوري للتسعة التي هي الطاء خمسة وأربعون وهو مجموع الأعداد من الواحد إلى التسعة وقاعدة استخراجه أن

تجمع الأول وهو الواحد إلى التسعة تكون عشرة فتضربها في نصف التسعة أربعة ونصف يكون الحاصل خمسة وأربعين وهو الكمال الظهوري للطاء والكمال الشعوري مجموع كماله الظهوري وكمال ما تحت الطاء الظهوري وهو الثمانية وهو ستة وثلاثون وذلك بأن تضم الواحد إلى الثمانية فتضرب التسعة في نصف الثمانية وهو أربعة يكون الحاصل ستة وثلاثين ومجموع الكمالين كمال شعوري للطاء وهو أحد وثمانون قال وقد اجتمع الكمالان في اسم فاطمة عليها السلام وهو من خواص هذا الاسم الشريف، وبيانه أن الطاء هي وسط اسم فاطمة وقبله (فا) وهي كمال شعوري أحد وثمانون وبعده (مة) وهي كمال ظهوري خمسة وأربعون وإنما خصت الطاء هنا لأنها عدد مربع عدد العوالم الثلاثة الجبروت والملكوت والملك، ومربع الثلاثة تسعة وينطق بالطاء فجمع اسمها الكمالين لأنها حبيبة حبيب رب العالمين فلذا فسر الصادق عليه السلام الحبة في الآية فاطمة عليها السلام وهم منها وهي منهم فهم التامون في المحبة فهم المحبوبون في الله ولله وهم المحبون في الله ولله، وحقيقة هذا الحب لا يكون لعلة غير نفسه لأنه لا يكون إلا بنور الله الذي هو الفؤاد، وحين يوجد مخلصا لا يوجد غيره لأن غيره حجاب عنه فلا يكون الحب خالصا.

وأما الحب الذي يكون بغير نور الله فلا بد أن يكون لعلة غيره وذلك لأن الحب لغير الله يهوي بالفؤاد إلى غير المبدء وهو غير الذات فيجب التعدد من الذات الذي هو المبدء ومن ذلك الغير ، ومعنى آخر لكونهم تامين في محبة الله أنهم جبلوا على حب الله وجبل الخلق على حبهم فلا يكون أحد من الخلق إلا وهو يحبهم من محبيهم ومبغضيهم لوجهين.

الأول: أنهم علة الإيجاد كما تقدم فهم العلة الفاعلية لأنهم محل المشية والعلة المادية والصورية والغائية فمن لم يحبهم لم يوجد إذ الوجود حبهم قد خلق الله سبحانه الخلق من حبهم، لأنهم هم المحبة التي هي العلة في الإيجاد والمعرفة، كذلك وقد ورد في الدعاء(لا يخالف شيء منها محبتك)فشرط إيجادها أن تجري في جميع وجوداتها على محبة الله وهو تأويل قوله تعالى(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ)فيجري الطيب في طيبه والخبيث في خبثه كما جرى القدر به عليهما مما قبلاه، والمؤمن في إيمانه والكافر في كفره كما جرى به القدر لأن القدر كما أشرنا مرارا يجري على ما يقتضيه العمل من العبد وهو سبحانه لا يحب في تقديره أن يجري قدره على غير مقتضى العمل والعمل ، يجب ألا يجري إلا بما جرى له القدر وأحب له من أنه كما هو وهو ما يحب الله منهما ولهما فهو سبحانه وإن كان لا يحب الكفر لنفسه ولا يحبه لعبده ولا يحب أن يكون الكفر والكافر إلا كما يقدر فيما يقتضيانه لذواتهما، لأنه لا يحب أن تكون إلا على ما هي عليه من خيرها وشرها كما كررنا مرارا للتفهيم فلا ينفك شيء عن محبة الله وإلا لم يوجد وعلى هذا جرى الصنع وذلك محبة الله التي لا يخالفها شيء، وهي ولايتهم عليهم السلام التي تموا وكملوا بها وبها كمل من سواهم وهو قوله تعالى(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا)فهذا التمام للنعمة والكمال للدين فرع تماميتهم في المحبة التي هي أعظم النعم وفرع كماليتهم في الدين التي هي أجل الفضل والإمام عليه السلام قد يبين قوله تعالى(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ)بقوله (لا يخالف شيء منها محبتك) وملازمة الأشياء لمحبة الله فرع(بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِم) لأنهم كل حال طلبوه أتاهم به كما هم فلا يخالفونه وذلك أصل محبته سبحانه ولو

أنه سبحانه حين نهاهم عن الكفر ولم يحبه ولم يرضه لهم لم يرض لهم أن يجروا على اختيارهم لأجبرهم على طاعته فكانوا بطاعته مسيئين، ولو أنه حين رضي منهم أن يجروا على اختيارهم رضي منهم الكفر لكانوا بكفرهم مؤمنين وبإساءتهم محسنين، ولو أنه سبحانه حين رضي لهم أن يجروا على اختيارهم وأن يجري لهم القدر على حكم أعمالهم المقدرة بقدره جل وعلا وجعلهم بكفرهم كافرين وتمنوا ببعدهم أن يكونوا مقربين جعلهم ببعدهم مقربين وبكفرهم مؤمنين (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) أي لفسدت المقبولات حيث لم تقبل كما تقبل وإنما قبلت كما لم تقبل، وبطلت القابلات حيث لم تقبل ما قبلت حين قبلت وقبلت ما لم تقبل حين لم تقبل بجهة واحدة وهلك من فيهن من ذواتهم وأكوانهم على ما هم عليه (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُون) أي يحبون أن يتبع الحق أهواءهم من حيث هي خلاف الحق، والحق لا يكون من حيث هو حق باطلا أبدا ولا يكون إلا حقا وإلا لم يكن شيئا وبطل النظام (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) يعني أنزهه وأقدسه عن وصفهم بأن يكون الحق من حيث هو حق باطلا، والباطل من حيث هو باطل حقا وقالوا هذه صفة ربنا ووصف نفسه لنا بذلك والله سبحانه ما وصف نفسه بذلك، وإنما هذا وصفهم فهم يصفون الله بوصفهم أي بما يفترون على الله من الكذب ويخلقون من الإفك ولا يخرج آل محمد ﷺ من شيء من الحق الذي هو محبة الله إلى شيء من الباطل الذي لا يحبه أبدا، ولا يصفون الله إلا بما وصف به نفسه من الحق لكمال تماميتهم في محبة الله، وأما أعداؤهم فلما كانوا في الجملة على الضد منهم عليهم السلام كانوا يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا ويصفون الله به لأنهم يقولون هذا من عند الله فأنزل

الله سبحانه وتعالى(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) المخلصين التامين في محبة الله.

والثاني: أن التامين في محبة الله كما جبلوا على حب الله جبل الخلق على حبهم فلا يكون أحد من الخلق إلا وهو يحبهم من محبيهم ومبغضيهم، أما المحبون فظاهر وأما المبغضون لهم فإنهم لا يجدون فيهم صفة يكرهونها ولا عيبا تنفر منه طبائعهم، ولا ذنبا ينكرونه ولا يرون شيئا منهم ولا حالا إلا وقلوبهم تميل إليه إنما هم وصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم علماء حكماء فقهاء أتقياء كرماء أبرار مقربون زهاد عباد شجعان رحماء أعزاء لله على الكافرين أذلة على المؤمنين، والحاصل كل صفة جميلة تحبها النفوس أو العقول فهي فيهم بجميع مراتبها تامة كاملة لا توجد في غيرهم فلا ينظر أحد من الخلق إلى حال من أحوالهم أو عمل من أعمالهم أو قول من أقوالهم أو صفة من صفاتهم، إلا ويرى محبوبا يقتضي أن يحسده عليه المنافسون فيتكلف أعداؤهم عداوتهم على كل محبوب ومرغوب ومطلوب بلا موجب إلا الحسد على الفضائل والمعالي حيث لا ينالوا شيئا منها، فحسدوهم وبغضوهم بما يحبون منهم لأنهم لا يقدرون على حبهم مع ما يرون فيهم مما يحبون ولهذا قال الصادق عليه السلام ما معناه (والله إنهم لا يقدرون على أن يحبونا ولو قدروا لأحبونا ولكنهم لا يقدرون)وأيضا هم تامون في محبة الله أي لا يعملون إلا بمحبة الله وفي محبة الله فهم يتقلبون في ذواتهم وأكوانهم وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم، وما أضمروا وأظهروا وفي أوامرهم ونواهيهم ودعائهم في محبة الله لا يخرجون عنها أبدا وهو كمال الإخلاص في العبودية والعبادة وذلك قوله تعالى(وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء

وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلكَ دِينُ القَيِّمَةِ)وهو دينهم وهو ولايتهم وهو محبتهم وهو الإيمان وهو الإسلام عند الله تعالى وهو ما ذكرنا من التمام والكمال في محبة الله تعالى.

وقول الشارح ﵀ (في مراتبها الثلاثة) يراد به أن محبة الذات ليست راجعة إلى الذات البحت لأن الذات البحت، لا يمكن الوصول إليها بجهة من الجهات إلا من نحو ما وصف به نفسه وأمر به من تكليفه، ففي الحقيقة محبة الذات راجعة إلى الصفات ولا ينافي هذا أنه إنما قيل إن كل محبة إنما ترجع إلى النفس وأما محبة الله فاختلف فيها العلماء فمن قال: إنها تكون محضة لله ولا ترجع إلى النفس لأن النفس بل جميع الصفات لا تلحظ في هذه المحبة وإنما تلحظ الذات البحت، لأن المحب الذي هو الحقيقة المجردة عن جميع السبحات حتى عن التجريد لم يجد نفسه لترجع المحبة إليها، ولا تدرك الذات لترجع المحبة إليها وإنما المشار إليه هو ظهوره تعالى وتكون المحبة للصفة لأن هذه الصفة لا تظهر مع وجود شيء وإن كانت إذا توجه الداعي والعارف إلى الذات تغيب عن وجدانه وتفنى في الذات كما أنا نحكم بخلوص المحبة للصفات والأفعال فلا ترجع إلى النفس لعدم وجودها في النظر حينئذ وذلك لأن هذه المحبة إذا نشأت عن مشاهدة هذه الصفات والأفعال لا تكون لملاحظة النفس لترجع المحبة إليها، لأنها مع الملاحظة لا يظهر جمال تلك الصفات والأفعال لذاتها وإنما يظهر للتعلق بالملاحظ بكسر الحاء فافهم.

وقول الشارح ﵀ (والمراد من المحبة العشق وإنكار العشق بالنسبة الى الله تعالى لعدم فهم معناه وعدم القابلية) فيه شيء صوفي والكلام فيه هو أن الحب ميل النفس إلى المحبوب فإن أفرط سمي عشقا.

قال جالينوس العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاث مساكن التخيل (التخييل) في مقدمه والفكر في وسطه والذكر في آخره فلا يكون أحد عاشقا حتى إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال قلبه وكبده، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والذكر والفكر للمعشوق فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به ومتى لم يكن كذلك لم يكن عاشقا فإن أُلهي العاشق خلت هذه المساكن ورجع الاعتدال هـ.

أقول: إذا عرفت معنى العشق ومعنى الحب فعلى ما ذكره الغزالي وهو أن الحب ميل النفس وأن العشق هو الإفراط في الميل يمكن توجيه كلام الشارح فإنه بعد محو الميل والإفراط ويحصل فناء المائل في ذاته في المحبوب مع محو المحبة فإنها حجاب كما قال جعفربن محمد عليه السلام (المحبة حجاب بين المحب والمحبوب) قد يقال له عشق كما يقال له حب ولكن فيه شيئان.

الأول: أنه لم يرد من طرقنا استعمال العشق في جانب الحق تعالى، وإنما ورد من طرق أهل التصوف وهو عندنا باطل لا تجوز نسبته إلى الله تعالى، وما وجد في كتب بعض الشيعة من ذلك فإنه من طرق أهل الخلاف يرويه منا من له ميل إليهم ليضل عن سبيل الله والله سبحانه يقول (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ).

الثاني: إن كل معنى له معنى آخر يصلح استعماله للقديم إذا ورد به النص جاز إطلاقه على الله لأنه في العقل يجوز إطلاقه عليه، فإذا ورد به السمع قبله العقل بلا تكلف كاليد فإن لها معنى يصلح إطلاقه على الله وهو القوة والقدرة، فإذا ورد قبله العقل بلا تأويل ولا تكلف لأنه يجوزه ، وما لا معنى له صالح

للإطلاق على الله كالرجل فإن معناها آلة السعي أو لحمل صاحبها ولا يجوز شيء منهما على الله، فلهذا لم يرد من طرقنا وصفه تعالى بذلك ولما ورد من طرق المخالفين لم نقبله لأنه لا يجوز إلا بالتأويل كما فسر ذلك بعضهم حيث قال: المراد بالقدم قدم يليق بالقديم وقال أهل التصوف: هو ظهوره تعالى في عالم الأجسام وكل هذا باطل، وكما فسر الغزالي العشق بما يناسب الحب وأنه أقوى ولا عيب في كون الحب قويا وهذا طريقتهم في تشييد طريقتهم (وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)، وبيان هذا أن العشق إنما يتحقق كما ذكره جالينوس أنه من فعل النفس والفعل من السبحات التي أمرنا بكشفها، وأنه لا يتحقق إلا بدوام ذكر المعشوق والفكر في ترتيب جهات التعلق وكيفيات الاتصال بعد التخيل لصورته، فبدون التخيل لا يتذكر ولا يتفكر في جهات التعلق وكيفيات الاتصال ولا بد من تعدد الدواعي واختلاف الجهات، ولا يجوز شيء من ذلك بالنسبة إليه تعالى ولقد رد عليهم الزمخشري بما هو حق في حقهم بأنهم يتصورون صورة معشوقة بلحاظ النكاح حتى أن أحدهم ليمني هذا معنى كلامه ومأخذه واضح لأنهم يتخيلون صورة مستحسنة ووقوع المني من بعضهم لا ينكر وليس ذلك إلا لما قال الزمخشري لأن الشخص لو يتصور شيئا حسنا ليس بلحاظ النكاح ولو كان أجمل ما في الإمكان لم يحصل منه مذي ولا مني، كما لو تصور جوهرة لا يكون لها أخت أو كوكبا أنور من الشمس ألف ألف مرة لا يحصل له تلك الحالة وليس ذلك إلا لأنه تعشق نفساني حيواني منشؤه الشهوة الحيوانية فقول الشارح: إن إنكاره لعدم فهم معناه.... الخ، ناش من عدم فهم معنى العشق وإنما ذلك الذي يشير إليه على تقدير صحة مرادهم هو الحب لا

العشق، لأن العشق ليس موضوعا لغير الأحوال النفسانية الحيوانية فافهم.

قال عليه السلام والمخلصين في توحيد الله

قال الشارح رحمه الله فإن أقصى مراتب المحبة ينجر إلى ألا يرى العارف إلا الله، فإنه لا يرى شيئا إلا ويرى الله بعده في الابتداء ثم معه ثم قبله، ثم لا يرى إلا الله ويرى صفاته عين ذاته بل يرى جميع الذوات والصفات والأفعال متلاشية وفانية في ذاته وصفاته وأفعاله بل لا يرى فناءه أيضا كما قال:

ما وحد الواحد من واحد

بل كل من وحده جاحد

وكتب العارفين مشحونة من بيان هذه المراتب والحق أنه لا يمكن بيانه ومن لم يذق لم يدرِ هـ.

أقول: المخلصين بكسر اللام وفتحها للمعلوم والمجهول والمخلص للمعلوم الذي لم يشرك في توحيد الله أي لم ير إلا واحدا، وللمجهول أن الله سبحانه اختصه لذلك وجعله محلا لتوحيده أي يعرف بسببيله التوحيد.

وقوله (إلا ويرى الله بعده في الابتداء ..الخ) إن أراد به في ابتداء السلوك كان حسنا وإن أراد به في كل أحوال توجه العارف فليس بشيء، لأن العارف لا ينظر إلى الآثار ليترقى منها إلى المؤثرات وإنما ينظر إلى المؤثرات في الآثار كما قال سيد الوصيين عليه السلام (ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله) أو معه على أحد النقلين، وليس المعنى أنه يرى الله أولا ويرى الشيء بعده أو معه لأنه لو كان كذلك لزم حصول

الغفلة بعد كل ذكر ويقظة، وإنما المعنى ما ذكرنا من أنه يرى الظاهر بالأشياء لها فهو قبلها وهو معها ولا ينافي هذا ما في الدعاء (يا من هو قبل كل شي ء يا من هو بعد كل شي)، لأن الأولى من مراتب المعرفة والثانية من مراتب المجهولية.

قوله: (ويرى صفاته عين ذاته) إن أريد به ما في الحديث (وَكَمَال تَوْحِيدِهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ).

يعني كمال توحيده أن يعرف ذاتا بسيطة لا كثرة فيها لا في الاعتبار ولا في الإمكان ، والفرض لأنه هو وليس له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا حياة غير ذاته بدون مغايرة حتى في الفرض لأنه لا يصح إلا في ممكن، فليس إلا ذات وبسيطة بحت بكل اعتبار وفرض.

وأما اعتبار الصفات فإنه في الإمكان كما إذا أتاك رجل فإنه إنسان حقيقة، فلما كتب علمنا بما أحدث أنه كاتب فوصفناه بكاتب ولما خاط قباء علمنا بما صنع أنه خياط، فوصفناه بخياط وهكذا وليس ما وصفناه به جزءا من ذاته بل إذا تحققت ذاته وجدتها بسيطة ولكنك تعلم أن هذه التأثيرات لو كانت ذاته ناقصة لما صدرت عنها بهذه الأفعال آثار كمالات، فصدور هذه الآثار المتعددة المتغايرة يدل على أن ذاته ليست بناقصة لا أن ذاته متكثرة، ألا ترى أنك تقول هو الكاتب هو الخياط هو النجار فهو تعني به ذاتا بسيطة وتلك بعينها هي التي حدثت عنها الكتابة وهي بعينها هي التي حدثت عنها الخياطة، فتعدد الصفات إنما هو في الإمكان فهذا بعينه هو ما نعنيه من نفي الصفات أنه لا تعدد فيه فنصفه بالعلم باعتبار إحاطته بالمعلوم (بالعلوم) وإعطائه العلم ونصفه بالقدرة لصنعه كل ما يريد بلا تفريق بين المصنوعات.

وإن أريد به ما يعنينه أهل التصوف من أن صفات الذات وصفات الأفعال

والأفعال والمفعولات وصفاتها كلها عين ذاته، إذ ليس غيره فالمخلوقات بأسرها إذا أزلت عنها الحدود والمشخصات هي عين ذاته ـ تعالى عما يقولون علوا كبيرا ـ وأمثالهم وعباراتهم وأشعارهم مشحونة بذلك قول شاعرهم:

أنا ذلـك القــدوس في قــدس العماء محجب
أنا قطب دائرة الرحــا وأنا العلى المستوعــب
أنا ذلـك الفرد الذي فيه الكمال الأعجــب

إلى أن قال:

الله ربـي خــالق وبــريــق خلقــي خـلب

إلى أن قال:

أنا غافر والمذنب

وقال آخر:

وما الناس في التمثال إلا كثلجة
وأنت لها الماء الـــذي هو نابع
ولكن يـذوب الثلج يرفع حكمه
ويوضع حكم الماء والأمر واقع

ومثله ما ذكره ابن الأعرابي في فصوصه قال:

فلولاه ولولانا لما كان الــذي كــانــا
فأنــا أعبـد حقـا وإن الله مــولانـــا
وأنا عيـنه فاعلم إذا ما قيــل إنســانـا
فلا تحجب بـإنسـان فقد أعطاك برهانا
فكـــن حـقا وكن خلقا تكن بالله رحمانا

وغذ خلقه منـــه تكـن روحا وريحانا

فأعطيناه ما يبدو به فيـــنـا وأعطـانا

فصار الأمر مقسوم بـــإيـــاه وإيـــانا

إلى آخره مما يذهبون إليه من وحدة الوجود فهو باطل بل هو كفر بالله.

وأما كلام الشارح فهو محتمل وإن كان قوله وكتب العارفين مشحونة من بيان هذه المراتب يشعر بالاحتمال الثاني لأنه عفى الله عنه له ميل إلى القوم كما هو شأن العلماء، الذين اغتروا بغرور أهل الإلحاد واستشهاده بقول الشاعر(ما وحد الواحد ...إلخ)

يشير به إلى أن من وحد الله في حال يجد فيها نفسه أو توحيده فإن تلك كثرة وإثبات ذلك في الوحدة وجعله وحدة جحود للوحدة، لأنك لو أثبتّ وحدة اثنين من حيث التعدد بزعمك أنهما من هذه الحيثية وحدة لكنت جاحدا للوحدة الحقيقية، لأنها بهذا الاعتبار ومن هذه الحيثية كثرة بخلاف الوحدة لا باعتبار ولا حيث وكيف ولم فإذا عرفت الوحدة بالكثرة جحدت الوحدة.

وقال رحمه الله (والحق أنه لا يمكن بيانه ومن لم يذق لم يدرِ).

أقول: الحق أنه يمكن بيانه ومن لم يذق لم يدر كيف لا وقد بينه علي عليه السلام لكميل ست مرات، وقد كشفت ذلك في شرح هذا الحديث الشريف وقد نص على البيان في قوله عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

وهو أن تجردها في الملاحظة والوجدان عن جميع سبحاتها ونسبها وعن كل شيء حتى عن التجريد فإنك حينئذ تعرف المراد ويتبين لك ذلك بنور الله الذي هو الفؤاد بعد التجريد ومحو كل موهوم من إشارة وتقييد وهو سر السين

في قوله تعالى(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ)فقد وعد الله سبحانه عباده العارفين أنه سيريهم (سَنُرِيهِمْ) الآية وهو النقش الفهواني التعريفي الذي هو الوصف والتعريف والتعرف من الله سبحانه لعبده، وهو حقيقته من ربه وهو نور الله الذي يرى به المتوسم المتفرس وهو الفؤاد وهو الصحو وهو الأحدية وهو المعلوم وهو الجلال، وهو أول فائض عن المشية مما يختص به وهو الوجود الراجح فيما لك من الوجود الراجح المطلق وما أشبه ذلك، فكل عبارة من هذه تدلك على مطلوبك لأنها كلها بمعنى واحد فكيف لا يمكن بيانه والله سبحانه يقول(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ)، فأنت تفهم قوله تعالى(حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ) وبيانه على سبيل الاختصار والإشارة إنك تمحو في وجدانك عن حقيقتك التي هي ذاتك ونفسك الحيث والكيف والكم واللم والمتى والأين، وفي ومن وعلى ومع ولو وما أشبه ذلك فإنها خارجة عن ذلك مثلا كونك في شيء ليس هو ذاتك ولا جزءا منها وكونك على شيء وداخلا في شيء أو خارجا من شيء أو على شيء أو مع شيء أو مشابها لشيء أو يشابهك شيء أو بائنا عن شيء أو ملاصقا لشيء، أو كونك محدودا أو محصورا أو موضوعا على شىء أو خارجا من شيء أو خارجا منك شيء، أو قريبا أو بعيدا أو ظاهرا أو باطنا أو معلوما أو مجهولا أو متحركا أو ساكنا أو ناطقا أو صامتا أو لابثا ، أو منتقلا أو متغيرا أو متبدلا وما أشبه ذلك من صفات الخلق، فكل هذه وما أشبهها إذا نظرتها وجدتها غيرك حتى خطابك وغيبتك وتكلمك فإذا أنت شيء بسيط مغاير لكل ما سواك فليس كمثلك شيء بعد محو هذه السبحات وما أشبهها فإذا عرفت نفسك هكذا بقي عندك ظهور

الله لك بك، فإذا نظرت ظهور الله بدون لك وبك عرفت صفة الله ،فإذا عرفت صفة الله عرفت الله لأن الشيء لا يعرف بذاته وإنما يعرف بصفته فبهذه الجملة يظهر لك بيانه.

فقوله عليه السلام (والمخلصين في توحيد الله) يحتمل وجوها.

الأول: أنهم عليهم السلام مخلصون في توحيد الله في وجدانهم ومعرفتهم فإنهم لا يجدون إلا الله سبحانه، فإن الذات إذا ظهرت غيبت الصفات والآثار بظهورها لأن الصفات والآثار سبحات ظهورها، وذلك الظهور هو الماحي لحجب الظهور فلو وجدت السبحات لم تظهر الذات لأنها إنما تظهر بمحو الحجب التي هي السبحات وله تأويل قوله تعالى(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا) لأن ظهور النور محو الظلمات.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك لكميل حيث قال(جذب الأحدية لصفة التوحيد) وذلك لأن السبحات وجودها بصدورها، فإذا جذبت انقطع الصدور فانمحت فإن قرأت (المخلصين) بفتح اللام كان المعنى أنه جل وعلا لذلك خلقهم فهم الماحون وهم بأمره يعملون، وبكسر اللام يكون المعنى أن غاية التجريد والتفريد الذي ليس وراءها (ورائه) مقام في الإمكان هو ما جردوا وأفردوا، والإخلاص هو هذا كما قال علي بن موسى الرضا عليه السلام في خطبته بمحضر المأمون (ولا معرفة إلا بالإخلاص ولا إخلاص مع التشبيه).

الثاني: أنهم عليهم السلام وصفوا الله بما يليق بعز جلاله وكل وصف لم يكن بما وصفوا فهو باطل لا يليق بجلال الله وقدسه كما قال تعالى(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ*إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)فإن وصفهم يليق بقدسه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا)أي بما وصفنا من التعريف فدل الكتاب والسنة أن معرفة الله لا تحصل لأحد إلا بدلالة أهل الحق عليه وما جعل جل وعلا له بابا من المضلين كما قال تعالى(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا).

هذا وقد جعل الهادين عليهم السلام أركانا لتوحيده والعلة في ذلك أن الله سبحانه خلق الخلق كما هم أثر فعله فحقائقهم صفات أفعاله وآثاره، والأثر يشابه صفة مؤثره التي عنها صدر وجوده ولم يكن أحد من الخلق أعدل مزاجا منهم، فلا يحكي أحد الصفة كما هي إلا هم لاعتدال قابليتهم بخلاف من سواهم فإنهم لا يخلون من الاعوجاج الكلي أو الجزئي فهم المخلصون في توحيد الله.

الثالث: إن مراتب التوحيد أربعة: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة.

فتوحيد الذات ما أمر الله تعالى(وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ)فتوحيدهم لذلك نهاية التجريد والتفريد كما تقدم بنفي جميع الصفات والأفعال والآثار.

وتوحيد الصفات ما قال الله تعالى(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)فيه معنيان، أحدهما إن صفاته ظهرت حتى غيبت جميع الخلق وصفاتهم وأحوالهم بل ليس في ما دون عز جلاله إلا صفته.

وفي المصباح للشيخ في دعاء ليلة الخميس(أنت الذي بكلمتك خلقت جميع خلقك فكل مشيتك أتتك بلا لغوب أثبت مشيتك ولم تأن فيها لمئونة ولم تنصب فيها لمشقة وكان عرشك على الماء والظلمة على الهواء والملائكة يحملون عرشك

عرش النور والكرامة ويسبحون بحمدك والخلق مطيع لك خاشع من خوفك لا يرى فيه نور إلا نورك ولا يسمع فيه صوت إلا صوتك حقيق بما لا يحق إلا لك).

فقوله (لا يرى فيه نور إلا نورك) توحيد الصفات.

وثانيهما: إن كل ما في الكون صفاته من الذوات والصفات الجواهر والأعراض لأنها آثاره والآثار صفات، فمعنى توحيد الصفات أنه ليس إلا صفاته وآثاره والآثار صفاته، كما قال عليه السلام(لا يرى فيه نور إلا نورك) لأن الأشياء آثاره وصفات أفعاله وأفعاله صفاته وصفات الصفات صفات، فكما أنك إذا نظرت إلى الشمس لا تجد إلا الشمس وأشعتها وهي آثارها وصفاتها فكذلك في التمثيل آثار الله.

وتوحيد الأفعال كقوله تعالى(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّموَاتِ)فليس له شريك في فعله وكل ما ترى من أفعال خلقه فهي أفعاله بهم كما قال علي عليه السلام(وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله)وقال تعالى(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى)وقال تعالى(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)وقوله عليه السلام في الدعاء المتقدم(لا يسمع فيه صوت إلا صوتك).

وتوحيد العبادة قال تعالى(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا).

والعبادة فعل ما يرضي، والشرك في العبادة أن يريد فيها مع الله وتعالى غيره وله دبيب في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة في الليلة الظلماء قال تعالى(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ).

والعبادة خاصة وعامة.

أما العبادة الخاصة التي وظفها الشارع عليه السلام وحددها وضبط حدودها كالصلاة وسائر العبادات الشرعية، فالشرك فيها على أقسام شرك في الباعث على إيقاعها كالرياء وله رتبتان شرك وكفر، فالشرك بأن تصلي لله ويشرك في ذلك الباعث عليها مراءاة زيد، والكفر بأن يكون الباعث عليها مراءاة زيد ولولا ذلك لم يصل، فإن كان يعتقد عدم تحريم هاتين الحالتين كفر واستحل دمه إذا علم ذلك منه بإخباره مختارا عالما بقوله بحيث لا يحتمل غير ذلك، وإن لم يعتقد ذلك فالشرك الذي يلزم منه الكفر يعيد صلاته ويستتاب ويعزر ثلاثا ويقتل في الرابعة احتياطا، والشرك الممتزج فإن كان في أصل النية لكل الفعل فكذلك وإلا فإن كان في واجب سواء كان ركنا أو فعلا أو غيرهما من الواجبات من المتفق عليها بين المسلمين فكذلك، وإلا ففي الواجب تبطل وفي المندوب خلاف والأصح البطلان .

وأما العامة فما يقع في الأعمال والأحوال والأقوال منها فشرك خفي.

وفي الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم (الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ).

وفي الحديث (من حلف بغير الله فقد أشرك)قيل يعني كفر حديث جعل ما لا يحلف به محلوفا به كاسم الله تعالى) هـ.

وفي تفسير قوله تعالى(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ).

في الكافي والقمي عن الباقر والصادق عليهما السلام (فهي شرك طاعة وليس شرك عبادة،وزاد القمي: والمعاصي التي يرتكبون شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله في الطاعة لغيره و ليس بإشراك عبادة أن يعبدوا غير الله).

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية(يُطِيعُ الشَّيْطَانَ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُ فَيُشْرِكُ).

وعن الباقر عليه السلام (مِنْ ذَلِكَ قَوْل الرَّجُل لا وَحَيَاتِكَ).

وعن الرضا عليه السلام (شرك لا يبلغ به الكفر).

وعنهما عليهما السلام قالوا: سألناهما، فقالا (شرك النعم).

وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام (هُوَ قَوْل الرَّجُل لوْلا فُلانٌ لَهَلَكْتُ وَ لوْلا فُلانٌ مَا أَصَبْتُ كَذَا وَ كَذَا وَ لوْلا فُلانٌ لضَاعَ عِيَالي أَ لا تَرَى أَنَّهُ قَدْ جَعَل للهِ شَرِيكاً في مُلكِهِ يَرْزُقُهُ وَ يَدْفَعُ عَنْهُ قُلتُ فَيَقُول مَا ذَا يَقُول لوْ لا أَنْ مَنَّ اللهُ عَليَّ بِفُلانٍ لَهَلَكْتُ قَال نَعَمْ لا بَأْسَ بِهَذَا).

وفي التوحيد عنه عليه السلام (فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها).

فشرك الطاعة لم يكفر فاعله لزعمه أنه لا ينافي التوحيد وهو كذلك في الظاهر وقول الرجل لا وحياتك شرك لزعمه أن له حياة غير مفتقرة يستند إليها في الوجود للقسم، والشرك الذي لا يبلغ بصاحبه الكفر لأنه لا ينافي ظاهر التوحيد.

لأنه شرك طاعة، كما مر لأنه قد يعمل بمقتضى شهوة نفسه وميلها إلى أغراضها فيفعل خلاف ما يريد الله وهو لا يعلم أي لا يلتفت إلى مراد الله لغلبة هواه فيشرك كما قال الصادق عليه السلام (يُطِيعُ الشَّيْطَانَ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُ فَيُشْرِكُ) وقول الرجل لولا فلان لهلكت إذا نسب الدفع والنفع مع عدم التفاته إلى أنه من الأسباب التي يسببها الله فقد أشرك بخلاف ما لو قال لولا أن الله من علي به،

فإنه حينئذ لاحظ إلى أن الله تعالى ولي النفع والدفع وأما ذكره فلانا فلأنه لاحظ إلى أن الله جعله سببا لذلك ولا بأس به.

وأما تفسير الشرك في الآية بالإلحاد في أسمائه فهو تفسير بالباطن وشرح بيانه كما ينبغي ما يحتمله الوقت ولا بأس بالتنبيه عليه يريد عليه السلام بالذين لا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون غير شيعتهم فإن أكثرهم وهم الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى مشركون بالشرك الذي لا يغفره الله ومعنى إلحادهم أنهم جعلوا أئمتهم أولى بالأمر من أئمة الهدى الذين هم أسماء الله كما قال الصادق عليه السلام في قوله تعالى(وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)قال(نحن الأسماء الحسنى)الحديث. فأولئك يجعلون أئمتهم أولى من أئمة الهدى ويسمونهم بأسمائهم ويلقبونهم بألقابهم، وأما من لم يتبين له الهدى منهم فليس بمشرك بل هو مسلم ضال وحسابه على الله، والمراد بتبين الهدى معرفة الحق عن الدليل بذوقه.

فهذه المراتب الأربع هي مراتب التوحيد والاتصاف بها دفعة هو الأحدية وأحدها واحدية، والأحدية لا اعتبار للكثرة فيها أصلا والواحدية فيها الكثرة الاعتبارية فهي منشأ الأسماء والصفات.

ثم اعلم أن لهذه المقامات مراتب لا تتناهى وأعلاها في التجريد والتفريد عن كل ما سوى الحق بحيث لا يبلغها جميع الخلق توحيد الله (توحيدهم) في هذه المراتب الأربع فهم المخلصون في توحيد الله.

الرابع: إن كل شيء إذا نسب توجهه إلى شيء وانصرافه إليه وحصره فيه وإحاطته به وميله إليه لا يساوي توجهه إلى نفسه وانصرافه إليها، وحصره فيها وإحاطته بها وميله إليها فبهذا المعنى وما أشبهه يصدقه إخلاصه في نفسه بمعنى

اتحاده بذاته لعدم المغايرة إلا باللفظ أو الاعتبار فهم توحيد الله وأهل توحيد الله فقولك (أهل) تعني به المخلصين في الفقرة الشريفة.

وهذا هو المراد بأعلى الوجوه من قول علي عليه السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا) يعني لا يعرف الله إلا بنا يعني نحن معرفة الله وتوحيده في كل ما يعتبره معتبر ويجرده مجرد لا يظهر له إلا آية الله وهم عليهم السلام ليس لله آية أكبر منهم ولا أدل عليه منهم، والشيء إنما يعرف بآياته وصفاته وقد قال علي عليه السلام (أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة).

وهذا كمال التجريد والتفريد وبه يعرف الله أي بهذا المثل الأعلى والآية الكبرى، والمثل الذي ليس كمثله (كمثل) شيء يعرف الله تعالى فهم توحيد الله في المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكان وهم في الأبواب المخلصون في توحيد الله وهم في الخلق الدالون على الله والدعاة إليه فافهم راشدا.

قال عليه السلام والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين

قال الشارح المجلسي رحمه الله مشددا ومخففا كما قال تعالى(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ). أي هذا النوع بوجود الأنبياء والأوصياء.

أقول: من المراد بقوله المظهرين أنهم تراجمة وحي الله وألهاماته لمراداته، فإن الأمر والنهي من الله قد يردان من بعض ألسنة الأقلام يسمعونه كصوت وقع السلسة في الطست بل يردان في الخطابات الإلهية بكل صوت من أصوات الجمادات والنباتات والحيوانات وكهفيف الرياح وأزيز المياه والأمواج.

وبالجملة إن أوامر الله ونواهيه يحدثها في جميع الألواح من الكليات والجزئيات

بل كل ما يصدق عليه اسم الشيء كتب عليه ملؤه من الأوامر والنواهي وكل هذه تخبرهم (يخبرهم) بما حملت إليهم، ولا يكتمون الله حديثا والملائكة من سائر الألواح فتأتيهم وتخبرهم بجميع ما أمرت به وبلغت من الأمور المدبرة كما قال تعالى(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) فتوحي إليهم بالطنين في آذانهم وبالوقع في قلوبهم بل بجميع لغاتهم وهفيف أجنحتهم.

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال (كنت أنا والمغيرة بن سعيد جالسين في المسجد فأتانا الحكم بن عيينة فقال لقد سمعت من أبي جعفر عليه السلام حديثا ما سمعه أحد قط فسألناه فأبى أن يخبرنا به فدخلنا عليه فقلنا إن الحكم بن عيينة أخبرنا أنه سمع منك ما لم يسمعه منك أحد قط فأبى أن يخبرنا به فقال نعم وجدنا علم علي عليه السلام في آية من كتاب الله و ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي و لا محدث فقلنا ليست هكذا هي فقال في كتاب علي و ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فقلت وأي شيء المحدث فقال ينكت في أذنه يسمع طنينا كطنين الطست أو يقرع على قلبه فيسمع وقعا كوقع السلسلة على الطست فقلت إنه نبي ثم قال لا مثل الخضر ومثل ذي القرنين).

قوله عليه السلام (ينكت في أذنه) يراد منه أن الروح يحرك ورقة الإمام عليه السلام بما يراد به من الوحي فيسمعه طنينا كرنة الطست وهذا غالبا يكون من تحديث ملك واحد بلسان واحد.

وقوله عليه السلام (أو يقرع على قلبه فيسمع وقعا كوقع السلسلة على الطست)، يراد منه ما كان من تحديث ملائكة متعددة أو من ملك له ألسن كثيرة يحدث الإمام

ﷺ بكلها وذلك لأن وجوه جميع الأشياء يطوفون حول العرش، فيزدحمون فيمس الملك جزء من العرش عند الاستلام فتحصل هذه الأصوات عندهم ﷺ بما أنطقها الله سبحانه من وحيه إليهم، سلام الله عليهم فيسمعون وقعه في قلوبهم كوقع السلسة في الطست، وتطوف تلك الملائكة على تلك الوجوه وتلك الوجوه على سدرة المنتهى حيث الله سبحانه يقول (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)فإذا حركت منهم ورقة أو غصن ورقة من أوراقهم ﷺ سمعوا طنينا في آذانهم كصوت الطست، إذا ضرب وذلك الصوت هو ما أنطقها الله عز وجل الذي أنطق كل شيء بما خلق فيها من وحيه إليهم ﷺ من أوامره ونواهيه (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ).

وفي كتاب مختصر بصائر سعد الأشعري للحسن بن سليمان الحلي بإسناده عن الرضا عن آبائه ﷺ في حديث طويل قال قال أمير المؤمنين في كلام له (وإن شئتم أخبرتكم بما هو أعظم من ذلك قالوا فافعل قال كنت ذات ليلة تحت سقيفة مع رسول الله ﷺ وإني لأحصي ستا وستين وطأة من الملائكة كل وطأة من الملائكة أعرفهم بلغاتهم وصفاتهم وأسمائهم ووطئهم).

أقول: أصحاب هذه الوطأة من الملائكة يبلغون رسول الله ﷺ أوامر الله سبحانه ونواهيه مشافهة بالقول والعيان، وهم أيضا يبلغون النبي ﷺ ذلك في خياله وحسه وذلك كله في الحالين وحي الله سبحانه إليه على اختلاف مراتب النبي ﷺ ومراتب الوحي ويبلغون عليا ﷺ جميع ذلك بالنبي ﷺ فيقع هذا الوحي عليه، كما ذكرنا قبل هذا في مشاعره طنينا في أذنه ووقعا في قلبه كما سمعت من معرفته بلغاتهم وصفاتهم وأسمائهم ووطئهم.

وهذا معنى قولنا: أنها كلها كتب ملئت علما للأئمة عليهم السلام يقرأونها ويعملون بما فيها مما كتب الله من أوامره ونواهيه وهو تأويل قوله تعالى(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ)فـ(النَّحْل) الأئمة عليهم السلام وأمير النحل علي عليه السلام والاتخاذ هو النظر لاستنباط الحكم، و(الجِبَال) جمع جبل على ظاهر التأويل وهي الأجسام والأجساد أو جمع جبلة، وهي الطبيعة على ظاهر الظاهر من التأويل وهي الأشباح (بُيُوتًا) وهي أفراد الموضوعات من جميع ذرات الوجود، و(الشَّجَرِ)النفوس في تطوراتها ومقارناتها في تعلقاتها وارتباطاتها وأنظارها ومما يعرشون من أشباحها الظاهرة في الجبال والباطنة في مقدم الخيال، وأكل الثمرات استخراج أحكام تلك الموضوعات وسلوك السبل هدايته سبحانه لهم وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون بفضله عليهم صلى الله عليهم وتذللهم صدق عبوديتهم في علمهم بالله وبونهم مما سواه ودنوهم منه بلا إشارة ولا كيف وخروج الشراب من بطونها نطقهم، عما في قلوبهم من العلوم وكون تلك العلوم مختلفة صفاتها أنها يجمعها اسم العلم ولهذا أفرد الشراب ولكن صفاته باعتبار مقامات التعلقات من الموضوعات ومن الأوقات والأشخاص وجهات المصالح وأحوال التكاليف (مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) أي صفاته، فمنه أسرار مكتومة وأنوار مخزونة وأمور مجملة ومفصلة وباطنة وظاهرة ومداراة وتقية وبنسبة حال المكلف وبنسبة حال بعض المكلفين لكل المكلفين وحكم على النظائر وعلى المتعارف وعلى جهة الأغلبية وعلى أن العلل أسباب في حال ومعرفات في حال، وعلى حكم قواعد كلية لغوية وعلى استثناء

البعض وعلى حكم قواعد كلية عرفية وعلى حكم قواعد كلية شرعية، وعلى مقتضى الأسباب والموانع والمقتضيات وعلى حكم التذكر في التذكر والنسيان أو في التذكر دون النسيان وعلى معذورية المكلف الجاهل، وعلى عدم معذوريته وعلى حكم الاستمرار أو في الوقت أو في العمر.

وأمثال ذلك مما يطول ذكره من اختلاف ألوان العلوم وكله في الحقيقة راجع إلى اختلاف الموضوع لذاته أو من حيث اختلاف قيوده التي بني الحكم على جهتها وأمثال ذلك.

ومن المراد بالمظهرين (لأمر الله ونهيه)، أنهم يبلغون المكلفين أوامر الله ونواهيه لأنهم قد أظهروا من كتم فعله سبحانه إلى الخلائق على نحو ما ذكرنا قبل هذا في بيان ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ، ومنه أيضا أنهم المظهرون لأمر الله ونهيه أنهم يحكمون بحكم الله ويفعلون ما أمرهم الله ولا يخشون أحدا إلا الله.

فإن قلت: أنهم كثيرا ما يتقون ويأمرون شيعتهم بذلك وقد قالوا عليهم السلام (من لا تقية له لا إيمان له).

قلت: أنهم عليهم السلام إنما يتقون في المواضع التي أمروا فيها بالتقية فهم في تلك الحال يعملون بأمره تعالى لا لأجل الاتقاء وإنما أمرهم الله بذلك ليحفظ بذلك أنفسهم ولتتعلم شيعتهم من فعلهم، ولأن حكم التقية أحد أحكام الله في المسألة وإنما يخالف حكم حال عدمها كما يخالف حال المريض المكلف بالصلاة جالسا وكلاهما حكم الله.

اختلف ظهوره وتغايره باختلاف الموضوع فكذلك حكم التقية وحكم عدمها وإنما هو حكم الله تعالى وهو نور واحد يتلون على حسب قوابله ولله

تعالى في ذلك الاختلاف، وإن كان باختلاف أحوال المكلفين حكمة بالغة يختبر بها العباد ليميز المطيع لأمره، والمخالف لما أراد وعنده جل وعلا مقامات ومنازل من الثواب لا تنال إلا بذلك، ومع ذلك فلا ينافي كونهم المظهرين لأمر الله تعالى لأن حكم التقية من أمر الله الذي يجب عليهم إظهاره وبيانه.

ومنه أيضا أنهم هم الذين أظهروا الإيمان والإسلام اللذين هما داران لأمر الله ونهيه، ولولاهم لم يبق لهما اسم ولا رسم فإن الإسلام منخفض وهما رفعوا أعلامه والإيمان مضمحل وهم أسسوا أحكامه وأمر الله طلبه الفعل لذاته من المكلفين بمعنى أن جميع أفراد ذلك المأمور به كل فرد منها توجد فيه العلة الغائية التي لأجلها كلف المكلف بها ولا يدخل فيه المندوب لأنه طلب الله فعلا من المكلف قد توجد فيه العلة، وقد لا توجد فالفعل يطلب لغيره بمعنى أنه لا توجد العلة التي لأجلها طلب الفعل في كل فرد بل قد توجد وقد لا توجد، فكان الطلب لغيره وهو طلب بالعرض فالأمر هو الطلب المعروف المقتضي للوجوب، والمندوب طلب غير الأمر المعروف وصورة اللفظ فيهما واحدة فإذا وردت الصورة المعلومة عارية عن جميع القرائن حملت على الوجوب للأصل والأمر بها عليه البيان والتعريف والتعليم، فقد جعل أمره واجبا وإذا لم يرد الوجوب نصب له قرينة من قول أو تقرير أو عمل أو إجماع كما لو أمر بتركه أمرا لا يدل على النسخ وانقضاء مدته أو تركه المكلف بمشهد منه وقرره عليه أو أنه عليه السلام لم يفعل في وقت ما أو ينص على ندبيته أو تحقق إجماع على عدم وجوبه من جماعة الإمام عليه السلام فيهم بذلك القول، وليس من هذا ابتداء ما ثبت وجوبه ونسخ الوجوب خاصة لا رفع الحكم بكليته لأن ذلك الوجوب كما قالوا: طلب الفعل

والمنع من الترك ونسخ الوجوب خاصة عبارة عن رفع المنع من الترك فيبقى مطلق الطلب وحده وهو معنى الندب فإنه طلب فعل لا يمنع من تركه وهذا وإن كان بعد تفكيكه يكون من الندب، لكن ليس ابتداء والكلام في الطلب الابتدائي هل هو اثنان أم واحد.

فعلى القول بأنه واحد فالفارق بين الوجوب والندب القيد فالطلب مع استحقاق المدح واجب ومع عدمه ندب ويلزم من هذا القول أن المادة واحدة والتعدد إنما هو بالصورة وهو القيد وفيه لزوم الاتحاد، وكون التعريف لهما رسميا وهما ممنوعان أما منع الاتحاد فواقع وقد حققناه في محله وأما منع التعريف فعند من يدعي فيه الحقيقي والمنع راجع إلى دعواه لأنه ادعى الحقيقي في حد رسمي وإلا فلا منع في دعوى الرسمي، وإن أمكن الحقيقي بعبارة أخرى كما ذكرناه في شرح التبصرة للعلامة ﷺ ، وعلى القول بأنه اثنان فكل مادة لها صورة خاصة بها.

وفي قول أهل الأصول هنا تناقض وتهافت كثير ولسنا بصدد ذلك لطول الكلام في بيان ذلك وتصحيحه والإشارة إلى بعض ذلك هو أن من قال بالتعدد منهم بنى دعواه على أن الأمر للوجوب ولا يكون المندوب مأمورا به لا أنه عنده ليس بمطلوب ووجه التهافت أنه جعل حقيقة الطلب الواجب غير صالح للمندوب لا لملاحظة قيده الذي تقوم به وهو المنع من الترك ليتميز عن طلب المندوب بقيده وإلا لزم أن يكون معنى قولهم: أن المندوب غير واجب، وليس كذلك بل يريدون أنه لم يؤسس بالأمر ولا أمر عندهم إلا الطلب المقترن بالمنع من تركه أو يلزمهم أن المندوب غير مطلوب أو تحقق الأمر بلا منع من الترك،

ويلزمهم أن المندوب مأمور به ولا فائدة في التطويل والبيان هنا والحق أن طلب الواجب طلب ذاتي صورته النوعية المنع من الترك والشخصية استحقاق المدح بفعله والذم بتركه وأن كان يمتزج بالرسم فإن الظاهر رسم الباطن وإن طلب الندب طلب عرضي صورته النوعية جواز الترك والشخصية عدم استحقاق المدح على الفعل والذم على الترك والحرام والمكروه على نحو ما سمعت.

والمباح هل هو ما لم يتعلق به طلب أو ما تعلق به طلب تسوية بين الفعل والترك هو حكم أم هو إرشاد وبيان أم هو للتوسعة على المكلفين أو لتمييز (لتميز) ما يتعلق به أحد الأربعة الواجب والحرام والندب والكراهة أم تعلق به في نفسه أنه أحد الأربعة قبل الخطاب به، يعني أن المباح قبل الخطاب به في نفسه منه واجب ومنه مندوب ومنه حرام ومنه مكروه، وبالنسبة إلى المكلفين مباح حتى يرد التكليف به.

وعلى الثاني هل التعلق به في ذاته أم بالمكلفين بالنسبة إليه احتمالات والذي عندي أن كل شيء تعلق به طلب وإن الطلب المتعلق به في نفسه قبل التكليف به على مقتضى أحد الأربعة، وإن إباحته مطلقا على المكلفين قبل توجه الخطاب إليهم به من باب التوسعة عليهم حتى يرد الخطاب قال النَّبِيِّ ﷺ (النَّاسُ فِي سَعَةٍ مَا لَمْ يَعْلَمُوا).

وقال أبو جعفر عليه السلام (ليس على الناس أن يعلموا حتى يكون الله هو المعلم لهم فإذا علمهم فعليهم أن يعلموا). وقال تعالى(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ)، والأمر والنهي يستعملان كناية عن آثار السلطنة والولاية والربوبية. يقال فلان ولي الأمر والنهي، يعني أنه المتصرف المتسلط

(والمتسلط) وله الحكم وبهذا المعنى أمر الله ونهيه كناية عن حكمه وتسلطه وأخذه بنواصي خلقه وكون الأئمة عليهم السلام المظهرين لأمر الله ونهيه أن عظمة الله وتسلطه على خلقه وأخذه بنواصيهم لا يعرف أحد من الخلق شيئا من ذلك إلا بتعليمهم وتبيانهم وإرشادهم فهم المظهرون لتلك الربوبية في كل مرتبة من مراتب الوجود، أعلاها أنهم هم تلك الربوبية والعظمة ثم هم حملة تلك الربوبية والعظمة ثم هم مفاتيح تلك الربوبية والعظمة ثم هم المنفقون من تلك الخزائن بأمر الله، ثم هم المعينون للسائلين على قبول تلك العطايا والخيرات في الأحكام الوجودية، ثم هم المعلمون لحقائق تلك الأحكام الوجودية، ثم هم العاملون لتلك الوجودات الأحكامية وكل بأمر الله(لِيَجْزِي اللهُ كُل نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ).

وأيضا كونهم المظهرين لأمر الله ونهيه أنهم هم العظمة الظاهرة بأمر الله سبحانه يعني أظهرهم الله لخلقه ليستدلوا بهم عليه من تأويل قوله تعالى(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ)فقوله(آيَاتِنَا) هم عليهم السلام وقوله تعالى(وَفِي أَنفُسِهِمْ) ما ظهر للخلق في ذواتهم من عظمته الذي هو نورهم عليهم السلام أو آيات عظمتنا في أنفسهم وهم أي الأنفس الأئمة عليهم السلام فظهروا لذلك بإظهار الله عظمة لا تتناهى في الإمكان فبالله هم المظهرون لعظمة الله التي هي أمر الله ونهيه أو فبالله هم المظهرون لأمر الله ونهيه اللذين هما عظمته وآثار تسلطه ومنه أيضا أنهم المظهرون لأمر الله ونهيه أن أمر الله تعالى ونهيه في العلم والحكم والتبليغ والإنذار والإعذار، وفي العمل لا يظهران إلا منهم وعنهم وفيهم وبهم ولهم أما أنهما منهم فلأنهم سر الأمر والنهي بمعنى أنهم محالهما وخزائنهما ومفاتحهما ومظهروهما.

وأما أنهما عنهم فلأنهما صدرا عنهم وعن جدهم ﷺ لقوله تعالى حكاية عن نبيه ﷺ (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ)أي ومن بلغ منهم أن يكون إماما ينذرهم به ، وأما أنهما فيهم فلأنهم خزائنهما في الصدور وفي التقوم وفي التعلق.

وأما أنهما بهم فلأن أعمال العاملين من جميع الخلائق إنما هي بوجودهم وبأمرهم وتعليمهم وهدايتهم، وأما أنهما لهم فلأن جميع الأعمال الصادرة من الخلائق عن الأوامر والنواهي موافقة ومخالفة آثار سلطانهم إثباتا ونفيا وألسنة ممادحهم والثناء عليهم بكل لسان طائع وعاص فكل طائع يصلي عليهم ويتبرء من أعدائهم وكل عاص يقر بفضلهم ويلعن أعداءهم وهم لا يشعرون وهو تأويل قوله تعالى(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ).

وفي الزيارة الجامعة الصغيرة (مُقِرٌّ بِرَجْعَتِكُمْ لا أُنْكِرُ للهِ قُدْرَةً وَلا أَزْعُمُ إلا مَا شَاءَ اللهُ سُبْحَانَ اللهِ ذِي المُلكِ وَالمَلَكُوتِ يُسَبِّحُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ جَمِيعُ خَلقِهِ وَالسَّلامُ عَلى أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ وَالسَّلامُ عَليْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ).

وفي الكافي بسنده عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِاللهِ الدِّهْقَانِ قَال (دَخَلتُ عَلى أَبِي الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام فَقَال لِي مَا مَعْنَى قَوْلهِ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلى قُلتُ كُلمَا ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ قَامَ فَصَلى فَقَال لِي لقَدْ كَلفَ اللهُ عَزَّ وَجَل هَذَا شَطَطاً فَقُلتُ جُعِلتُ فِدَاكَ فَكَيْفَ هُوَ فَقَال كُلمَا ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ صَلى عَلى مُحَمَّدٍ وَآلهِ)هـ. فتدبر إشارته عليه السلام.

وروي في تفسير قوله تعالى(يُسَبِّحُونَ الليْل وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)ما معناه كيف لا يفترون وقد قال الله تعالى(إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيِّ)قال عليه السلام ما معناه (لما خلق الله محمدا وآله ﷺ ، قال: لملائكته نقصوا من ذكري بقدر صلواتكم على

محمد وآل محمد فإذا قال الرجل: اللهم صلي على محمد وآل محمد فقد سبح الله وهلله ومجده).

وروى الكليني عن رجاله عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَل (وَللهِ الأَسْماءُ الحُسْنى فَادْعُوهُ بِها) قَالَ (نَحْنُ وَ اللهِ الأَسْماءُ الحُسْنَى التِي لا يَقْبَل اللهُ مِنَ العِبَادِ عَمَلًا إلا بِمَعْرِفَتِنَا)، فافهم وتفهم ما أشاروا إليه ولا تفزع مما تسمع بعدما قالوا عليهم السلام (اجعلوا لنا ربا نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا) الحديث.

قوله عليه السلام وعباده المكرمين

قال الشارح رحمه الله: مشددا ومخففا، كما قال تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)أي هذا النوع بوجود الأنبياء والأوصياء.

أقول: أما كونهم عبادا فهذا مما لا يتوقف فيه إلا القوم الكفار وحشو النار الذين غلوا فيهم ورفعوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها وهؤلاء الغلاة وهم في غلوهم على أقسام: فمنهم من يدعي أنهم عليهم السلام يعلمون الغيب والعلماء ردوا عليهم وكفروهم من وجوه أحدها من الروايات المتكثرة :

منها ما خرج عن صاحب الزمان عجل الله فرجه ردا على الغلاة (يا محمد بن علي تعالى الله وجل عما يصفون سبحانه وبحمده ليس نحن شركاؤه في علمه ولا في قدرته بل لا يعلم الغيب غيره كما قال تعالى في محكم كتابه تباركت أسماؤه (قُل لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ) وأنا وجميع آبائي من الأولين آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من النبيين ومن الآخرين محمد رسول الله وعلي بن

أبي طالب والحسن والحسين وغيرهم ممن مضى من الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين إلى مبلغ أيامي ومنتهى عصري عبيد الله عز وجل يقول الله عز وجل (مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمى قال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قال كَذلكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلكَ اليَوْمَ تُنْسى) يا محمد بن علي قد آذانا جهلاء الشيعة وحمقاؤهم ومن دينه جناح البعوضة أرجح منه فأشهد الله الذي لا إله إلا هو وكفى به شهيدا و رسوله محمد ﷺ وملائكته وأنبياءه وأولياءه عليهم السلام وأشهدك وأشهد كل من سمع كتابي هذا أني بريء إلى الله و إلى رسوله ممن يقول إنا نعلم الغيب و نشاركه في ملكه أو يحلنا محلا سوى المحل الذي رضيه الله لنا وخلقنا له أو يتعدى بنا عما قد فسرته لك وبينته في صدر كتابي وأشهدكم أن كل من نبرأ منه فإن الله يبرأ منه وملائكته ورسله وأولياؤه وجعلت هذا التوقيع الذي في هذا الكتاب أمانة في عنقك وعنق من سمعه أن لا يكتمه لأحد من موالي وشيعتي حتى يظهر على هذا التوقيع الكل من الموالي لعل الله عز وجل يتلافاهم فيرجعون إلى دين الله الحق وينتهون عما لا يعلمون منتهى أمره ولا يبلغ منتهاه فكل من فهم كتابي و لا يرجع إلى ما قد أمرته ونهيته فقد حلت عليه اللعنة من الله و ممن ذكرت من عباده الصالحين).

أقول: والأحاديث في هذا المعنى متواترة معنى لا يمكن ردها.

وأما من يميل إلى القول بعلم الغيب فيهم عليهم السلام فإنه لا يردها وإنما يأولها واختلف العلماء في تأويلها وفي الجمع بينها وبين ما يدل بظاهره على أنهم يعلمون الغيب، وهي أيضا كثيرة جدا ممن لم يقل بعلم الغيب فيهم فالأولون حملوا الغيب الذي لا يعلمونه على الغيب الأزلي الذي هو الذات جمعا وهذا خطأ لأن الدليل

القطعي عقلا ونقلا قد دل على أنهم مخلوقون مربوبون لا قيام لوجودهم إلا بالمدد الدائم من فيض القديم الكريم الدائم، ولا ريب أن ذلك المدد حادث ولا يمدون بما وصل إليهم وإنما يمدون بما لم يصل إليهم وهذا المدد قبل أن يصل إليهم لا يعلمونه قطعا وإلا لكان قد وصل إليهم قبل أن يصل إليهم وهذا باطل فكيف يصح أن كل ما سوى الذات يعلمونه كيف وقد قال سيدهم وأفضلهم وأعلمهم ﷺ عن أمر ربه له (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا)فهل يسأل الله أن يزيده من الأزل أم يزيده من العلوم الممكنة، وهل يسأله أن يزيده مما علمه أم مما لا يعلمه وهل يعلمون ما لا يعلمه رسول الله ﷺ الذي هو واسطة بين الله وبينهم الذي هو مدينة العلم، وأيضا العلم منه ما هو بالمستقبل ومنه ما هو بالحال ومنه ما هو بالماضي فإذا ادعيتم علمهم بالماضي وبالحال حال السؤال قلنا: إن الأدلة العقلية والنقلية تساعدكم ولكن العلم بالمستقبل لا تساعدكم عليه الأدلة وذلك لأنهم إذا علموا بشيء سيكون قبل أن يكون هل كان بعلمهم واجبا لا تتعلق به القدرة ولا يمكن فيه أو كان بعلمهم مستحيلا كذلك فإن قلت: كان ممكنا وإن علموا به قلنا لله فيه البداء أم لا فإن قلت ليس لله فيه البداء عارضتك الأدلة العقلية والنقلية، وإن قلت لله فيه البداء فكيف يعلمون شيئا يجوز لله أن يغيره كيف شاء فهذا معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام لميثم التمار (لو لا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وبما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة وهي هذه الآية(يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ).

فإن قيل: إن الأدلة الدالة على علمهم بكل شيء واردة عنهم كلها بألفاظ العموم من غير استثناء.

قلنا حق ولكن العموم في كل الأدلة عموم عرفي ولا يقال أنه على خلاف أصل الاستعمال لأن الاستعمال أعم من الحقيقة والأدلة القطعية المخصصة صارفة إلى المجاز فيجب المصير إليه للدليل .

والآخرون حملوا الأحاديث الدالة على علم الغيب على وجوه منهم من قال: إنهم عليهم السلام يعلمون كل ما سوى الأمور الخمسة التي دلت النصوص على أن الله تفرد بها وهي ما في الآية (إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)ومرادهم هذا ليس بصحيح لوجوه.

الأول: أن أشياء كثيرة أخبروا بأنهم لا يعلمونها وليست من هذه الخمسة على مرادكم.

الثاني: أن هذه الخمسة إذا تتبعتها رأيت كل الغيب منحصرا فيها أو راجعا إليها، فإن عنيتم خصوص ظاهرها صدق عليهم أنهم يعلمون الغيب ولا يضرهم جهل هذه الأشياء القليلة كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود فإنه يقال له أسود ولا يضره وجود شعرة واحدة مخالفة، وإن عنيتم معناها وما يؤول إليها كان كثير من الخلق مثلهم فإن أصحاب النجوم والرمالون والجفريون والجوكية والكهنة وأهل القيافة وزاجروا الطير وغيرهم يعلمون أكثر من هذا بل قد يعلمون هذه الخمسة أو بعضها وإن كان قد يقع الخطأ في بعض الأشياء النادرة وبيان هذه الأمور يطول به البحث والغرض الإشارة إلى وجه الدليل.

الثالث: أنهم عليهم السلام كثيرا ما أخبروا به من هذه الخمسة ومن تتبع أحاديثهم تبين له ذلك بل رواه العامة المنكرون لفضلهم عليهم السلام .

منهم من قال أنهم عليهم السلام لا يعلمون كل شيء، فلهذا قلنا: إنهم لا يعلمون الغيب وان علموا الأكثر لأنا لا نريد بعلم الغيب إلا العلم بكل شيء وهذا لا يحصل لغير الله.

أقول وهذا أيضا ليس بشيء لأن التخصيص بالكل ليس شرطا في الصدق ولا في التسمية لا لغة ولا شرعا ولا عرفا ولا دليل على شيء من هذا لا من جهة العقل ولا من النقل ولا في اللغة.

ومنهم من قال: إن المراد بعلم الغيب هو أن يعلم من نفسه بغير آلة ولا معلم وهم لا يعلمون من أنفسهم وإنما يعلمهم الله سبحانه فلا يعلمون الغيب لذلك ولا يصح إطلاقه عليهم لذلك وهذا ليس بشيء أيضا لأن كل من يدعي لهم علم الغيب من المسلمين لا يدعي أن ذلك ليس من الله إلا الذين يقولون: إنهم أرباب وليسوا بحادثين ولا يرجعون إلى رب هؤلاء لا جواب لهم(فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)، ومن يدعي بأنهم يعلمون الغيب يقول إنهم مخلوقون ويستدل بقوله تعالى(عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا فأخبر أن من ارتضاه من رسله يظهرهم على غيبه فنسب إليهم الغيب وهو قد أظهرهم عليه.

هذا في تفسير الظاهر وفي الباطن من التأويل المرتضى من محمد صلى الله عليه وآله هو علي عليه السلام والمعنى واحد وكذلك قوله (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلى الغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء)يعني فيطلعهم على الغيب هذا في تفسير(التفسير) الظاهر وفي الباطن في التأويل والمجتبى من محمد علي، والمعنى واحد والنصوص من الكتاب والسنة لا تحصى بكونهم يخبرون بالغيب مثل قول يوسف الصديق عليه السلام

(قَال لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْل أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَمَنِي رَبِّي)وقال في حق عيسى عليه السلام (وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)وهذا كثير وقد سمي هذا غيبا ولا شك فيه وهو من تعليم الله سبحانه.

ومنهم من قال إنهم لا يعلمون شيئا قليلا ولا كثيرا وإنما ذلك وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ليس بشيء على مرادهم من أن هذا لا يصلح ولا يصدق على مثل ذلك علم الغيب. وإنما علم الغيب الذي يعلم شيئا لم يوقف عليه، وقد أشرنا إلى رد هذا بأن هذا الاشتراط لا أصل له فإن الغيب والشهادة يراد بهما عالم المحسوسات وما غاب عن الحواس فمن علم بما غاب عن الحواس فقد علم بشيء من الغيب ولهذا قال سبحانه وتعالى(عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ).

والذي يعتقده الفقير المقر بالقصور والتقصير فاستمع لما يوحى إليك من أنباء الغيب ولا ينبئك مثل خبير هو أنهم عليهم السلام يعلمون ما اشتمل عليه الكتاب وهو علم جم قال تعالى(وَكُل شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)، وقال تعالى(مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ)، وقال تعالى(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيل كُل شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

وظاهر هذه الآيات الإحاطة بكل شيء وليس كذلك بل الأشياء منها ما كان ومنها ما يكون ومنها المحتوم ومنها المشروط ومنها الموقوف.

فأما ما كان فإن الله سبحانه قد أطلعهم على جميعه بواسطة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا احتمال في أنه كان.

وأما أنه يبقى أو يتغير فعلى أقسام منه ما أخبرهم الله تعالى بأنه لا يتغير أبدا، وأنه ليس في عالم الغيب والشهادة له مقتضى التغيير وأخبرهم تعالى بأنه إذا

شاء أن يغيره سبب له المقتضيات كما يشاء فغيره كيف يشاء لأن ذاته سبب من لا سبب له وسبب كل ذي سبب، ومسبب الأسباب من غير سبب فهم يعلمون بقوله: أن له أن يغيره إن شاء ولا يعلمون هل يشاء تغييره أم لا وهم من خشيته مشفقون ويعلمون أنه لا يتغير ركونا إلى قوله وتصديقا بوعده(وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)في الحالين وقد قال تعالى(فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)وتدبر في سر قوله تعالى(عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْل وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ).

فمن تصديقهم بوعده وثبات ركونهم إلى قوله هم عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ومن علمهم أن كل هذه أشياء ممكنة لا تخرج بالوعد عن الإمكان الذاتي فإنه لو شاء أن يغيرها غيرها كيف شاء(وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ).

وقد روي عن الصادق عليه السلام ما معناه أن النبي إلياس عليه السلام سجد وبكى وتضرع فَأَوْحَى اللهُ إِليْهِ أَنِ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَإِنِّي غَيْرُ مُعَذِّبِكَ قَال فَقَال إِنْ قُلتَ لا أُعَذِّبُكَ ثُمَّ عَذَّبْتَنِي مَاذَا أَ لسْتُ عَبْدَكَ)، ودعاء علي بن الحسين عليهما السلام في السجود بعد صلاة الليل الذي أوله (إلهي وعزتك وجلالك وعظمتك لو إني منذ بدعت فطرتي من أول الدهر عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين)إلى آخر الدعاء.

وقد تقدم فتدبره تجده شاهدا بما نقول وإن كان معناه لا تدركه العقول وإنما تعرفه الأفئدة وفي قوله تعالى(وَلئِن شِئْنَا لنَذْهَبَنَّ بِالذِي أَوْحَيْنَا إِليْكَ)قال عليه السلام ما معناه أنه لو شاء ذلك لفعل ولكنه لا يفعل ذلك به أبدا.

وبيان هذا الحرف بالضرورة أنهم ممن وعدهم النجاة وأنهم إلى رضوانه

صائرون البتة فإذا كان كذلك فلم يخافون خوفا لا يكون من أحد من الخلق وهم يعلمون عن قوله إنهم مقربون مرضي عنهم بل ما خلق الجنة والرضوان إلا لهم ولأتباعهم فافهم إن كنت تفهم.

ومنه ما أخبرهم الله بأنه يتغير وله ألا يغيره فيحكمون بقول الله إنه يتغير ويعلمون عن تعليم الله لهم أن بيده ملكوت كل شيء فإذا شاء عدم تغييره فعل ولا راد لإرادته ولا معقب لحكمه.

ومنه ما أخبر بأنه لا يتغير ولم يحتم لهم بأن يطلعهم على انتفاء مقتضى التغير في الشهادة، وإن دل إخباره لهم وللملائكته على انتفاء مقتضى التغير (التغيير)في الغيب لأنه إذا أخبر أنبياءه ورسله فإنه لا يكذب نفسه ولا يكذب المخبرين عنه بالصدق فيخبرون عنه سبحانه بأن هذا الشيء ثابت ولله البداء في ما شاء فإنه يمحو ما يشاء ويثبت.

وأما ما يكون فما أخبرهم الله بأنه سيكون حتما على صفة كذا لا مانع له في الغيب من أسباب القدر من متممات قوابل الوجود ومشخصات التقدير ولا مانع له في الشهادة من أسباب القضاء من متمماته كذلك كالدعاء والصدقة والبر، وعدمها سابقة على القضاء بالإمضاء بل ولاحقة لأن اللاحقة زمانا قد تكون سابقا دهرا بل ربما يكون اللاحقة بالفعل والسابقة بالقوة، ولا ريب أن ما بالفعل سابق دهرا على ما بالقوة وإن تأخر زمانا فما كان كذلك فإنه سيكون ويعلمونه قطعا ويعلمون أن ذلك خلق الله وفي قبضته فهو كما مر.

ومنه ما أخبرهم أنه سيكون، ولم يحتم لهم بكشف الحال في الغيب والشهادة فهذا كحكم (الحكم) ما كان في عدم تغيره (تغييره) مع عدم الحتم كما تقدم.

ومنه المحتوم وهو كما مر.

ومنه المشروط ويعلمون أنه يجوز أن يقع شرطه وألا يقع وما وقع شرطه يجوز ألا يقع لإيجاد مانع أقوى أو لمنع ذاته جل وعلا وإن كان لازم الوقوع مع عدم المنع ومع وجود الإذن إذ بدون الإذن بل الأسباب السبعة المشية والإرادة والقدر والقضاء والإذن، والأجل والكتاب لا يكون فلا يكفي حصول الأسباب في الوجود بدون الإيجاد من الفاعل انظر إلى قوله تعالى(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)وإلى قوله تعالى(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا)ويجوز أن يقع لما يشاء من الأسباب والمتممات من المشخصات فإذا حصلت الأسباب السبعة الفعلية المشية وما بعدها، والقابلية ومتمماتها السبعة الكم والكيف والجهة والوقت والرتبة والمكان والوضع فإذا اجتمعت العلوية والسفلية أوجد بفضله ذلك الشيء إن شاء، فأمّ الكتاب الذي لا محو فيه ولا تغيير هو كون الشيء حين كونه وأما قبله وأما بعده فهو الذي فيه المحو والإثبات لا أنه المثبت والممحو كما يتوهمه من لا بصيرة له في الدين فإن ذلك مما يجوز فيه المحو والإثبات والله على كل شيء قدير، وهذا أيضا يعلمونه على نحو ما سمعت.

ومنه الموقوف على المشية فإن شاء الله إيجاده وجد وإلا فهو باق فيما شاء الله إمكانه ولا شيء غير الله إلا ما شاء إمكانه ولا يشاء إيجاد ما لم يشأ إمكانه، إذ ليس شيئا غيره سبحانه وتعالى.

ثم إن المعلوم والعالم من كل شيء سواه سبحانه لا قوام له إلا بأمره ولا وجود له إلا عن مشيته وليس له حالة غير هذه الحالة التي هي حالة الفقر إلى الله تعالى وليست الأسباب أسبابا إلا بالله تعالى، بمعنى أن الأسباب إنما تفعل بفعل الله

تعالى بها فإذا حدث مسبب عن سبب فما الله أحدثه به وهو سبحانه أقرب إليه منه في كل حال لا فرق في ذلك بين الذات والصفة والاتصاف والتلازم والتقارن.

فإذا فهمت هذا فاعلم أنهم عليهم السلام عباد مكرمون لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى كل شيء بخصوصه فما خصصه لهم خصصوه بتخصيصه لهم، وما أجمله لهم لا يستطيعون تخصيصه بل ما خصصه لهم ولا يستطيعون إجماله إلا به سبحانه.

فإذا أعلمهم بشيء في آن لا يستطيعون أن يعلموه في آن آخر إلا بتعليم منه جديد، كما في الآن الأول بنسبة واحدة فهم عليهم السلام فيما سمعت وسائر الناس سواء ولكنه سبحانه دعاهم فأجابوا كما دعاهم ولم يتخلفوا عن دعوته طرفة عين فاجتباهم بعلمه واختارهم لما هم أهله فأدمنوا ذكره ومجدوا شأنه وأعلنوا دعوته فعلمهم على نحو ما سمعت ما لم يكونوا يعلمون وكان فضل الله عليهم عظيما.

ولما كان صنعه جل وعلا للأشياء على حسب مقتضى قابلياتها كان ما علمهم من العلوم لا يتناهى بالنسبة إلى من سواهم بمعنى أن من سواهم ليس في وسعهم أن يتحملوا ما تحملوا عليهم السلام وإن علمهم الله إلا أن يقلب حقائقهم ويجعلهم كآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو قادر على ذلك فإن كان ذلك القلب بحكم المقتضى الذي هو مقتضى القابلية الجاري على الاختيار لم يكن ذلك المجعول إلا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان ذلك الجعل بمقتضى القدرة لا غير تصادمت الحكم وعلا بعضهم على بعض وفسد النظام فلا يمكن لأحد من الخلق أن يتحمل ما تحملوا.

والحاصل أنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله سبحانه وتعليمه في كل آن فلو لم يعلمهم في آن ما كان عندهم شيء ولا يعلمهم الله إلا بواسطة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو قولهم الحق.

كما في الكافي عَنْ زُرَارَةَ قَال (سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ ﵇ يَقُول لوْلا أَنَّا نَزْدَادُ لأَنْفَدْنَا قَال قُلتُ تَزْدَادُونَ شَيْئاً لا يَعْلمُهُ رَسُول اللهِ ﷺ قَال أَمَا إِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلكَ عُرِضَ عَلى رَسُول اللهِ ﷺ ثُمَّ عَلى الأَئِمَّةِ ثُمَّ انْتَهَى الأَمْرُ إِليْنَا).

أقول: يريد بالأئمة ﵈ من قبله علي والحسن والحسين ويحتمل وعلى القائم كما هو الظاهر لأن الترتيب على حسب الشرف والرتبة في المكانة والتقدم الذاتي لا التقدم الظاهري، ثم بعد القائم ﵇ عليهم وقوله ﵇ إِليْنَا، يريد الأئمة الثمانية لتساوي رتبتهم فى الفضل ويحتمل مراعاة تقدم الأبوة.

ومثله عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ﵇ قَال (ليْسَ يَخْرُجُ شَيْ ءٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَل حَتَّى يَبْدَأَ بِرَسُول اللهِ ﷺ ثُمَّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﵇ ثُمَّ بِوَاحِدٍ بَعْدَ وَاحِدٍ لكَيْلا يَكُونَ آخِرُنَا أَعْلمَ مِنْ أَوَّلنَا)هـ.

وإذا أراد الله أن يعلمهم شيئا فتح لهم باب خزانة العلم بهم فعلموا ما شاء الله ويحجب عنهم ما شاء وأعطاهم الاسم الأعظم وهو مسمى بسم الله الرحمن الرحيم فإذا شاؤوا أن يعلموا شيئا علمهم الله، وهو قول أَبِي عَبْدِ اللهِ ﵇ قَال (إِذَا أَرَادَ الإِمَامُ أَنْ يَعْلمَ شَيْئاً أَعْلمَهُ اللهُ ذَلكَ). فقد ظهر لك أنهم يعلمون علما جما وأنهم لو لم يزدادوا لأنفذوا (لأنفدوا) وأنهم أبدا يستمدون ولا يستمدون إلا مما لا يعلمون وقد أشرنا لك أن ما لا يعلمونه على وجهين أحدهما هذا، والثاني ما علموه في آن لا يعلمونه في آن آخر إلا بتعليم جديد فافهم وتثبت ثبتك الله.

وقد تقدم أن الغيب هو ما غاب عن الحواس الظاهرة والشهادة هو ما أدركته الحراس الظافرة، فإذا قلت: لا يعلمون الغيب صدقت لأنهم لا يعلمون شيئا إلا بتعليم الله على نحو ما ذكرت وإن قلت يعلمون الغيب وتريد ما غاب عن

الحواس الظاهرة يعلمون منه ما علمهم الله خاصة صدقت ولا عيب في شيء من ذلك وعلى هذا المعنى تحمل النصوص الدالة على علمهم بالأمور المغيبة والمستقبلة قبل أن تقع لأنهم إذا شاؤوا علمهم الله.

وفي الكافي عَنْ مُعَمَّرِ بْنِ خَلادٍ قَال (سَأَل أَبَا الحَسَنِ عليه السلام رَجُلٌ مِنْ أَهْل فَارِسَ فَقَال لهُ أَ تَعْلمُونَ الغَيْبَ فَقَال قَال أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام يُبْسَطُ لنَا العِلمُ فَنَعْلمُ وَيُقْبَضُ عَنَّا فَلا نَعْلمُ وَقَال سِرُّ اللهِ عَزَّ وَجَل أَسَرَّهُ إِلى جَبْرَئِيل عليه السلام وَأَسَرَّهُ جَبْرَئِيل إِلى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وَأَسَرَّهُ مُحَمَّدٌ إِلى مَنْ شَاءَ اللهُ)هـ. وهذا ما نبهتك عليه.

وإن أريد بعلم الغيب أنهم يطلعون بذواتهم على ما غاب عنهم كما يدعونه الغلاة والقشرية من أشباه الناس فهو ما أشار إليه الحجة عليه السلام في التوقيع، المتقدم لأن في ذلك استقلال الحادث ويلزم منه مشاركة الله في ملكه كما ذكره عليه السلام في التوقيع ولا تتوهم أنى جريت على القشر في بيان هذا الأمر بل إنما كشفت لك عن حقيقة الحقائق وأوضحت لك ما أبهم على الجم الغفير من سلوك مستقيمات الطرائق والله خليفتي عليك.

وإنما أطلت الكلام في هذا المقام لعظم الحاجة إليه وقلة العاثر عليه فما سمعت كله معنى عباده وإنما خصصت في هذا المعنى علم الغيب دون سائر معاني العبودية لخفاء مناقضة دعوى علم الغيب للعبودية فافهم.

وقول الشارح: المكرمين مشددا أو مخففا كما قال تعالى(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)أي هذا النوع بوجود الأنبياء والأوصياء.

يحتمل أنه أراد على التشديد الاستشهاد بالآية، يعني أن الله كرمهم لأنهم من بني آدم أو هم المعنيون.

فإن أراد ببني آدم المكرمين أنهم هم كان غير الكثير هو محمد ﷺ خاصة ولكن لا يستقيم له ذكر الأنبياء والأوصياء.

وإن أراد أنهم من بني آدم أمكن تلفيق الاستقامة بصرف الأنبياء المراد منهم محمد ﷺ خاصة إلى غير الكثير بالنسبة إليهم وهو مع الأنبياء بالنسبة إلى غيرهم، وصرف الأوصياء إلى غير الكثير بالنسبة أ إلى غيرهم وفي هذا تكلف وتتعتع ولعله أراد صورة اللفظ خاصة بالتشديد وجعل قوله بوجود الأنبياء والأوصياء والأولياء بيانا لسبب تكريم هذا النوع لا بلحاظ بيان صفتهم عليهم السلام على التشديد.

وقوله u (وعباده المكرمين) مقتبس من قوله تعالى(وَقَالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلدًا سُبْحَانَهُ بَل عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ)إلى آخر الآيات ، وفيها رد على الغلاة بجميع آرائهم.

فمنهم من كان من أهل الكشف والمعرفة يزعم أنه قد تولد من الرحمن من ظهر برحمانيته فهو يعطي كل ذي حق حقه ويسوق إلى كل مخلوق رزقه فرد عليهم من وجوه: منحها قوله سبحانه أي منزه عن الولادة والتولد والتوليد (لَمْ يَلدْ وَلَمْ يُولدْ)وإنما هم خلق مدبرون.

ومنها قال بل عباد أي عباد قائمون بخدمة العبادة ورضى العبودية لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا قد وسموا بالفقر ورسموا بالعجز لا حول لهم ولا قوة إلا بالله دعاهم لما خلقهم له فأجابوه فأكرمهم بإجابته لخدمته.

ومنها لا يسبقونه بالقول لا في عبادته ولا في عبوديتهم ولا في حظوظهم من فيض كرمه ولا في التبليغ لأوامره ونواهيه ولا غير ذلك كما قال لنبيه ﷺ (ليْسَ

لكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ)أي إلا ما قضى لهم فهو يقول وهم يعملون بقوله، أي بإيجاده وبإعطائه وبتعليمه وبأمره ونهيه إلى غير ذلك بل في جميع حركاتهم وسكناتهم واعتقاداتهم وأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، كما قال سيد الشهداء عليه السلام في دعائه يوم عرفة (أم كيف أترجم بمقالي و هو منك برز إليك). وهذا مما نسب إليه من الملحق بدعاء عرفة وكل هذا وما أشبهه من معنى القول الذي لم يسبقوه به وإنما يجرون فيها بما حده لهم. منها وهو قوله تعالى(وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ)وهذا الأمر هو ذلك القول وهم عليهم السلام في كل ما ذكر بل في كل شيء على حد قوله، في أصحاب الكهف(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)هذا بالنسبة إليه وأما بالنسبة إلى ما سواه فهم أيقاظ أي هو أيقظهم فهم بإيقاظه وإشهاده يشهدون كل شيء أراد سبحانه، وفي هذا رد على الغلاة بما لا مزيد عليه.

ومنها (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلفَهُمْ) أي كل شيء من أمره عملوا به فهو يعلمه وهم(وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء)أن يحيطوا به كما شاء.

ومنها(وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لَمِنِ ارْتَضَى) أي لا يرفعون وضيعا ولا يقدمون متأخرا إلا إذا رضي لهم وأذن لهم ممن رضي دينه من شيعتهم ومحبيهم ومحبي محبيهم.

ومنها(وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)، أي أنهم عالمون بالله ولا علم إلا بالخشية قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلمَاء).

وفي الدعاء (لا علم إلا خشيتك ولا حكم إلا الإيمان بك ليس لمن لم يخشك علم ولا لمن لم يؤمن بك حكم)، ففي كل أعمالهم هم عاملون بأمره، وهم خائفون مقامه وجلون من لقائه كما قال تعالى (وَالذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلوبُهُمْ وَجِلةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)، ومنها(وَمَن يَقُل مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلكَ نَجْزِيهِ جهَنَّمَ

كَذَلكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)وقوله تعالى(وَمَن يَقُل مِنْهُمْ..إلخ، له معنى ظاهر ومعنى تأويل فالأول معناه ومن يدعي منهم أني أعمل بغير أمره وقدرته وحوله وقوته مستقلا بشيء جليل أو حقير، فذلك نجزيه جهنم وهذا جار على سبيل الفرض كما قال النبي ﷺ يوم الغدير في خطبته (وَإِنِّي لَمْ أَفْعَل فَما بَلغْتَ رِسالَتَهُ) . وقوله ﷺ فيها (أخاف ألا أفعل فتحل علي منه قارعة لا يدفعها عني أحد وإن عظمت حيلته لأنه الله الذي لا يؤمن مكره ولا يخاف جوره).

وأما الثاني ففيه وجوه.

منها ومن يقل من الناس أن أحدا من الأئمة عليه السلام قال: إني إله من دونه فذلك القائل من الناس (نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ).

ومنها ومن يقل من الناس أني إمام من دون الإمام الحق من الله سبحانه (فَذَلكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ).

ومنها ومن يقل من الناس أن الإمام يسبق الله بالقول أي يقول من دون أن يقول الله أو يعمل بغير أمر الله أو أن الله لا يعلم ما بين يدي الإمام وما خلفه،أو أن الإمام يشفع لمن لا يرتضي الله دينه أو بدون إذنه أو أنهم عليهم السلام لا يخافون منه سبحانه خوفا حقيقيا خوفا من نقمته ومكره عن علم منهم بالله وبمقامه، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين وهم الذين رفعوهم عن مراتبهم التي وضعهم الله فيها أو (و) وضعوهم دون ما وضعهم الله فيه، فإن هؤلاء الفريقين قد وضعوا الشيء بغير موضعه من رفع أو وضع لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهذا معنى ما قاله عليه السلام اقتباسا من القرآن(لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْل وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ) أي يتكلمون بأمره ويسكتون بأمره ويجاهدون بأمره ويتركون الجهاد بأمره ويَقتلون ويُقتلون بأمره صلى الله عليهم أجمعين.

قال عليه السلام الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون

قد تقدم قبل هذا في شرح (وعباده المكرمين) ما يكفي في الإشارة إلى معناه فلا يحتاج إلى إعادته.

قال عليه السلام ورحمة الله وبركاته

عطف على (السلام على الدعاة إلى الله) إلى قوله(وعباده المكرمين..إلخ.

بمعنى أن تلك الأوصاف محفوظة عليهم من الله محفوفة برحمة الله مغشاة ببركاته في كل حال من أحوالها بنسبته.

قال عليه السلام السلام على الأئمة الدعاة

الأئمة: جمع إمام على وزن أكسية جمع كساء والإمام الذي يقتدى به، وأصل أئمة اءممة فألقيت حركة الميم الأولى على الهمزة الثانية وأدغمت الميم في الميم فصار أئمة.

فمن القراء من يبقي الهمزة على الأصل بتحقيق الهمزتين وهو ابن عامر والكوفيون وروح، والباقون بتسهيل الهمزة الثانية واختلف في كيفية تسهيلها.

فذهب الجمهور من أهل الأداء (الآراء) إلى جعلها بَيْنَ بَيْنَ وهو الذي في التيسير والشاطبية والمستنير والكامل وروضة المالكي والتجريد والتبصرة والتذكرة وكفاية أبي العز وغاية أبي العلا والهداية وغيرها، وذهب آخرون إلى قلبها ياء خالصة نص عليه ابن شريح في الكافي وأبو العز في الإرشاد، وقرأ به

الجزري وغيرهم وذكره الدواني في جامعه والحافظ أبو العلا وليس من طريق التيسير ولا الشاطبية بل هو من طريق كتاب الطية والنشر وأبو جعفر فصل بين الهمزتين، بألف حال تسهيله بَيْنَ بَيْنَ فيقرأ هكذا أئمة بحركة الهمزة الثانية بَيْنَ بَيْنَ ووافقه ورش من طريق الأصبهاني في الموضع الثاني من القصص وفي السجدة.

وانفرد النهرواني عن ورش من طريق العطار بالفصل بالألف في والأنبياء، واختلف النقل عن هشام في المواضع الخمسة من القرآن التي ذكر فيها أئمة وهي في التوبة (أَئِمَّةَ الكُفْرِ)، وفي والأنبياء (أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ)، وفي القصص(أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)وفيها أيضا(أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ)، وفي ألم السجدة(أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)ولا يجوز الفصل عند أحد منهم إذا أبدلت الهمزة ياء خالصة.

قيل: والقياس في التسهيل بَيْنَ بَيْنَ وبعضهم يعده لحناً ويقول لا وجه له في القياس، وأردف الدعاة بالأئمة لأن الأئمة هم الذين يقتدى بهم فإذا أردف بالدعاة أفاد أنهم يقتدى بهم فيما دعوا إليه من الحق فإنهم عليهم السلام كما تقدم دعوا إلى الله سبحانه بأن أمروا بمعرفة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفة أوصيائه ومعرفة أنبيائه ومعرفة أحكامه وما يريد من عباده ودلوا العباد على سبيل الرشاد.

وكونهم عليهم السلام الدعاة أنهم عن أمر الله أوضحوا المنهج وأقاموا في جميع العوالم العوج كما تقدم بيانه في كل جنس وفي كل نوع وفي كل صنف وفي كل شخص وفي كل جزء فما استقام فمنهم عليهم السلام وما اعوج فعنهم كما قال تعالى(وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِين وَلا يَزِيدُ الظَّالمِينَ إلا خَساراً)فالنازل من القرآن ماء الرحمة الذي به كل شيء حي وهو الإمام عليه السلام ودعوا الخلائق كلا بلغته

الناطق بلسان الإنسان سواء كان إنسانا بالأصالة أو مرفوعا إلى الإنسانية، كما تقدم من خطاب الحسين عليه السلام للحمى حين دعاها فقال(يا كباسة قال فإذا نحن نسمع الصوت و لا نرى الشخص يقول لبيك، قال أ ليس أمير المؤمنين أمرك ألا تقربي إلا عدوا أو مذنبا لكي تكون كفارة لذنوبه، فما بال هذا وكان الرجل المريض عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي).

والصامت بأصوات الصامت على اختلاف أنواعه من حيوان ونبات وجماد مثلا.

قال للأرض السبخة قبل أن تكون سبخة أليس الله ربك قالت بلى قال أليس ومحمد نبيك فسكتت، قال أليس علي وليك قالت: لا.

فكانت بالخطاب والإنكار سبخة خاطبوها بلسانها وهو أنهم أجروا عليها بالأسباب الماء الذي هو قول أليس علي وليك فلم تتأهل للقبول لضعف قابليتها فاجتمعت الفضلات رابية وهو قولها (لا) المعبرة عنه بالإنكار للولاية فاستملحت واستمرت وهو المعبر عنه بسر القدر فجعلت بذلك سبخة وهو المعبر عنه بالقضاء السوء فهذا دعاهم لها بهذا اللسان وهذه إجاباتها لهم كذلك وهذا القول بهذا اللسان لا يعرفه إلا أهل البيان وليس هذا لسان الحال كما يتوهم لوجهين:

الأول : أن لسان الحال هو معنى الهيئة والصفة والفعل وهذا ليس كذلك وإنما هو لفظ لغة الجماد وهو مشتمل على كلمات وحروف .

الثاني : أن لسان الحال ناطق فصيح بلسان عربي مبين وليس على ما يتوهم من أن معنى الهيئة ليس كلاما وإنما هو دلالة معنوية كيف لا وقد قال تعالى(وَإِنْ مِنْ شَيْ ءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ).

وقد ورد أن تسبيح الجدار تشققه وتفطره وتناثره ، وفي تسبيح يوم الأربعاء من المصباح (سبحان من تسبح له الأنعام بأصواتها يقولون سبوحا قدوسا سبحان الملك الحق المبين سبحان من تسبح له البحار بأمواجها) ، وفيه (تسبح لك البحار بأمواجها والحيتان في مياهها والمياه في مجاريها).

والعبارة عن كل دعوة بكل لسان مثل ما روي عن علي بن الحسين عليه السلام (وقد سئل كيف الدعوة إلى الدين فقال يقول أدعوك إلى الله تعالى وإلى دينه).

فهذا اللفظ هو يدل على كل دعوة حق بكل لسان من حال أو مقال من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد دلالة مطابقة فافهم واسأل الله أن يعلمك ما لم تعلم.

قال عليه السلام والقادة الهداة

قال الشارح رحمه الله ، القادة جمع القائد والهداة جمع الهادي الذين قال الله تعالى فيهم (أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا)كما ورد به الأخبار المتواترة أنهم هم.

أقول: في حديث علي عليه السلام (قريش قادة ذادة أي يقودون الجيوش)يراد أن إرادتهم متعلقة بطلب الأعداء كانت بين الجيوش وبين الأعداء فتقودهم إليهم فالقائد هو من يقود شيئا بزمامه كقائد الفرس، والمراد هنا أنهم عليهم السلام يقودون الـخلق من المؤمنين في الذر الأول إلى الرضا، وفى الذر الثاني إلى الإجابة المشروطة، وفي الذر الـثالث إلى الإجابة المنجزة بإيقاع الأعمال كما أمروا وبقول الأقوال كما علموا وبثبات الاعتقاد البات كما هدوا، فإذا استجابوا الاستجابات الثلاث حفظوا عليهم ما استحفظوهم من أحكام هذه الأمانات فنقلوهم محروسين بحبهم وبالتمسك بولائهم حتى أسكنوهم منازلهم من جنان البرزخ

إلى وقت قيامهم وزمان كرّتهم. فكروا منهم من استجاب الاستجابة الحسنى حتى أدخلوهم حظيرة القدس ومأوى النفس متنعمين في ولايتهم وحبهم إلى أن ينقر في الناقور وينفخ في الصور فهجعت الساهرة وركدت النقطة في الدائرة فإذا تناهت الأمور ونفخ في الصور وبعث من في القبور تولوهم بالولاية الحسنى وعرفوهم بالسيما على الأعراف فحملوهم على نجب الاعتراف حتى أحلّوهم محال الشرف وأسكنوهم الغرف وأباحوا لهم الجنان وزوجوهم الحور وأخدموهم الولدان خالدين فيها يشتهون(لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ).

وفي كل ما سمعت وما أشبهه هم القائدون لهـم بما ملكوا من أزمة قوامهم إلى هذه الخيرات ورفيع الدرجات وعلى عكس ما سمعت يسوقون أعداءهم في أضداد تلك الأحوال إلى أن أحلوهم دار البوار والنكال وعظيم الأهوال.

والقود والسوق بمعنى واحد إلا في صفتين:

أحدهما: أن القود بالإمداد والتوفية والسوق بالمد والتخلية.

وثانيهما: أن القود يشعر بتقدم القائد لأنه دليل المقود ومصاحبه في الورود، وأما السوق فهو يشعر بتأخر السائق ليدفع المسوق ولأنه ليس معه في طريقه ولا ولي له يفسح له في ضيقه.

فهم عليهم السلام القادة للخلق إلى ما يستحقون من مقتضى الكدح والكد بالإمداد والمد.

وأما أنهم الهداة للمهتدين والضالين فلأنهم إنما شأنهم الهدى ودعاؤهم إلى التقوى فمن اتبع هداهم نجا ومن ترك هداهم ضل وغوى وهوى فهم يهدون من اتبع هداهم إلى الطيب من القول والى صراط الحميد، ومن أنكرهم هدوه

بإنكاره إلى سواء الجحيم كما قال الله تعالى(فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ وقفوهم إنهم مسؤولون)عن ولايتكم وهم بأمره يعملون وليس فعلهم إضلالاً للظالمين ولا إغواء عن الحق المبين كما أخبر تعالى عن الغاوين(فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ).

لأنهم لم يريدوا لهم الهداية ولكنهم لما عرفوا من أنفسهم أنهم ذائقوا العذاب الأليم أغووهم.

وأما الهادون صلى الله عليهم أجمعين أرادوا لهم النجاة والهداية فلم يقبلوا منهم فحكموا عليهم بحكم الله وألزموهم بمقتضى قدر الله تعالى كما قال سبحانه(بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ)وبهذين الحكمين وصفوا بوصفين بحكمهم للمهتدين بالهداية قيل لهم القادة الهداة وبحكمهم للضالين بالضلالة قيل لهم الذادة الحماة.

وفي حديث أبي الطفيل المتقدم قال(قلت يا أمير المؤمنين أخبرني عن حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا أم في الآخرة فقال بل في الدنيا قلت فمن الذائد عنه فقال أنا بيدي فليردنه أوليائي وليصرفن عنه أعدائي).

أقول: فالمورد هو القائد والصارف هو الذائد.

قال عليه السلام والسادة الولاة

قال الشارح رحمه الله السادة: جمع السيد أي الأفضل الأكرم.

والولاة جمع الوالي(والي) فإنهم يقودون السالكين إلى الله والأولى بالتصرف في الخلق من أنفسهم كما قال تعالى (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)وقال(إِنَّما

وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالذِينَ آمَنُوا)وقال رسول الله ﷺ (مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلاهُ) إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة.

أقول: السيد من ساد يسود سيادة، والاسم السؤدد وهو المجد والشرف فهو سيد والأنثى سيدة والسيد الرئيس الكبير في قومه المطاع في عشيرته وإن لم يكن هاشميا ولا علويا، والسيد الذي يفوق في الخير والسيد المالك ويطلق على الرب والشريف والحليم والكريم والفاضل والمتحمل أذى قومه والزوج كقوله تعالى (وَأَلْفَيا سَيِّدَها لدَى البابِ) وعلى الـمقدم وكونهم سادة يجري على كل واحد من هذه المعاني فبمعنى الشريف وذي المجد فإنهم بمكان من الشرف لا تصل إليها أوهام الخلائق كما يدل عليه قوله عليه السلام في هذه الزيارة فيما بعد (طأطأ كل شريف لشرفكم) أي خضع وخفض وانحط ولم يدرك غاية شرفكم والمجد هو الشرف الواسع والعلو والكمال والعز ولهم من كل واحد من هذه الصفات ما لا يحوم حوله أمنية ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وعلى معنى أن السيد هو الفائق في الخير فإنهم قد فاقوا كل شيء من الخلق في جميع كمالات الخير بما لا يتناهى لأحد ممن سواهم بمعنى أنه لو كان نبي من أفضل أولي العزم غير محمد ﷺ زخّ في كمال من كمالاتهم فبقي يصعد أبد الآبدين ما حام حول حمى كمالهم ذلك ولم يتجاوز أثره.

وعلى معنى أنه الرئيس في قومه المطاع في عشيرته فإن الله سبحانه قد أحلهم في مقام بين قومهم وعشيرتهم بل بين كل الخلق لا يكيف كنهه ولا يكتنه أصله كما قال علي عليه السلام (نحن صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا) أي خلقنا الله له وخلق الخلق لنا، فهم مطاعون في كل الخلق إذا دعوا أجابتهم الحقائق والرقائق

والطرائق والأفئدة والقلوب والأرواح والنفوس والطبائع والألفاظ والأحوال والأعمال والأقوال والحركات والخواطر والضمائر والسرائر فكل شيء لهم وكل شيء يطيعهم.

وعلى أنه الذي يفوق في الخير، فهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فاقوا في كل خير كل الخلائق لأن كل الخلائق إنما خلقوا لهم.

وفي هذه الزيارة الشريفة كما يأتي إنشاء الله(فبلغ الله بكم - أي بلغكم - أشرف محل المكرمين وأعلى منازل المقربين وأرفع درجات المرسلين حيث لا يلحقه لاحق ولا يفوقه فائق ولا يسبقه سابق ولا يطمع في إدراكه طامع) أي أن الله أحلهم محلا لا يطمع طامع من الخلق سواهم في إدراكه ولا أن يفوقه ولا أن يلحقه.

وعلى أنه المالك فظاهر فإن الله سبحانه قد خلق لهم الخلق وفوض إليهم أمرهم والحكم فيهم كما صرحت به أخبارهم مثل ما تقدم وغيره.

وعلى أنه المالك بمعنى المالك ظاهر وقد تقدم وبمعنى المدبر والمربي والمتمم والمنعم تقدم فيما قبل.

وبمعنى الصاحب أنهم علة الموجودات الإيجادية والمادية والصورية والغائية فكيف يجوز أن يفارقهم خلق ويبقى والبقاء بهم فهم المصاحبون للخلق بهذا المعنى.

وعلى معنى الحليم ومعنى المتحمل أذى قومه فمن تتبع الأخبار وجد حلمهم وتحملهم الأذى وعدم انتقامهم وهم يقدرون على نحو لا يمكن أن يقع من غيرهم.

وأما على معنى الزوج فهو يتمشى أيضا لكن ليس على جهة الظاهر وإنما هو على ضرب من التأويل ولا بأس بالتلويح إلى بعض ذلك المعنى وهو أن الزوجة صفة والصفة زوجة الموصوف والزوجة فاعلية الموصوف لآثار تلك الصفة فتلد تلك الصفة باستعمال الآلات الذي هو النكاح أعمالا وآثارا هي الأولاد فالزوج منهم الولي والزوجة الولاية إذا خطبها من مالكها سبحانه والأولاد تلك الأفعال الحقة (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) وعدوهم ادعى زوجيتها بالباطل فهم أولاد الزنا وهم ناصبوا العداوة.

وفي الحديث(يا علي لا يبغضك إلا ابن زنا أو ابن حيضة أو من طعن في عجانه).

وقد كان منهم من هو صحيح النسب ظاهرا وهو ابن زنا باطنا لأنه تولد على الولاية البغية التي نكحها الزاني بها بغير الحق فنكاحه لها ليس من الله فأولاده أولاد زنا فلذا يبغضون عليا عليه السلام .

وأما الزوج الحق فهو الولي فإن الله سبحانه زوجه بها في السماء وقولك في هذا المعنى ولي مثل قولك زوج فافهم الإشارة إلى هذا السر وكن به ضنينا.

وأما الولاة جمع ولي فقد تقدم الكلام والتنبيه على بعض البيان في شرح قوله (وأولياء النعم) فلا يحتاج إلى الإعادة وما ذكره الشارح هنا من الآيات والروايات كاف في الإشارة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال عليه السلام والذادة الحماة

قال الشارح رحمه الله (الذادة) جمع الذائد من الذود بمعنى الدفع.

الحماة جمع الحامي فإنهم يدفعون عن شيعتهم في الدنيا الآراء الفاسدة والمذاهب الباطلة والبليات المهلكة بالأدعية الشافية وفي الآخرة بالشفاعة والحماية كما ورد به الأخبار المتواترة.

أقول: هم الذائدون لأوليائهم في الدنيا وفي الآخرة عن كل ما لا يحب الله من الاعتقادات الباطلة والخطرات الفاسدة والأعمال القبيحة والأقوال الردية والأحوال المستنكرة، ومثل المآكل والملابس المحرمة بل عن الأكل والشرب المضرين بالأبدان وبالعقول والداعيين إلى الشهوات المحرمة أو إلى القسوة.

والحاصل أنهم يذودون شيعتهم عن كل ما يكره الله ويذودون أعداءهم عن كل ما يحب الله وهذا هو المراد من معنى قوله عليه السلام إنه يذود أعداءه عن ورود الحوض يوم القيامة فإن معنى هذا أنه يذود أعداءه عن جميع ما يحب الله من الاعتقادات الراجحة والأعمال الصالحة ظاهرا وباطنا وذلك بقوله تعالى(كَذلكَ زَيَّنَّا لكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلهُمْ)وذلك إذا مال المنافق بطبع ماهيته إلى العمل الباطل صادمه ميل وجوده إلى العمل الصالح فكان حبه للشر للفطرة المغيرة وميله للخير للفطرة الإيجادية التي هي فطرة الله قبل أن تغير فإذا مال بمحبته إلى الشر خذل وخلي، فحسن الشر لديه.

وزان بسبب مدد الخذلان فكان هذا الخذلان والتخلية مرجحا لفعل الشر على فعل الخير وهذا الترجيح أوجد بميلهم وتأكد عزمهم وبهذا الإيجاد ذادوهم عن الخير الذي هو الحوض المذكور هذا في حق أعدائهم وعلى العكس في حق أوليائهم ذادوهم عن الشر وأوردهم الخير وهو نهر في الجنة من شرب منه لم يظمأ أبدا.

وقول الشارح رحمه الله (بالأدعية الشافية) جار على ظاهر الحال وهو كمال فإنهم

عليهم السلام قالوا لشيعتهم إنا من ورائكم بالدعاء الذي لا يحجب عن باري السماء إلا أن الدعاء الحالي أبلغ من الدعاء المقالي، فإن الأفعال والتعليم والإرشاد والهداية والأخذ باليد وبذل فاضل الحسنات وتحمل الذنوب وتسبيب الأسباب وتحبيب الإيمان والاستيهاب من رب الأرباب والتفضل بفاضل الطينة والنفخ من أرواحهم، وتولي الحساب والشفاعة والتشفيع وأمثال ذلك ألسنة صادقة وأرسام مطابقة للأحكام الموافقة، وكلها دعوات منهم لشيعتهم ومحبيهم من ربهم سبحان الذي استرعاهم أمرهم وفوّض أحكامهم الوجودية والشرعية إليهم، فبهذه الدعوات المعنوية ذادوهم عن جميع المكاره في الدنيا والآخرة وأوردوهم حوضهم الذي هو جميع خيرات الدنيا والآخرة.

ومعنى كون هذه المذكورات دعوات إنها قوابل للفيوضات الإلهية يعني أنهم عليهم السلام هم وأحوالهم وأفعالهم وجميع ما خوّلهم ربهم محالّ فاعليته ومثال ربوبيته بمعنى أن الله سبحانه ألقى مثاله أي ربوبيته وفاعليته في هوياتهم وهويات أحوالهم وأفعالهم وجميع ما لهم، فأظهر عنهم أفعاله فهو الفاعل بهم ما يشاء وهو يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره وهم بفعله فاعلون وهم بأمره يعملون (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)فدعوا بالقابليات وأجاب الفاعل بالمقبولات.

والحماة كالذادة معنى إلا أنه في الغالب يستعمل في دفع المكاره عن المحبوب بخلاف الذادة فإنه يستعمل في دفع الأعداء عن الخير غالبا وإن كان كل منهما قد يستعمل في معنى الآخر.

قال عليه السلام وأهل الذكر

قال الشارح رحمه الله الذين قال الله فيهم(فَسْئَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

كما ورد به الأخبار المتواترة أنهم هم الذكر إما القرآن أو الرسول ﷺ وهم أهلهما.

أقول: قد مضت الإشارة في الجملة إلى ما يراد من الأهل من التأهل والاستحفاظ والتحمل وإظهار بيان حال الذكر والاستدلال عليه والدعوة إليه وتأييده وتشييد بنيانه وشد أركانه وابتناء كل واحد منهما على صاحبه والنطق عنه والترجمة له والاستخلاف له والقيام بما يكلف به ويدعو إليه والذكر هو القرآن كما قال تعالى(فَسْئَلوا أَهْل الذِّكْرِ) والذكر هو القرآن لقوله تعالى(وَإِنَّهُ لذِكْرٌ لكَ وَلقَوْمِكَ) و هو القرآن أي شرف لك وفخرا وهو محمد رسول الله ﷺ لقوله تعالى (قَدْ أَنْزَل اللهُ إِليْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً) ويجوز أن يكون الذكر في الباطن وهو ذكر الله محمد ﷺ قال الله تعالى(وَلذِكْرُ اللهِ أَكْبَر) أو ذكر الرحمن وهو علي عليه السلام وقال تعالى(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لهُ شَيْطاناً فَهُوَ لهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ ليَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيل) وهو علي عليه السلام وقال تعالى(وَإِنَّهُ) أي علي (لذِكْرٌ لكَ وَلقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلونَ) يعني عن ولايته.

وورد في معنى وسوف تسألون عن العلوم التي حملكم إياها الله ورسوله ﷺ لتبلغوها إلى الخلق.

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام (نَحْنُ قَوْمُهُ وَنَحْنُ المَسْئُولونَ).

وعن الصادق عليه السلام (قَال إِيَّانَا عَنَى وَنَحْنُ أَهْل الذِّكْرِ وَنَحْنُ المَسْئُولونَ).

وعنه عليه السلام (الذكر القرآن ونحن قومه ونحن المسؤولون).

وفي البصائر عن مولانا الباقر عليه السلام في هذه الآية(قَال الذِّكْرُ رَسُول اللهِ ﷺ وَأَهْل بَيْتِهِ أَهْل الذِّكْرِ وَهُمُ المَسْئُولونَ).

وفي الكافي عَنِ الوَشَّاءِ قَال (سَأَلْتُ الرِّضَا عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ جُعِلتُ فِدَاكَ فَسْئَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلمُونَ فَقَال نَحْنُ أَهْل الذِّكْرِ وَنَحْنُ المَسْئُولونَ قُلتُ فَأَنْتُمُ المَسْئُولونَ وَنَحْنُ السَّائِلونَ قَال نَعمْ قُلتُ حَقّاً عَلَيْنَا أَنْ نَسْأَلكُمْ قَال نَعَمْ قُلتُ حَقّاً عَليْكُمْ أَنْ تُجِيبُونَا قَال لا ذَاكَ إِليْنَا إِنْ شِئْنَا فَعَلنَا وَإِنْ شِئْنَا لمْ نَفْعَل أَ مَا تَسْمَعُ قَوْل اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالى (هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ).

وفي الكافي عَنِ الوَشَّاءِ عَنْ أَبِي الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَال(سَمِعْتُهُ يَقُول قَال عَليُّ بْنُ الحُسَيْنِ عليه السلام عَلى الأَئِمَّةِ مِنَ الفَرْضِ مَا ليْسَ عَلى شِيعَتِهِمْ وَعَلى شِيعَتِنَا مَا ليْسَ عَليْنَا أَمَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَل أَنْ يَسْأَلونَا قَال(فَسْئَلوا أَهْل الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلمُونَ) (فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْأَلونَا وَليْسَ عَليْنَا الجَوَابُ إِنْ شِئْنَا أَجَبْنَا وَإِنْ شِئْنَا أَمْسَكْنَا).

أقول: إن الله سبحانه يكلف عباده على حسب ما تقتضيه حقائق ذواتهم لذواتهم ولأفعالهم فكلف محمدا وآله الطيبين صلى الله عليه وعليهم أجمعين بمقتضى ذواتهم لذواتهم فيما يعرفون ويعتقدون ويعلمون ولأفعالهم فيما يعملون ويقولون ويعلِّمون ويهدون(وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ) ولما خلق الله الخلق أشهدهم خلقهم وأنهى إليهم علم خلقه وفوّض إليهم أمر أحكامهم ثم إنه سبحانه أيدهم بروح منه فلا يغفلون ولا يسهون ولا يجهلون ولا يجورون في حكمهم ولا يحيفون، فإذا سألهم سائل نظروا فيما تقتضيه حقيقته لذاته أو لفعله فيعرفون ما يصلح له لأن الله قد أشهدهم خلقه وأنهى إليهم علمه وفوّض إليهم أمر حكمه، فإن أجابوا فبما له وإن أمسكوا فعما ليس له وهو يسأل عما أعلموه لأنه محل التقصير والخطأ وهم لا يسألون لعصمتهم فجعل الله لهم تأويل قوله تعالى(هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ) لأنهم سلكوا سبل الرب جل وعلا بهدى الله ذللاً بل لا مشية لهم إلا مشية الله تعالى.

ويجوز أن يراد بالذكر ذكر الله وإن أريد به القرآن أو محمد ﷺ أو ذكر الرحمن وإن أريد به الفرقان أو علي عليه السلام وكونهم على هذا التجويز أهل الذكر يقتضي بسطا طويلا إلا أنه يعلم مما ذكرنا سابقا في خلال ما تقدم ولأجل ذكره سابقا والاختصار اقتصرنا عليه.

قال عليه السلام وأولي الأمر

قال الشارح رحمه الله الذين قال تبارك وتعالى فيهم (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) كما ورد به الأخبار المتواترة من طرق العامة والخاصة.

أقول: (أولي) بمعنى أصحاب، وليس له واحد من لفظه وواحده (ذو) كذا قيل.

ومثله في المؤنث أولات وواحدها (ذات) وكلها تستعمل فيما يستعمل ما بمعناها فيه من أصحاب وصاحب وصاحبات وصاحبة إلا أن الأولى (تستعمل) في مقام التكريم والمدح غالبا، وصاحب على العكس غالبا، قال تعالى في مقام الثناء (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً) وقال في مقام العتب (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ) يعني لم يصبر لحكم ربه فذكره بصاحب وبالحوت لا بالنون، والأمر قد يراد به الحكم بين الناس كما قال تعالى(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسُول وَإِلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لعَلَمَهُ الذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) وقد يراد به العدل وإرادة مصلحة الرعية كما قال علي عليه السلام (اعْرِفُوا اللهَ بِاللهِ) يعني لا بخلقه فإن الشيء لا يعرف بغيره (والرسول بالرسالة) أي الثابتة بالمعجز المقرون بالتحدي (وأولى الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فإن الشيء لا يعرف إلا بصفته فمن كان من شأنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مقتضى حكم

الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ فهو من أولي الأمر أي المريدين للعدل والإصلاح كما أمر الله الذين يجب اتباعهم والاقتداء بهم.

وقد يراد بالأمر ما ذكر (ذكره) سبحانه في كتابه في قوله الحق (قُل إِنَّ الأَمْرَ كُلهُ للهِ) فكل شيء فملكوته بيد الله وجميع أموره تصير إليه(أَلا إِلى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)، وكلما لله من خلقه مما صدر عن مشيته فقد جعله لمحمد وآله الطيبين صلى الله عليه وعليهم أجمعين وهو الأمر المشار إليه وهو الولاية الكبرى كما ذكر في كتابه(هُنالكَ الوَلايَةُ للهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً).

وذكر مقتضى هذه الولاية وهو الأمر المشار إليه قال تعالى(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّل عَلَيْهِ) يعني فاعبده بتوحيده وادعه بأسمائه وتوكل عليه بأن تفوض الأمر إليه في كل حال.

وفي الزيارة المروية في المصباح للشيخ في شهر رجب التي أولها (الحمد لله الذي أشهدنا مشهد أوليائه في رجب) إلى أن قال(أنا سائلكم وآملكم فيما إليكم التفويض وعليكم التعويض فبكم يجبر المهيض ويشفي المريض، وعندكم ما تزداد الأرحام وما تغيض إني بسركم مؤمن ولقولكم مسلِّم).

وفي هذه الزيارة التي نحن بصدد شرحها (ومفوّض في ذلك كله إليكم) وهذا الأمر المشار إليه هو صفة الولاية وعلي الولي عليه السلام قال في خطبته (ظاهري ولاية وباطني غيب لا يدرك) وهذا الأمر المشار إليه هو الولاية وهو المذكور في قوله تعالى(وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بأَمْرِهِ) وهذا الأمر له آثار كل أثر منها أمر ما بين كلي وجزئي ومنها قوله تعالى(تَنَزَّلَ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) فهذه الأمور آثار للأمر المشار إليه وإن كانت تأوّل به كما في قوله تعالى(فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنا).

وفي الاحتجاج وقد ذكر الحجج عليه السلام قال (هم رسول الله ومن حل محله من أصفياء الله الذين قرنهم الله بنفسه ورسوله وفرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم منها لنفسه وهم ولاة الأمر الذين قال الله فيهم (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) وقال فيهم (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسُول وَإِلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لعَلمَهُ الذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) قال السائل ما ذاك الأمر قال علي عليه السلام الذي به تنزل الملائكة في الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم من خلق ورزق وأجل وعمل وعمر وحياة وموت وعلم غيب السماوات والأرض والمعجزات التي لا تنبغي إلا لله وأصفيائه والسفرة بينه وبين خلقه) انتهى

فهذه الأمور المذكورة هي آثار الأمر المشار إليه على نحو ما أشرنا إليه ويطلق عليها أيضا الأمر إذا قيل ولاة الأمر وأولوا الأمر وهي المحتومات في عالم الغيب ومنها المحتوم في عالم الغيب والشهادة.

وقد تقدم بيان هذا ولو قيل المراد بهذا الأمر في أولي الأمر ما يقابل النهي وإنما حذف النهي للسجع والأمر يدل عليه أو أنه استعمل فيما يعمهما على معنى أن المراد به مطلق الطلب أمكن وإن كان بعيدا وأما على ما تقدم فهو داخل قطعا.

قال عليه السلام وبقية الله

قال الشارح رحمه الله الذين قال تقدس وتعالى فيهم (بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي أبقاكم الله إلى انقضاء الدنيا لهداية الخلق إلى الله تعالى بل هم سبب بقاء الدنيا أو لتخلقهم بأخلاق الله كأنهم بقية الله انتهى.

أقول: قال شعيب لقومه (بَقِيَّتُ الله) أي ما أبقى الله لكم من الحلال إذا

تنـزهتم عما حرم عليكم (خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فعلى هذا يمكن تأويله، بأن ما أبقى لكم من آل محمد ﷺ الذين علمهم طعام حلال إذا تجنبتم أعداءهم الذين علمهم طعام حرام نهيتم عن تناوله لأنه جهل محض ليس من الحق في شيء (خير لكم) والأخبار بهذا المعنى كثيرة.

روى محمد بن يعقوب بإسناده إلى محمد بن منصور قال (سألت العبد الصالح عليه السلام عن قول الله عز وجل (إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ) فقال إن القرآن له بطن وظهر فجميع ما حرم الله في القرآن هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الجور وجميع ما أحل الله في القرآن هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق) ويؤيد هذه الرواية روايات كثيرة.

منها ما رواه أبو جعفر الطوسي بإسناده إلى الفضل بن شاذان، عن داود بن كثير قال (قلت لأبي عبد الله عليه السلام أنتم الصلاة في كتاب الله عز وجل وأنتم الزكاة وأنتم الصيام وأنتم الحج فقال يا داود نحن الصلاة في كتاب الله عز وجل ونحن الزكاة ونحن الصيام ونحن الحج ونحن الشهر الحرام ونحن البلد الحرام ونحن كعبة الله ونحن قبلة الله ونحن وجه الله قال الله تعالى(فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) ونحن الآيات ونحن البينات وعدونا في كتاب الله عز وجل الفحشاء والمنكر والبغي والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا وجعلنا أمناءه وحفظته وخزانه على ما في السماوات وما في الأرض وجعل لنا أضدادا وأعداء فسمانا في كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه تكنية عن العدد وسمى أضدادنا وأعداءنا في كتابه وكنى عن أسمائهم وضرب

لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين) انتهى.

أقول: إن لتسميتهم بالصلاة والزكاة وغيرهما من الأسماء الطيبة وتسمية أعداءهم بالخمر والميسر والفحشاء والمنكر وغيرها من الأسماء الخبيثة ثلاثة معان.

أحدها: لمراعاة الحساب في العدد على ما هو مقرر عندهم في الجفر يتفق على أسماء الصفات غالبا لأنها هي مناط التعريف والتعيين وبيان ذلك عندهم عليهم السلام وقد أشار إلى هذا بقوله (تكنية عن العدد) كما في الحديث السابق هذا فراجعه.

وثانيها: أن هذه الأسماء وضعت على الفريقين في عالم الذر يوم التكليف الأول فنطق كل بما انطوى عليه من صفة ذاته التي هي مبدأ الأفعال والأعمال الصالحات في حقهم، ومبدأ الأفعال والأعمال السيئة في حق أعدائهم.

فلما كان الوضع كما هو الحق جرى على المناسبة الذاتية بين الأسماء والمسميات لأن الأسماء ظواهر المسميات وجب في الحكمة أن تكون الأسماء الحسنى لهم لحقيقة المناسبة والأسماء السوأى لأعدائهم كذلك فإن الإمام عليه السلام فيما لأجله شرعت الصلاة المعلوم أحق وأوفق بل لولاه لم تشرع لما شرعت له وإنما شرعت لما شرعت له وصفا لحقيقة الإمام عليه السلام وكذلك عدوه في تسميته بالخمر فافهم.

وثالثها: إنما سميت الصلاة بهذا الاسم لأنها فرعه وإنما سمي بها في الظاهر لأنه أصلها ، وكذلك في الخمر والعدو وهذا اعتبار في التسمية في الظاهر ولهذا يقال سمي بالصلاة مجازا ، وأما في المعنى الثاني فالتسمية حقيقة ويدل على هذا المعنى حديث المفضل بن عمر الطويل عن الصادق عليه السلام وبمعناه ما رواه الفضل بن شاذان بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قَال(نَحْنُ أَصْل كُلِّ خَيْرٍ وَمِنْ فُرُوعِنَا كُلُّ بِرٍّ فَمِنَ البِرِّ التَّوْحِيدُ وَالصَّلاةُ وَالصِّيَامُ وَكَظْمُ الغَيْظِ وَالعَفْوُ عَنِ المُسِيءِ

وَرَحْمَةُ الفَقِيرِ وَتَعَهُّدُ الجَارِ وَالإِقْرَارُ بِالفَضْل لأَهْلِهِ وَعَدُوُّنَا أَصْل كُلِّ شَرٍّ وَ مِنْ فُرُوعِهِمْ كُلُّ قَبِيحٍ وَفَاحِشَةٍ فَمِنْهُمُ الكَذِبُ وَالبُخْل وَالنَّمِيمَةُ وَالقَطِيعَةُ وَأَكْل الرِّبَا وَأَكْل مَال اليَتِيم بِغَيْرِ حَقِّهِ وَتَعَدِّي الحُدُودِ التِي أَمَرَ اللهُ وَرُكُوبُ الفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةُ وَكُلُّ مَا وَافَقَ ذَلكَ مِنَ القَبِيحِ فَكَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَعَنَا وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِفُرُوعِ غَيْرِنَا).

هذا من تفسير بقية الله على أحد وجوه الظاهر بالتأويل وفسّرت بالطاعة كما قال تعالى(وَالباقِياتُ الصَّالحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً)وهي الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

روي الأول عن الصادق عليه السلام وروي عنه عليه السلام أيضا أنها صلاة الليل. وروي الثاني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنهن المقدمات وهن المنجيات وهن المعقبات وهن الباقيات الصالحات أو هي مودة أهل البيت.

وفي تفسير الماهيار محمد بن العباس رحمه الله قال(حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد عن محمد بن الفضيل عن أبيه عن النعمان عن عمر الجعفي قال حدثنا محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي قال دخلت أنا وعمي الحصين بن عبد الرحمن على أبي عبد الله عليه السلام فسلم عليه فرد عليه السلام و أدناه وقال ابن من هذا معك قال ابن أخي إسماعيل قال رحم الله إسماعيل وتجاوز عن سيئ عمله كيف مخلفوه قال نحن جميعا بخير ما أبقى الله لنا مودتكم قال يا حصين لا تستصغرن مودتنا فإنها من الباقيات الصالحات فقال يا ابن رسول الله ما أستصغرها و لكن أحمد الله عليها لقولهم صلى الله عليه وآله وسلم من حمد فليقل الحمد لله على أول النعم قيل وما أول النعم قال ولايتنا أهل البيت)انتهى.

فعلى الصلوات الخمس التي هي عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها وتأويلها ولايتهم وهم أيضا فالظهر رسول الله ﷺ الذي أظهر الإسلام ويظهره الله على الدين كله(وَالعَصْرِ) هو علي(إِنَّ الإِنْسانَ) عدوه(لفِي خُسْرٍ)وهو الذي عصر منه ومن فاطمة عليها السلام الأئمة الأطهار والمغرب فاطمة عليها السلام والصلاة الوسطى التي أمر الله بالمحافظة عليها بمحبتها ونصرتها، وأن يقوم المسلمون لنصرتها قانتين والعشاء هو الحسن عليه السلام بشدة ظلمة صلحه على الجهال، والفجر هو الحسين عليه السلام قال تعالى(إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً) أي مستشهدا أو مشهودا أي تشهده ملائكة الليل أي ملائكة النصر يقدمهم الملك الموكل بهم اسمه منصور(إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)وتشهده ملائكة النهار أي الشهادة الذين يشيعونه للقاء الله ومنهم الأربعة الآلاف الشعث الغبر الذين عند قبره يعفّرون وجوههم في ثرى تربته ويشمّون طيب تراب مصرعه السامي يبكون عليه إلى يوم القيامة، كل واحد منهم لازم لمركزه من تلك التربة الطيبة الذي هو باب وجوده من معبوده سبحانه.

وأيضا بقية الله معانيه في خلقه وظاهره أي تعبدونه بهم وتسبحونه بهم وتحمدونه بهم وتهللونه بهم وتكبرونه بهم وتعرفونه بهم وتتذكرونه بهم وبهم، ولهم خلق الخلق ولهم ومنهم رزق الخلق وبهم ولهم وعليهم حفظ الخلق وعنهم ومنهم ولهم أمات الخلق فبهم ومنهم ولهم أحيى الخلق.

وأيضا بقية الله في آياته في الآفاق وفي أنفسهم فهم عليهم السلام آياته في الآفاق وفي أنفس الخلق.

روى جعفر بن محمد بن قولويه في كامل الزيارة بسنده إلى عبد الله بن

حماد البصري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل بعد أن بين عليه السلام أنهم يرون كافة الناس أي من على الأرض قال (فإذا لم يكن معهم من ينفذ قوله و هو يقول (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)فأي آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق وقال(ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها) فأي آية أكبر منا) الحديث .

فما تشاهده العيون وما تسمعه الآذان وما تعيه القلوب من الأمور العجيبة والأشياء الغريبة فهو من آثار ما أودع الله فيهم عليهم السلام من أسراره فأظهر سبحانه عنهم عليهم السلام ما يعلم وما لا يعلم مما لا يعلمه غيره وغيرهم قال تعالى(وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ) .

وفي أنفس الخلق قال تعالى(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ) أي من آله الطيبين فإنه منهم كما أنهم منه وهم أنفس الخلق وإلى هذا أشار علي عليه السلام في قوله(أنا ذات الذوات والذات في الذوات للذات).

أي أنا روح الأرواح ونفس النفوس وأنا ملك لله وعبده فيكون لهذا الوجه معنيان:

الأول: أنهم عليهم السلام تلك الآيات الكبرى التي نجد آثارها في أنفسنا وما تدركه قلوبنا وأفئدتنا من عظمة الله وعزته، وعموم قدرته وسعة علمه وبسط رزقه وجميع آثار أفعاله من أحوال الخلق والرزق والحياة والممات في الغيب والشهادة وفي الآخرة والدنيا.

وفي هذا الوجه وجهان:

أحدهما: أن الله تعالى حكى عنهم ﷺ القول والقول فعله بهم ما شاء كما شاء.

وثانيهما: أنه أخبر عن نفسه فهم الآيات وفي هذا الوجه وجهان:

أحدهما: أنه أخبر عن أفعال ذاته البحت المقدسة فالآيات المرئية معانيه وأبوابه وحججه.

وثانيهما: أن النفس المخبر عنها معانيه فالآيات المرئية أبوابه وحججه أو حججه إن كانت النفس هي الأبواب وهنا وجوه تضيق نفسي بنشرها ولا تضيق بكتمانها.

والثاني: أنهم الذين يعرفهم من عرف نفسه كما في قوله عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه) يعني أن الشخص إذا عرف نفسه مجردة عن كل إضافة ونسبة بكل اعتبار وفرض كما بيناه في شرح حديث كميل لم يجد إلا صفة الله سبحانه أي وصفه نفسه لذلك الشخص فلهذا يعرف ربه لأن ربه جل وعلا، لما أراد أن يعرفه ذلك الشخص وصف نفسه له وذلك الوصف هو حقيقة ذلك الشخص فليس هو شيئا غير ذلك الوصف ولا يمكن أن يعرف الله سبحانه أحد إلا بمعرفتهم.

قال علي عليه السلام (نَحْنُ الأَعْرَافُ الذِي لا يُعْرَفُ اللهُ عَزَّ وَجَل إِلا بِسَبِيل مَعْرِفَتِنَا).

وقولي يعرفهم من عرف نفسه واستشهدت بأن من عرف نفسه عرف ربه أريد به أنه سبحانه لما أحب أن يتعرف للخلق ولا يمكن أن يعرفوه بذاته الحق المحض تعرف لهم بوصف نفسه لهم كما ذكرنا، فأعلى وصف صدر عن فعله ما تعرف به لمحمد وآله ﷺ وذلك الوصف هو حقيقتهم من الوجود قال تعالى (وَلَهُ

المَثَل الأَعْلى فِي السَّماوات وَ الأَرْضِ)ثم وصف نفسه بهم لمن دونهم فكان هذا الوصف حقيقة هؤلاء الذين هم من دونهم كالأنبياء، ثم وصف نفسه عنهم بالأنبياء للمؤمنين العارفين مثلا فكان هذا الوصف حقيقة هؤلاء المؤمنين.

وهكذا فإذا جرّد المؤمن نفسه عن كل ما سواها كما قلنا وجدهم عليهم السلام ظاهرين له بوصف ربه له، فإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهم الآيات التي أراها الله ذلك المؤمن في نفسه فبها عرف ربه ولهذا قالوا صلى الله عليهم (بِنَا عُرِفَ اللهُ) (ولولانا ما عرف الله) (لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا) (ومعرفتنا معرفة الله)(ونحن أركان توحيده) وما أشبه ذلك.

والمثال في ذلك أن الصورة القائمة في المرآة عند مقابلة الشخص إذا جردت نفسها لم تكن إلا ظهور شبح الشخص في المرآة فتدرك شبح الشخص بظهوره بها الذي هو هي وإنما تعرف الشخص بمعرفة شبحه الذي هو ظهوره لها.

فمعنى أن الله يرينا إياهم في أنفسنا، على هذا الوجه أنه يرينا أن أنفسنا شعاعهم وظهورهم لنا بنا، وذلك لمن أراد الله سبحانه أن يعرفه نفسه ليكون من المحسنين فكل الخلق منهم وكل الخلق بهم وكل الخلق لهم وكل الخلق إليهم بل الخلق هم، والخلق عبارة عنهم لا يسمع فيها صوت إلا صوتك فهم بقية الله بهذا المعنى الذي ذكرنا فتفهمه راشدا موفقا.

قال عليه السلام وخيرته

قد انعقد الإجماع من الفرقة المحقة أنهم عليهم السلام خيرة الله من خلقه أجمعين من الأنبياء والمرسلين والملائكة والجن والإنس والحيوانات والنباتات والمعادن

والجمادات،لم يخالف في ذلك من هذه الفرقة إلا أفراد لا يعبأ بهم لضعف معرفتهم ودليلهم.

وقد دل الدليل القطعي العقلي والنقلي على بطلان معتقدهم وأنه لا يجوز أن يكون أحدهم الإمام عليه السلام فقام الإجماع على هذا المدعى.

بقي شيء في مطلق هذا المعنى وهو أنهم إنما يكونون خيرة إذا كانوا في وقت كان فيه جميع الخلائق من الحيوانات والنباتات والمعادن والجمادات إن قيل إنهم المختارون من الكل أو من هم مختارون منه إن أريد البعض ليكونوا مختارين ممن كانوا في جملتهم، وإلا فلا معنى للاختيار هنا لأنه بمعنى الانتخاب والانتقاء للشيء من بين أمثاله وهذا المعنى مذكور في القرآن في مواضع مثل قوله تعالى(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا)أي من قومه وقوله تعالى(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) ومثل ظاهر قوله تعالى(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ)فقدم الخلق على الاختيار إشعارا بأنه يختار مما خلق.

وقد دل الدليل على أنهم قبل الخلق بل روي أنهم قبل الخلق بألف دهر فكيف يصح الاختيار في حقهم ولم يوجد شيء يختارهم منه والجواب من وجهين.

الأول: أنه سبحانه عَلِمَ خلقه كلهم وهم في علمه في جامع واحد لا تقدم في علمه ولا تأخر لأنهم في مشيئته أي في الإمكان الراجح كل في المكان الذي أمكنه فيه، كما أشار إليه سيد الساجدين عليه السلام في دعاء الصحيفة(ثُمَّ سَلكَ بِهِمْ طَرِيقَ إِرَادَتِهِ،وَبَعَثَهُمْ فِي سَبِيلِ مَحَبَّتِهِ، لا يَمْلِكُونَ تَأْخِيراً عَمَّا قَدَّمَهُمْ إِلَيْهِ، وَلا يَسْتَطِيعُونَ تَقَدُّماً إِلى مَا أَخَّرَهُمْ عَنْهُ)هـ.

فوقع الاختيار منه سبحانه عليهم في ذلك المجمع فكانت الخيرة صفوة خلقه فوجب في الحكمة أن يلبسهم حلة الوجود قبل ما سواهم، لأنهم علة الإيجاد فأشرفوا (فأشرقوا) بكسوة الحقيقة وتأخر من سواهم لتوقف لبسه لحلة الوجود على وجودهم، لأن حلل ما سواهم أشباح حللهم وأمثالها وفاضلها وشعاعها، فظهر جميع الموجودات كل في مكانه من الجواز وهو الذي أمكنه فيه في الراجح فغيرهم وإن تأخرت مراتبهم عنهم عليهم السلام لانتظار قوابلهم ومتمماتها من المشخصات والمنوعات والمجنسات ، فإنهم في علمه الراجح في واد واحد فصدق الاختيار في عالم الأسرار على نحو ما يظهر من الاعتبار في الاختيار من الآثار.

الثاني: أن المراد من الاختيار أخذ ما هو خير ويدور صدقه على أخذ كثير الخير. وأولى تلك الأفراد ما هو خير بحت ومن دونه ما كان الغالب عليه الخير.

وهكذا فإذا وجد الخير البحت كان أخذه اختيارا إذ لا ينتظر فوق ذلك رتبة وإلا لما كان خيرا بحتا لأن المفروض أن ما فوقه بحت فبالنسبة إلى الأعلى يكون الأدنى مشوبا فلا يكون بحتا، فلا يكون خيرة إلا بالإضافة، وليس في الوجود الإمكاني خير بحت خالص غيرهم عليهم السلام فأخذهم له سبحانه ولم يوجد أحد سواهم ليصدق على هذا المشار إليه من الاختيار، الاختيار المعروف وهو الانتقاء للشيء من بين أشباهه في جهة ما وإنما كانوا بكينونة الله وتكوينه وحدهم يعبدونه ويوحدونه قبل أن يخلق شيئا من خلقه بألف دهر، وهم إذ ذاك خيرته من خلقه وإن لم يكن خلق سواهم لا تظن أنهم ما كانوا خيرته من خلقه إلا بعد أن خلق الخلق وإلا يلزمك أنهم ما بلغوا هذه الرتبة التي رتبهم الله فيها إلا بعد أن خلق خلقه، فاختارهم من بينهم لأن هذه الرتبة العالية فرع اختياره لهم في القدم

الذي نعبّر عنه بالوجود الراجح المشار إليه في قوله تعالى(يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) وهذا الاختيار هو الاختيار عن علم كما قال تعالى في حقهم صلى الله عليهم(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلمٍ عَلَى العَالَمِينَ)فاستحقوا الاختيار من الله قبل العالمين وهذا تأويلها وقبل هذه(وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيل)وإسرائيل هو عبد الله محمد بن عبد الله ﷺ الطاهرين وأنه لما قام عبد الله يدعوه.

وفي العياشي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله تعالى(يَا بَنِي إِسْرَائِيل) (قال هم نحن خاصة).

وعن النبي ﷺ أنه سمع يقول(يقول أنا عبد الله اسمي أحمد و أنا عبد الله اسمي إسرائيل فما أمره فقد أمرني وما عناه فقد عناني)هـ.

ثم قال تعالى(مِنَ العَذَابِ المُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ المُسْرِفِينَ) يعني نجينا آل محمد صلى الله عليه وعليهم من العذاب المهين، يعني فتنة من تقدم على وصيّه وشيعتهم وكل من سواهم وشيعتهم فقد ضلوا بتلك الفتنة وأضلوا كثيرا، يعني كل الخلق إلا آل محمد صلى الله عليه وعليهم وشيعتهم وضلوا أولئك هم وأتباعهم من أهل الضلالة عن سواء السبيل وقوله تعالى(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ) يعني في القدم كما ذكرناه.

ومعنى هذا الاختيار الإبانة والاستخلاص والاختصاص، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته يوم الغدير والجمعة(وأشهد أن محمدا عبده ورسوله استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس وانتجبه آمرا وناهيا عنه أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه) إلى أن قال عليه السلام (واختصه من تكرمته بما لم يلحقه فيه أحد من بريته فهو أهل ذلك

بخاصته وخلته إذ لا يختص من يشوبه التغيير ولا يخالل من يلحقه التظنين).

أقول: فيه بيان ما أشرنا لك إليه أولا بقولنا إذا وجد الخير البحت كان أخذه اختيارا كما أشار إليه عليه السلام بقوله (إذ لا يختص من يشوبه التغيير ولا يخالل من يلحقه التظنين) وهذا هو ما لوحنا لك به إن هذا لا يوجد إلا قبل وجود الخلق فراجع.

ثم إنه عليه السلام قال بعد ذلك في هذه الخطبة (وأن الله تعالى اختص لنفسه بعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من بريته خاصة علاهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته) إلى أن قال عليه السلام(أنشأهم في القدم قبل كل مذروء و مبروء أنوارا أنطقها) إلى أن قال عليه السلام (وأشهدهم خلقه وولاهم ما شاء من أمره جعلهم تراجم مشيته وألسن إرادته)هـ.

أقول: تدبر هذه الكلمات الشريفة تبين لك ما أشرنا إليه وفيها أسرار عجيبة وعلوم مستوحشة مستصعبة غريبة لو فسح لي وأذن لي لأسمعتك منها سجع تلك الأطيار على ناضرات تلك الأشجار بشكر النعم التي لا تحصى والآلاء التي لا تجزى قال الشاعر:

أيـن مهـل الـــزمان حتى أؤدي

شكر إحســـانك الذي لا يؤدى

ثم اعلم أن مرادنا بمعنى اختيار الله سبحانه إياهم جعلهم خاصته فهم أبدا عنده، وله لا يفقدهم حيث يريد لأنه جل وعلا اصطنعهم لنفسه ومن فاضل ذلك الاختصاص والاصطناع كرم موسى عليه السلام فقال (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي).

وفي الحديث القدسي (خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك) وقالَ علي عليه السلام (نحن صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا) أي اصطنعنا لنفسه واصطنع الخلائق

لنا وهذا الاصطناع هو ما أردنا بقولنا (فهم أبدا عنده) ، وإلى هذا المعنى ما أشار الصادق عليه السلام إليه في حديث طويل رواه المفضل بن عمر عنه عليه السلام حين ذكر بعض ما خصهم الله تعالى به قال له المفضل (هل بذلك شاهد من كتاب الله تعالى قال: نعم يا مفضل قوله تعالى(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ الليْل وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) إلى قوله(وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) ويحك يا مفضل أتعلمون إن من في السموات هم الملائكة ومن في الأرض هم الجن والبشر وكل ذي حركة فمن الذين قال(وَمَنْ عِندَهُ)قد خرجوا من جملة الملائكة والبشر وكل ذي حركة، فنحن الذين كنا عنده ولا كون قبلنا ولا حدوث سماء ولا أرض ولا ملك ولا نبي ولا رسول) الحديث.

فهذا معنى كونهم خيرة لأن الاختصاص والاصطناع هو الغاية والفائدة في الاختيار.

قال عليه السلام وحزبه

أي جنده وأنصار دينه فيه إشارة إلى أن هذا الحزب والجند بتولي الله والتفويض إليه والاعتصام به والقيام بواجب حقه يهزم الأعداء ويغلبهم إذ بالله يطول وبه يصول متبريا من الحول والقوة إلا بالله العلي العظيم من قوله تعالى(وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ) وإنما جعلهم الله حزبه وجنده الأغلب لأن الله سبحانه لما كان صنعه وأفعاله جارية بالحكمة على مقتضى النظم الطبيعي لأن ذلك من شرائط الإيجاد ومن المشخصات والمتممات للقابليات وكان قد خلقهم صلى الله عليهم قبل الخلق لما قلنا فإن من النظم

الطبيعي بل كله أن العلة قبل المعلول وأن السبب قبل المسبب سواء في القابل والمقبول، وإنما خلق جميع خلقه من فاضل أشعة أنوارهم ومن عكوس تلك الأشعة وجميع إمدادات الخلائق من فاضل أشعتهم بهم فهم في الحقيقة قائمون بهم في أظلتهم قيام صدور وقيام تحقق ولهذا كانوا هم يد الله التي في قبضتها ملكوت كل شيء كانوا لأجل ذلك هم جند الله الأغلب لأن جميع الخلائق في قبضتهم ولهذا قال الحسين عليه السلام في الحديث المتقدم لعبد الله بن شداد (والله ما خلق الله شيئا إلا وقد أمره بالطاعة لنا) وكذا نداؤه للحمى وتلبيتها له وخطابه إياها، وفي دعاء الصباح والمساء (أَصْبَحْتُ اللهُمَّ مُعْتَصِماً بِذِمَامِكَ المَنِيعِ الذِي لا يُطَاوَل وَلا يُحَاوَل) وذمامه هو ولايتهم كما بينه في هذا الدعاء والعلة في ذلك ما ذكرنا من أن بقاء وجودات جميع الخلائق متوقف على إمدادتهم وأشعة أنوارهم كما قال سيد الوصيين عليه السلام فيما رواه صاحب أنيس السمراء كما تقدم.

قال عليه السلام (لم تكن الدعائم من أطراف الأكناف ولا من أعمدة فساطيط السجاف إلا على كواهل أنوارنا) الحديث.

وقبل هذه الكلمات بكلمات قال عليه السلام (لأن الدهر فينا قسمت حدوده ولنا أخذت عهوده وإلينا برزت شهوده ...الخ).

والدعائم جمع دعامة بكسر الدال عماد البيت والخشب المنصوبة للتعريش. والأكناف جمع كنف وهو الظل للشيء وكنف غنمه عمل لها حظيرة تأوي إليها والفساطيط جمع فسطاط بضم الفاء وهو مجتمع أهل الكورة أي المدينة والصقع والسرادق الممدود فوق البيت من سقف وغيره.

والسجاف جمع سجوف والسجوف جمع سجف وهو ستران مقرونان بينهما

فرجة أو كل باب ستر بسترين مقرونين والمعنى لم تقم دعائم بيوت الموجودات في سائر الإمكانات وسقوفها ولا أعمدة أستارها من أكوانها وأعيانها وهياكلها وأحوالها وأفعالها وأقوالها وأعمالها وحركاتها وسكناتها وارتباطات بعضها ببعض ونسبها إلا على كواهل أنوارنا.

والكواهل جمع كاهل وهو مقدم أصل الظهر أو الحارك وهو منبت شعر العرف المتصل بظهر الحيوان الذي يأخذ به من يركبه يعني لا يقوم شيء من خلق الله إلا بقيومية أنوارنا على نحو ما أشرنا إليه ونبهناك عليه فهؤلاء صلى الله عليهم لأجل ذلك هم حزب الله على الحقيقة وجنده الذي لا يغالب ولا يطاول.

فإن الله سبحانه غلب بهم كل شيء واستعبد لهم كل شيء فهم سر الحي القيوم في كل شيء بمعنى أن حياة كل شيء تحملها كواهل أنوارهم والقيومية في كل شيء بمدد إفاضاتهم قال الله سبحانه وتعالى(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) فبعث جل وعلا جنده الغالب على جميع من برأ وذرأ عذرا أو نذرا فآمن بهم من آمن وكفر من كفر وأسلم من أسلم ونجا من نجا وهلك من هلك ورزق بهم وحرم وأسعد بهم وأشقى وأضل بهم وهدى ولهم الجنة ولهم النار وبهم الثواب وبهم العقاب.

قال علي عليه السلام في الحديث المشار إليه سابقا الذي في أنيس السمراء قال(ونحن العمل ومحبتنا الثواب وولايتنا فصل الخطاب ونحن حجبة الحجاب)الحديث.

وذلك تأويل قوله تعالى(وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا) وكذا قوله تعالى(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ

مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) وهو من تفسير ظاهر الظاهر والإشارة إلى هذا التأويل في الآية الأولى أن المنزل إليه من السحاب المتراكم ماء هو بالقبول مادة الهدى والإيمان والتقوى ويزيد من لم يقبل بإنكاره طغيانا وكفرا لأنه بالإنكار كذلك كما قال تعالى(بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ) وذلك لأن المنزل عليه الآيات الكبرى.

وفي الآية الثانية أن القرآن هو المنزل عليه ﷺ والمنزل منه ماء قد جعل الله منه كل شيء حي فيه شفاء ورحمة للمؤمنين بباطنه الذي هو الجنة، وهو قول علي عليه السلام كما تقدم ونحن العمل ومحبتنا الثواب (وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ) آل محمد حقهم من الأولين والآخرين بظاهره الذي من قبله العذاب (إَلاَّ خَسَارًا) فبظلم من أعدائهم زادوهم خسرانا مبينا، لأن الماء هو قائد المؤمنين بطاعتهم إلى الجنة وذائد المعاندين بمعصيتهم إلى النار ولا يخالف شيء محبته فلهذا فسرنا الجند باليد التي بها ملكوت كل شيء فافهم.

قال عليه السلام وعيبة علمه

العيبة: وعاء من أدم وما يجعل فيه الثياب ومن الرجل موضع سره ومنه العياب الصّدور أو القلوب .

يقال: صدره عيبة العلم وقلبه عيبة السر وكونهم عليهم السلام عيبة علم الله بمعنى أن علم الله الحادث الذي تطور في أنحاء الإمكان في الرجحان والتساوي بالأطوار المختلفة على وصف لا يمكن حصر أطواره حيث كان العلم نفس المعلوم في رتبته وغيره قبله أو بعده وسنشير إلى بعض هذه الرموز هنا وبعده كان عندهم

صلى الله عليهم بجميع تلك كل حرف منه في محل وجوده ووقت حدوده فمنه هم ﷺ ومنه منهم ومنه إليهم ومنه فيهم ومنه بهم ومنه عنهم.

فالأول قول علي ﷺ (ونحن جنبه ويده ولسانه وأمره وحكمه وعلمه) الحديث.

وقد دلت أخبارهم على هذه المذكورات وهي أن العلم منهم صدر وإليهم يعود وفيهم يستقر وبهم تعلم من تعلم منهم فيما يحبه الله من الحق ومن الخلق المتغير بتغير المبدّلين، الذين غيروا خلق الله فيما يكرهه الله من الباطل وعنهم أخذ من أخذ من باطنهم أو من ظاهرهم وخلافهم.

أما ما في الرجحان فهم محاله وعيبته لا يخرج منهم إلى غيرهم وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ (فاستقر في ظلك فلا يخرج منك إلى غيرك) فذلك الاسم الأكبر المشار إليه علمه تعالى فيهم وهم ظله الممدود الذي جعل شمس مشيئته عليه دليلا ثم قبضه إليه قبضا يسيرا وضمير المخاطب هو ذلك ومعوده ذلك بما فيه من ذلك الاسم الأكبر والرجحان المطلق ويعنى بذلك والمعود الواجب الحق الظاهر بالوجود المطلق الطائش في دائرة ظهوره، حتى كان الموجود الطائش مفقودا في الموجود والمفقود المخفي موجودا في المفقود.

وأما التساوي ففيه الاعتبارات الثلاثة الاتحاد والقبلية والبعدية وهذا في سائر المراتب في كل شيء بحسبه، فالأول فيه يكون العلم عين المعلوم مثلا الصورة الذهنية التي في الخيال المنتزعة من المعنى الخارجي هي العلم وهي بعينها المعلوم.

أما أنها المعلوم فلأنها شيء فهو معلوم وهذا ظاهر وأما أنها العلم فلأن الصورة

إذا كانت معلومة إما أن تكون معلومة بنفسها أو بصورة أخرى.

ومن الثاني يلزم الدور أو التسلسل فوجب الأول فتكون هي العلم فهي العلم بها وهي المعلوم وأما المعنى الخارجي فهو معلوم فعلى الظاهر المتعارف عند الناس أن العلم به هو الصورة الذهنية المنتزعة منه.

وأما في الحقيقة فهو العلم به وهو المعلوم وأما دلالة الصورة عليه فلأنها مثاله وتدل عليه لا أنها العلم وإذا أردت تصور ذلك فكما ظهر لك في الصورة اتحاد العلم مع المعلوم فاعلم بذلك في المعنى الخارجي لعدم الفرق بين أفراد الوجود لتساويها في نسبة العلمية والمعلومية ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فالعالم يعلم الشيء به على حد تأويل قول الشاعر:

رأت بدر السمـــاء فذكرتــني
ليـالي وصلتنـا بالـرقمتـين
كلانـا نـاظـر قمـرا ولكــن
رأيت بعيـنهــا ورأت بعيـني

وأما القبلية فالحقيقة مثل ما يقال إن الصورة الذهنية علم بما انتزعت منه أو القبلية الدهرية والاعتبارية في صورة الاتحاد أن العلم في الاعتبار قبل المعلوم هذا في صورة غير العلة، وأما في صورة العلة للمعلوم فالعلم قبل المعلوم لأنه أصل المعلوم وعلته كما إذا نقشت ما تصورته فإن ما تصورته علة وأصل لما نقشته لأنك علة لهذا النقش، وأما البعدية فهو المسمى بالمطابق فإنه بعد المعلوم وإن قيل بأنه قبله في الدهر، وإن كان بعده في الزمان ومنه العكوسات في المرايا الظاهرة والباطنة ومنه أيضا وقوع العلم على المعلوم بعد وجود المعلوم لا قبله لأنه قبله

لم يكن معلوما فلم يوجد علم به وقد قال تعالى(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ) وهذا من المطابق اللاحق وأما السابق فهو العالم ولا ربط بين العالم والمعلوم وإنما الربط والاتحاد بين العلم والمعلوم لأنه ليس قبل المعلوم إلا العالم لا غير فلا علم قبل المعلوم غير العالم، ووقوع العلم على المعلوم عند وجوده هو وجوده لا غير.

فالعقل علم بالعقل نفسه في الاتحاد وبالروح في القبلية وكذا بالنفس وبالجسم والروح علم بنفسها في الاتحاد وبالعقل في البعدية وبالنفس والجسم في القبلية، والنفس علم بنفسها في الاتحاد وبالروح وبالعقل في البعدية وبالجسم في القبلية والجسم علم بنفسه في الاتحاد وبالنفس وبالروح وبالعقل في البعدية وبالعرض في القبلية والعرض علم بنفسه في الاتحاد وبالجسم وبالنفس وبالروح وبالعقل في البعدية وهكذا ما قبل المذكورات وما بعدها وما بينها بهذه النسبة وكذا الأمثال المتعددة للشخص الواحد فإن المثال الواحد منها علم بنفسه في الاتحاد بما فوقه إلى جهة الشخص في البعدية وبما تحته إلى جهة أعراضه وأعراض أعراضه وصفاته وصفات صفاته في القبلية، وبيان الأمثال أنك إذا رأيت زيدا يوم السبت مثلا يصلي في المسجد الفلاني ورأيته يوم الأحد يزني في المكان الفلاني فإنك بعد ذلك كلما التفت بوجه خيالك إلى تلك الحالة رأيت مثاله في المسجد يوم السبت يصلي أبدا لا يفارق مثاله تلك الحالة الأولى التي رأيته عليها في المسجد يوم السبت وإذا التفت بوجه خيالك إلى الحالة الأخرى رأيته يزني يوم الأحد في ذلك المكان أبدا وهكذا جميع الأمثال لجميع الأشياء إلى يوم القيامة، فإذا غفر الله ذلك الذنب يوم القيامة محا مثاله.

فلا تجده مشاعر الملائكة ولا البشر إذ ليس شيء ثم ينطبع في مرايايها(يَا مَنْ أَظْهَرَ الجَمِيل وَ سَتَرَ القَبِيحَ) وإن لم يغفر وجدوه لازما له إلى يوم القيامة وبعده يلبس صاحبه ملابس العذاب من صور ذلك المثال اللازم له بلا نهاية(وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلونَ)(سَيجزيهم وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَليمٌ).

وكلما أشرنا إليه وأمثاله كتب مملوءة من علم الله تجمعها العياب الكلية العلية كلماتها وحروفها وقرطاسها وبيوتها ومدنها في خزائن تلك العياب الشريفة وهو قلوب محمد وآله الطيبين وصدورهم وأفئدتهم وحواسهم ﷺ الطيبين.

وأردت بقرطاسها ما هي فيه من الأنوار الوجودية مثلا زيد في أنوار جعل الله تعالى من أشعة مشيئته وإرادته وقدره وقضائه وإذنه وكتابه وأجله، وجعله لصفاته وأفعاله وأقواله وأعماله وأمثاله وما ينتظم على ذلك من الروابط والنسب وغير ذلك.

وأردت ببيوتها مشخصات الذوات والصفات والأفعال والأقوال والأعمال والأمثال.

وأردت بمدنها ما يخص كل شخص من المتخيلات والمتصورات والمعاني وما على تلك المدن من الأقفال والمفاتح والخزان من الملائكة وما على البيوت منها كل تابع لما وُكِّل به لا تأخذهم السنات ولا يقطعهم سهو الغفلات عن القيام بما وكلوا به (يُسَبِّحُونَ الليْل وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)،والإشارة إلى نوع ذلك التسبيح والقيام الصحيح هو أن زيدا مثلا يتصور المكان الفلاني والبلد الفلانية ومسائل النحو والفقه وسائر علومه، وكل صنف منها في مدينة وفي كل مدينة فيها قصور وفي كل قصر دور وفي كل دار بيوت وفي كل بيت صنف من المسائل، مثلا علم

النحو في مدينة بابها مقفل ومفتاحها بيد الملك الموكل بها وباب المبتدأ والخبر في قصر من تلك المدينة بابه مقفل مفتاحه بيد الملك الموكل بها وحكم رفعهما في دار بابها مقفل مفتاحه بيد الملك الموكل بها وحكم ما رفع منه في اللفظ في بيت بابه مقفل مفتاحه بيد الملك الموكل به، وحكم ما رفع منه في التقدير في بيت آخر بابه مقفل مفتاحه بيد الملك الموكل به، فإذا أراد زيد معرفة ما كان علم من حكم رفع المبتدأ تقديرا مثلا توجه بوجه قلبه وهو خياله إلى مدينة النحو وقرع بابها القرع المختص بها عرفه صاحب المفتاح وهو الملك الموكل ببابها ففتح له الباب فيتوجه إلى قصر المبتدأ والخبر فيقرع بابه كذلك فيفتح له بابه الملك الموكل به فيدخله ويتوجه إلى دار رفعهما لفظا وتقديرا فيقرع بابها كذلك في فيفتح له الملك الموكل به، بابها فيدخله ويتوجه إلى بيت رفعهما تقديرا فيقرع بابه كذلك فيفتح له الملك الموكل به بابه فيدخله ويأخذ مسألته منه ويخرج منه فيغلق بابه الملك وهكذا إلى أن يخرج من المدينة فيغلق بابها الملك وليس ملك من هذه الملائكة يفتح باب ما وكل به حتى يأتيه الإذن من الله سبحانه على لسان وليه من آل محمد ﷺ وهو إمام ذلك الزمان زمان طلب زيد لتلك المسألة، وكذلك لا يغلق ملك بابا إلا بإذن خاص في كل مرة فإن كان زيد كثير المعاهدة لتلك المسألة أنست به تلك الملائكة، فكلما طلب فتحوا له لأنسهم به وأتاهم الإذن من الله تعالى لسؤاله منه تعالى بلسان استعداده الصادق في دعائه بدوام العمل وإن لم يكن كثير المعاهدة فقد يفتح له عند طلبه مع موافقة القدر وقد تتوحش الملائكة منه فلا تفتح له لتوحشهم منه ولعدم استعداده وعدم موافقة القدر فينسى تلك المسألة، فأرشد أهل العصمة عليهم السلام شيعتهم بأن يصلوا على محمد وآله ﷺ فتفتح له الملائكة لأن

الصلوات على محمد وآل محمد ﷺ تفتح له الحجب فيما بين العبد وبين الله فيأمر الملائكة بقضاء حاجته، وهذه المدن أوراق من ذلك الكتاب الذي هو علم الله الذي هم عيبته لأن كل ما أشرنا إليه من أول مراتب الوجود إلى ما لا نهاية له من الإمكان كتب وأوراق وكلمات وحروف ونقط من علم الله سبحانه الذي هم عليهم السلام عيبته وإليه الإشارة بقوله تعالى(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) وفي هذه الفقرات أبحاث ونكات لا تسعها الدفاتر وإنما يسعها التلويح والإشارة اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

قال عليه السلام وحجته

الحُجة: بضم الحاء هي البرهان والدليل وإنما كانوا هم عليهم السلام الحجة لأنهم الأدلاء على الله ولأن الله تعالى يحتج بهم على خلقه فتقوم بهم الحجة على الخلق لأنهم علماء لا يجهلون كرماء لا يبخلون قد جمع فيهم جميع صفات الكمال بحيث لا يدانيهم أحد من خلقه في صفة من صفات الكمال من علم وحلم وحكم وكرم وشجاعة وزهد وعبادة وورع ويقين وعفة وغير ذلك.

فإذا أمروا كان ما أمروا حقا لا شك فيه وإذا دلوا على شيء كان صوابا، وهكذا لأنهم معصومون عن الخطأ والجهل والغفلة والخيانة والطمع وجميع ما ينافي الركون إليهم في الأفعال والأحوال والأعمال والأقوال والحركات والسكون فلأجل ذلك احتج بهم على العباد فيما يريد منهم بحيث لا يجد أحد

من الخلق اعتراضا ولا يجد أحد من الخلق من حيوان ونبات وجماد في نفسه أو حاله أو قابلية ذاته ما يميل إليه لم يكن عندهم ولا أنهم الوسيلة فيه ولا أن يحصل بدونهم بل أو يوجد بدونهم فوقع الاضطرار إلى كونهم حجة الله على جميع ما خلق وبرأ لأنهم عليهم السلام العند المشار إليه في قوله تعالى(مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)فافهم ما أتحفناك به وكن به ضنينًا.

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام إنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرسل قال(إنا لما أثبتنا أن لنا خالقا صانعا متعاليا عنا، وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيما متعاليا لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشروهم ويباشروه ويحاجهم ويحاجوه ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلوهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز وهم الأنبياء وصفوته من خلقه حكماء مؤدبين في الحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم مؤيدون عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكي لا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته) إنتهى .

ثم اعلم أن ما احتج الله تعالى به لنفسه ولأنبيائه ورسله وأوليائه مما أيدهم به من الآيات البينات والمعجزات الظاهرات الباهرات التي جعلها حججا لما أراد تشييده من معالم دينه وتكاليف عباده وهي ما أظهرها لخلقه في الآفاق وفي أنفسهم التي أشار إليها في قوله تعالى(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) وفي قوله تعالى(وَتِلكَ الأَمْثَال نَضْرِبُهَا للنَّاسِ ـَمَا يَعْقِلهَا إِلا العَالمونَ) وغير ذلك وما أظهرها على أيدي حججه عليه السلام من الآيات الخارقة للعادات كلها حجج الله سبحانه على خلقه احتج بها عليهم فيما أراد منهم وهي كلها آيات محمد وآله الطاهرين صلى الله عليه وآله أجمعين وحججهم فهي حجج الله أظهرها بحججه عليه السلام لمن شاء كيف شاء وإلى هذا الإشارة بقول الصادق عليه السلام كما في أنيس السمراء عن المفضل بن عمر في (قوله تعالى(وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ) قال عليه السلام (هي والله آياتنا) وهي لهم مظاهر منها مظاهر ذات، ومنها مظاهر صفات ذات، ومنها مظاهر صفات أفعال، ومنها مظاهر آثار وكلها حجج الله وآياته فهم حجج الله العليا وآياته الكبرى كما أشار إليه سيد الوصيين عليه السلام في الملأ الأعلى.

قال عليه السلام (وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله)هذا في الظاهر وفي الحقيقة والباطن هم الملأ الأعلى الذين يختصمون فيهم فهلك فيهم من رفعهم عن مقامهم الذي أقامهم فيه فلم يجعل لهم ربا يؤوبون إليه وهلك فيهم من وضعهم وحطهم عن مقامهم ونجى بهم من وضعهم حيث وضعهم الله وربك على كل شيء حفيظ.

قال عليه السلام وصراطه

قال الشارح محمد تقي رحمه الله الذي قال الله تعالى وتقدس(وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)وورد في الأخبار المتواترة أنهم الصراط المستقيم هـ.

أقول: الصراط لغة الطريق والجسر الممدود على جهنم يسمى به لأنه طريق

الجنة. وفي الحديث ما معناه أنه مسير ألف سنة صعود وألف سنة حدال وألف سنة نزول وحدال ، قال وحدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن جعفر بن غياث قال (وصف أبو عبد الله عليه السلام الصراط فقال ألف سنة صعود وألف سنة هبوط وألف سنة حدال)،كغراب من قولهم قوس محدلة أي تطامنت إحدى سيتها والسية بالكسر مخففة ما عطف من طرفيها والمراد من حدال بالمهملتين الميل أي الإنعطاف، وقال الأميرزا محمد المشهدي بن محمد رضا بن إسماعيل بن جمال الدين القمي صاحب التفسير في حاشية منه الأظهر أنه بالذال المعجمة وكاف الخطاب والمعنى حذاء وجهك وهو ما ليس بصعود ولا هبوط انتهى ، وجعل المشهور في النسخ وهو حدال احتمالا.

أقول: وهذا هو الأظهر كما هو الموجود في أكثر النسخ ويحتمل بالحاء المهملة والذال المعجمة بمعنى المائل فيفيد معنى حدال بالدال المهملة لأنه يقال حَذلكَ مَعَ فلان أي ميلك، والحاصل أن حذاك بكاف الخطاب لا يدل على انعطافه بخلاف حدال باللام فأنه يدل على الانعطاف لأن هذا الجسر الممدود على جهنم هو طريق الصعود بالتكاليف وهو قوس الصعود فيكون وسطه الذي هو ثلث القوس الأوسط منعطفا، وإنما ذكر صفة الوسط الذي هو معترك التكاليف وفيه خمسون موقفا يمكثون في كل موقف للحساب ألف سنة(وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)فيكون مكث الخلائق في الحدال خمسين ألف سنة(فِي يَوْم كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا)وإنما ذكر ونبه عليه بأنه حدال لئلا يتوهم من قوله ألف سنة صعود وألف سنة نزول أن الوسط كان مستقيما بالمعنى المصطلح عليه عند أهل الهندسة وهو أقصر الخطوط الواصلة بين نقطتين

ونبه ببيان الوسط بأنه منعطف على انعطاف الطرفين لكونه في نفسه خطا واحدا وإلا لكان ثلاثة، وأما أنه مستقيم في نفسه على المعنى الحقيقي من اللغة العربية الإلهية فلأنه لا حيف فيه ولا اعوجاج بالنسبة إلى من يمر عليه كالبرق الخاطف والجواد السابق ومن دونهما وإلى من يحبو حبوا وإلى من تأخذ النار بعضه، وإلى من يسقط فيها على اختلاف المراتب من الطرفين شدة وضعفا وإنما يسير عليه الخلائق بأعمالهم فهو بعمل العامل العارف كما بين الأرض والسماء وبجهل الجاهل وعدم عمله أدق من الشعر وأحدّ من السيف، يعني يضطرب كالشعر ويشق الأقدام كالسيف وهو في نفسه لا يتغير وإنما يتسع ويضيق بالأعمال مثاله في دار التكليف مسألة دقيقة المأخذ محفوفة بالشبه فمن عرفها كما هي وتكرر فيها بالعمل كالتعريف والتبيين والتمثيل كان سيره فيها مع دقتها كالبرق الخاطف فهي له كما بين الأرض والسماء ومن لم يعرفها سقط في الظلمة التي لا يهتدي فيها إلى مدخل ومخرج ومثوى فهي له أدق من الشعر وأحد من السيف فافهم الإشارة فإن هذا الخبر إذا وصلت إلى أصله وجدته عياناً فإذا عرفت هذا فقول الشارح ﵀ الذي قال الله (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)يشير به إلى أن الصراط المستقيم حيثما ذكر في القرآن الكريم فالمراد به هم ﵈ لا خصوص هذه الآية وإنما أتى بها تمثيلا وأشار إلى الدليل على ذلك بأخبارهم صلى الله عليهم ، وهذا الكلام في نفسه حق لا مرية فيه إلا أنه مبهم مجمل ورفع الإبهام والإجمال عن هذا الكلام للخواص والعوام مما لا يسعه المقام.

وأما للخواص خاصة فهو سهل التناول لطي ما بعد منه بالإشارة والتلويح ولولا خوف انغلاقه حتى على الخواص لكتبته في سطر واحد.

فأقول: الصراط هو الطريق وهم عليهم السلام صراط الله أي طريق الله إلى خلقه في الخلق والرزق والحياة والممات، وهم طريق الخلق إلى الله في جميع مطالبهم في ذرات الأمور الأربعة المذكورة التي هي أركان ما في الإمكان فجميع الخلائق يسعون إلى الله تعالى أي إلى ما منه بدؤوا في مطالبتهم بأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم ووجوداتهم وقوابلهم وجميع استعداداتهم ، فالجعل الذي ذرأ فيه جميع الخلائق بما هم عليه لما هم له عنهم عليهم السلام صدر وبهم ظهر وفيهم بطن واستتر فالخلائق قائمون بظلهم الذي مده الله سبحانه وجعله الدليل عليه شمس حقيقتهم، فبهم خلق سبحانه وتعالى ما خلق ورزق ما قدّر وأحيى وأمات ولو شاء لأعطى كل واحد من خلقه ما شاء كما شاء لكمال غناه عما سواه، ولكنه للطفه ورحمته وعطفه على ضعفاء خلقه أجرى حكمته أنه يفعل بالأسباب التي هي العلل الأربع الفاعلية والمادية والصورية والغائية لعجز الأكثر عن القبول لإيجاداتهم على ما هم عليه إلا بالأسباب والمتممات للقوابل فبحكم مقتضى الحكمة جعل محمدا وأهل بيته المعصومين خزائن تلك الأسباب بحقيقة ما هم أهله فوجب في الحكمة الربانية المشار إليها أن يكونوا صلى الله عليهم خزائن محبته ونواب إفاضته وأبواب فيضه ومدده وحفظة آلائه ونعمه وحملة آثار جوده وكرمه إلى ما شاء من جميع خلقه، وأن لا يكون له سبحانه طريق ولا باب تفيض منه عطاياه وإمداداته غيرهم فهم صراطه في علمه بخلقه وقدرته عليهم وسمعه لكلامهم ورؤيته لهم على ما هم عليه وإمداده وقيوميته إياهم وجميع ما بهم منه من خلق ورزق وموت وحياة.

وهذا في الحقيقة معنى كونهم تراجمة لأنهم يترجمون الوحي بما تفهم الخلائق

المراد منهم التكليف بذلك الوحي ومعنى هذه الترجمة الوساطة بين الحق سبحانه وبين الخلق في الوحي الظاهري في تبليغ الشرعيات من التكاليف الظاهرة والباطنة من لوازم الإيجادات الابتدائية وملزومات الإيجادات الغائية، وفي تبليغ جميع ذرات الإيجادات الظاهرة والباطنة من لوازم التكليفات الغائية وملزومات التكليفات الابتدائية فبهم صلى الله عليهم يخلق الله سبحانه وتعالى المكلف وبهم ألزم خلقه التشريع وبهم كلفه بما أراد من الاعتقادات والأعمال وبهم ألزم أعماله واعتقاداته إيجادات أكوانها وأعيانها ومقاديرها وكمياتها وكيفياتها ورتبها وأمكنتها وأوقاتها وآجالها. وما يترتب على ذلك هذا بالنسبة إلى ما منه سبحانه وتعالى إلى الخلق وبالنسبة إلى ما من الخلق إليه تعالى فبهم عليهم السلام وبالاتباع لهم والأخذ عنهم والولاية لهم والبراءة من أعدائهم ومن ولايتهم والاقتداء بهم والأخذ عنهم ومن الرضى بهم وعنهم يقبل الأعمال ويرفعها إليه وبترك الأخذ عنهم وعدم ولايتهم وعدم البراءة من أعدائهم يردها على صاحبها، فلما أشرنا إليه ونبهنا عليه كانوا عليهم السلام هم صراط الله الذي لا يصل شيء من الله إلى شيء من خلقه إلا بواسطتهم ولا يصل أحد ولا عمل إلى الله تعالى إلا بواسطتهم فهم طريق كل ما ينزل وكل ما يصعد وكونه مستقيما أنه يجري صعودا ونزولا على حد من العدل والحكمة المقتضية لصلاح الخلق واختيارهم كما هم مذكورون به في بدء شأنهم في علم الغيب لا يكون بعده إلا الظلم والجبر والفساد ولهذا قيل هم الصراط المستقيم والقسطاس المستقيم، ولما كان الجسر الممدود على النار الذي فيه خمسون عقبة كؤودا فيها الحساب الحق والعدل المطلق صفة لما جاءوا به وفرعا عما أمروا به وبيانا لما أرادوا من الخلق سمي الصراط المستقيم وقد أنزل

سبحانه كتابه المجيد ناطقا بهذا التحميد قال تعالى(اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ⋆ صِرَاطَ الذِينَ أَنعَمتَ عليهم)وقال الله تعالى(وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)وغير ذلك من الآيات وأخبارهم في هذا المعنى لا تكاد تحصى اللهم صل على محمد وآله الطاهرين.

قال عليه السلام ونوره ورحمة الله وبركاته

قال الشارح رحمه الله: النور إما بمعنى الهادي أو العلم أو الهداية بمعنى المهتدى إليه بالهداية الخاصة أو منور العالم بالوجود لأجلهم وهدايتهم.

أقول: في القاموس النورُ(بالضم الضوء أيا كان أو شعاعه)هـ.

وفي الكافي والمعاني والتوحيد و العياشي. عن الصادق عليه السلام في تفسير البسملة(قَال البَاءُ بَهَاءُ اللهِ وَالسِّينُ سَنَاءُ اللهِ)هـ.

والبهاء: هو الضياء والسناء هو النور كما قال تعالى(هُوَ الذِي جَعَل الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُورا)والمعروف عندهم أن النور هو الظاهر في نفسه المظهر لغيره فيشمل هذا المفهوم الضياء والسناء، لأن السناء مثل الضياء ظاهر في نفسه مظهر لغيره وعلماء المعرفة يشيرون بالباء إلى الجبروت وبالسين إلى الملكوت فالجبروت هو الضياء والملكوت هو السناء، والجبروت ظاهر في نفسه مظهر لغيره مما هو دونه من الملكوت والملك وكذلك السناء أيضا فإنه ظاهر في نفسه مظهر لغيره مما هو دونه كالملك وحكم بعض أجزاء الملك بالنسبة إلى بعض الآخر كذلك فيصدق على كل من العوالم الثلاثة وما بينها من البرازخ اسم النور ولا شك أنها من أنوارهم عليهم السلام ، فهم نور النور وكل ذرة من ذرات الوجود نور من أنوار

الله سبحانه وإن كان فيها أشياء غواسق لا تظهر في نفسها وإنما يظهرها غيرها إلا أنها وجودات ولا ريب أن لها ظهورا في نفسها وإظهارا لغيرها من جهات، وإن احتاجت في بعض الجهات إلى إظهار الغير لها وكون ما سواهم من أنوارهم لأن ما سواهم إما فعلهم أو مفعولهم بلا واسطة أو بواسطة أو بوسائط، والفعل والمفعول شعاع الفاعل والمراد بالمفعول ما حدث عن الفاعل(الفعل)لا ما وقع علية الفعل كما اصطلح عليه النحاة في مثل ضربت زيدا بل كمثل ضربت ضربا ، ولما كانت هذه الأنوار بعضها صدر عن بعض اختار سبحانه النور الذي صدرت عنه الأنوار ولم يصدر عن نور مفعول وإنما صدر بفعله ومشيته أي بنفسه ذلك النور فنسبه إليه وأضافه إلى نفسه تكريما له وتعظيما وإبانة له من سائر خليقته فقال عز من قائل(اللهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ)يعني هادي من في السموات والأرض أي هاديهم بنوره وهو محمد وأهل بيته صلى الله عليهم أجمعين على نحو ما سبق في بيان حجته وصراطه مثل نوره وهو محمد ﷺ .

روى عبد الله بن جندب قال (كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام أسأله عن تفسير قوله تعالى (اللهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ) ، فكتب إلي الجواب، أما بعد فإن محمدا ﷺ كان نور الله في خلقه فلما قبض كنا أهل البيت ورثته فنحن أمناء الله في أرضه عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام وما من فئة تضلّ مائة وتهدي مائة إلا ونحن نعرف سائقها وقائدها وناعقها وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق وإن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسامي آبائهم أخذ الله علينا وعليهم الميثاق يردون موردنا ويدخلون مدخلنا نحن الآخذون بحجزة نبينا ﷺ ونبينا آخذ بحجزة ربه (والحجزة النور) وشيعتنا

آخذون بحجزتنا من فارقنا هلك ومن تبعنا نجا والجاحد بولايتنا كافر ومتبعنا ومتبع أولياؤنا مؤمن لا يحبنا كافر ولا يبغضنا مؤمن ومن مات وهو يحبنا كان حقا على الله أن يبعثه معنا نحن نور لمن تبعنا وهدى لمن اهتدى بنا ومن لم يكن منا فليس من الإسلام في شيء، بنا فتح الله الدين وبنا يختمه وبنا أمنكم الله من الغرق في بحركم ومن الخسف في بركم مثلنا في كتاب الله(كمثل مشكاة فيها مصباح المِصْباحُ) محمد رسول الله ﷺ (في زُجاجَةٍ) من عنصره الطاهر (كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ) إبراهيمية (لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) لا مدعية ولا منكرة (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ) القرآن (نُورٌ عَلى نُورٍ) إمام بعد إمام النور علي يهدي الله لولايته من أحب، حق على الله أن يبعث ولينا مشرقا وجهه منيرا برهانه ظاهرة عند الله حجته حق على الله أن يجعل ولينا مع(النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً) وشهداؤنا لهم فضل على الشهداء بعشر درجات ولشهيد شيعتنا أفضل من كل شهيد من غيرنا بتسع درجات فحن أفراط الأنبياء وأبناء الأوصياء ونحن المخصوصون بكتاب الله وأولى الناس برسول الله ﷺ ونحن الذين شرع الله لنا من دينه ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ووصّى به إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصفى لكم الدين قد علمنا وبلّغنا ما علمنا واستودعنا فنحن ورثة أولي العزم من الرسل والأنبياء أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون وإن كبر على المشركين ما تدعوهم إليه من ولاية أمير المؤمنين صلوات الله عليه نفعكم الله في حياتكم وفي قبوركم وفي محياكم وعند الصراط وعند الميزان وعند دخولكم الجنان وقد بعثت إليكم بكتاب فيه هدى ونور وشفاء لما في الصدور)انتهى.

وإنما ذكرت هذا الحديث بتمامه وإن كان الاستشهاد ببعضه كافيا لأن جميع ألفاظه متضمنة لمعنى النور الذي أشرنا إليه فليفهم منه ما شاء كما شاء فقوله عليه السلام (فلما قبض كنا أهل البيت ورثته)يريد به كنا نور الله في خلقه، ومعنى النور في هذا المقام بينه عليه السلام بقوله(فنحن أمناء الله في أرضه) إلى آخر الحديث.

فكل ما تضن من المعاني فهي معاني النور من العلم والمعرفة وأخذ الميثاق منهم ولهم وأخذهم الحجزة وأخذ حجزتهم وهلاك من فارقهم، ونجاة من اتبعهم وكفر جاحد ولايتهم وإيمان متبعهم وألا يحبهم كافر ولا يبغضهم مؤمن، وإن من اتبعهم يبعث معهم وأنهم نور لمن تبعهم فبهم عرف المتبع وعلم وتيقن وعمل وقبلت أعماله وهدى من اهتدى بهم، وأن ليس من الإسلام في شيء من لم يكن منهم وأن بهم فتح الله الدين وبهم يختمه وبهم يؤمن من الغرق في البحر والخسف في البر وما ضرب لهم من المثل في الآية الشريفة إلى آخرها وأن الله يبعث وليهم مشرقا وجهه وأن الله يجعل وليهم مع النبيين إلى قوله رفيقا وأن شهداءهم لهم فضل على الشهداء بعشر درجات، وأن شهيدهم أفضل من كل شهيد من غيرهم بتسع درجات، وأنهم أفراط الأنبياء وأبناء الأوصياء وأنهم المخصوصون بكتاب الله وأولى الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن الله شرع لهم من دينه ما وصى به نوحا واصطفى لهم الدين، وأنهم قد علموا وبلغوا ما علموا واستودعوا وأنهم ورثة أولي العزم وأن أقيموا الدين(وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)وأنه كبر على المشركين ما يدعوهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ونفعهم لشيعتهم في تلك المواطن المذكورة.

ومن معاني النور ما أشرنا إليه فيما تقدم والحاصل أن هذا النور مطابق

للوجود المطلق والمقيد في جميع مراتب الإمكانين ومن يرد الله أن يهديه أن يعرفه ذلك النور عرفه وهو قوله تعالى(يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ).

وأما قوله(ورحمة الله وبركاته) فقد تقدم بيانه فراجع.

قال عليه السلام أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له

شهد كعلم وكرم شهودا حضر وإذا قلت أشهد بكذا يكون المعنى إني أعلم به عن رؤية أو سماع أو دليل قطعي يعني لا يحتمل النقيض لأن الشهادة حضور للمشهود به وإدراك له بالبصر أو السمع وأما ما كان بالدليل القطعي كالشهادة بالتوحيد فحيث نظر في الآثار ودله النظر على الوحدة دلالة قطعية فقد أدرك ببصره الشهود العدول من الآيات البينات في الآفاق وفي الأنفس، كل شيء منها يشهد شهادة حضور ومعاينة باللسان الصادق من حاله كما إذا كنت في ظلمة ثم أشعل شخص سراجا واحدا فإنه يكون لك ظل واحد يشهد لك بلسان حاله الصادق أنه لم يوجد إلا سراج واحد، وإن كان لك سراجان كان لك ظلان ويحصل الحضور والمعاينة، والعلم القطعي بأنه لا يحصل ظلان عن سراج واحد ولا ظل واحد عن سراجين إلا أن يكونا في جهة واحدة بالنسبة إلى ذي الظل بحيث يدخل نور أحدهما في الآخر بلا اختلاف جهة في الكل أو البعض فيثبت عندك بالحس والوجدان علم معاينة قطعي بما غاب عن الحواس من أنه ليس في الوجود إلا إله واحد وهو الله المعبود بالحق وإنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق فلا يقدر الشخص المخلوق الواحد أن يقول (أنا) وإنما يقول نحن لتساوي نسبته إليهما ثم لا يقدر أن يقول نحن لأنه واحد والواحد لا يكون أثرا لمتغايرين،

فيجب التدافع بينهما فيه لتصادم إرادتيهما عليه فلا تقعان فإذاً لو كان كذلك لعلا بعضهم على بعض في الشخص المطلوب لهما وفي الطلبين وهما الإرادتان وفي كمالهما لأن كون الإله أعلى ممن سواه كمال تام أكمل من كونه مساويا لغيره فإثبات المساواة نقص وحاجة إذ لولا المساوي لما حصل له هذا النقص، والغنى المطلق والوجوب الحق منزه عن كل نقص لأن النقص يدعو إلى الاحتياج إلى التتميم وفي ذاتيهما فإن الواجب ذات والوجوب والأزل ذاته بلا مغايرة بكل احتمال من وقوع وفرض وتجويز وليس خارج ذات الوجوب إلا الجواز والإمكان ولا مكان لإله آخر إلا الإمكان، لأن الإله الحق جل وعلا صمد لا مدخل فيه والذي يحويه الإمكان مخلوق للواجب فلو فرض في مقام الاستدلال وإثبات الإيمان في القلوب والأوهام تعدد الآلهة وقع التصادم والتدافع، والتعالي في مركز الوجوب وفي الكمال المطلق والغنى الحق وفي الطلبين وفي المطلوب، فلهذا وجب العلم القطعي والحضور الحقيقي والعيان البديهي بوحدة الواحد الحق فيجب القول الحق أشهد ألا إله إلا الله ثم وإنك تريد من هذه الكلمة التي تشهد بها لدلالتها على التوحيد توحيده في أربعه مواطن.

الأول: توحيد الذات، بمعنى تفريده عن الكثرة في ذاته بكل اعتبار حتى اعتبار المعنى الكلي وأن هذا فرد من مفهومه يستحيل وجود غيره فقد تتوهم الأوهام لأنسها بالكثرات والتعددات أن المستثنى المثبت كلي أو جزئي منه يستحيل وجود جزئي غيره فرفعت هذا التوهم عن الوهم بتأكيد التوحيد فقلت وحده وهو تنصيص على التفريد البحت في الذات كما قال تعالى(وَقالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ)وهذا توحيد الذات ثم لما كان ذلك

الكلام إذا قيس على استعماله في الممكن، وإن كان نصا في توحيد الذات إلا أنه قد يحتمل الكثرة والتعدد في الصفات والأفعال والاستحقاق كما هو شأن الممكنات والأوهام قد ألفت نظائرها فقد تحتمل في صفات الواجب وأفعاله واستحقاقه ذلك لعدم معرفتها بالوجوب الذاتي.

قلت: لا شريك له في الأحوال الثلاثة أي ليس له ند في صفاته أي شريك فيها ليس كمثله شيء ولا شبيه في أفعاله ومفعولاته أي ليس له شريك فيها(أَرُونِي ماذا خَلقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمواتِ)ولا شريك في استحقاقه العبادة(لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)وقولك لا شريك له تنصيص على التفريد البحت في صفاته وأفعاله وعبادته فتمحض التوحيد البحت الحقيقي في المواطن الأربعة توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال وتوحيد الاستحقاق وهو الذي يليق بأن يعبد الله به ويتعبد به خلقه بل وأن يخلقهم لأجله كما قال عز من قائل(وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)أي ليعبدوني بتوحيدي في هذه المواطن الأربعة وإنما نصوا على خالص التوحيد في هذه المواطن الأربعة من الوجود لأنها أركان الأحدية وكل شيء يدخل تحتها، فإذا عرفت ما أشرنا إليه من معنى الشهادة بألا إله إلا الله وحده لا شريك له فلاحظ ما أشرنا إليه سابقا من أنهم عليهم السلام المعلمون لكل الخلق والسابقون إلى كل خير فلما نبه عليه السلام على بعض صفاتهم السابقة على هذه الشهادة ظهر منها لمن عرف مراده منها الألوهية كما قد بينا في مواضع كثيرة مما تقدم مما ليس من صفات الخلق على ما تعرفه عامة الناس، فإنما يعرف أنه من صفات الخلق خصيص الشيعة تشهد الإمام عليه السلام بكلمة التوحيد اعترافا بالعبودية وإقرارا لله بالأحدية وتنبيها للزائرين.

إن ما ظهر لكم من العظمة إنما هو عظمة المخلوق من أثر ما ظهر عليه من عظمة الله جل وعلا فأنت أيها الزائر حينئذ واقف حيث وقفت الملائكة في عالم الأنوار ورأوا نور محمد وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم أجمعين، يشرق من عالم الأسرار و الغيوب المستسرة ظنوا أن هذا نور الله المعبود الحق سبحانه فهللوا، فعلمت الملائكة أن هذا النور نور المخلوقين المقربين فهللوا فلما هلل الإمام المزور عليه السلام هلل الزائر السامع بإذن سره تهليل المزور عليه السلام وقد أشرنا إلى هذا المعنى في التكبير قبل الزيارة وإنما أعدنا الإشارة تسهيلا للطلب وتأكيدا للحفظ ومنعا من الغفلة.

قال عليه السلام كما شهد الله لنفسه

إنه الله سبحانه لم يجد غيره في أزليته كما قال تعالى(قُل أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ)فإنه لا يعلم أن معه غيره لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في استحقاقه لما سواه، فهو يجد نفسه بنفسه فوجدانه وجوده وذاته وجدانه لذاته وذاته وجوده وقد يعبرون عن هذا الوجود بالوجه الباقي ولا يذهب عليك مع تكثر العبارات حصول الكثرة وإنما هو شيء بحقيقة الشيئية واحدة بحقيقة الوحدة أي أحدى المعنى فإذا قيل من حيث هو عالم بذاته علم وعالم، ومن حيث هو يشهد نفسه بصر وبصير لا يراد منه إلا التفهيم والتبيين توصلا إلى إثبات الثابت في القلوب والأوهام أي إثبات وصفه ليبين عند عبده بوصفه عما سواه لا أن هناك مغايرة ولا كثرة ولا حيثا ولا اعتبارا، لا عقلا ولا فرضا لا في الأزل ولا في ظهوره بوصفه لعبده إذ لا حقيقة للعبد إلا ذلك

الوصف الذي ظهر له به أي ظهر بعبده له فإذا عرفه بوصفه عرفه كما عرّفه نفسه لعبده فإذا قلت: أشهد ألا إله إلا هو كما شهد الله لنفسه، تريد أني أشهد له بأحدية لا يعرفها غيره وهي أحدية الوجوب أحدية هي ذاته لأني لا أدرك إلا أحدية هي آية أحديته وجميع الخلق من نبي مرسل وملك مقرب، إنما يدركون الأحدية التي هي آية أحديته وإن تفاوتت مراتب المدركين والمدركات من الأحديات التي هي آيات أحديته التي هي ذاته وهي التي شهد بها لنفسه تفاوتا غير متناه في الإمكان لأن ما يعرفه غيره آية.

والآية تدل بكونها آية على ذي آية ولا يلزم من هذه الدلالة بيان كنه المدلول عليه ولا الإحاطة لأنها إنما تدل بفقرها وحاجة استنادها إلى غني مطلق لا يستند إلى غيره وإلا لتحول دليلا بعد ما كان مدلولا عليه، فما عرفت من الوحدة الحقيقية التي شهدت بها له ذلك على الوحدة التي شهد بها لنفسه لاستناده إليها وفقره وظهورها به له فأنت تشهد بما عرفت وتعني به ما لم تعرف مما شهد به لنفسه. وهذا هو المراد من المعرفة الصحيحة التي أراد سبحانه من العباد وكذلك في خطابه ودعائه لأن الخطاب خلق تتوصل به إلى الحق على نحو ما قلنا في المعرفة فصح على ماقلنا أنك تشهد ألا إله إلا الله كما شهد الله لنفسه.

ويحتمل فيه معنى آخر وهو أن الكاف لم تكن هنا للتشبيه بل هي للتعليل والمعنى أني أشهد ألا إله الله لأنه شهد ألا إله إلا هو وهو العالم فلو وجد معه غيره لما وحد نفسه ويكون قولك: لأنه شهد لنفسه ولا يحتاج إلى توحيد نفسه وإنما علمنا ذلك ليدلنا على ما فيه هدايتنا إلى ما أعد من الخيرات في الدنيا والآخرة لموحديه ونجاتنا مما أعد من العقوبات في الدنيا والآخرة لمنكري

توحيده، أو أن توحيده نفسه لنا مادة لجميع أكواننا في جميع مراتب الإيجادات والمثوبات وتوحيدنا له قبولنا لجميع تلك الأكوان ويحتمل أن يكون كما شهد لنفسه لنا أي كما وصف نفسه لنا بأنه واحد لا شريك له وهو ما عرفنا من نفسه أي الذي أشرنا إليه سابقا من قول أمير المؤمنين عليه السلام (تجلى لها بها)ومن قولنا: إن تعرفه لك هو ظهوره لك بك، ويدل على هذا ظاهر العطف في قوله (وشهدت له ملائكته وأولو العلم من خلقه) المقتضي للتشريك، وتدخل أنت على اعتبار في التشريك وينطبق على ما قرره بعض العلماء من محققي العارفين من أن المشبه في القرآن والسنة المنقولة باللفظ نفس المشبه به وأن الكاف أتى بها آلة للاتحاد ويدل عليه أن كل ما وجد في القرآن من المشبه والمشبه به إن أريد به الاتحاد لم يؤت بلفظ مثل محركا مثل قوله تعالى(إِنَّمَا مَثَل الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلنَاهُ مِنَ السَّمَاء)ولم يقل كمثل ماء وذلك للاتحاد فإن مثل الحياة الدنيا هو ماء يعني لما أراد جل وعلا أن يبين للعباد مثل الدنيا أنزل المطر وهو بعينه نفس مثل الدنيا وأهلها فإنه يقع على الأرض فينبت به النبات والأزهار التي تعجب الناظرين ثم يصفر ثم يكون حطاما ثم يقع في العام القابل فينبت ذلك النبات كذلك النشور والدنيا كذلك قال تعالى(وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)فقد حييتم فيها كالنبات والزهر ثم تفنون كالنبات لم يبق من النبات إلا بذره، قد اختلط بتراب الأرض لم يتبين منه ثم ينبت في العام القابل كذلك أنتم تفنون لم يبق منكم إلا طينتكم الأصلية التي خلقتم منها كالبذر قد اختلطت بالتراب كسحالة الذهب لم تتبين (لا يتبين) من التراب فيقع المطر من بحر صاد على الأرض فتنبتون وتخرجون للحساب يوم القيامة، فالماء هو نفس مثل الدنيا وإن

لم يرد به الاتحاد في الذات فلا بد من الإتيان بلفظ مثل كما قال تعالى(مَثَلُ الذِينَ حُمِّلوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ)لما كان الحمار في هذا المقام لم يكن مثلا لهم إلا إذا حمل كتبا لم يكن نفسه مثلا، بل كان مثله مثلا فكان مثل حمل الحمار الكتب عين مثلهم في حمل التوراة وكذلك قوله(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً)فمثل المستوقد نارا نفس مثلهم لا نفس المستوقد ثم قال(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ)فنفس الصيب نفس مثلهم لا مثله فافهم فيكون قوله: كما شهد لنفسه على هذا المعنى عين شهادتك له، والمعنى أنا أشهد ألا إله إلا الله وهي شهادته لنفسه ألا إله إلا هـو لي على معنى تعرّفه بذلك لي وهو ظهوره لي بي كما ذكرنا مكررا.

قال عليه السلام وشهدت له ملائكته وأولو العلم من خلقه

المراد بالملائكة جميع الملائكة الكلية والجزئية من ملائكة الماء الأول وملائكة البلد الميت، والملائكة الزارعين في تلك البلد، والغارسين الأشجار، والمجرين للأنهار والملائكة العقلانية والروحانية والنفسانية والطبعانية والمادية والمثالية والجسمانية والعرضانية وملائكة البرازخ بين تلك، والبسائط والمركبات والملائكة الموكلة بالأضواء والأجزاء والذرات والألوان والحركات والإمساكات والإلزامات وغير ذلك من جميع ذرات الوجود الكوني والإمكاني وهي الموكلة بأنحاء الخلق والرزق والحياة والمهات بالفعل والقوة وشهادتها بألسنة أجنحتها فيما وكلت بطيرانها فيه وكذلك الملائكة المخلوقة بالتركيب والتكسير، والتبديل والأعمال والتصحيف والضرب والتأليف والتعفين، والتوليد والضم وما أشبه ذلك فإن تسبيحهم وشهادتهم بالوحدانية بما هم قائمون به من هذه الأحوال

المذكورة وما أشبهها فإن كانت صالحة نَظَّمَ الله سبحانه بها الحق وإن كانت طالحة انتظم بها باطل المبطل فكانت سبب جريان العدل على ذلك المبطل(وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلونَ).

والمراد بأولي العلم بالحقيقة والأصالة محمد وآله المعصومون ﷺ الطاهرين وبالحقيقة الفرعية أهل العصمة من المرسلين والأنبياء عليهم السلام وبالفرعية المؤمنون من بني آدم، وبالتبعية المؤمنون من الجن وهذا كما قيل في تفسير رب العالمين.

وقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام في الخصال قال عليه السلام (الجن على ثلاثة أجزاء فجزء مع الملائكة وجزء يطيرون في الهواء وجزء كلاب وحيات والإنس على ثلاثة أجزاء فجزء تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله و جزء عليهم الحساب والعذاب وجزء وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين)هـ.

فالمؤمنون من الإنس وهم الذين تحت ظل العرش الشيعة وهم أولو العلم بالله ويحتمل أن يراد بالمذكورين هنا أهل العصمة عليهم السلام وإن دخل الشيعة فيهم بالتبعية، والمؤمنون من الجن هم الذين مع الملائكة هذا إذا أريد بالعلم ما هو المعروف فان أولى العلم هم الذين يعرفون الله بالدليل أو يعرفون خصوص التوحيد أو يعرفون ما يراد منهم ويفعلونه أو يخشون الله فإن خشيته هي العلم كما قال تعالى(إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاء).

وفي الدعاء (لا علم إلا خشيتك ولا حكم إلا الإيمان بك ليس لمن لم يخشك علم و لا لمن لم يؤمن بك حكم)ومراتب العلماء في العلم على هذا الوجه المعروف تتفاوت بتفاوت حسن العمل والإخلاص وصدق الشهادة بالتوحيد على حسب ذلك.

قال عليه السلام (العِلمُ يَهْتِفُ بِالعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلا ارْتَحَل عَنْهُ)وإن أريد بالعلم ما هو أعم من المعروف بل يرادف الوجود بل الإمكان فكل شيء يشهد بتوحيده، كما روي عن الصادق عليه السلام :

فيا عجبا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)فالجزء الثاني من الإنس وهم الذين عليهم الحساب والعقاب هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا من المؤمنين، والمرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم من المخالفين الذين لم يتبين لهم الهدى، وما كان من ذواتهم وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم مما تحله الحياة حياة الوجود فتوحيده حق كل في مرتبته وما لم تحله الحياة فتوحيده سبب جريان العدل عليه.

والجزء الثالث هم شياطين الإنس أقروا بألسنتهم فألبسوا صورة استعيرت لهم من الإنسان فهي توحد من دونهم وهم أموات غير أحياء أعمالهم صور هي محال عدل الله سبحانه فيهم (أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُون).

وأما الجزء الثاني من الجن فلا يبعد لحوقهم بالثالث من جهة العلم يدل عليه ما وروي في الخصال عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (خلق الله الجن خمسة أصناف صنف كالريح في الهواء وصنف حيات وصنف عقارب وصنف حشرات الأرض وصنف كبني آدم عليهم الحساب والعقاب)هـ.

فقوله (وصنف كالريح في الهواء) يريد بهم الذين يطيرون في الهواء على الظاهر وهم ليسوا ممن عليهم الحساب والعقاب كما ذكر في هذا الحديث ، ففي الحديث الأول قسمهم باعتبار حقائقهم ، وفي الثاني باعتبار حكم التكليف الذي يشاركون فيه الإنسان ظاهرا والذين مع الملائكة منهم يجوز أن يكونوا ممن عليهم الحساب والعقاب فأحسنوا العمل وحاسبوا أنفسهم فلحقوا بالملائكة ويحتمل أنهم لم يذكروا في الحديث الثاني والأول أظهر عندي ، وباقي الأصناف منهم حال توحيدهم ما أشرنا إليه فيما تحله الحياة وما لا تحله الحياة.

ثم اعلم أنه قد ذكر الملائكة قبل أولي العلم في الآية، وفي الزيارة وفي الأحاديث أيضا، إما لأن الذكر باعتبار لحاظ الترقي فيبتدأ بالأدنى وذكر توحيده نفسه سبحانه قبل لأنه المعلم والداعي، وإما لما تعرفه العوام من أن الملائكة هم الوسائط في الوحي بين الله وبين البشر كما هو ظواهر الأدلة، وإما لأن الاستغراق في التوحيد في البسائط والمجردات أدوم لأنهم لا يشتغلون بغير ذكره تعالى كما قال علي بن الحسين عليه السلام في الدعاء للملائكة في الصحيفة (اللهُمَّ وَحَمَلَةُ عَرْشِكَ الذِينَ لا يَفْتُرُونَ مِنْ تَسْبِيحِكَ، وَلا يَسْأَمُونَ مِنْ تَقْدِيسِكَ، وَلا يَسْتَحْسِرُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ، وَلا يُؤْثِرُونَ التَّقْصِيرَ عَلى الجِدِّ في أَمْرِكَ، وَلا يَغْفُلونَ عَنِ الوَلَهِ إلَيْكَ) إلى أن قال عليه السلام (وَالذِينَ لا تَدْخُلُهُمْ سَأْمَةٌ مِنْ دُءُوب، وَلا إعْيَاءٌ مِنْ لُغُوبٍ وَلا فُتُورٌ، وَلا تَشْغَلُهُمْ عَنْ تَسْبِيحِكَ الشَّهَوَاتُ، وَلا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَعْظِيمِكَ سَهْوُ الغَفَلاتِ)الدعاء بخلاف الماديات والمركبات لكثرة الموانع ولهذا كان صالح البشر أفضل من الملائكة لما في البشر من الموانع وطالحهم شر من الأنعام.

وفي العلل عن الصادق عليه السلام حين سأله عَبْدِ اللهِ بْنِ سِنَانٍ المَلائِكَةُ أَفْضَل أَمْ

بَنُو آدَمَ فَقَال قَال أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالب عليه السلام (إِنَّ اللهَ رَكَّبَ فِي المَلائِكَةِ عَقْلاً بِلا شَهْوَةٍ وَرَكَّبَ فِي البَهَائِمِ شَهْوَةً بِلا عَقْلٍ وَرَكَّبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلتَيْهِما فَمَنْ غَلبَ عَقْلهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ المَلائِكَةِ وَمَنْ غَلبَ شَهْوَتُهُ عَقْلهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ البَهَائِمِ)هـ.

وإما لأن التعليم بالوحي إنما يكون بواسطتهم باعتبار ظاهر الأمر والتكليف فحسن لأجل ذلك التقديم وإن كان في نفس الأمر أنهم متأخرون إيجادا وشهادة.

وقوله عليه السلام (من خلقه) على احتمال إرادة المعنى الأول من العلم يراد منه التبعيض يعني أن غير أولي العلم من باقي المخلوقات، وإن حصلت منهم الشهادة بالتوحيد لكن توحيدهم عند أولي العلم كفر(كما روي في الذرة أنها تزعم أن لله زبانيتين أي قرنين)، لأن كمال نوعها في وجودهما فتصفه بما هو كمال عندها، وهذا وإن قُبِل منها لضعف عقلها لكنه عند أولي العلم وفي نفس الأمر ليس بصحيح فلم يعتد بتوحيد ما سوى أولي العلم في مقام الثناء على الله تعالى إذ لا يحسن في هذا المقام أن قال أن الذرة توحده وإن كان في مقام آخر وهو عموم انقياد الخلق يكون حسنا ولهذا قال سبحانه في مثل هذا المعنى الذي أشرنا إليه(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلا عِبَادَ اللهِ المُخْلصِينَ). يعني أن عباد الله المخلصين يصفونه بما يليق بجلاله وعظمته ولا ينافي هذا تقدسه عن وصف العباد المخلصين أيضا كما قال تعالى(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)لأنه سبحانه في شهادته لنفسه بوحدته لتعليم خلقه ليعرفوه بما وصف به نفسه، وهذا لا يكون في الإمكان فيكون وصف ملائكته وأولي العلم من خلقه لائقا بامتثال

أمره وحصول مراده من أنهم يعرفونه وأما قوله تعالى(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) فهو ما يكون بالنسبة إلى ذاته المقدسة البحت فإن الوجوب مقدس عن كل ماسواه فتعالى عن كل شيء علوا كبيرا.

وعلى احتمال إرادة المعنى الثاني من العلم يراد منه البيان وإن اختلف وتفاوت في مراتب التشكيك، وذلك لأن الوجود كله عالم وكل فرد من أفراده من جوهر وعرض في غيب أو شهادة له علم بل هو علم بل هو عالم ولا ينفك العلم عن الوجود فإذا وجد وجد، وإذا فقد فقد ويترتب حال هذه الإرادة للمعنى الثاني على ما أشير إليه فيه سابقا وشرح ما ينبغي في هذا المقام يطول به الكلام.

قال عليه السلام لا إله إلا هو العزيز الحكيم

قال الشارح قدس سره كرر للتأكيد والتوصيف.

أقول: إن الزائر أتى بالتهليل بعد الشهادة به أولا بعد أن رجع إلى نفسه فأنشأ التهليل عند معاينة الوحدة بتنبيه المزور عليه السلام ، وذلك أنه عليه السلام بعد أن نبه الزائر فيما عاين من مقامهم عليهم السلام على أن لا إله إلا الله فهلل الزائر كما تقدم رجع عليه السلام إلى نفسه عند ظهور الوحدة الحقية عليه بالوحدة الحقيقية فأشرق سناها على فؤاد الزائر وقلبه فرجع إلى نفسه، فنطق بما وجد فيه من ذلك السناء لا إله إلا هو وإن أردت ظاهر الأمر قلت بعد أن شهد بالتهليل ظهر أثره عليه فذكر بقلبه ما شهد به فقال: لا إله إلا هو ولو لم يرجع إلى نفسه ولم يذكر شيئا وقالها فهو من الغافلين ومعنى لا إله إلا الله على المعنى المعروف لغة أن أوهام المتوهمين مما أنست به من كثرة الفاعلين والمالكين والمتكبرين والمستعبدين تجوز كثرة الآلهة، الإله الحق

سبحانه وآلهة غيره فيطلقون لفظ الإله عليه وعلى سائر ما يتوهمون إطلاقا حقيقيا عندهم، وإن كان على سبيل التشكيك لأن المشركين لا تطيعهم نفوسهم على الإطلاق بالتواطي لما أركز في فطرتها من التوحيد فنزلت الرحمة بالهداية منه جل وعلا لنجاتهم بكلمة التوحيد وهو نفي الآلهة المدعى ثبوتها على ما يفهمون، وإثبات الوحدة للإله الحق سبحانه في أذهانهم فحسن استثناء الحق من الباطل مما يدعون من التشريك ، ففي الواقع لم يدخل في التشريك والإطلاق فكان معناها الله كما قال سبحانه(قُل الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلعَبُونَ)وفي أوهامهم كان معناها نفي الآلهة الباطلة من أوهامهم بأداة(لا) وإثبات الثابت سبحانه بأداة(إلا)ولهذا قال بعض العارفين إنها أتي بلا مكنسة لغبار الأوهام وتوصلا إلى إثبات الثابت ذي الجلال والإكرام.

وقوله(العزيز) يريد به القاهر لما أراد والعالم بها عز وصغر والملك المتسلط على من دونه والغالب على أمره والمتفرد بالعزة والقدرة.

قال الصدوق ﵀ في التوحيد: العزيز معناه أنه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء أراده، فهو قاهر للأشياء غالب غير مغلوب. وقد يقال في مثل من عز بز أي من غلب سلب وقوله عز وجل حكاية عن الخصمين(وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ) أي غلبني في محاورة الكلام ومعنى ثان أنه الملك ، ويقال للملك عزيز كما قال إخوة يوسف ليوسف ﵇ (يا أيها العزيز والمراد به يا أيها الملك)هـ.

أقول: ومن معانيه التكرم عن النقائص والتنزه عن الرذائل والأضداد والأنداد والشركاء والذي لا يطاول ولا يحاول والشديد وله معان من الاشتقاقات اللغوية كثيرة، والأليق بمعناه إذا ألحق بكلمة التوحيد المتنزه عن الشركاء والأنداد والأضداد.

والحكيم قال في التوحيد (الحكيم معناه أنه عالم والحكمة في اللغة العلم ومنه قوله عز وجل(يُؤتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاء)ومعنى ثان أنه محكم وأفعاله محكمة متقنة من الفساد وقد حكمته وأحكمته لغتان وحكمة اللجام سميت بذلك لأنها تمنعه من الجري الشديد وهي ما أحاطت بحنكه)انتهى.

أقول: قال في الكشاف في تفسير(يُؤتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاء) قال يوفق للعلم والعمل به والحكيم عند الله هو العالم العامل.

وقال في تفسير قوله تعالى(لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل يعني أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله.

وقال في الوافي في حديث العقل وجنده في والحكمة وضدها الهوى قال هي يعني الحكمة الأخذ باليقينيات الحقة في القول والعمل.

وقال الصادق عليه السلام في حديث هشام في قوله تعالى(ولقَدْ آتَيْنا لقْمانَ الحِكْمَةَ) قَال الفَهْمَ وَالعَقْل).

وقال في الوافي في بيان قول أمير المؤمنين عليه السلام (بِالعَقْل اسْتُخْرِجَ غَوْرُ الحِكْمَةِ وَبِالحِكْمَةِ اسْتُخْرِجَ غَوْرُ العَقْل).

قال: غور الحكمة أي غوامض المعارف الحكمية والعلوم الإلهية ، وقال: في غور العقل أي بإدراك الحقائق العقلية وتحصيل المعارف الحكمية استخرج النفس من حد القوة إلى الفعل ومن حد النقص إلى الكمال في باب العقل والمعقول وفي التأديب بالآداب الصالحة والتخلق بالأخلاق الحميدة فيصير عقلا كاملا بالفعل وهو المراد من غور العقل، يعني غايته وكماله الأقصى.

والحاصل أن كل مرتبة من العقل تقتضي استعداد الوصول إلى مرتبة من الحكمة إذا حصلت للنفس تجعلها مستعدة لفيضان مرتبة أخرى فوقها من العقل وبالعكس، وهكذا يتدرجان في الاشتداد والازدياد إلى أن يبلغا إلى الغاية القصوى والدرجة العليا فبكل منهما يقع الوصول إلى غور الآخر وغايته انتهى.

وبالجملة فالحكيم في حق الواجب هو العالم المطلق الذي لا يغايا علمه ولا يكتنه حقيقته ويجري أفعاله على مقتضى الحكمة من الصلاح والعدل في جميع أنحاء مشيئته.

قال عليه السلام وأشهد أن محمدا عبده المنتجب ورسوله المرتضى

الشهادة هنا لها مستندان:

أحدهما: الشهادة المعروفة الثابتة عن التواتر بأنه صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله كما هو مذكور في كتب الكلام من أنه ادعى النبوة وصدق دعواه بالمعجزات المقرونة بالتحدي.

وقد ثبت كثير منها بالتواتر ومن أعظمها وأشدها تحققا وتحقيقا لدعواه صلى الله عليه وآله وسلم القرآن الباقي إلى انقضاء عالم التكليف يشهد له بالنبوة والرسالة لا يقدر أحد من الخلائق أن يطعن في شهادته له وتصديقه إياه وهذا القرآن المثبت لدعواه صلى الله عليه وآله وسلم غير ثبوتها بالتواتر لأنه معجز مستقل في الإثبات شاهد حاضر على جميع المكلفين ما دام التكليف.

وثانيهما: يكون مستندا لشهادة أصحاب الشهود خاصة والإشارة إليه هي أن من عرف الله وعرف صفاته وأفعاله وآثار أفعاله ظهر له بالضرورة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك يظهر لمن عرف أسرار هذا المذهب ظاهرا وباطنا من جهة

سيرته وأوامره ونواهيه وآدابه وأخلاقه وشرعه الذي عليه أهل بيته وأتباعهم، فإنه يحصل له القطع بأن هذه صدرت عن حكمة ربانية لا يمكن مثلها من الخلق لا من جهة عقولهم ولا خيالاتهم لا نوما ولا يقظة ولا بسحر ولا بكهانة ولا برياضة ولا بشيء غير الوحي الخاص، لأن جميع هذه الأمور لا تجري في جميع أحوالها على مقتضى الحكمة إلا إذا كانت عن الله تعالى لأن الخلق معرض للخطأ والغفلة والسهو والنسيان والمعصية ومخالفة الحق إن وقعت من غير معصوم ولو فرض أنها وقعت من معصوم عن هذه الرذائل والنقائص بغير وحي من الله تعالى خاص على تقدير الفرض لأنه لا يقع من معصوم شيء بغير أمر خاص أو عام صريح إلا نادرا لغرض صحيح في نفس الأمر بأن يأمر الله المحدث أن يغيب عن المعصوم ليقع ما لا ينبغي بالنسبة إليه وإلى أفعاله وإما لتقصيره في مرتبة مثله كما كان من يونس عليه السلام حيث قال(كذبني الوحي فلا يرون وجهي)لأن الملك أخفى عليه حرفا من الوحي بأمر الله لما سأل ربه أن ينزل عليهم العذاب ليهلكهم، فأتاه الوحي أنه ينزل عليهم العذاب ولم يرد أنه يهلكهم لعلمه تعالى بأنهم يؤمنون ويونس عليه السلام يظن أن الله تعالى يريد إهلاكهم لوعده أنه ينزل عليهم العذاب فقال كذبني الوحي بتخفيف الذال المعجمة أي أخلفني، وإنما قال عليه السلام ذلك لما غاب عنه الملك المحدث وإنما كان ذلك منه لأنه تردد في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام كما روي عن علي بن الحسين عليه السلام (وتردده) أنه لما طلب منه روبيل العالم أن يسأل الله أن يتوب على قومه ويرحمهم أبى وراجعه فأبى لما لحقه من عنادهم وكفرهم من الغضب عليهم، ومقتضى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام أن يقبل شفاعة العالم روبيل ويكظم غيظه لله فلما لم يصبر قال الله(إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا)يعني

لقومه وهو معنى التردد في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهو تقصير في حق مثله لأنه نقص في المسابقة إلى الدرجات العاليات لا أنه ذنب أو تقصير في حق مثلنا أو يكون ذلك آية لحق يريد الله إظهاره كما وقع اختيار موسى عليه السلام لسبعين رجلا من قومه فوقع اختياره على أشرار قومه ليكون هذا آية للنص على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وبطلان ولاية من تقدم عليه لدعواهم أنه يكون باختيار المسلمين ولو صح اختيار المسلمين لصح اختيار موسى عليه السلام وهو من الأنبياء أولي العزم ولو صح فرض العصمة وتأسيس الأحكام بدون الوحي الخاص لوقع فيها ما يخالف الحكمة لأن العصمة لا تستلزم الإحاطة بجميع أسرار الوجود (الوجوب) فلا بد من حصول ما يخالف الحكمة إلا إذا اقترنت بالوحي الخاص من علام الغيوب فلما رأينا ما أسس وشرع على كمال الحكمة والصواب ظاهرا وباطنا بمقام تعجز الخلق عن الوصول إليه علمنا أنه كان عن الوحي الخاص فيكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الظاهر وأما الباطن فلأن من عرف في الجملة نمط انتظام الوجود وارتباط بعضه ببعض وأن الفرجة والطفرة لا تقع فيه بين بعض أفراده وذراته ما دام فعل الله فيه جاريا بالأسباب والحكم مع احتياج بعضها إلى بعض في تتميمات القابليات لجريان الفعل فيها عرف بأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن غيره ما ادعي له صحة الوساطة المطلقة بين الله وبين الخلق على جهة العموم لا من الأولين ولا من الآخرين بأن لا يكون قبله مخلوق أقرب منه إلى المبدأ الفياض وهذا الشخص الرباني المتفرد الوحداني قد ادعى هذه الوساطة الكلية والرتبة العلية بحيث لا يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق ولا يطمع في إدراكه طامع وإنه أقرب إلى المبدأ الفياض من جميع الخلق وادعاه له الصادقون المعصومون من

الأولين والآخرين وأتى من أفعاله وأقواله وأعماله وأحواله وأوامره ونواهيه وآدابه وأخلاقه بما تشهد له به الخرس والجمادات بتصديق تلك الأحوال لما يدعيه ويدعى له، فإذا ثبت نظم الوجود وارتباطه وكانت جميع الأنبياء والرسل وغيره والملائكة لم يمكن فيها ما يصلح لهذه الوساطة لنقصهم عنها لعظم الشأن الذي لا يدخل تحت الحد وجب أن يكون في الوجود الممكن ذات من الخلق قبل كل الخلق تشتمل على جميع أسرار الخليقة وأسرار القدر الإلهي فيها لتكون صالحة للوساطة المشار إليها. ويجب في دليل الحكمة أن تكون تلك الذات تتلقى جميع الإفاضات عن الحق تعالى وتوصلها إلى مواقعها (موافقها) من الخلق، وهو الرسالة والنبوة وتكون تلك الذات حاملة الولاية المطلقة من الحق سبحانه على جميع الخلق وهو قوله تعالى في الحديث القدسي (لا يسعني أرضي ولا سمائي و لكن يسعني قلب عبدي المؤمن).

ولا بد أن تكون تلك الذات من نوع الإنسان لأنه أشرف الخلق وأقرب إلى الحق وليس أحد يصلح أن يكون تلك الذات ذاته غيره ﷺ لاستجماعه لجميع الشرائط كما ذكرنا، فقد دل الدليل القطعي الضروري كما برهنه دليل الحكمة على أنه رسول الله ﷺ وأنه عبد الله للعقل والنقل.

أما العقل فما دل على حدوثه أنه عبد داخر لله لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا بالله.

وأما النقل فكما في القرآن قال تعالى(تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ للعَالمِينَ نَذِيرًا)(سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ). لما قام عبد الله يدعوه وهذا ظاهر وأما تقديمه على الرسول في الذكر في كل موضع ذكرا معا فلأن العبودية

أخص من الرسالة وأقرب لأن الرسالة إيصال أمر المرسل إلى آخر ، والعبودية الاستغراق في خدمة المولى.

ولهذا قال الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا)قال (العين علمه بالله والباء بونه من الخلق والدال دنوه من الخالق بلا إشارة ولا كيف).

وإنما قدمت بيان الرسالة على العبودية مع أنه خلاف الترتيب للاهتمام ببيان الرسالة لخفائها من جهة دليل الحكمة وظهور العبودية.

ثم إن قوله عليه السلام (عبده المنتجب ورسوله المرتضى) بجعل المنتجب صفة للعبد والمرتضى صفة للرسول فيه نكتة وهي أن الانتجاب أخص من الارتضاء إذ قد يرتضي الشخص شيئا لأمر خاص، وإن لم يكن ذلك المرتضى خيرة الموجود لصلوحه لذلك الأمر الخاص ، والمرتضى وإن كان هو منتجبا ممن لا يرتضى لهذا الأمر لكنه لا يلزم أن يكون منتجبا مطلقا بخلاف المنتجب فإنه مرتضى، فكل منتجب مرتضى ولا كل مرتضى منتجب. فلما كان المنتجب أخص وصف به العبد الأخص من الرسول هذا المناسب مع اجتماعها وعدم ملاحظة اعتبار آخر لمقام آخر فيمكن مع اختلاف المقام والاعتبار تغييره(تتغير) المناسبة فيكونان مترادفين كما قال تعالى(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء)وقال تعالى(عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)فالمجتبى والمرتضى هنا بمعنى المنتجب (المجتبى) الذي هو خيرة الوجود والموجود كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يوم الغدير والجمعة (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم

منه أنه انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس وانتجبه آمرا وناهيا عنه أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه إذ كان لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنن في الأسرار)والحاصل: أن البيان لمثل هذه الأمور حتى يكون كالعيان مما يضيق به الزمان والعاقل يكتفي بالتلويح عن (من) التصريح.

قال عليه السلام أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

أرسله بالهدى: وهو ما يدل على ما يوصل إلى المطلوب كما قال تعالى(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاستَحَبُّوا العَمَى عَلى الهُدَى)، وقيل هو ما يوصل إلى المطلوب. وله قوله تعالى(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت)وهو يتعدى بنفسه وباللام وبإلى. قيل يراد بالأول الإيصال وبالأخيرين إراءة الطريق. وقيل يستعمل:

الأول: لهداية الحق تعالى قال تعالى(أُولئك الذِينَ هَدَى اللهُ).

والثاني: لهداية القرآن قال تعالى(إِنَّ هَذَا القُرْءَانَ يهْدِي للتي هي أقوم).

والثالث: لهداية محمد قال تعالى(وَإِنَّك لتهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُّستَقِيم)والحق أنه يستعمل في حق الله تعالى وفي حق محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن في الأحوال الثلاثة قال تعالى(وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الذِينَ آمَنُوا إِلى صِرَاطٍ مُّستَقِيم)وقال تعالى(يهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشاءُ)وكذلك في هداية محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهداية القرآن كما ذكر في القرآن والسنة، ويشهد به الذوق السليم وإنما اختلاف التعدي بنفسه وباللام وبإلى إنما هو لاختلاف المقام فإن الهادي قد يوصل بالعناية والتوفيق والمعونة بإلقاء النور في المهدي حتى يستنير به ويكون ذلك مقتضيا لميل طبيعته إلى ما يريد الله منه فيتعدى (فيعدَّى خ ل) بنفسه ويكون بإراءة الطريق الأقرب ورفع الموانع

المقتضية للضد باللطف والتوفيق فيتعدى (فيعُدَّى خ ل) باللام إشعارا بقرب المسافة وتسهيل السير إلى المطلوب، ويكون بإراءة الطريق و تخلية السرب ويقف اللطف والعناية على ميله ويُعدّى بإلى إشعارا ببعد المسافة المعبّر عنه بتوقف اللطف على ميل العبد. وفي هذا سر أشرنا إليه في (الفوائد) من أن النور كهيئة مخروط قاعدته عند المنير ونقطته إلى حيث ينتهي النور، والظلمة كهيئة مخروط قاعدته عند منتهى النور ونقطته مع قاعدة النور هذا في كمهما وأما في حجمهما فهما سواء فما بين القاعدتين له ثلاثة أحوال.

أما من كان من قاعدة النور إلى ما قبل تساويهما في الكمّ فتجري الحكمة فيهم بالهداية على الأول على اختلاف مراتبهم وهم من أهل قوله تعالى(اللهُ وَلِيُّ الذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظلَمَاتِ إِلى النُّورِ) وأما من كان من قاعدة الظلمة إلى ما قبل تساويهما في الكمّ فتجري الحكمة فيهم بالهداية على الثالث على اختلاف مراتبهم وأريد بما قبل التساوي في الحالين ما كان التفاوت في الحقيقة كثيراً بأن يكون النور في الأول زائداً على ظلمته بما أقلّه ألاّ يكون في رتبته كما لا يقع العشرات في رتبة الآحاد وتكون الظلمة في الأخير زائدة على نوره، كذلك وهم من أهل قوله تعالى(وَالذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغُوت يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلى الظلمات).

وأما من كان من غير الطرفين فثلاثة أقسام، الأول الذي يلي أولياء النور تجري الحكمة فيهم بالهداية على الثاني بتبعية الأول، وأكثرهم(خَلطوا عَمَلاً صلحاً وَءَاخَرَ سيِّئاً عَسى اللهُ أَن يَتُوب عَليهِمْ).

والثالث الذي يلي أولياء الظلمة تجري الحكمة فيهم بالهداية على الثاني بتبعية الثالث وأكثرهم(مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبهُمْ وَ إِمَّا يَتُوب عَليهِمْ).

والثاني: وهو الوسط من كان منه فتجري الحكمة فيهم يوم القيامة فيكون من آمن منهم تابعاً لمن آمن ممن خلطوا عملاً صالحاً داخلاً معهم حيث ما دخلوا، ومن كفر منهم كان تابعاً لمن كفر من المرجين لأمر الله داخلاً معهم حيث ما دخلوا والهدى أيضاً هو نور الحكمة وهو نور الله وهو التوسم ومنشأه العلم والعمل به بنظر العقل إلى أن يستقر أمره على نظر الفؤاد وهو النور الذي يؤيده العقل بمدده. وفي الكافي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام (دعامة الإنسان العقل، ومن العقل الفطنة والفهم والحفظ والعلم ، وبالعقل يكمل ، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث وعرف من نصحه ومن غشه فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله وأخلص الوحدانية لله والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات وواردأ على ما هو آت ويعرف ما هو فيه ولأي شيء هو ههنا ومن أين يأتيه وإلى ما هو صائر وذلك كله من تأييد العقل).

أقول: قوله فعلم بذلك كيف...إلخ) أي كيف صفة ما يعمل وما يؤدّي من الأعمال إلى السعادة والشقاوة وَلِمَ خُلِقَ وما مقامه عند ربه وما مسلكه إليه وما يراد منه فعله أو تركه ويَتَلافى تقصيره فيما مضى من عمره، ويستعد لما يقدم عليه ويعرف حقيقة بدئه وعلّة إيجاده ومن أين هبط إلى الدنيا بأي صورة من علّيّين فيلازم في إصلاحها أم من سجّين فيعالج في تغييرها فإنّه ممكن له ويعرف إلى أين يصير أمره.

والهُدى هو ولاية علي أمير المؤمنين عليه السلام وولايته عليه السلام هي المعرفة الحقّه والاعتقاد الصحيح والعلم والعمل به ومحبتهم عليهم السلام ومعاداة أعدائهم وبغض مبغضهم.

كما في الدعاء عنهم عليه السلام (أوالى من والوا وأجانب من جانبوا)وهذا هو دين الحق الذي وعد الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله أن يظهر عليه بالقائم عجل الله فرجه وذلك لأن الدين الذي أرسله به لم يظهره كله بل أخفى أسراره، وجواهره وأكثر ظاهره للتقية من أعداء الدين ولجهل أكثر أتباعه وأتباع آله الطاهرين صلى الله عليه وآله الطاهرين والتقية من الصنفين أعدائهم وجهال شيعتهم هي السد المذكور في الآية الشريفة سدّ ذي القرنين ، وفي تفسير العياشي عن المفضل قال (سألت الصادق عليه السلام عن قوله عز وجل(أَجْعَل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً) قال التقية (فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لهُ نَقْباً) قال إذا عملت بالتقية لم يقدروا لك على حيلة، وهو الحصن الحصين، وصار بينك وبين أعداء الله سداً لا يستطيعون له نقباً).

وعن المفضل قال (سألت الصادق عليه السلام عن قوله(فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء)- قال عليه السلام : رفع التقية عند الكشف فانتقم من أعداء الله).

أقول: أما الأعداء فلا يقبلون ذلك حسداً وتكبراً فيتقى منهم .

وأما جهال الشيعة فلا يقدرون على احتمال تلك الأسرار فينكرونها بل ربما قتلوا من آمن بها فيتقى منهم لئلاّ يكفروا، فإذا قام قائمهم عجل الله فرجه حمل الخلق على قراح الحق وأظهر جميع دين جده صلى الله عليه وآله فمن أنكره عجل بروحه إلى النار بسيفه ذي الفَقَارِ، وضعفاء الشيعة الذين لم يمنعهم عن الإقرار إلا القصور إذا خرج كمل إيمانهم بنوره وتمّ نقصهم بضياء ظهوره فيقبلون وتبقى حثالة من معدن الضلالة مستضعفون في الأرض حتى أنهم يحرمون من الزكاة وتمنعهم التجارة ربحها والأرض نباتها فيأكلون العذرات.

روى القمي عن مولانا الصادق عليه السلام (إِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) (قال عليه السلام هي والله

للنصاب ، قال جعلت فداك قد رأيناهم دهرهم الأطول في الكفاية حتى ماتوا قال ذاك والله في الرجعة يأكلون العذرة).

أقول: قوله عليه السلام في الرجعة يحتمل أن المراد به قيام القائم عليه السلام وإن لم يكن من الرجعة إلا أنه جعله منها لرجوعه إلى الدنيا بعد غيبته ولرجوع أموات عند ظهوره، ويحتمل أن المراد به أوّل الرجعة لأن الحسين عفي الرجعة بعد قتل إبليس وجنوده وحكم رسول الله وأهل بيته يبعثه جدّه صلى الله عليه وآله وسلم في أقطار الأرض حتىَّ يُطَهِّر الأرض فلا يبقى فيها إلا المؤمن من بني آدم وحلال اللحم من الحيوانات كما رواه في الخرائج والجرائح.

ولقد روي أن العلم سبعة وعشرون حرفا وليس في أيدي الناس إلا حرفان، وخمسة وعشرون عند القائم عليه السلام فإذا ظهر ضم الخمسة والعشرين إلى الإثنين حتى أن الرجل يستغني عن علم غيره.

قال هنا عليّ عليه السلام وهو تأويل قوله تعالى(يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ)فإذا كان كذلك جاء تأويل قوله تعالى(لِيُظهِرَهُ عَلى الدِّينِ كلِّهِ)كما قال علي بن الحسين عليه السلام في دعاء شهر رمضان (حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافة أحد من الخلق).

وفي الإكمال عن أبي بصير قال (قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله تعالى(لِيُظهِرَهُ عَلى الدِّينِ كلِّه) والله ما نزل تأويلها بعد ، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه حتى أن لو كان كافرا أو مشركا في بطن صخرة لقالت : يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله)هـ.

فقوله تعالى في آية (وَ لوْ كرِهَ الكَافِرُونَ) يعني بالله العظيم وفي أخرى(وَ لوْ

كرِهَ المُشرِكُونَ) يعني بالإمام الكريم ويستعمل بالعكس لأن المآل واحد.

وفي الكافي عن أبي الحسن الماضيع قال (قلت هُوَ الذِى أَرْسل رَسولهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقّ) قال هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيه والولاية هي دين الحق) قلت(ليُظهِرَهُ عَلى الدِّينِ كلِّهِ) قال يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم قال يقول الله (والله متم نوره) والله متم ولاية القائم عليه السلام ولو كره الكافرون بولاية علي عليه السلام قلت هذا تنزيل قال نعم، أما هذا الحرف فتنزيل وأما غيره فتأويلٌ)الحديث.

وعن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية (أنه لا يبقى أحد إلا أقر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي مجمع البيان قال المقداد بن الأسود (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخل الله عليهم كلمة الإسلام أما بعز عزيز أو بذل ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم فيدينون له).

وقال الشارح رحمه الله أرسله مقروناً بالهدى ودين الحق أي الله أو القائم إلى قيام القيامة لا يعتريه النسخ والتبديل ليظهره ويغلبه على الدين أي على الأديان كله هـ.

قال عليه السلام وأشهد أنكم الأئمة الراشدون

قال الشارح رحمه الله الذين قال رسول الله عليه الصلاة والسلام (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)لو صح الخبر ، ورواه العامة أيضاً متواتراً سيما البخاري ومسلم عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (لا يزال الدين قائماً أو عزيزاً ما وليهم اثنا عشر خليفة أو أميراً كلهم من قريش والرشد الهدى).

وفي رواية أبي داود قال (سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يزال هذا الدين قائما حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة فسمعت كلاما من النبي ﷺ لم أفهمه فقلت لأبي ما يقول قال قال كلهم من قريش).

أقول: الشهادة هنا على نحو ما ذكر في الشهادة للنبي حرفاً بحرف إلا القرآن باعتبار جهة المعجز، وأما في شهادته لهم بالإمامة والخلافة فكشهادته له ﷺ بالنبوة والرسالة والتصريح في النبوة والرسالة يشهد بالإمامة والخلافة على أن عدم التصريح الخاص لفظاً في هذين إنما هو من تغيير المبطلين، من ذلك ما رواه الشيخ سعد بن إبراهيم الأردبيلي من علماء العامة في أربعين حديثه بإسناده إلى المقداد بن الأسود الكندي قال (كنا مع سيدنا رسول الله وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يقول اللهم اعضدني واشدد أزري واشرح صدري وارفع ذكري فنزل عليه جبرائيل عليه السلام وقال اقرأ يا محمد قال وما قرأ قال اقرأ (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ⋆ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ⋆ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ⋆ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) بعلي بن أبي طالب صهرك فقرأها النبي ﷺ وأثبتها عبد الله بن مسعود في مصحفه فأسقطها عثمان بن عفان حين وحد المصاحف).

وأما المشهود به من كونهم أئمة فلا شك فيه بإجماع المسلمين أنهم عليهم السلام ممن يقتدى بهم في كل شيء لاتفاق الألسن والقلوب على أنهم عليهم السلام لا يساويهم من سواهم في العلم والعمل والكرم والشجاعة والتقوى والزهد والتجافي عن دار الغرور والإقبال على الله سبحانه والقيام بأوامره والانتهاء عن نواهيه والإخلاص والصدق وغير ذلك من صفات الكمال والتخلص من النقائص وذمائم الأحوال الذي هو مقتضى العصمة وأنهم في رتبة من كل أمر حسن محمود

عند الله وعند جميع خلقه لا يدانيهم فيها خلق ولا يحوم حولها حائمة الأفكار، ولا تدرك أدنى مقاماتها البصائر والأبصار فيجب في جميع الطباع بما فطرت عليه من الميل المستقيم الرضا بهم أئمة لا يَرُدّ هذا أحد من الخلق من البشر وغيرهم إلا حسداً وعناداً، ويجب التسليم لهم والرد إليهم والاقتداء بهم والقبول منهم والأخذ عنهم فيما عُلم وفيما لا يُعلم هذا مع ما أمر به النبي ﷺ ونطق به القرآن مما لا يُحصى ولا يُستقصى ما بين تصريح وتبيين وتلويح وتعيين وإشارة وعبارة، ومن أنهم الراشدون أي المهتدون والرشّد الهدى وبعد هذه اللفظة أنهم المهديون أي الذين هداهم الله وهنا الذين اهتدوا فهم مهتدون مهديون فالأول باعتبار استقامة قوابلهم كما قال تعالى في حق نبيّه ﷺ(وَإِنَّكَ لعَلى خُلقٍ عَظِيمٍ)وفي جميع النبيين (أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ).

وقول الصادق عليه السلام (ووضع عنهم ثقل العمل بحقيقة ما هم أهله)والثاني باعتبار عظيم الفضل وجزيل النعم عليهم حتى وفقهم لكل ما يحب ويرضى بما أمدّهم من النور فالاهتداء من اقتضاء قوابلهم والهداية من مدد النور.

قال عليه السلام المهديون المعصومون

المهديون: الذين دلّهم الله على طريق محبته وعلى محبته بما وهب لهم من القوة على طاعته، ووضع عنهم ثقل العمل بحقيقة ما هم أهله فما وهبهم فمنه بهم وطاعتهم له منهم به، أمّا أن ما وهبهم فمنه فلأنه سبحانه اخترع لهم ذلك النور بفعله لا من شيء فهو منه.

وأمّا أنه بهم فلأن ذلك النور ليس غيراً منهم ليظهر بدونهم وإنما يظهر فيهم.

وأما أن طاعتهم له منه لأنهم بقوته أطاعوه وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه فالطاعة منهم.

وأما أنها به فلأنهم إنما يطيعون إذا كانوا شيئاً وليسوا شيئاً إلا به فهو الحافظ لهم بأمره والحافظ لطاعتهم بهم فبقوته أطاعوه وما وضع عنهم من ثقل العمل فهو منه بحقيقة قبولهم وحقيقة قبولهم إنما هو لفضله تفضل بالعناية فكونهم بنوره فكانوا بكينونته كائنين فكونهم مهديين فكانوا مهتدين.

والعصمة: لغة المنع وفي اصطلاح أهل العدل لطف يمنع المكلف من ترك شيء من الواجبات وفعل شيء من المحرمات يفعله الله تعالى به غير مانع لسبب القدرة على ترك الواجبات وفعل شيء من المحرمات وإلا لم يستحق مدحاً ولا ثواباً بل لم يكن مكلفاً هذا معناها ظاهراً.

وأمّا باطناً فاعلم أن النفس الناطقة إذا انبعث منها قبولها لإيجادها فإن استغرق قبولها للإيجاد في الإيجاد حتى شابه الوجود كانت تلك الماهية بما استولى عليها من النور الذي قبلته لا تشتهي إلاّ الخير والطاعات ، لأن ميل طبيعتها وداعيها قد هجرته عند القبول وعند الاستعمال فلم تنبت له شجرة ولم تورق في شيء من أغصانه ورقة فنسيته واستبدلت به الميل التَّطَبُّعي (الطبيعي) فأغناها الله بفضله عن سؤال المحتاجين فهي تفرّ من المعاصي ومن مذامّ الأفعال وأهلها، وذلك لسبق العناية من الوهاب الجواد بها لحقيقة ما هي أهـله لأنه لمّا نبّهها على ما سواه ونظرت إلى السوى بعينه التي أعارهارأت ما ليس بشيء يلجأ إليه ولا يطلب منه ففرّت منه إلى الشيء الذي لا شيء سواه ولا يطلب إلاّ إليه سبحانه وتعالى وهو

تأويل قوله تعالى(لوِ اطلعْت عَليهِمْ لوَليْت مِنْهُمْ فرَاراً وَلمُلئْت مِنهُمْ رُعْباً)إذا طلبت حاجتك من لا شيء فهذا هو حقيقة ما هي أهله ومقتضاه هو الميل التّطبعيُّ الذي أشرنا إليه وهو ما تطبّعتْ عليه من ميل النّور حتى كانت داخلةً معه حيثما دخل وخارجة معه حيثما خرج ولا تفارقه فانقلبت شهوتها من طبعها إلى شهوة النور، فقد خلقها خلقاً ثانياً خلقاً تشريعّياً، فلهذا تفرّ مما يكره الله وإن كانت تعلمه إلاّ أنها لا تعرفه ولا تستطيعه بالاستطاعة التي لها وإن كانت تقدر عليه فهذا الخلق التشريعي هو العصمة وهي الفطرة وتقتضي أموراً أربعة:

الأول: صدق الأقوال.

الثاني: حسن الأفعال.

الثالث: حفظ الحقوق عن التعطيل.

الرابع: حفظ نظام المعاش والمعاد عن التقريرات على الباطل الموجب لاختلالهما بحسب الأمور العقليّة والشرعيّة.

وقال جمهور العامة أن متعلّقها التبليغ والأداء فلا تقتضي هذه الأمور الأربعة إلاّ في التبليغ والأداء فيخصون ذلك بتبليغ الوحي، ويجوز عليه في غير هذا بعض النقائص والمعاصي والحق أن متعلّقها ما اقتضاه استعدادُه لقبول الفيض من الحق سبحانه عليه مطلقاً لأنه مرتبة الولاية المطلقة السابقة عليهما فهما من جملة ما اقتضاه ذلك الاستعداد نعم قد يختلف ذلك الاستعداد باختلاف حقائق المستعدين، فيتبين نقص الأدنى بالنسبة إلى الأعلى، وبالنسبة إلى حالتي مستعداً واحدٍ ولمّا كان ذلك النقص إنما هو نقص بالنسبة لم يكن نقصاً مطلقاً ولهذا قيل إنّ ما ينسب إلى الأنبياء المعصومين عليهم السلام من المعاصي إنما هو من باب ترك الأولى وإنما

سميت معاصي بالنسبة إليهم. ولهذا ورد (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وقال المفيد ﷺ ثم لما كانت الولاية هي في الحقيقة ولاية الله سبحانه كما قال تعالى(هُنَالك الوَلايَةُ للهِ الحْقّ ِ هُوَ خَيرٌ ثَوَاباً وَخَيرٌ عُقْباً)ومعناها التملّك والتسلط والتصرف المطلق والتربية والتدبير، وهذا على الحقيقة لا يكون لغير الله تعالى وهو يتعالى في عز جلاله عن أحوال الخلق فوجب في الحكمة أن يجعل له ولياً على مملكته قال تعالى(وَلمْ يَكُنْ لهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ) إذ لا مالك غيره إلاّ من ملكه ما لا يخرج عن ملكه(وَلمْ يَكُنْ لهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ)لأنه على كل شيء قدير نعم له وليّ من العز والتكرم وجهات تلك المملكة لا تتناهى فوجب في الحكمة في القائم بها من جهة أمور:

الأول: أن يكون أعلى مظاهر الحق سبحانه من الخلق لأنه لو كان فوقه مظهر لما كان ولياً مطلقاً لأن من فوقه من المظاهر وليّ عليه لأنه الواسطة بينه وبين الله.

الثاني: أن يكون أوسعها وأكبرها ولو كان غيره أوسع منه وأكبر لم يحط بما هو أكبر منه، ولهذا قال تعالى (ما وسعني سمائي و لا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن)يعني أن الشؤون التي يريد أن يُوصلها إلى عباده لا تسعها الأرض ولا السماء وإنما يسعها قلب الوليّ الذي هو أوسع من كل الموجودات.

الثالث: أن يكون محل سر البداء والإمدادات المتجددة التي بها التكوين التشريعي والإيجادي والتشريع الإيجادي والتكليفي وبها القيومية لكل شيء.

الرابع: أنه لما كان مدار الولاية المطلقة على الفضل والعدل وجب أن يكون هذا الوليّ هو باب الله فيهما فلا يجري شيء منهما على غير يد هذا الولي وإلاّ لم يكن ولياً مطلقا.

الخامس: أن يكون محل مشية الله ولسان إرادته وأن ليس لإرادة (لمشية خ ل) الله محل غيره إلاّ به ولا لسان ينطق غيره إلا عنه.

السادس: أن يشهده الله سبحانه خلق السماوات والأرض وما في الوجود كله وخلق نفسه فلو لم يشهده خلق السماوات والأرض وما في الوجود لما جاز أن يكون ولياً على ما لا يشهده ويشهد مبدأه ومنتهاه ومجراه وموصوله ومفصوله ورزقه وأجله وكتابه وجميع تقديرات وجوداته ولتخصصت ولايته ووجب أن يكون غيره ولياً على ما لم يشهده.

السابع: أن يكون عضداً للخلق في الكون والمواد والصور والغاية لأن الخلق لابد له من عضد ولا يجوز أن يكون قديماً أبعد الله من قال: بأن الخلق قائمون بالله قيام عروض أو قيام ظهور، أو أن الخلق مركب من الحادث والقديم، أو أن الخلق مشخصات الحق أو أنها عينه وذاته بل لابد أن يكون من الخلق لينتهي إلى مثله كما قال علي عليه السلام (انتهى المخلوق إلى مثله وألجأه الطلب إلى شكله).

والمراد به أن يخلق الله من شعاع نور وليه ونفس شعاعه مادة الخلق ومن هيئات تقلّباته في خدمة ربه وشئون أوامره ونواهيه صورهم وبه اخترعهم وله خلقهم فلو لم يكن الوليّ معصوماً في غاية العدالة والاستقامة بحدٍ لا غاية له ولا نهاية لبطل النظام إذا وقع خلل في علّته فأهل العصمة هم القُوّامُ بأمر الله تعالى في قوله (فَاستَقِمْ كَمَا أُمِرت) فقام بهذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في استقامةٍ لم يصل إليها أحد من الخلق ومن دونه أهل بيته عليهم السلام ولهذا أفرده بالذكر وألحقهم به في قوله(وَمَن تَاب مَعَك)وفي قوله تعالى(وَلا يَلتَفِت مِنكمْ أَحَدٌ)فقام بها الأربعة عشر المعصومون عليهم السلام متشاركين كما شركهم الله سبحانه فالعصمة نور منه ذاتي ومنه عرضي.

فالذاتي: عصمة محمد وأهل بيته ﷺ خاصة كالشمس قال تعالى(إِنَّا أَرْسلنَك شاهِداً وَمُبَشراً وَنَذِيراً ★ وَدَاعِياً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً)وجعلنا سراجاً وهاجاً تأويلها فيه ﷺ وهو الشمس الوهاجة وهو السراج الوهاج أي الوقاد (وَأَنزَلنَا مِنَ المُعْصِرَتِ مَاءً ثَجَّاجاً)المعصرات الأئمة عليهم السلام وماء ثجاجاً أي منصبّاً بكثرة وهو العلم يثجونه ثجاً.

والعرضي: عصمة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام على اختلاف مراتبهم لأنها شعاع عصمة الأئمة عليهم السلام فالقيام بأمر الله على حسب نور القائم به من الذاتي، والعرضي فإذا طرق سمعك أن الأنبياء عليهم السلام معصومون وأن محمدا وأهل بيته معصومون ﷺ فلا تتوهم اتحاد العِصْمَتَيْن ولا أنّهما من باب المشكِّك، لأن أفراد المشكِّكِ تجمعها حقيقة واحدة في جنس أو نوع لأنهما علّة ومعلول ومؤثر وأثر فلا يصدق عليهما ذلك إلاّ باعتبار دخولهما في مطلق الوجود فاشهد بما أشهدناك أنهم الأئمة المعصومون على معنى ما لوّحنا لك.

قال الشارح رحمه الله المعصومون من الصغائر والكبائر والسهو والنسيان في مدة العمر لآية التطهير والأخبار المتواترة والدلائل العقلية معناها التي ذكرها علامة المحققين في كتاب الألفين التي تزيد على ألف حجة.

أقول: أما العصمة من الكبائر والصغائر(من الصغائر والكبائر) فظاهر معناها في الظاهر وفي الباطن قد أشرنا إليه فراجع وأما العصمة من السهو والنسيان فمن عرف ما أشرنا إليه ظهر له أن السهو الذي هو الغفلة عن الصورة مع بقاء انتقاشها في لوح النّفس والنّسيان الذي هو محو الصّورة عنه إنما يكون ذلك في حق من كانت الصورة التي عنده منتزعة من الوجود الخارجي فهو إن

شاهده في مكانه وزمانه وجد مثاله، وإن غفل عنه لم يجده مع بقائه في صفحة اللوح المحفوظ.

وأمّا من كان الخارجي معلولاً للصورة التي عنده وهي وجهه من الوجود فلا يجوز عليه السهو والنسيان إذ لو وقعا منه فقد الخارجي كالصورة في المرآة لو أعرض المقابل فقدت نعم لو أعرض المقابل إلى مرآة أخرى تقابل المرآة الأولى لم تفقد الصورة منها لأن تلك المرآة تحفظ عليها بواسطة مقابلتها للشخص وقد تكون المرآة العليا أوسع من السفلى فإذا قابلها بجهة انعكاسها على السفلى سلمت لها الصورة وتمت فيها وإن كان بغير جهة انعكاسها قد لا تتم ولا تسلم وقد لا تتم، وتسلم والولي المطلق فيما ولّى عليه بهذا المثال فلو نسي شيئاً أو سهى عنه ولم يقبل على ما يحفظ ذلك المنسي فقد من الوجود كالصورة المفقودة من المرآة كما مثلنا وإذا أقبل على الحافظ قد يبقى وقد يختلف وقد يعبّرون عليهم السلام عن هذا الإعراض والإقبال إلى الحافظ بأن المحدِّث قد غاب عنه أو لأن الله أنساه ليجري عليه القضاء فافهم.

قال عليه السلام المكرمون المقربون

قال الشارح رحمه الله (المكرمون) الذين كرمهم الله تعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وأكرمهم بالكرامات الصورية والمعنوية.

المقربون: الذين قربهم الله تعالى إليه بنهاية مراتب القرب هـ. قال المفسرون في قوله تعالى(وَلقدْ كَرَّمْنَا بَنى آدَمَ)بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز(التميز) بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والهداية إلى أسباب

المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود إليه عملهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقف الحصر دون إحصائه.

وفي آمالي الشيخ بإسناده إلى زيد بن علي عليه السلام عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى(وَلقدْ كَرَّمْنَا بَنى آدَمَ) يقول (فضلنا بني آدم على سائر الخلق (وَحَمَلنَهُمْ في البرِّ وَالبَحْرِ) يقول على الرطب واليابس(وَرَزَقْنَهُم مِّنَ الطيِّبَاتِ) يقول(من طيبات الثمار كلها (وَفَضّلناهُمْ) يقول ليس من دابة ولا طائر إلا هي تأكل وتشرب بفيها ، لا ترفع بيدها إلى فيها طعاما ولا شرابا غير ابن آدم فإنه يرفع إلى فيه بيده طعامه فهذا من التفضيل).

وروى القمي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال إن الله لا يكرم روح الكافر، ولكن كرم أرواح المؤمنين ، وإنما كرامة النفس والدم بالروح والرزق الطيب هو العلم).

وفيه عن الأصبغ أن علياً عليه السلام سئل عن قول الله تبارك وتعالى(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السمَاوَاتِ وَالأَرْض) قال (السموات والأرض وما بينهما من مخلوق في جوف الكرسي وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله فأما ملك منهم في صورة الآدميين وهي أكرم الصور)الحديث .

وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام بعد الأكل إذا فرغ قال(الحمد لله الذي كفانا وأكرمنا وحملنا في البر والبحر).

وفي دعاء النظر في المرآة إلى أن قال(وأكرمني بالإسلام).

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام (وَفَضَّلناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلقْنا تَفْضِيلاً) قال(خلق كل شيء منكباً غير الإنسان خلق منتصباً).

وفي حديث العلل عنه عليه السلام إلى أن قال (إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالى خَلقَ آدَمَ فَأَوْدَعَنَا صُلبَهُ وَأَمَرَ المَلائِكَةَ بِالسُّجُودِ لهُ تَعْظِيماً لنَا وَإِكْرَاماً وَكَانَ سُجُودُهُمْ للهِ عَزَّ وَجَل عُبُودِيَّةً وَلآدَمَ عليه السلام إِكْرَاماً وَطَاعَةً لكَوْنِنَا فِي صُلبِه)الحديث.

وفي الكافي كتاب الطهارة (ما خلق الله خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ لأَنَّ الْمَلائِكَةَ خُدَّامُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ جِوَارَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ الْحُورَ الْعِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ)الحديث.

والإشارة إلى بيان ما إليه من التكريمات التي كرم الله تعالى بها الإنسان وهي على الحقيقة لمحمد وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم بمحل من الإمكان في مكانة ومكان لا يحوم حول حماها إنسان وكل ما سواهم فبالتّبعية والمعلوليّة كل شخص بنسبته وأذكرها على ترتيب عدها الذي ذكرناه. فتكريمه سبحانه ذات الإنسان بأن خلقها من ظل كينونته أي نور مشيته وألبسها صورة ربوبيته وهيكل توحيده واتخذها ذاتاً له نسبها إليه كما قال علي عليه السلام في حديث كميل للأعرابي قال(وما النفس اللاهوتية الملكوتية فقال عليه السلام قوةً لاهوتيةً وجوهرة بسيطة حيّة بالذّات أصلها العقل منه بدئت وعنه وعت وإليه دلّت، وأشارت وعودها إليه إذا كملت وشابهتْه ومنها بدئت الموجودات وإليها تعود بالكمال فهي ذات الله العليا وشجرة طوبى وسدرة المنتهى وجنة المأوى من عرفها لم يشق ومن جهلها ضلّ سعيه وغوى) هـ.

فقال عليه السلام (فهي ذات الله العليا) أي ذات الله اصطفاها وكرمها ونسبها إليه وجعلها صفته الدالة عليه وآيته المبينة أنه الحق وكتابه المبين وصراطه المستقيم فهي أقرب الذوات إليه وأكرمها عليه وأحبّها إليه بالكمال لا توجد هذه الروايه

. وأما تكريمه صفاتاً فإنه قد أدب الإنسان بآدابه الكريمة وكمله بتكميلاته الجليلة وألبسه حلل صفاته الجميلة من العقل والحياء والعلم والفقه والتقوى والرأفة والرحمة والجود و الكرم والحلم والحكمة والبيان والتبيين والقدرة وغير ذلك من ملابس صفات الربوبية.

وأما تكرمة أفعاله فأنه أرسل إليه رسله ليعرّفوه كرم الأفعال وحسن الأعمال، حتى أنه دلّه على حصر جميع أفعاله في صرفها في خدمته وطاعته وكفى بهذا تَكْرِمةً له.

وأما إكرامه إياه بالكرامة الصورية والمعنوية فالمراد به ما نفصله فالصورية حسن صورة الجسم كما نذكره والمعنوية حسن صورة الروح والنفس ومنها ما ذكرناه في تكرمة الصفات ونذكره بعد هذا.

وأما تكرمته بحسن الصورة كما قال تعالى(لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسنِ تَقْوِيم)فهي انتصاب قامته وصفاء لونه وبضاضة جلده واعتدال أعضائه وكثرة الانتفاع بها وصلوحها لأكثر الأعمال، حتى إذا قيس كل واحد منها إلى نظيره في سائر الحيوانات رأيت فيه صفات الربوبية والتدبير والقيام على ذلك النظير ورأيت في ذلك النظير هيئات العبودية والاحتياج إلى ذلك العضو الإنساني الذي هو وجهه من ربه وبه قيامه وقيّومّيته، وأيضاً منه انتصاب وجهه فيقابل بأجمعه ولا كذلك شيء من الحيوانات فإنه إنما يقابل ببعضه أو ببعض بعد بعض، وما أشبه ذلك ولهم صورة حسنة لا يكون في الإمكان ما يدانيها ولو ظهروا للناس ببعضها لما رآهم أحد من الخلق إلا مات على الفور وإن من أحسن الملائكة رضوان وإنما ألبسوه من شعاع صورهم ومثله ملك الموت عند قبض

روح المؤمن ولكنهم ستروها بالصّور البشريّة.

وأما تكرمته بالمزاج الأعدل فلأن اعتدال المزاج هو الصورة التامة تستوجب الحياة الذاتية والبقاء الدائم، ولهذا كان في مزاج الإنسان في الدنيا أخلاط وأعراض من كثافات الطعام والشراب والهواء والمكان والزمان الغير الصّافية قد مازج تركيب قواه جعل الله ذلك ليترتب عليه عدم بقائه في هذه الدار، لأنها دار تكليف واللّطيف بعباده لا يحب بقاءهم في المشقة وليكون منه فراق الرّوح البدن ليموت ويدفن في الأرض فتأكل ما فيه، فإذا تخلص من جميع الغرائب التي فيه بعثه صافياً خالصاً وركبه تركيباً صالحاً للبقاء أبداً، وإنما صلح للبقاء أبداً لاعتدال طبائعه بميزان مستقيم به تتساوى تلك الطبائع على أكمل اعتدالٍ يلزم منه أن يكون واحدا بسيطا لا يعرض له التضاد ولا الكثرة، ولولا هذا الخلط والأعراض الغريبة لما عرض له الموت والبقاء في دار المشقة ينافي الرأفة واللطف فجعل الخلط سبباً لانتقاله إلى دار البقاء من دار الفناء، فاقتضى المزاج الأعدل النطق والإنسانية التي هي صراط الله والعلم والحلم والعقل والحياء وجميع الصفات الكاملة التي هي ظل التوحيد ومقتضى التجريد فكان هذا الاعتدال في مزاجهم عليهم السلام لشدة كمال الحل والعقد الإلهيين بحرارة العناية الأولية ورطوبة الماء الأولى الراجح الوجود قد بلغ بلطافة المادة وجمال الصورة إلى حدٍ كانت قلوب شيعتهم من شعاعه وفاضله ، فنور قلوب الشيعة من شعاع أجسامهم عليهم السلام كشعاع الشمس من الشمس وهو واحد من سبعين وما سمعت من هذه الأوصاف العظيمة لا تحصي قلوب شيعتهم ولا تقع على حقيقتها ولا على حقيقة تكرمة الله سبحانه لها.

وأما تكرمة الله باعتدال القامة فلأنها إذا لم تكن معتدلة مستقيمة كانت مائلة أو منكبة، وتكون بغير هيئة ما شأن سيره في السلسلة الطولية الغير لمتناهية كالجمادات، فإن سيرها في السلسلة العرضية كالمعادن وكالنباتات وسائر الحيوانات فإنها وإن كان لها سيراً في السلسلة الطولية لانتقال المعادن من الجمادات إلى رتبة المعادن، ثم لا تتجاوز رتبتها وانتقال النباتات من الجمادات إلى المعادن ومن المعادن إلى رتبة النباتات ثم لا تتجاوز رتبتها وانتقال الحيوانات من الجمادات إلى المعادن ومنها إلى النباتات ومنها إلى الحيوانات ثم لا تتجاوز رتبتها وأمّا الإنسان فانه ينتقل من الجمادات إلى المعادن، ومنها إلى النباتات ومنها إلى الحيوانات ومنها إلى الملكية ومنها إلى الإنسان ومنه إلى الحضرة الإلهية ولا يزال يسير من مقام إلى مقام أعلى منه حتى يصل إلى مقام الرضوان والمحبة، ويبقى يسير فيه صاعداً لا إلى غاية ولا نهاية واستقامةُ قامة الإنسان صورة سيره إلى الله وقبول الله له وإقباله على الله حين دعاه، وانكباب صورة ما عدا الإنسان أو انعطافها صورة سيره إلى الله تعالى لأن نظره إلى ما في الأرض وما ورد من نظير ذلك في بعض الملائكة لا ينافي ما قلناه لأن من كان منهم بغير صورة الإنسان أنزل رتبة وأقل كمالاً، وإن كان لا يغفل عن خدمة الله تعالى طرفة عين إلا أنه يخدم الله في الجهة السفلى من مركزه ، وما ورد أن في بعض الحيوانات أنه يدخل الجنة كحمار النبي ﷺ اليعفور وناقته العضباء (الغضباء) وحمار عزير وحمارة بلعام بن باعووا وكلب أهل الكهف وما أشبه ذلك.

بل ورد أن كل صنف من أصناف الحيوانات يدخل منها شيء في الجنّة إلاّ ثلاثة: المسوخ والسباع والنواصب فالوجه في ذلك أن لذلك الداخل سيراً

في السلسلة الطولية حتى تجاوز رتبة نوعه أن من يدخلها من هذه الأصناف فله نفس برزخية مركبة من الحيوان والإنسان، ولهـذا يدرك بعض المعقولات الكلية، ولهذا يصدر منه إيمان وإقرار بالحق كما يصدر من سائر المؤمنين ولكنه لا يكون إنساناً وإن دخل الجنة لأن الإنسان إذا دخل الجنة كان ملكاً مالكاً كما قال تعالى(وَإِذَا رَأَيْت ثَمَّ رَأَيْت نَعِيماً وَمُلكاً كَبِيراً)والحيوان إذا دخل الجنة هو حيوان ولا يكون ملكاً وإلى هذا أشرت بقولي في السلسلة الطولية الغير المتناهية وسلسلة هذا الحيوان متناهية لأنه لم يخلع الصورة الحيوانية ويلبس الإنسانية وإن كان باقياً فيها لما فيه من النفس المركبة البرزخية التي تعقل صالح النية في العبودية.

وأما تكرمته بالتمييز بالعقل فلأنه سبب محبة الله لعبده إذ به يفرق بين الحق والباطل والخير والشر وطريق النجاة والهلاك وهو حجة الله الباطنة على عبده كما قال تعالى(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)وهو النور والحياة كما قال تعالى (أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشى بِهِ فِي النَّاسِ)والكلام في بيان بعض هذا الحرف يطول.

وأما تكرمته بالإفهام بالنطق والإشارة والخط فلأنه لما أجزل نعمه عليه خلقه جامعاً فاقتضت هذه البنية أن يكون مملكاً ومالكاً وأن تكون شؤونه كثيرة لا تكاد تحصى فأسبغ عليه نعمه المترادفة فعلمه النطق ليؤدي به في مطالبه إلى مآربه و وسع عليه في ذلك بالإشارة والخط ليتوسع في التأدية في شؤونه عطفاً عليه ورأفة به ورحمة له ولم يفعل ذلك بشيء من غيره وجعل لأصفيائه من هذه التكرمة ما أفهموا به الجماد وأنطقوا به الصم الصلاد وانقاد إلى إجابة كتابتهم وإشارتهم جميع من في البلاد فهم الذين فهموا عن الله ما أراد وفهموا بفاضل فهمهم كل

من فهم واستفاد فلا يفهم شيء من جميع الخلق شيئاً إلاّ ما فهمه الله بفاضل ما فهموا وأنطقهم الله وأنطق ما سواهم من نطقهم فكل لسان حالي أو مقالي ينطق بالثناء عليهم يسبح الله بأسمائه جميع خلقه(وَإِن مِّن شيءٍ إِلا يُسبِّحُ بحَمْدِهِ وَلكِن لا تَفْقَهُونَ تَسبِيحَهُمْ)وهم صلى الله عليهم الناطقون على كل لسان بكل لغة وهي سبعون ألف لغة. وفي رواية أخرى سبعون ألف ألف لغة لا تشبه لغة أختها وهو قول سيد الوصيين أمير المؤمنين عليه السلام بعد كلام طويل إلى أن قال (أنا كما قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنت يا علي ذو قرنيها وكلا طرفيها ولكن لك الآخرة، والأولى يا سلمان إن ميتنا إذا مات لم يمت ومقتولنا إذا قتل لم يقتل وغايبنا إذا غاب لم يغب ولا يقاس بنا أحد من الناس، أنا تكلمت على لسان عيسى في المهد أنا نوح أنا إبراهيم أنا صاحب الناقة، أنا صاحب الرجعة، أنا الزلزلة أنا اللوح المحفوظ إليّ انتهى علم ما فيه أنا أتقلب في الصور كيف ما شاء الله من رآهم فقد رآني ومن رآني فقد رآهم، ونحن في الحقيقة نور الله الذي لا يزول ولا يتغير يا سلمان بنا شرف كل مبعوث لا تدعونا (فلا تدعونا) أرباباً وقولوا فينا ما شئتم ففينا هلك من هلك ونجا من نجا)الحديث.

وجعل سبحانه لهم في الإشارة والكتابة على نحو ما سمعت في الفهم والنطق لما خصهم به من التكرمة ، وأما تكرمته بالهداية إلى أسباب المعاش والمعاد فقد دل الإنسان على تربية الغرس والزرع وتنمية المال بالتجارة واستخراج المعادن من البر والبحر وكيفية عملها لما يريدون منها من الأواني في استعمالاتهم وآلاتهم، ومن أنواع الحلي لزينتهم واستخراج ما ينسجونه لسترهم ورياشهم وكيفية عمل مطاعمهم ومشاربهم وتمييز صالحها من طالحها، ونافعها من ضارّها وبناء

مساكنهم والقيام على مواشيهم بما فيه صلاحها وحفظها وتعليمهم وإلهامهم معرفة صنائعهم وأحكامها، وأمثال ذلك مما هو معلوم وكل ذلك بهدايته، ولهذا ترى بعض الحيوانات يهتدون إلى أشياء في مصالح معاشهم لا يقدر الإنسان عليه لأنه ليس من أمر معاشه كما في النمل والنحل من أعمالها مما تعدّه لقوتها وتتخذه لسكناها وغيرهما لأن الله سبحانه لم يهده لذلك لعدم احتياجه إليه، وإذا نظرت إلى ما يعمله الإنسان من النتائج والتدابير التي يعرف منها العارف أنها ليس في قوة نفس (نفس قوة خ ل) البشر الاهتداء إليها إلا بهداية الله، عرفت أن ذلك بهداية الذي هدى المولود من الإنسان والحيوان حين وضعه إلى التقام الثدي الذي فيه رزقه وامتصاصه على وضع لا يكاد الكبير العاقل يتمكن من فعله إلاّ بعد المعالجة والتردّد، وقد جعل سبحانه لمحمد وآله ﷺ من هـذه التكرمة ما دلّهم عليه من خدمته والاستغراق في طاعته بحيث لا يلتفتون إلى ما سواه دلهم عليه حين أمرهم وقال لهم (وَلا يَلْتَفِت مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضوا حَيْث تُؤْمَرُونَ)فلما غابوا فيما أمرهم عن أحوالهم وأمر معاشهم دارت لهم الأفلاك بما يصلحهم وجرى لهم الماء وأنبتت لهم الأرض، ونبت لهم النبات وتسببت لهم الأسباب من كل باب وجرت لهم الأشياء على طبق إرادتهم حتى كان جميع ما في عالم الوجود الممكن إنما اهتدى إلى أمر معاشه بفاضل ما جرت به لهم الأسباب من كل شيء فببركة استغراقهم في خدمة خالقهم اهتدى من سواهم إلى أمور معاشهم كلها، والعلة فيما أشرنا إليه أن هداية الخلق لأمور معاشهم لا يكون إلا من الله سبحانه وهم في ذلك بهذه الهداية مقبلون على شؤونهم، وفي ذلك قطع العلاقة من الفيض فلما دل سبحانه عباده المخلصين على وصل العلاقة بالمدد

وهو إقبالهم على خدمته فلما استغرقوا في حضرة قدسه وذكره وصل فاضل وصلهم بالفيض قطع إقبال العباد على شئونهم لوصل المدد بغفلتهم، ولهذا أدب نبيه ﷺ بقوله (وَاذْكُر رَّبَّك في نَفْسِك تَضرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْل بِالغُدُوِّ وَالآصال وَلا تَكُن مِّنَ الغَافِلينَ)ثم بين له وجه الدليل فقال(وَأْمُرْ أَهْلك بِالصلوةِ وَاصطبرْ عَليهَا لا نَسئَلك رِزْقاً نحْنُ نَرْزُقُك وَالعاَقِبَةُ للتَّقْوَى)فافهم الحكمة من دليل الحكمة والهداية إلى أسباب المعاد ما أمر به من وحيه المنزل على نبيه المرسل ﷺ الذي فيه نجاتهم من عقابه وفوزهم بثوابه ، وما دلهم عليه من الأخلاق الحميدة والأعمال المرضيّة السديدة التي هي طريق محبته التي هي طريق كفايته والقرب إليه، وتلك الآداب هي النوافل المشار إليها في الحديث القدسي(ما زال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه) فهذا التقرب طريق المحبة ، قال تعالى(فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ...إلخ)الحديث.

وهذه المحبة هي طريق الكفاية في أمر المعاش كما مر وفي أمر المعاد كما قال تعالى(رَّضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضوا عَنْهُ)والمراد بهذه النوافل ما دلّ على رجحان فعله من صلاة وغيرها مثل تقديم الرجل اليمنى عند دخول المسجد ولبس النعال واليسرى عند دخول الخلاء وخلع النعال والتختم باليمين لغير تقية، والتعمم قائماً والتسرول قاعداً وتجنب التمشط بمشط مكسور، وكنس البيت في الليل، وترك الدعاء بعد الصلاة للوالدين، وحرق قشر البصل وترك بيت العنكبوت في البيت، وإزالة المرأة له بل يزيله الرجل وأمثال ذلك وهي كثيرة ومنها.

في رواية جابر الأنصاري عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث أنه قال(والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما قطعتُ غنماً ولا لبست سروالاً قائماً ولا قعدتُ على عتبة،

ولا بلتُ على حافة نهرٍ، ولا بين بابين ولا قائماً، ولا قلمت أظفاري بفمي، ولا انتثرت في يوم الأربعاء، ولا أكلت قُبَّراً ولا سمكا زماريّاً، ولا قطعت رحماً ولا رددتُ سائلاً، ولا قلت كذباً ولا شهدت زوراً، ولا نمت على وجهي ولا على يدي اليسرى، ولا تختمت بخاتمين، ولا جلست على زبالة ولا بيتها في منزلي، ولا رأيت براً مطروحاً فتجاوزته، ولا لبست نعل يساري قبل يميني، ولا نمت في خراب، ولا اطلعتُ في فرج، ولا مسحتُ وجهي بذيلي، وما من شيء من هذه يفعله أحداً منكم إلا أورثه غماً لا أصل له فتجنبوه) الحديث.

وقوله يقول (انتثرت) أي ادهنت والحاصل أن ترك هذه الأمور المكروهة وفعل الأمور المستحبة من كل شيء في الأعمال والأحوال والأقوال والاعتقادات والحركات والسكنات والمآكل والمشارب والملابس والمناكح وغير ذلك، كلها من النوافل وإنما مثّل بهذه الأشياء لئلا يتوهّم أن المراد من النوافل العبادات المعروفة عند العوام بل المراد بها النوافل من العبادات المعروفة عند الخواص وهذه وأمثالها هي مشخصات للوجودات الشرعية أو متممات للمشخصات، ولقد نقل أن رجلاً من قوم لوط عليه السلام كان يلبس ما يشابه لباس لوط عليه السلام فلما نزل بهم العذاب نجا ذلك الرجل منه في الدنيا مع أنه كان يعمل عملهم فسلم بمجرد تشبهه بلوط عليه السلام في اللباس، وذلك كان مؤثراً في دفع العذاب عنه ولمّا كان مثل هذه الأمور متمماً للقابليات ومكملاً لها بها تكون موصلة إلى أعلى الدرجات جعلها في خزائنه عليه السلام لنفاستها، فنشروها للعباد وقد أرشد الله عباده إلى ما فيه كمالهم وبلوغ محبته المستلزمة لكفايته لينالوا أعلى مراتب القرب، فسبق السابقون وذلك على حسب إجابتهم للدعاة إلى سبيل الرشاد صلى الله على محمد وآله فكانوا في ذلك هم السابقين والسائقين والقائدين.

وفي هذه الزيارة الشريفة كما يأتي إن شاء الله (من أراد الله بدء بكم ومن وحده قبل عنكم ومن قصده توجه بكم).

أما تكرمته بالتسلط على ما في الأرض فلأنه سبحانه ركب فيه العقل والفهم والفطنة والإطلاع على دقائق أسرار الموجودات، فقهر بما فيه من الموهبة والتكرمة بالفهم جميع ما في الأرض، حتى انقاد له الحيوانات والنباتات والمعادن والجمادات من البر والبحر لأنه يدبّر في كل شيء بالفهم والتمييز وجعل الله سبحانه لمحمد وآله عليهم السلام جميع الأشياء منقادة لهم بالطبع وتابعة لإرادتهم كتبعية الأظلة والأشعة للمنير لأنه كرمهم باصطناعهم له، واختصاصهم به فاستغنوا في التسلط على جميع الأشياء بالإقبال عليه سبحانه حتى ملكهم ملكوت كل شيء.

وأما تكرمته بالتمكن من الصناعات فلأنه من تمام قدرته على ما يحتاج إليه بحيث لا يحتاج في شؤونه إلى شيء إلا وهو متمكن من صنعه لما ألهم من التمييز لتدبير أمر معاشه. وأما محمد وآله صلى الله عليه وعليهم فإنهم لما اعتدلت أمزجة نفوسهم غاية الاعتدال في الاستعداد وفارقت الأضداد بالاستغراق في الإقبال إلى رب العباد شاركوا بها السبع الشداد، فكان مقتضى نفوسهم وطبيعتها إنشاء أسباب الأشياء على مقتضى الحكمة في أسرار الخليقة بل أسرار الخليقة في الحقيقة إنما كانت أسراراً محكمة مطابقة لمقتضى الحكمة، بحيث يكون ما عمل على هيئتها وملاحظة نظمها على أكمل وجه في الصنعة لأنها هيئات نفوسهم وأمثال صورهم سبحان من جعلهم خزائن غيبه ومصادر فيضه وسيبه.

وأما تكرمته بانسياق الأسباب والمسببات العلويّة والسفليّة ...إلخ، فإنه جل وعز دل عباده على علم الصنع في الأشياء على حسب قابليّتهم، فبه يزرعون

ويصنعون ويأكلون ويلبسون ويبيعون ويشترون ويعملون الأعمال من سائر الصناعات ويطلعون على ما غاب عنهم وما سيكون من علم الجفر والنجوم والرمل وزجر الطير والأوضاع الكونية من العلوم، ومن أعجبها العلوم الخمسة المكتومة (الكيمياء والليمياء والريمياء والهيمياء والسيمياء) التي أخفاها الحكماء أشد الإخفاء حتى أنهم استعملوا في ذكرها الإشارات والرموز باللوازم البعيدة، فعلم الكيمياء زراعة الذهب والفضة والجواهر النفيسة من الألماس والياقوت، واللّعل والزمرد والفيروزج واللؤلؤ، وغير ذلك على وجه أعلى من المعدن وأصحّ.

وعلم الليمياء علم الطلسمات ومنه ما يعمل بطبائع العقاقير وعلم الريمياء علم الشعبذات، علم الهيمياء علم التسخيرات ، وعلم السيمياء علم التخيلات، وهو من التسخيرات ومن الطلسمات والعقاقير فيعملون بها الأمور العجيبة الخارقة للعادة منها الجائز ومنها المحرم، وكلها مما أوقفهم عليها لمصالح العباد المتقين واستنطاق طبائع العاصين، وكلها من سوق الأسباب إلى مسبباتها وكلها مباحها وحرامها وواجبها وراجحها ومرجوحها من التكرمة، فالجائز لمنافعهم والحرام ليتجنبوه كما قال تعالى(وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتى يَقُولا إِنَّمَا نحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ)وكلها آثار من تكرمته لمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم لأنها صور أسمائهم وأسماء أفعالهم وأفعال ذواتهم، وليس فيها عليهم محرّم لأن المحرّم إنما حرّم لمخالفته لهم في الصور أو الأسماء أو الأفعال مثلاً منها ما يحرم لأنه يعمل لهلاك العدو، وقد يكون هذا العدو المعادي للعامل من المؤمنين المتقين بخلاف عدو آل محمد ﷺ فإنه إذا تحقق عداوته كان مهدور الدم فليس عليهم بحرام وغيرهم قد يكون من صور أسمائهم أو من أسماء أفعالهم فهم خزائن حلاله وحرامه.

وأما تكرمته بأن حمله في البر والبحر، فإنه جعل لهم ما يسلكون عليه طريق البحر لقضاء مآربهم وهي السفن وطريق البر كذلك وهي الإبل والخيل والبغال والحمير ولولا السفن لغرقوا، ولولا الركوبات لما استطاعوا أن يقطعوا أرضاً ولا بحراً، وقد جعل آل محمد صلى الله عليهم في الحقيقة سفينة النجاة لكل شيء، وإنما نجا راكب السفينة من الغرق لأنها مثالهم عليهم السلام وأتباعهم هو ركوب السفينة، وإنما كانت منجية لأنها مثال طريقتهم من ولايتهم، وإنما كانت الإبل تحمل الأثقال (إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ)لأنها مثال النفس كما في تأويل الآية فكانت الخلائق من جميع بني آدم إنما كرموا لأنهم مثالهم وكرموا بمثال ما كرموا به صلى الله عليهم أجمعين.

ومن تكرمته بأن الإنسان يرفع إلى فيه بيده طعامه لئلا يطأطأ رأسه للطعام إجلالاً له لما ألبسه الله من صورته صورة الإنسان، وصورته التي نسبها إليه هي صورتهم عليهم السلام التي خلقها الله على صورة محبته في قوله تعالى (كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف). فصورتهم صورة هذه المحبة فنسبها إليه، لأنها صورة محبته وعلى صورتهم التي هي صورته خلق آدم كما قال عليه السلام (أَنَّ اللهَ خَلقَ آدَمَ عَلى صُورَتِهِ).

فإن جعل الضمير يعود إلى الله أو إلى آدم فالمعنى واحد كما ذكرنا، وهي الصورة الإنسانية وإنما لم يخضع لأجل هذه الصورة لأن كنهها الربوبية بخلاف سائر الحيوانات لتغير صورها باختلاف مشخصاتها كماً وكيفاً وجهة ومكاناً ورتبة ووقتاً وغير ذلك.

وأما تكرمته لأرواح المؤمنين بالعلم الذي هو الرزق الطيب، فلأن ذلك

مقتضى طاعتهم لله واتقائهم معاصي الله، فإن من اتقى الله علمه ما لم يعلم كما قال تعالى(وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكمُ اللهُ)قال تعالى(لما بَلغَ أَشدَّهُ آتَيْنَهُ حُكْماً وَعِلماً وَكَذَلك نجْزِي المُحْسِنِينَ)وقال عليّ عليه السلام (ليس العلم في السماء فينزل إليكم ولا في الأرض فيصعد إليكم ولكن العلم مجبول في قلوبكم تخلقوا بأخلاق الروحانيين يظهر لكم) ، وفي رواية (تأدبوا بآداب الروحانيين يظهر لكم). ولما كان الكافر ميتاً ليس له نور من العمل لم يكرم بالعلم، وجعل لمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم من هذه التكرمة ما جعلهم به خزائن غيبه وعيبة علمه بحقيقة ما هم أهله. وأما ما ذكر في حملة الكرسي، بأن منهم ملكاً في صورة الآدميين وأنها أكرم الصور على الله فقد أشير إليه في التكرمة لا بحسن الصورة.

وأما التكرمة بالإسلام فلأن المكلفين لا قوام لهم إلا بالتكليف لأنه هو طريق العبد إلى المدد الذي به قوامه. والتكليف مختلف بحسب الأزمنة وإن كان في الحقيقة واحداً عند الله وهو الإسلام، وإنما اختلف باختلاف أحوال الموضوعات كما يجب المسح على الرجلين في الوضوء مع الأمن ويجب الغسل مع التقية وكل صورة من التكاليف إذا عمل بها المكلف كما أمر توصل إلى رضا الله سبحانه، إلاّ أن التكليف يرد من الحكيم على حسب قابلية المكلف ووقت التكليف ومكانه فإذا كانت اقتضاءات المحال والقبول أعلى كان وصف التكليف أشرف وكان العمل به أفضل ، ثم لما كانت هذه الأمة المرحومة أفضل الأمم في القوابل والمحال والأوقات، كان المطابق للحكمة أن يكون دينهم الإسلام الذي هو أفضل الأديان قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ)وإنما سمي هذا بالإسلام مع أن كل دين لله هو الإسلام لشرفه عنده اشتق له اسماً من التسليم والانقياد

لأهل الحق عليه السلام ومن السلامة بأن لا يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته ولا في دينه بكثرة المعاصي فأشار إلى الأول بقوله(ادْخُلوا فِي السِّلمِ كَافَّةً)وإلى الثاني بقوله (فَسَلامٌ لكَ مِنْ أَصْحابِ اليَمِينِ)فكرم الله عباده المؤمنين بأفضل الأديان عنده.

فإن قلت: إذا كان إنما شرع كل دين على حسب قابلية المكلفين كان الإسلام لهذه الأمة باستحقاق منهم لكونهم أهلاً لذلك وغيرهم لمّا نقصوا لم يستحقوا فإذا كان بالاستحقاق لم يكن تكريماً.

قلت إن إعطاءه سبحانه المستحقين ما أعطاهم فضل ومنة وليس لخلق عليه دلالة إلا بما دلهم عليه من كرمه، لأن الخير كله له سبحانه والمكلفون كلهم له فإن أعطى فمن كرمه وإن منع فملكه على أن نفس الاستحقاق الذي هو من مقتضى قوابلهم من فضله أعطاهم ذلك الاستحقاق حين حصل لهم فقد أعطاهم ما حصل لهم حين حصل لهم من أنفسهم، كما أعطاهم شيئيتهم حين كانوا بتلك الشيئية شيئاً فافهم فإنه من خفي الأقدار .

وكان من تكرمة الله سبحانه لمحمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم أن جعل الإسلام الذي هو دينه فرعاً لهم وغصناً من شجرة ولايتهم وثمرة لشجرة دعوتهم.

وأما تكرمته الإنسان بسجود ملائكته المقربين له فلا شك فيه، وأنه من أفضل تكرمةٍ كرم بها سيد مالك جبار عظيم عبيده الضعفاء بأن أسجد لهم المقربين لديه المستغرقين في خدمته، والسجود أعظم مراتب الخضوع والذلة ولهذا ورد أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا كان ساجداً، وكان حقيقة هذه التكرمة والباعث عليها إظهار آثار ما كرم الله محمداً وآله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام في حديث فيه(إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعَالى خَلقَ آدَمَ

فَأَوْدَعَنَا صُلبَهُ وَأَمَرَ المَلائِكَةَ بِالسُّجُودِ لهُ تَعْظِيماً لنَا وَإِكْرَاماً وَكَانَ سُجُودُهُمْ للهِ عَزَّ وَجَل عُبُودِيَّةً وَلآدَمَ ﷺ إِكْرَاماً وَطَاعَةً لكَوْنِنَا فِي صُلبِهِ)الحديث.

فقوله(إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه) إشارة إلى ما قلنا: من أن ذلك إظهار ما كرم الله محمداً وآله صلى الله عليه وعليهم، وهو وصلهم به ومزجهم بما نسبه إليه حتى جعل طاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته ورضاهم رضاه وسخطهم سخطه. كما روي في التوحيد والكافي عن الصادق ﷺ في تفسير قوله تعالى(فَلَمَّا ءَاسفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ)قال (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَل لا يَأْسَفُ كَأَسَفِنَا وَلكِنَّهُ خَلقَ أَوْليَاءَ لنَفْسِهِ يَأْسَفُونَ وَيَرْضَوْنَ وَهُمْ مَخْلوقُونَ مَرْبُوبُونَ فَجَعَل رِضَاهُمْ رِضَا نَفْسِهِ وَسَخَطَهُمْ سَخَطَ نَفْسِهِ كَذَلكَ لأَنَّهُ جَعَلهُمُ الدُّعَاةَ إِليْهِ وَالأَدِلاَّءَ عَليْهِ فَلذَلكَ صَارُوا كَذَلكَ)الحديث.

وتعبد الخلق بعبودية ذلك الوصل مترجماً عنه بالصلاة على محمد وآله كما أشار إليه في بيان تلك التكرمة بهذه الترجمة بما رواه في الاحتجاج عن الكاظم عبر عن آبائه عن الحسين بن علي ﷺ في جواب سؤال اليهودي (إن آدم أسجد الله له ملائكته...إلخ) إلى أن قال (ومحمد ﷺ أعطي ما هو أفضل من هذا إن الله جل وعلا صلى عليه في جبروته والملائكة بأجمعها وتعبد المؤمنون بالصلاة عليه فهذه زيادة له يا يهودي)الحديث.

ومعلوم أن الصلاة من الله الرحمة وهي مشتقة من الصلة أي العطية والوصل أي الاتصال، ومن الوصلة أي السبب الممدود المتصل هذا ما أشرنا إليه مع الاقتصار على ذكر معنى المكرمين أي الممدودين بالتكرمات هذا ظاهر. والمعنى الباطن أن المراد بالمكرمين المطهرون المنزهون عن ما تقع عليه عبارات الناس،

كما قال عليّ عليه السلام في خطبته (ظاهري إمامة ووصاية وباطني غيب لا يدرك) وفي خطبته أيضاً (أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة) وقال عبد الحميد بن أبي الحديد في قصيدته الرائية في مدحه:

صفاتـك أسماء وذاتـك جوهــر
بـريء المعاني من صفـــات الجواهر
يجل عن الأعــراض والأيـن والمتى
ويكبــر عـــن تشبيهـــه بالعنـاصر

ويكون الثناء على الله تعالى بأسمائه وهم أسماؤه (وكل شيء يسبح الله بأسمائه) وذلك ممكن في حق كل مسبِّح على قدر ما يعرف ويحيط به من الأسماء ولا يسبح بالحقيقة إلاّ هم عليهم السلام ، وأما المقربون فهم المخصوصون بالقرب والزلفى لديه وأعلى مراتب القرب المقام الأول من مقاماتهم الأربعة المذكورة سابقا في بيان قوله (وموضع الرسالة)، وهو ظهوره لهم بهم وهو الذي أشار إليه الصادق عليه السلام بقوله (لنا مع الله حالات نحن فيها هو وهو نحن ونحن نحن وهو هو). وفي رواية إلاّ أنه هو هو ونحن نحن ، وهذا الحديث نقله بعض العلماء في بعض كتبه.

ومما نقله شيخنا الشيخ حسين ابن الشيخ محمد ابن الشيخ أحمد بن عصفور الدرازي البحراني في رسالته في جواب الشيخ عبد الله بن يحيى في سؤاله عن الروح، وهذا المقام هو المسمى بالتوحيد وهو الذي أشار إليه الحجة في دعاء شهر رجب في قوله (ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك)، ومثال هذا القرب ولله الفضل الأعلى الاستضاءة المدركة بالبصر من السراج، فإنها في الظاهر هي النار، والنار هي

والنار النار وهي العنصر الحار اليابس، وهو غيب لا يدركه البصر بل بينه وبين الاستضاءة ثلاث مراتب، والاستضاءة الاستضاءة وهي انفعال الدخان المستحيل من الدهن بالاستضاءة عن فعل النار، فالاستضاءة كالصبغ والدخان كالثوب.

ومثال آخر: المرآة في استضاءتها من الشمس فإنها أقرب إلى الشمس من الأرض، وإن كان الإشراق واحداً وذلك لشدة قابليتها إذا نظرت إليها كالشمس لا فرق بينها إلاّ أن المرآة من شعاع الشمس كالأرض، بل لم تشرق عليها أكثر من إشراقها على الأرض ولكن لشدة قربها من الشمس كانت كالشمس وإن كانت على الأرض. ومثال آخر: الحديدة المحماة من النار كالنار في فعلها لا فرق بينها وبينها في الإحراق، إلاّ أن النار تحرق بفعلها والحديدة تحرق بفعل النار الظاهر عليها لمجاورتها وقربها منها، بحيث إذا نظرت إلى الحديدة لم تر إلاّ جمرة النار فهم عليهم السلام لشدة قربهم من ربهم بخالص طاعته وانقطاعهم إليه حتى غابوا في حضوره عن أنفسهم، قد ظهر عليهم فعله فكان فعلهم فعل الله (وَمَا رَمَيْت إِذْ رَمَيْت وَلكِنَّ اللهَ رَمَى) والإقبال إليهم عين الإقبال إلى الله تعالى من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله من يطع الرسول فقد أطاع الله ورضاهم رضى الله، وسخطهم سخط الله والأخذ عنهم أخذ عن الله والراد عليهم راد على الله وهكذا فهم المقربون بمعنى الأقربين الذين لم يكن أقرب منهم، وليس المراد مطلق القرب لصدقه على الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين والملائكة لأن القرب الذي يوصف به محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم يكون في مقام عند الله لا تقتضي الحكمة الإلهية أن يكون فيه أزيد من أربعة عشر مقرباً فالقرب الحقيقي لهم لا غير وقرب غيرهم إضافي فافهم.

قال عليه السلام المتقون الصادقون المصطفون

قال الشارح رحمه الله المتقون في أعلى مراتب التقوى فإن تقوى المقربين من غفلة لمحة عن القرب مع الله تعالى الصادقون الذين قال الله تعالى(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ)وروي في الأخبار المتواترة أنهم هم ولقبح الأمر لمتابعة غير المعصوم عقلا ونقلا مع أن الصدق أعمّ من أن يكون في الأقوال والأفعال والأطوار ولا يوجد في غير المعصوم كما ذكره الكتّاني في كتاب الصدق وهو كتاب حَسَنٌ لا بد للسالك إلى الله منه.

المصطفون الذين قال الله تبارك وتقدس(إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآل إِبْرَاهِيمَ وَآل عِمْرَانَ) وآل محمد (عَلى العَالِمِينَ)في قراءة أهل البيت في أخبار كثيرة وعلى القراءة المشهورة فهم عليهم السلام مصطفى آل إبراهيم بالأخبار المتواترة هـ.

أقول: قد تقدم بعض الإشارة إلى معنى التقوى التي هم أهلها ويأمرون بها في بيان (وأعلام التقى) وقد ذكر في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام (التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى في الله وهي ترك الحلال فضلا عن الشبهة وهي تقوى خاص الخاص وتقوى من الله وهي ترك الشبهات فضلا عن الحرام وهي تقوى الخاص وتقوى من خوف النار والعقاب وهي ترك الحرام وهي تقوى العوام ومثل التقوى كماء يجري في نهر ومثل الطبقات الثلاثة كأشجار مغروسات على حافة ذلك النهر كل لون وجنس وكل شجرة منها تستمص الماء من ذلك النهر على قدر جوهره وطبعه ولطافته وكثافته ثم منافع الخلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها، قال الله تعالى(صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّل بَعْضَهَا عَلى بَعْضٍ فِي الأُكُل)والتقوى للطاعات كالماء للأشجار

ومثل طبائع الأشجار في لونها وطعمها مثل مقادير الإيمان فمن كان أعلى درجة في الإيمان وأصفى جوهراً بالروح كان أتقى ومن كان أتقى كانت عبادته أخلص وأطهر ومن كان كذلك كان من الله أقرب وكل عبادة غير مؤسسة على التقوى فهي هباء منثور قال الله (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)

وهذه المراتب الثلاث من التقوى المذكورة في هذا الحديث هي الثلاث المذكورة في قوله تعالى(عَلى الذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلواْ الصَّالحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلواْ الصَّالحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)فالتقوى الأولى في الحديث هي الأولى في الآية، والثانية هي الثانية، والثالثة هي الثالثة، ويجوز بالعكس وعلى التقديرين فالمحسنون الذين جمعوا المراتب الثلاث وقاموا بما يراد فيها هم أهل محبة الله وهم على مراتب يتفاضلون فيها على قدر معرفتهم وعلمهم وإخلاصم وصدقهم إلى أن تنتهي بهم المراتب إلى مقام الولاية المطلقة في الإمكان فينفرد عن الخلق أجمعين محمد وآله الطيبون صلى الله عليهم أجمعين وينحط ما سواهم كما قال سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام :

ولا يحرز السبق الردايا وإن جرت

ولا يدرك الغايات إلا سبوقها

هم العروة الوثقى وهم معدن التقى

وخير حبال العالمين وثيقها

فهم المتقون على الحقيقة وما سواهم فهم في التقى أتباعهم.

والصدق هو أن يطابق القول ما في الواقع وهو قول من يقول: بالله وعن الله سواء عرف أن ذلك بالله وعن الله أم لا، فإن عرف فقد فاز بالحسنيين وإلا فله عمله.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام (الصدق نور غير متشعشع إلا في عالمه كالشمس يستضيء بها كل شيء يغشاه من غير نقصان يقع على معناها والصادق حقا هو الذي يصدق كل كاذب بحقيقة صدق ما لديه وهو المعنى الذي لا يسمع معه سواه أو ضده مثل آدم عليه السلام صدق إبليس في كذبه حين أقسم له كاذبا لعدم ماهية الكذب في آدم ع قال الله عز وجل وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ولأن إبليس أبدع شيئا كان أول من أبدعه وهو غير معهود ظاهرا وباطنا فخسر هو بكذبه على معنى لم ينتفع به من صدق آدم عليه السلام على بقاء الأبد وأفاد آدم عليه السلام بتصديقه كذبه بشهادة الله عز وجل بنفي عزمه عما يضاد عهده على الحقيقة على معنى لم ينقص من اصطفائه بكذبه شيئا فالصدق صفة الصادقين وحقيقة الصدق ما يقتضي تزكية الله عز وجل لعبده كما ذكر عن صدق عيسى ابن مريم في القيامة بسبب ما أشار إليه من صدقه مرآة الصادقين من رجال أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال عز وجل هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ الآية وقال أمير المؤمنين عليه السلام الصدق سيف الله في أرضه وسمائه أينما هوى به يقد فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معناك وغور دعواك وعيّرها بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة قال الله عز وجل وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فإذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق وأدنى حد الصدق أن لا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع روحه إن لم ينزع فما ذا يصنع).

قوله عليه السلام (الصدق نور غير متشعشع إلا في عالمه) يعني به أنه لم يلزم منه أنه لا يقع إلا على الصدّق أي لا يصدّق الصّادق إلا الصادق ليشرق في غير محله،

بل يجوز أن يصدق الكاذب لأن الصدق ينير في قلب الصّادق لا غير إلا أنه ينتفع به الصادق والكاذب بنيل مطلوبهما ، ولما كان الصّادق ليس عنده كذب لم يعرف الكذب في نفسه فإذا سمع القول صدقه وإن كان كذبا لحقيقة ما عنده لأنه لا يظن كذب المخبر وقوله وأفاد أي الصدق آدم عليه السلام بتصديقه كذب إبليس بشهادة الله بنفي عزمه أي بأنه لم يدع ما ليس في وسعه حتى أخبر الله بأنه لم تفهم ولم يدع ما لا يفهم فلهذا لم ينقص عدم فهمه وتصديقه الكاذب من اصطفائه شيئا بل هو صفي الله وذلك قوله (ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع روحه إن لم ينزع فماذا يصنع) يريد به أن الصادق ليس له التفات ما كما أن الذي في حال النزع ليس له التفات إلى غير نزع الروح ، والمراد أن الصدق له مراتب متعددة يطلق عليها من باب التشكيك فأدناه ألا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان وأعلاه كمثل من هو في النزع لأن من هو في النزع قد تجمعت جميع شؤونه في شأن واحد فلم يبق له التفات إلى غير النزع لعظم الخطب النازل فكذلك أعلى الصدق، فإن صاحبه محترق في نار المحبة قد أشغلته حرارة نارها بالطلب عن كل شأن حتى عن نفسه فهو في فناء محبوبه غائب عن نفسه وشؤونها كمثل النازع روحه، وهذه على كمال ما ينبغي لا ينالها إلا محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما غيرهم فمنهم المدعي لها الكاذب في دعواه ومنهم الجاهل بهم ومنهم الصادق العالم، ولكنه يعرف أن مقامه منها ليس على كمال ما ينبغي فالمدعون لها كثيرون وأكثرهم الصوفية يزخرفون الكلام ما يتوهم الطغام أن كلا منهم إمام ولهذا نظم عبدالله بن القاسم السهروردي في قصيدته طريقة الواصلين عندهم

إلى هذا المقام إلى أن قال :

فحـطـطنـا إلــى منـازل قــوم
صرعتهم قبل المــذاق الشمول
درس الوجــد منهم كل رســم
فهو رسم والقــوم فيه حلـول
منهم من عفى ولم يبق للشكوى
ولا للــدمـوع فيــه مقــيـل
ليس إلا الأنفـاس تخبـر عنــه
وهـو عنهــا مبـــرء معـزول

وأشار إلى من دون هؤلاء بقوله

ومن الناس مــــن يشير إلــى
وجد تبـــقى عليه منــه القليل

والجاهلون بها إذا حصل لهم أدنى توجه وإقبال بحيث قل اشتغالهم بالدنيا بالنسبة إلى غيرهم توهموا إلا مقام وراء مقامهم وهم في الحضيض مقيمون، ولكن لا يعلمون والعالمون كالأنبياء والمرسلين فأنوار قلوبهم وأضواء أفئدتهم وصفاء أجسامهم واعتدال أمزجتهم ومعارفهم وعلومهم بالنسبة إلى نهاية المراتب ناقصة متسافلة وهم مع قربهم يعلمون نقصهم إلى محمد وآل محمد ﷺ كما هو حال الشعاع من الشمس المنيرة وذلك لقصور مشاعرهم وقوابلهم عن الإحاطة بذلك فخاص بالذات لمحمد وآله السادات صلى الله عليهم أجمعين فهم الصادقون حقا، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَال (الصَّادِقُونَ هُمُ الأَئِمَّةُ وَالصِّدِّيقُونَ بِطَاعَتِهِمْ).

والاصطفاء أخذ الصفو من الشيء يعني جيده طالبا والمأخوذ مصطفى والمعنى إن الله سبحانه اختارهم من جميع خلقه لأنه سبحانه نظر إلى خلقه في

الإمكان فاختار منهم محمدا وأهل بيته صلى الله عليهم فألبسهم حلة الوجود فبقوا يوحدونه ويعبدونه ألف دهر لم يخلق شيئا غيرهم فالاصطفاء هنا لحقيقة (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ)ثم لما خلق الدهر وخلق أولا الصفوة من خلقه من عَرق أنوارهم عليهم السلام كانوا معهم فاختارهم لأنه نظر إلى الجميع في الأكوان فاختارهم من المصطفين الأخيار، ولما خلق الزمان وخلق من خلقه ما شاء كانوا فيهم فاختارهم من سائر خلقه فالاصطفاء الأول في السرمد وبعده قبل الدهر. والاصطفاء الثاني مع الدهر وفي الدهر وبعده قبل الزمان.

والاصطفاء الثالث مع الزمان وفي الزمان وما بعد الزمان ما قبله وما بعد الدهر ما قبله وما بعد السرمد ما به.

فهذا الاصطفاء في هذه المراتب كلها كان لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو قول علي عليه السلام في خطبته يوم الغدير والجمعة قال عليه السلام (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه أنه انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس) إلى أن قال عليه السلام (قرن الاعتراف بنبوته بالاعتراف بلاهوتيته واختصه من تكرمته بما لم يلحقه فيه أحد من بريته فهو أهل ذلك بخاصته وخلته).

أقول وأراد بقوله في القدم ما قلنا في السرمد وبعد أن اصطفاه صلى الله عليه وآله وسلم فيما اصطفاه فيه وله السبق وبه الشرف وهو قول علي عليه السلام في هذه الخطبة بعد ذلك الكلام (وإن الله اختص لنفسه بعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من بريته خاصة علاهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته وجعلهم الدعاة بالحق إليه والأدلاء بالإرشاد إليه لقرن قرن وزمن زمن أنشأهم في القدم قبل كل مذروء ومبروء).

وقوله (أنشأهم في القدم) يريد به الوقت الذي استخلص فيه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وهو قولنا فيما اصطفاه فيه وإنما سمى عليه السلام السرمد قدما لأن السرمد خلق بنفسه فليس

له أول مخلوق ولا آخر ملحوق لأن الأولية والآخرية مخلوقان بالسرمد ونعني بالسرمد وقت الإبداع والاختراع والمشيئة والإرادة وهذه الأربعة يراد بها فعل الله ولا يتوهم أنه سبحانه اصطفاهم في القدم الذي هو الأزل الذاتي وأزل الأزال وغيب الغيوب لأن ذلك هو الذات البحت وليس في الذات البحت شيء غيرها فلا معنى للاصطفاء فيها ولا بها لأن الاصطفاء من آثار الفعل فهم على الحقيقة المصطفون لم يصطف الله سبحانه أحدا كما اصطفاهم ولم يصطف أحدا من خلقه إلا لأجل متابعتهم والإئتمام بهم والوفاء لهم بما عاهد عليه الله من ولايتهم وهو قول أبي محمد العسكري عليه السلام في تاريخه قال عليه السلام(فالكليم ألبس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء)فأبان عليه السلام أن موسى الكليم عليه السلام لما شهدوا له بالوفاء بالعهد الذي أخذ عليه في التكليف الأول ألبس حلة الاصطفاء أي ألبسوه حلة اصطفاء الله له لأن الله تعالى بهم اصطفاهم واصطفى بهم ولهم ما شاء وهو قول علي عليه السلام (نحن صنائع الله و الخلق بعد صنائع لنا).

أقول : يريد أن الله اصطنع الخلق لنا فافهم.

قال عليه السلام المطيعون لله القوامون بأمره

قال الشارح رحمه الله المطيعون لله بالإطاعة التامة حتى بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيله وقاتلوا وقتلوا بالجهاد الصوري والمعنوي لإعلاء كلمة الله ودينه كما هو ظاهر لمن تتبع كتب الأخبار والسير القوّامون في أمر الإمامة أو الأعمّ.

أقول: الطاعة لله تعالى لها مراتب أعلاها من كل مخلوق قابليته للصنع، والقابليات تختلف بكثرة المتممات لها وقلتها وكلما قلت المتممات والشروط

والأسباب شرفت القابلية وكملت وقويت وكلما كثرت الشروط والمتمات نقصت وضعفت.

وقابليات محمد وآله ﷺ لم يكن لها متمم ولا شرط ولهذا قد نستثنيها من الوجود المقيد ونلحقها بالمطلق لعدم الشرط وإذا ألحقناها بالمقيد فإنما هو لأنا نطلق المطلق على الفعل والمقيد على المفعول، ولصدق القيد على التوقف على الفعل فلا نلحقها بالمطلق وإلى عدم الشرط فيها الإشارة بقوله تعالى (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَار)فلما كانت تلك القابلية الجليلة المقدار هي قابلية محمد وآله الأطهار صلى الله عليه وعليهم كانت طاعتهم لله قبل كل شيء وأعلى من كل شيء ولم تتوقف على شرط ولا تكون لعلة إلا لمحض إجابة ربهم دعاهم فأجابوه طوعا لأمره فكانوا في كل رتبة من مراتب وجوداتهم لا يخرجون عن طاعته لأنهم ليس فيهم مقتضى للمعصية لأن القابلية هي منشأ المعاصي.

وأما الوجود فهو خير كله فإذا صلحت القابلية حتى كادت تضيء وتطيع قبل الوجود بحيث شابهت الوجود في عدم نظرها إلى نفسها كانت مع انضمام الوجود لا ظلمة فيها ولا معصية لها فهم المطيعون لله على الحقيقة بمعنى سبقهم إلى الطاعة وعدم التأخر عنها في حالٍ والصدق فيها والإخلاص والاستخلاص لها حتى لا يشغلهم عنها شاغل كما أثنى سبحانه عليهم في كتابه المجيد فقال عز من قائل (رِجَالٌ لا تُلهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَام الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ)وذلك لما أدّبهم بوحيه في كتابه مثل قوله (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)وقوله (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الغَافِلِينَ ⋆ إِنَّ الذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ)والذين عنده هم محمد وآله صلى الله عليه وعليهم كما تقدم عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ★ يُسَبِّحُونَ اللَيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)إلى قوله (وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)قال عليه السلام (ويحك يا مفضل ألستم تعلمون أن من في السموات هم الملائكة ومن في الأرض هم الجن والبشر وكل ذي حركة فمن الذين قال ومن عنده قد خرجوا من جملة الملائكة والبشر وكل ذي حركة فنحن الذين كنا عنده ولا كون قبلنا ولا حدوث سماء ولا أرض ولا ملك ولا نبي)الحديث.

ومن دون هذه الرتبة هم في عالم الأنوار وفي الحجب وفي الذر وفي عالم الزمان سابقون لأهل كل مقام إلى طاعة الملك العلام بحيث لا يلحقهم لاحق ولا يسبقهم سابق ولا يطمع في إدراكهم ولا مداناتهم طامع من جميع الخلائق فهم في الحقيقة متفردون عن كل الخلق وما ورد عنهم مما يدل بظاهره على مساواة غيرهم لهم أو مشاركتهم إياهم فهو جار على ما تعرفه عامة الناس وشرح بعض هذا يطول به الكلام والمعنى المقصود ظاهر.

والقوامون جمع قوام وهو للمبالغة في قائم، إما على معنى أنهم كثيروا القيام بأمر الله، وإما على معنى أنهم شديدوا القيام بأمر الله والمعنيان مرادان معا ، والمراد من الأول أنهم لم يتجاوزوا أمر الله في قليل أو كثير في واجب أو مندوب ولا نهيا في حرام أو مكروه إلا قاموا به كما أمرهم الله على أكمل ما ينبغي وما ورد عنهم أنهم يفعلون بعض المكروهات أو يتركون بعض المندوبات، فإن ذلك من أقسام الواجب لأنهم يأمرون على سبيل الحتم لبيان الجواز ولا يجوز لهم ترك الأمر المحتوم لأنه لو لم يكن محتوما لجاز تركه وإذا كان في نفسه مرجوحا كان

تركه راجحا وإذا لم يكن محتوما لم يكن فعله راجحا إلا أنه إنما يفعله فاعله لراحة نفسه أو تهاونا بالحدود أو للرخصة، ففي الأوّلين وما انضم متركبا من الثلاثة لا يجوز عليهم.

وأما الثالث إذا كان خالصا وهو لا يكون إلا في بعض أحواله فإنه من الراجح فهو إما واجب أو مندوب لأنه إذا أريد لمرجح كما لو أنفت النفس عن الجائز أو سبقه نهي في الجواز أو جواز في الترك فالأول كما لو لم يجوز فيما أجاز الله مثل ترك نافلة، والثاني كما لو لم يجوز فعل ما نهى الله عنه بعدما ما أباحه والثالث مثل الجمع بين الظهرين والعشائين بغير ضرورة بعد ثبوت استحباب التفريق إذا لم يعتقد مشروعية الجمع فإن تلك الرخصة تكون واجبة لمن لم يجوز الأخذ بها ومستحبة لمن جوّز إذا صغر عنده الجواز وقد نبّه رسول الله ﷺ على هذه الشقوق (لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)بقوله ﷺ (إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بفرائضه فخذوا برخص الله ولا تشددوا على أنفسكم إن بني إسرائيل لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم) هـ.

فإذا فهمت ما أشرنا إليه من هذه التنبيهات ظهر لك أنهم عليهم السلام لم يتجاوزوا واجبا ولا مندوبا قط ولم يفعلوا حراما ولا مكروها قط.

والمراد من المعنى الثاني أنهم يقومون بأمر الله على أكمل وجه يمكن وقوعه في الإمكان في حق كل واحد منهم وهم في هذه الرتبة والمقام سواء بمعنى أن كل واحد يقوم بأمر الله على أكمل وجه.

فإن قلت: إن عليا عليه السلام لا يقدر على ما يقدر عليه رسول الله ﷺ والحسن عليه السلام لا يقدر على عمل علي عليه السلام وهكذا كما هو ظاهر قد صرحوا به في أحاديثهم

فكيف يكون الأدنى منهم يأتي بالأمر على أكمل وجه يمكن وقوعه في الإمكان وفي الإمكان من هو أكمل منه وهو عمل الأعلى.

قلتُ إن عمل الأعلى لا يمكن للأدنى إلا إذا تساهل الأعلى في حال ما وإذا كان كذلك لم يكن أعلى بل هو أدنى والمفروض أنه أعلى.

فإن قلت أي فرق بينهم وبين غيرهم فإنك إذا فرضت هذا جرى في حق غيرهم. قلت لو فرضنا عدم وقوع تقصير ما من غيرهم لكان منهم ولألحقناه بهم في هذا المقام ولكن الواقع أن كل من سواهم يقع منهم تقصير في واجب أو مندوب أو مباح تركه أولى لنفسه أو لغيره ولو في الاحتمال كما أشار النبي ﷺ إليه بقوله ما معناه (لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به خوفا مما فيه بأس)هـ.

وهذا الجواب يشمل جميع الخلق حتى الأنبياء والمرسلين على حسب مراتبهم.

وروي ما معناه أن في الصراط عقبات كؤودا لا يقطعها بسهولة إلا محمد وآله ﷺ وهم لا يقع منهم تقصير في شيء ما فصح أن كل واحد منهم قائم بأمر الله على أكمل وجه لا يمكن في حقه أكمل منه في الإمكان بخلاف من سواهم.

فإن قلت: إن أخبارهم تدل على وقوع تقصير ما منهم أيضا ولهذا يتضرعون ويستغفرون ويتوبون وليس في مقام تعليم بل على حدٍّ من الخوف لا يجري على غيرهم حتى أن أحدهم ليقع مغشيا عليه ، وممن ذكر التقصير سيد الساجدين عليه السلام في سجود صلاة الليل كما تقدم من قوله لكنت مقصرا في بلوغ أداء شكر

خفي نعمة من نعمك عَليّ.

قلت : هذا التقصير الذي نسبوه إلى أنفسهم وما نشأ عنه من الخوف منشأه من أمور ثلاثة.

الأول: أنهم تحملوا ذنوب شيعتهم وتقصيراتهم فكانوا يستقيلون منها ويخافون منها (بسببها).

والثاني: أنهم عرفوا الله فإذا نظروا إلى مقامه صغر عندهم كل شيء في حقه وعرفوا أن كل عامل لا يقوم بحقه سبحانه لأن توفيقه عبده لخدمته نعمة توجب شكرا وهكذا.

والثالث: أنه لما كان العمل طريق الخلق إلى الحق سبحانه وهو يتوقف على وجود العامل ووجود العامل حجاب بينه وبين ربه وهذا لا ينفك المخلوق حال وجوده فهو محجوب بوجوده والمحجوب مقصر والمقصر مذنب والمذنب خائف من ذنبه وقد قال شاعرهم في هذا المعنى:

أقول وما أذنبت قالت مجيبة

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وهم عليهم السلام وإن لم يلحظوا أنفسهم في وجدانهم بين يديه لكنهم موجودون بل إذا تعمقنا في تحرير هذا الحرف وجدنا أن من جرد نفسه عن كل اعتبار عرف ربه وذلك إذا فقد نفسه من وجدانه ظهر له ربه بوجوده وهذا الوجود الذي ظهر له به ربه هو آية ربه ودليله عليه وصفته التي عرفه بها وهو وجوده ونفسه التي إذا عرفها عرف ربه فلا يدرك إلا حقيقته التي هي وصف ربه نفسه له فتلك النفس مفقودة من الوجدان بمعنى أنه يجد وصف ربه وهذا الوصف وإن كان هو نفسه

إلا أنه لا يعرف ربه بلحاظ نفسه من حيث هي نفسه ويعرف ربه بمعرفتها من حيث هي وصفه، وهذا يدل على أن لها وجودا ما وإن لحظها وصفا لله وإليه الإشارة بقول الصادق عليه السلام في وصفه لمعراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (كانَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ يَتَلأْلأُ بخْفِقُ وَلا أَعْلمُهُ إِّلا وَقَدْ قَال زَبَرْجَدٌ).

أقول: أراد بقوله (يتلألأ) شدّة شفافيته حتى يكاد يضمحل .

وقوله (بخفق) أي باضطراب يعني يكاد أن يفنى، كذلك النفس حين لحاظ الوصف تكاد تفنى وما نحن فيه كذلك فإذا ثبت لهم وجود ما كان ذلك الوجود حجابا بنسبته فلأجل ذلك يبكون ويخافون ويستغفرون ، وهذا في الحقيقة تقصير في الخليقة إلا أنه لا بد منه لأنه من العجز الذي وسم الله تعالى به الخلق فإذا لم يكن لهم تخلف عن كمال ما ينبغي من القيام بأمره تعالى في حال من الأحوال لا يتخلف شخص عما يمكن في حقه صدق عليهم أجمعين، بأن كل واحد منهم قوام بأمر الله تعالى على أكمل وجه يمكن وقوعه في الإمكان بالنسبة إليه ولا يكون ذلك من أحد غيرهم، كما فصّلنا سابقا فراجع.

والمراد من الأمر ظاهرا هو المعروف الذي هو الحكم وهو طلب الشارع من المكلف الفعل مع استحقاق الذم بتركه، ويدخل فيه النهي كما قال تعالى(فَلَيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ)إذ لا تختص مخالفة الأمر بالتحذير دون مخالفة النهي إجماعا فإنه مطابق لقوله تعالى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)فيكون طلب الشارع من المكلف الفعل أو تركه ...إلخ ما ذكره البهائي في زبدته وأما باطنا فمنه ما ينزل على ولي الأمر ليلة القدر، وليلة الجمعة وكل يوم

وليلة وكل ساعة مما يتجدد في الوجود مما يظهر من فوارة القدر بإثبات ما لم يكن ومحو ما كان .

روى القمي والعياشي عن الصادق عليه السلام (إذا كان ليلة القدر ونزلت الملائكة الكتبة إلى السماء الدنيا فيكتبون ما يقضى في تلك السنة من أمر، فإذا أراد الله أن يقدم شيئا أو يؤخره أو ينقص منه أو يزيد أمر الملك فمحا ما يشاء ثم أثبت الذي أراد).

وسئل عليه السلام عن قوله تعالى (ادْخُلوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ التِي كَتَبَ اللهُ لكُمْ) قال (كتبها لهم ثم محاها ثم كتبها لأبنائهم فدخلوها والله يمحو ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ).

وعنه عن أبيه عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن المرء ليصل رحمه وما بقي من عمره إلا ثلاث سنين فيمدها الله إلى ثلاث وثلاثين سنة وإن المرء ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة فيقصرها الله إلى ثلاث سنين أو أدنى قال الحسين وكان الصادق يتلو هذه الآية (يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ).

وعنه عليه السلام أنه سُئِل عَنْ قَوْل اللهِ (يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ) (قَال إِنَّ ذَلكَ الكِتَابَ كِتَابٌ يَمْحُو اللهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ فَمِنْ ذَلكَ الذِي يَرُدُّ الدُّعَاءُ القَضَاءَ وَذَلكَ الدُّعَاءُ مَكْتُوبٌ عَليْهِ وَالذِي يُرَدُّ بِهِ القَضَاءُ حَتَّى إِذَا صَارَ

إِلى أُمِّ الكِتَابِ لَمْ يُغْنِ الدُّعَاءُ فِيهِ شَيْئاً).

وفي المجمع عن النبي ﷺ (هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وأم الكتاب لا يغير منه شيء).

وعن الصادق عليه السلام (هما أمران موقوف و محتوم فما كان من محتوم أمضاه فله فيه المشية يقضي فيه ما يشاء).

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (ما مِنْ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ إِلا وَلأَوْلِيَاءِ اللهِ فِيهَا سُرُورٌ قُلتُ كَيْفَ ذَلكَ جُعِلتُ فِدَاكَ قَال إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الجُمُعَةِ وَافَى رَسُول اللهِ ﷺ العَرْشَ وَوَافَى الأَئِمَّةُ عليهم السلام وَوَافَيْتُ مَعَهُمْ فَمَا أَرْجِعُ إِلا بِعِلمٍ مُسْتَفَادٍ ولوْ لا ذَلكَ لنَفِدَ مَا عِنْدِي).

وفي تفسير علي بن إبراهيم في تفسير قوله تعالى(عالمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) يعني علي المرتضى من الرسول ﷺ وهو منه قال الله (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ رَصَداً) قال في قلبه العلم ومن خلفه الرصد يعلمه ويزقه العلم زقا ويعلمه الله إلهاما والرصد التعليم من النبي ﷺ ليعلم النبي أن قد أبلغ رسالات ربه وأحاط علي عليه السلام بما لدى الرسول من العلم (وَأَحْصَى كُل شَيْءٍ عَدَداً) ما كان وما يكون منذ يوم خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة من فتنة أو زلزلة أو خسف أو قذف أو أمة هلكت فيما مضى أو تهلك فيما بقي وكم من إمام جائر أو عادل يعرفه باسمه ونسبه ومن يموت موتا أو يقتل قتلا وكم من إمام مخذول لا يضره خذلان من خذله وكم من إمام منصور لا ينفعه نصرة من نصره)هـ.

وفي الكافي عَنْ أَبِي الحَسَنِ الأَوَّل مُوسَى عليه السلام قَال (مَبْلغُ عِلمِنَا عَلى ثَلاثَةِ وُجُوهٍ مَاضٍ وَغَابِرٍ وَحَادِثٍ فَأَمَّا المَاضِي فَمُفَسَّرٌ وَأَمَّا الغَابِرُ فَمَزْبُورٌ وَأَمَّا الحَادِثُ فَقَذْفٌ

فِي القُلوبِ وَنَقْرٌ فِي الأَسْماعِ وَهُوَ أَفْضَل عِلمِنَا وَلا نَبيَّ بَعْدَ نَبِيِّنَا ﷺ).

وفيه عَنِ المُفَضَّل بْنِ عُمَرَ قَال (قُلتُ لأَبِي الحَسَنِ عليه السلام رُوِّينَا عَنْ أَبِي عَبْدِالله عليه السلام أَنَّهُ قَال إِنَّ عِلمَنَا غَابِرٌ وَمَزْبُورٌ وَنَكْتٌ فِي القُلوب وَنَقْرٌ فِي الأَسْماعِ فَقَال أَمَّا الغَابِرُ فَما تَقَدَّمَ مِنْ عِلمِنَا وَأَمَّا المَزْبُورُ فَما يَأْتِينَا وَأَمَّا النَّكْتُ فِي القُلوبِ فَإِلهَامٌ وَأَمَّا النَّقْرُ فِي الأَسْماعِ فَأَمْرُ المَلكِ).

أقول ما أشارت إليه الأخبار المذكورة وما في معناها من الأخبار المتكثرة مما ينزل عليهم في ليالي القدر وفي ليالي الجمع وكل يوم وليلة وكل ساعة من علوم الشريعة والخليقة والحوادث والملاحم فإنه من الأمر كما قال تعالى (تَنَزَّل المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ)يعني تنزل به على جدهم ﷺ وعليهم وهم القوَّامُ به من أداء وتبليغ.

واعلم أن ما أشارت إليه هذه الأخبار من المحتوم والموقوف مما يطول بيانه ولكن لما أحببت ألا أخلي هذا الشرح في بيان أكثر ما وقفت عليه من الأسرار إذا مررت بمواضعه إلا ما كان مما يحرم إثباته في الدفاتر وإن وجب إثباته في الضمائر فلا بد من ذكر شيء على جهة الاقتصار ليفهم السر من وفّق له.

فأقول إن اللوح المحفوظ له ثلاث صفحات إحداها فيها المحتوم المستحيل تغييره، وثانيها فيها المحتوم الممكن تغييره ولكنه سبحانه لا يغيره تفضلا منه وعدلا لما في ذلك من اللطف في التكليف لئلا يقنط المؤمنون من رحمته ويتهاون الكافرون بسنته وزاد الفريقين من لطفه بهم ألا يتّكل العاملون بطاعته على أعمالهم فإن له أن يغير ما شاء كما شاء ولا يقنط العاصون من رحمته فإن له أن يرحمهم إن شاء كما شاء ولا يظلم ربك أحدا ، وثالثها فيها الموقوف في لوحه

لوح المحو والإثبات حتى يستقر الشيء فيكتب في الصفحتين، وألواح المحو والإثبات بما فيها في اللوح المحفوظ والمحو في ذلك لا في المحفوظ.

فأما الأولى التي يستحيل تغييرها فهو أن الشيء إذا كتب محتوما أو موقوفا فلا يمكن ألا يكتب، وإنما يمكن في المحتوم أن يغيره لكنه وعد سبحانه ألا يغيره كرما منه وصدقا فإن غيره كان التغيير في لوح المحو والإثبات فإمكان الأولى في الثانية ووقوعه في الثالثة، وأما الثانية المحتوم ما فيها ويمكن تغييره فهو أن ما حقت عليه الكلمة من إيجاد وإعدام وسعادة وشقاوة لا يغيره لصدق قوله ووعده كرما وعدلا ولو شاء غيّره لعلمه وقدرته على ما يشاء فما تجد في كلامهم عليهم السلام من أن أمّ الكتاب واللوح المحفوظ والقضاء الذي لا يبدل ولا يغير، فإن المراد به أن ما كتب فقد كتب وهذا مستحيل ألا يكتب لا أنه لا يمكن تغييره ولا تبديله بل إذا شاء أن يبدله بدله كما شاء لأن الممكن لا يخرج بوجوده عن الإمكان.

فإن قلت: أن المعلول يستحيل ألا يوجد عند وجود العلة التامة إذا كملت قابليته بوجود متمماتها وهذا يدل على خروج الممكن في حال عن الإمكان، لأنه واجب وهو قسيم الممكن فيجوز أن يكون ما في الصفحة الثانية من المستحيل تغييره لأن وعد الله ببقائه أخرجه عن إمكان فنائه.

قلت: إن الشيء الواجب بالذات يستحيل تغيره لأن التغير لاحق متأخر عن الوجوب الذاتي وإلا لم يكن الذاتي ذاتيا فيجب أن يكون التغير محدثا به ولا يجري عليه ما هو أجراه. وأما الواجب بالغير فإنه قبل الغير لم يكن وبذلك الغير كان ولم يكن بذلك الغير إلا بعد تغيره عن حاله الأول فكان التغير فيه سابقا على وجوبه

فيجري عليه على أن ذلك الغير يجب أن يكون غير واجب بذاته، وإلا لم يلزم وجوده به إذ لا ربط بينهما وإلا لم يتخلف عنه شيء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وإذا كان ذلك الغير ممكنا كان تأثيره تحت إرادة الواجب بالذات فلا تؤثر العلة التامة بكل فرض إلا بإذن الله ولهذا بيّن ذلك في كتابه تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) يعني وإن حصل موجب التحريك ثم بين ذلك (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً)يعني أن الشمس التي تحركه على جهة الإيجاب عندكم قد جعلناها دليلا عليه فإنه لا يظهر للحس حتى تطلع ويقع ضوؤها على كثيف فينعكس من خلف ضوئها ولم يجعلها موجدة له كما تعرفون ولا أنه يجب وجوده عند وجودها، بل قال تعالى (وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) في كل حال وأبين من هذا أن الإحراق يجب عند وجود النار وقربها واتصالها بما يحترق ولما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار لم يأذن لها سبحانه في إحراقه فكانت عليه بردا وسلاما وهو فيها قد نبت حوله شجر أخضر وفي هذه الحال إذا مر عليها الطائر في الهواء يحترق لشدة حرارتها فكل ممكن له أن يغيره لأنه في حال كونه واجبا بالغير إنما هو شيء به سبحانه لا يستغني عن مدده إذ به تقوّمه لا بعلته لأنه سبحانه قال (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ)لا بأسبابها فوقوع الشيء في الثانية حكمه في الأولى وبقاؤه في الثانية وإمكان تغيّره في الثالثة.

وأما الثالثة الموقوف ما فيها فهو في ألواح المحو والإثبات وتلك الألواح بما فيها في اللوح المحفوظ كما مرّ، فوقوع الموقوف في الصفحة الأولى وبقائه في الصفحة الثانية ومحوه وإثباته وقوعهما في الأولى وبقاؤهما في الثانية ونفسهما في الثالثة، يعني أن التغيير والتبديل نفسهما في الثالثة فلا تتحقق الثالثة إلا في الأولتين ، فالأولى

يستحيل فيها البداء ، والثانية يجري فيها البداء بتغيير البقاء إن شاء تعالى ولكنه أجرى فضله على الاستحقاق ولا يخلف الميعاد ولن يخلف الله وعده. والثالثة محل الدواعي والموانع وفي قعر هذا القدر شمس تضيء لا ينبغي أن يطلّع عليها إلا الواحد الفرد فمن تطلع عليها فقد ضاد الله في حكمه ونازعه في سلطانه وكشف عن ستره وسره وباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.

قال عليه السلام العاملون بإرادته الفائزون بكرامته

قال الشارح رحمه الله العاملون بإرادته أي لله أو بالله وهو أظهر فإنهم كانوا في أعلى مراتب القرب، وقد تقدم في مراتب القرب النوافلي أنه يسمع بالله ويبصر به ويبطش به ويمشي به، الفائزون بكرامته في الدنيا والآخرة.

أقول: يريد بقوله لله أن معنى أنهم عاملون بإرادته أي بما يطابق إرادته ومحبته كما هو الظاهر عند عامة الناس.

وأراد بقوله أو بالله وهو أظهر يعني أنه يحتمل الوجهين، والثاني أظهر أي أنهم عاملون بالله وأن المراد منه ما في الحديث القدسي (ما زال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته فكنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها .. الخ)ومعنى كون الله سمعه وبصره قد اختلف العلماء فيه اختلافا قيل هو كناية عن شدّة القرب واستيلاء سلطان المحبة على ظاهر العبد وباطنه حتى غيبه عن نفسه وعن كل الخلق وقيل كنت له في سرعة الإجابة

كسمعه له في إدراك مسموعاته .

وقيل هو أن يشغله بامتثال أوامره ونواهيه حتى يكون بمنزلة من لا يسمع إلا ما أمر بسماعه ولا يرى إلا ما أمر برؤيته ...إلخ.

وقيل غير ذلك والذي أفهم أنه يحتمل وجهين أحدهما ما ذكره الشارح أؤلا وهو جعله غير الأظهر، والثاني أنهم عليهم السلام كانوا محل مشية الله وألسنة إرادته كما دلّت عليه أحاديثهم فليس لهم مشية لأنفسهم ولا إرادة لأنهم أماتوا أنفسهم وتركوا ملاحظتها واعتبارها، وإنما مشيتهم مشية الله وإرادتهم إرادة الله فإذا فعلوا فإن الله هو الفاعل بهم ما شاء قال تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى)وكما قال علي عليه السلام في شأن الملائكة (وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله)والملائكة مثل لهم فهم يتكلم الله بهم ويفعل بهم ما يشاء فعلى الظاهر يعملون بما يحب ويريد لا يصدر منهم ما يخالف ما يريد منهم وعلى الحقيقة ليس لهم إرادة، وإنما الإرادة إرادته أو أنهم يصدرون عن إرادته وإرادتهم تابعة لإرادته بل مضمحلة في إرادته وذلك أنهم لما أرادوا السفر إليه أعلمهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم أو نكت في قلوبهم إن النجائب الميتةِ لا تحملكم إلي وإنما تحملكم إلي النجائب الحية، ونجائبكم التي تحملكم إلى بلد من مدائن الزلفى إليَّ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس هي نفوسكم وألقوها أي أميتوها فإنها تحيى وتحملكم إلى كمال القرب منيّ، فألقوها فإذا هي حية تسعى لأن حياتها من فيضه ولا تقبل فيضه إلا إذا حييت ولا تحيى إلا بموتها في طاعته وقتلها في سبيله فلما أماتوها وقتلوها لأن كل مؤمن له ميتة وقتلة لم تكن لها إرادة فحييت بإرادة ربها ومشيته فهم عاملون بإرادته فلهم حالتان حالة على المعنى الأول وحالة على المعنى الثاني، فإذا عرفت

هذا فاعلم أن عملهم بإرادته جار لهم في جميع الوجودات وشرعياتها والشرعيات ووجوداتها من خلق ورزق وموت وحياة لا يكون شيء إلا عنهم ولكنهم ليسوا شيئا في كل شيء وعلى كل حال إلا بالله وما هم عليهم السلام في فعله إلا كصورة في مرآة بالنسبة إلى شاخصها(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)ولاحظ هذا الحرف في كل شيء تسمعه منّا لا نريده إلا على هذا المعنى.

وأما أنهم الفائزون بكرامته فلأن الله أكرمهم بما لم يكرم به خلقا من خلقه لحقيقة ما هم أهله ففازوا بما لم يفز به أحد من الخلق وظفروا بما طلبوا من الكرامة لديه على نحو ما أشرنا إليه عند ذكر قوله عليه السلام المكرمون فلاحظ هنا.

قال عليه السلام اصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه

قال الشارح رحمه الله اصطفاكم بعلمه أي عالما بأنكم أهل الاصطفاء أو بسبب أن يجعلكم مخزن العلوم ويؤيده ما في بعض النسخ من اللام وارتضاكم لغيبه قال الله تعالى (عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَدًا ⋆ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)وورد في الأخبار الكثيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممن ارتضاه لغيبه وكل علم كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه وصل إلينا مع أنه يمكن التعميم في الرسول بحيث يشملهم كما يظهر من أخبار أخر وإخبارهم بالمغيبات أظهر من الشمس، ويمكن أن يكون المراد بالغيب الأسرار الإلهية أو الأعم فحينئذ يكون قوله (واختاركم لسره) للتأكيد و التخصيص بعد التعميم هـ.

أقول الظاهر أن المعنى في (اصطفاكم بعلمه) أن الباء هي التي تستعمل للاستعانة في مثل هذا الكلام، وإن المراد أنه اطلع على جميع خلقه على معنى

ما تقدم في بيان قوله المصطفون وهو بكل شيء عليم فأحاط بكل شيء علما فاختار منهم الصفوة بعد تميزهم فقد اصطفى محمدا وآله صلى الله عليهم أجمعين عن علم منه بهم، حيث انفردوا عن التماثل والتشاكل بجميع ذلك كله قولنا اصطفاكم بحقيقة ما هم أهله وعلى نسخة اللام أنه اختارهم حملة لعلمه ليؤدوا عنه أحكامه إلى خلقه أو حفظة، لعلمه لأن غيرهم لا يقدرون على حفظه والمراد من العلم ما تضمنه فعلة ومشيته لأن ما لا يدخل تحت المشية لا يحيطون به فلم يصطفهم له قال تعالى (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ)وهنا خفية قد أشرنا إليها سابقا وربما تخفى هنا فننبه عليها، وإن لزم التكرير توفية للبيان وهي أن علمه الذاتي هو ذاته فلا يتبادر ذكره هنا ولا يراد وما سواه سبحانه فكله قد دخل تحت المشية في الإمكان أو في الأكوان والمراد هنا الثاني وكذا في الآية الشريفة وأما الأول فقد يدخل في الأكوان فيما لا يزال وقد لا يدخل وذلك لأن الممكنات وإن كانت يطلق عليها الإمكان لذاته عندهم في تقسيمهم كالمتكلمين والمشائين حيث قالوا إن المعقولات خمسة واجب لذاته وهو الله سبحانه وواجب لغيره وهو المعلول عند وجود علته التامة، وممتنع الوجود لذاته وهو شريك الباري وممتنع الوجود لغيره وهو المعلول عند عدم علته، وممكن الوجود لذاته ولم يقولوا ممكن الوجود لغيره لأنهم لو قالوا ذلك لكان يلزمهم عندهم على ما يفهمون أنه لو كان ممكنا لغيره لكان قبل فعل ذلك الغير إما واجبا فجعله الغير ممكنا وإما ممتنعا فجعله ذلك الغير ممكنا، فلا يكون الواجب واجبا والممتنع ممتنعا فلا يطلقون على الممكنات إلا الإمكان الذاتي لئلا يلزمهم إمكان الواجب والممتنع ولكن يلزمهم مثله أيضا وهو أنه إذا كان الممكن

ممكنا لذاته لا يخلو إما أن يكون قبل إيجاده شيئا أو ليس بشي فإن كان قبل إيجاده شيئا فهو قديم ولا يمكن إيجاده لأنه بالإيجاد يتغير والقديم لا يتغير، وإن لم يكن شيئا فهو بإيجاده ممكن الوجود لغيره إذ ليس له ذكر قبل الإيجاد في جميع مراتب الوجود فيجب أن يقال أن التقسيم الحق أن ما يطلق عليه الشيئية مطلقا أي بالذات وبالغير شيئان واجب لذاته وهو الله تعالى وممكن لغيره وهو ما سواه ، وأما الواجب بغيره والممتنع لغيره فهما من أقسام الممكن وقد ذكرناه مرارا فراجعه، وأما ما يسمونه بممتنع الوجود لذاته فليس شيئا أصلا فلا يدخل في التقسيم وإلا لكان إذا كان عندك خمسة دراهم لا غير لا يصح أن تقول إن الذي عندي خمسة لأن الذي عندك لا يتناهى لكنه ليس بموجود عندك إلا خمسة وهذا مضحكة في القول والاعتقاد وإن كان شيئا فهو من أقسام الممكن ولو كان الممكن ممكنا لذاته لما كان شيئا بالله بل هو شيء بذاته.

فإن قلت: إنه شيء بالله حين وجد.

قلت: وقبل وجوده إن كان شيئا بالله لزم ما قلنا من أنه ممكن بغيره، وإن كان شيئا بنفسه فهو قديم كما قلنا سابقا وإن لم يكن شيئا أصلا فذلك ما قلنا لكنا نقول إنه ليس بشيء أصلا فأمكنه في الإمكان الراجح فهو ممكن بغيره إمكانا راجحا ثم كساه حلة الوجود وهي في قبضته تعالى فإبقاؤها عليه وسلبها عنه متساويان وهذا الإمكان المتساوي الذي نسميه الجائز فإن سلبها عنه لم يخرج عن الإمكان الراجح فما في الإمكان الراجح لم يحيطوا به وما شاء وجوده دخل في الإمكان الجائز وهم يحيطون به فإذا قال (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ) يراد به العلم الممكن الراجح الوجود وقوله (إِلاَّ بِمَا شَاء) يراد به ما أوجده فإنه يدخل

في الجائز وبيان دليله من الحكمة أن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يسأله زيادة العلم فقال (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلمًا)ولا ريب أنه لا يسأله إلا ما ليس عنده وذلك الذي ليس عنده ﷺ ليس هو العلم الحق الواجب الذي هو ذاته تعالى بل هو ممكن وليس مشاء أيضا لأن المشاء يحيطون به وأيضا هم عليهم السلام أبدا محتاجون إلى مدده في علومهم وفي بقائهم فلا يستغنون عن المدد وهو دائما يمدهم بما لا نهاية له ولا يمدهم بما عندهم بل يمدهم بما ليس عندهم والحاصل أنه جل وعلا اصطفاهم لما شاء من علمه وهو ظاهر إن شاء الله تعالى هذا على نسخة لعلمه باللام وأما على نسخة بعلمه بالباء هنا فيجوز أن يكون المراد بالعلم الذي في الراجح والذي في الجائز، وأما الذي هو هو تعالى فليس في ذاته اصطفاء ولا مصطفى لأن هذا مقام في الخلق وهو معنى فعلي، وأما الذات البحت الواجب فإنما هو هو لا غير ويأتي بيان بعض ما وصل إليهم في بيان قوله (وارتضاكم لغيبه).

فأقول إن الارتضاء اختيار خاص يعني أن الشيء قد يكون مختارا لأمر وإن لم يرتض لذاته ولا يكون مرتضى إلا مختارا فهو بمعنى الاصطفاء وبمعنى الاختيار وفي هذه الفقرة الشريفة إشارة إلى قوله تعالى (عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَدًا ⋆ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)الآية فعلى ظاهر التفسير أن ومن بيانية ويكون المعنى أن الله سبحانه يرتضي من رسله من يشاء لتحمل ما يشاء من غيبه بأن رآه أهلا لذلك وما رآه إلا لحقيقة ما هو أهله ولا يكون كذلك إلا لمحبة الله له وكان محمد رسول الله ﷺ أولى بهذا المقام من جميع الخلق ولذا استعظم الله ما هو عليه في ذاته فقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلقٍ عَظِيم)فلما ارتضاه لعبوديته لصدقه وارتضاه لرسالته لصدق عبوديته ارتضاه لتحمل ما يشاء من غيبه وما علمه

الله فقد علمه عليا والطيبين من ذريته صلى الله عليه وعليهم، وعلى التأويل أن المرتضى من الرسول هو علي عليه السلام وكذلك في قوله تعالى(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء)والمجتبى من الرسول هو علي عليه السلام وفي الخرائج والجرائح عن الرضا عليه السلام قال (فرسول الله عند الله مرتضى ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه على ما يشاء من غيبه فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة).

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام قال (وكان محمد ممن ارتضاه).

أقول: على التفسيرين دلت الآيتان والروايات على أنهم ممن ارتضاهم لغيبه، ولا شك في هذا عند من عرف إلا أن هذا يحتاج إلى بيان وقد أشرنا في خلال هذا الشرح في مواضع كثيرة إلى ذلك فيما سبق ونذكر هنا منه ما يسنح بالخاطر الحاضر كما هي عادتنا فيما نكتبه لأجل البيان وإن لزم منه التكرار والتطويل.

فأقول: أولا تعلم أن ما ذكره العلماء رضوان الله عليهم من أنهم لا يعلمون الغيب لا ينافي ما نذكره، وإن اختلفت المقاصد لأنهم لا ينكرون أنهم عليهم السلام أخبروا بأشياء كثيرة من الغيب إلا أنهم يقولون كان ذلك من الوحي الذي نزل على محمد صلى الله عليه وآله في خصوص أشياء وقد علمهم ذلك عن أمر من الله تعالى ونحن نقول بموجب ذلك وإن ما كان عندهم فإنما هو وراثة عن جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله، كما روي عنهم عليهم السلام ولأن عندهم علم القرآن كله وفيه تبيان كل شيء وتفصيل كل شيء إلا أنه مستور عن الأغيار وقد كشف سبحانه لمحمد وآله الأطهار عليهم السلام جميع الأستار وما أخبروا به من ذلك المستور عن غيرهم وأيضا عندهم الاسم الأكبر وبه يعلمون ما شاءوا كما ذكروا في أحاديثهم ، ثم اعلم أنهم على

كل تقدير لا يعلمون من ذلك كله إلا بتعليم الله سبحانه في كل جزئي جزئي فإذا قيل لا يعلمون الغيب، بمعنى من ذاتهم فهو حق وإذا قيل علمهم رسول الله ﷺ عن الله كثيرا من الغيب فهو حق، وإذا قيل علمهم الله فهو حق وإذا قيل علمهم الاسم الأكبر وأقدرهم به على ما يشاؤن من العلوم التي لا يطلع عليها غيرهم فهو حق، وإذا قيل قد سخر لهم الملائكة والجان تخدمهم في كل ما شاءوا وتحمل إليهم علوم ما غاب عنهم وما لم يكن مشاهدا فهو حق، وإذا قيل قد كتب لهم في القرآن وفي مصحف فاطمة وفي الجامعة وفي الجفر وفي الغابر وفي المزبور بل في جميع أفراد الأشياء وفي العالم وفي الأنفس ما شاء من علمه فهو حق ، وكل هذه وردت بها أخبارهم ودلت عليها أدلة العقول المنيرة وهذه العلوم الغائبة هي وأمثالها هي المعنية بقوله (إِلاَّ بِمَا شَاء)(إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)(وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء)، وبقوله عليه السلام (ارتضاكم لغيبه) ، وقد تقدم في مواضع متعددة وقول الله سبحانه (فَإِنَّهُ يَسْلكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ رَصَدًا)أي يجعل الله تعالى لوليه المرتضى مؤيدات من الملائكة ومن إمداداته ومن ذكره تحفظ عليه ما أطلعه عليه من الغيب له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وتلك الحفظة من الملك المحدث ويحرسونه من اختطاف الشياطين المسترقين للسمع والمقيضين لإنساء ما تذكره الذاكرات ولمحو ما نقش في ألواح النفوس ليعلم الله أن قد أبلغ النبي ﷺ عليا والطيبين من ذريتة ما علمه من غيبه وأن قد أبلغوا شيعتهم ما أمروا بإبلاغه من العلوم والأحكام الوجودية والشرعية أو ليعلم الرسول أنهم قد أبلغوا عنه وقوله تعالى (وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُل

شَيْءٍ عَدَدًا)فيه تنبيه وتصريح أن ما أظهرهم عليه من غيبه في يده وفي تصريفه لم يخرج عن ملكه ويصدق عليه حقيقة أنه لا يعلمه غيره كما قال تعالى (قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ)وأنه لا يعلمه أحد إلا بإذنه بل كونهم عالمين به حين علمهم إياه قائم به قيام صدور هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم عليه ثم اعلم أن المراد بالغيب ما غاب عن الحس فإذا قيل غيب الله يراد به ما غاب عن بعض خلقه أو عن كلهم لأن الله سبحانه لم يغب عنه غائبة فلا يكون عنده غيب وأما خلقه فلهم غيب وشهادة وقد يكون غيب في مكان عند بعض شهادة عند بعض آخر وقد يكون غيب عند الكل.

فالأول هو المراد هنا فالغيب الذي ارتضاهم له إنما هو غيب عند غيرهم وأما عندهم فشهادة فعلمهم به علم إحاطة وعيان لا علم إخبار وإن كان علم الإخبار أيضا يصدق عليه الشهادة عند العالم به وإن كان غيبا عند من لا يعلمه.

والثاني الغيب الذي هو عند كل الخلق هو ما دخل في الإمكان وأحاطت به المشية إلا أنه لم تتعلق به تعلق التكوين وهذا لا يتناهى ولا ينفد أبدا الأبدين، وذلك هو خزائنه التي لا تفنى ولا يتصور فيها نقص بكثرة الإنفاق فهو عز وجل ينفق منها كيف يشاء فالذي ينفق منه في أوقات الإنفاق وأمكنتها ينزل من الغيب إلى البيوت التي ارتضاهم لغيبه وينزل من أبوابها ما يشاء وذلك المخزون منه محتوم ومنه موقوف، فالمحتوم منه ما لا يمكن تغييره وهو كون ما كان فإنه لا يمكن بعد أن كان ألا يكون وقد تقدم ذكره من قريب ومنه ما يمكن تغييره ولكنه وعد ألا يغيره وهو لا يخلف الميعاد قال تعالى في محتوم الخير (فَلا كُفْرَانَ

لسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)وفي محتوم الشر (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

وهذا المحتوم لو شاء غيره ومحاه والموقوف مشروط فيكون كذا إن حصل كذا وإن لم يحصل كذا كان كذا وكذا والشرط هو السبب ، وأما المانع فقد يكون في الغيب والشهادة وقد يكون في الغيب ولا يكون في الشهادة، لأنه إذا وجد في الشهادة وجد في الغيب ولا يلزم العكس فإذا وجد المقتضي فإن وجد المانع منه فإن اعتدلا فهو الموقوف كما ذكر،و إن رجح أحدهما فالحكم له فإذا وجد المقتضي وفقد المانع فإن فقد في الغيب والشهادة حتم وجوده فإن تمت قوابله وجد ووصل إليهم علمه لأنه مما شاء وإن انتظرت جاز في الحكمة الإخبار به فيخبر به على جهة الحتم ولا بد أن يكون إلا أنه قبل كونه في الصفحة الثانية من اللوح وهذا عندهم عليهم السلام ومنه ما كان، ومنه ما يكون، وإلى هذا القسم أشاروا في أخبارهم إن عندنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة وإن فقد المانع في الغيب خاصة جاز في الحكمة الإخبار به فيخبر به من غير حتم وهذا قد يكون وقد لا يكون والفائدة في الإخبار به مع أنه سبحانه لا يكذب نفسه ولا يكذب أنبياءه ورسله وحججه هي إظهار التوحد بالخلق والأمر والاستقلال بالملك وإرشاد الخلق إلى اعتقاد البداء ، لأن ما عبد الله بشيء أفضل من البداء أي إثبات البداء لله تعالى وهذا يجوز للحجج الإخبار به لا على سبيل الحتم بل عليهم أن يعرفوا من لا يعرف أن الله يفعل ما يشاء وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ولهذا قالوا عليهم السلام ما معناه إذا أخبرناكم بأمر فكان كما قلنا فقولوا صدق الله ورسوله وإن كان

بخلاف ذلك فقولوا صدق الله ورسوله توجروا مرتين وليس عليهم أن يعرفوا من لا يعرف هذا في خصوص الواقعة لأن ذلك يوجب الشك في تصديقهم عند أكثر الناس وقد يلزمهم ﴿عليهم السلام﴾ من ذلك التقول على الله لأنه سبحانه لم يأمر بذلك في كل واقعة وإن كان قد يأمر بذلك كما في وعد موسى ﴿عليه السلام﴾ بين ثلاثين وأربعين في معرض التقرير والهداية والبيان وقد يلزم من البيان خلاف المقصود من الأخبار، وهذا القسم قد يكون يوجد مانعه في الشهادة كالصدقة في دفع البلاء المبرم، يعني الذي أبرم في الغيب لعدم المانع هناك والدعاء في رد البلاء وقد أبرم إبراما كذلك وكبعض الأفعال بل كل الطاعات وتفصيل ذلك يطول.

قال ﴿عليه السلام﴾ واختاركم لسره واجتباكم بقدرته

قال: الشارح ﴿رحمه الله﴾ واختاركم لسره للتأكيد أو التخصيص بعد التعميم واجتباكم بقدرته إشارة إلى علو رتبة اجتبائهم بأنه لا يمكن إلا من قدرة الله وإن كان لكل من قدرته أو لإظهار قدرته.

أقول في مجمع البحرين والسر الذي يكتم ومنه هذا من سر آل محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أي من مكتوم آل محمد الذي لا يظهر لكل أحد قال بعض شراح الحديث (اعلم أن سر آل محمد صعب مستصعب فمنه ما يعلمه الملائكة والنبيون وهو ما وصل إليهم بالوحي ومنه ما يعلمه هم ولم يجرِ على لسان مخلوق غيرهم، وهو ما وصل إليهم بغير واسطة وهو السر الذي ظهرت به آثار الربوبية عنهم فارتاب لذلك المبطلون وفاز العارفون فكفر به فيهم من أنكر وفرط ومن غلا فيهم وأفرط وفاز

من أبصر واتبع النمط الأوسط)هـ.

والمراد بالسر الذي يعلم هو أنهم عليهم السلام حجج الله على جميع خلقه من الإنس والجن والملائكة وسائر الحيوانات بل والنباتات والمعادن وسائر الجمادات بمعنى أن الله احتج بهم على خلقه فيما يريد منهم مما كلفهم به من أحكام التشريعات والوجودات، وتسبيح الأسباب بأفعالها والمسببات بانفعالاتها والرياح بهفيفها والمياه بجريانها والمطر بودقه والبرق بلمعانه والرعد بزجله، ولقد روى المفيد رحمه الله، في الاختصاص بإسناده إلى سماعة قال (كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فأرعدت السماء وأبرقت فقال أبو عبد الله عليه السلام أما إنه ما كان من هذا الرعد ومن هذا البرق فإنه من أمر صاحبكم قلت من صاحبنا ؟ قال أمير المؤمنين عليه السلام) هـ.

وأمثال ذلك وكان مما أوحى إلى حججه من الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المستحفظين ومن الملائكة المقربين وعلم كثيرا من شيعتهم كثيرا من ذلك أن محمدا وآله صلى الله عليهم أجمعين قد جعلهم حججه على جميع خلقه على نحو ما أشرنا إليه هنا وسابقا في أثناء ما تقدم وجعلهم أبوابه إلى الخلق وأبواب الخلق إليه في جميع أحوال مراتب الخلق والرزق والممات والحياة وهو سر الله عند من أطلعه عليه قد أخذ عليهم العهد أن يكتموه عن غير أهله ومن كان من أهله أن يلقوا إليه على قدر ما يعرفون من احتماله، وهذا القسم هو الذي أشاروا إليه عليهم السلام بقولهم إن حديثنا صعب مستصعب كما في البصائر، وفي حديث أبي الطفيل إلى أن قال علي عليه السلام (إن أمرنا صعب مستصعب لا يعرفه ولا يقر به إلا ثلاثة ملك مقرب، أو نبي مرسل أو مؤمن نجيب امتحن الله قلبه لإيمان)وعنه عليه السلام (إن حديثنا صعب مستصعب خشن مخشوش فانبذوا إلى الناس نبذا فمن عرف

فزيدوه ومن أنكر فأمسكوا لا يحتمله إلا ثلاثة ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان).

وأمثال ذلك مما دلوا عليه في أحاديثهم وهذا القسم لا يعلّمه الله تعالى أحدا من خلقه إلا إذا علم صدقه في ولايتهم عليهم السلام وعلى قدر معرفته في ولايتهم يعلمه الله ومما يدل على ذلك كثير منه ما رواه المفيد رحمه الله في الاختصاص بإسناده إلى المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام أنه قال لمفضل بن عمر (إن الله تبارك و تعالى توحد بملكه فعرف عباده نفسه ، ثم فوض إليهم أمره وأباح لهم جنته فمن أراد الله أن يطهر قلبه من الجن والإنس عرفه ولايتنا ومن أراد أن يطمس على قلبه أمسك عنه معرفتنا ، ثم قال يا مفضل والله ما استوجب آدم أن يخلقه الله بيده وينفخ فيه من روحه إلا بولاية علي عليه السلام، وما كلم الله موسى تكليماً إلا بولاية علي عليه السلام، ولا أقام الله عيسى ابن مريم آية للعالمين إلا بالخضوع لعلي عليه السلام ، ثم قال أجمل الأمر ما استأهل خلق من خلق الله النظر إليه إلا بالعبودية لنا)هـ.

وهذا القسم على قسمين قسم يعلمونه الأنبياء والمرسلون والأوصياء والملائكة عليهم أجمعين السلام وشيعتهم ويحتملونه بتعليم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم بالإقبال عليهم على جهة الانبساط والعموم فتستضيء بذلك قلوبهم فيعلمون من الأسرار ما جرت به (بهم) لهم الأقدار فهم كالشمس تشرق على الأرض وينبسط ضوؤها وتستنير البقاع على قدر قوابلها.

وقسم لا يعلمه أحد منهم الا بإقبال خاص وتعليم خاص غير ما هو بالإشراق والانبساط الأولي أو غير ما هو عن الوجود التشريعي بل بعناية سبقت وخاتمة لحقت وذلك مثل اطلاع شخص منهم على معرفة المنزلة بين المنزلتين في القدر،

فإن ذلك مما نصوا عليه السلام عليه بأنه لا يعلمها إلا العالم أو من علمها إياه العالم.

ولقد رأيت في أيام إقبالي وتوجهي رؤيا عجيبة ملخصها إني رأيت في المنام كأني في صحراء واسعة مد البصر وفيها ضياء شديد أشد من نور الشمس، بحيث لا يكاد البصر يدرك شيئا لشدة النور وسمعت صوتا أخاطب به ينبعث إلي من كل جهة من الجهات الست بلسان واحد وأحسن أن كلي سامع لا تختص الأذن بسماعه ولم أفهمه حال انبعاثه لاستدارة كل حرف منه علي كالكرة وأنا له كالقطب، فلما انقطع فهمت معناه واستعظمته على نفسي لأني فيما أعرف من نفسي لست أهلا لذلك، ثم رأيت المتكلم شخصا نورانيا قائما في الهواء ارتفاع مكانه تقريبا من ثلاثين قامة ولشدة صفائه كاد يخفى عن بصري وهو رامق إلي بطرفه وكتمت أمري مدة قدر ستة أشهر لم أتكلم به، ثم رأيت ليلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسألته عن المتكلم فقال ذلك أنا فقلت يا سيدي أنا أعلم بنفسي وأنت تعلم بي أني لا أستحق ذلك الخطاب بذلك المعنى ولست أهلا له فأي شيء استحققت به ذلك فقال بغير سبب وإنما أمرت أن أقول هكذا قلت أمرت أن تقول هكذا في شأني قال نعم وأمرت أن أقول إن فلانا من أهل الجنة وكان المشار إليه شيعيا إلا أنه جاهل لا معرفة له قال وأمرت أن أقول إن عبد الله الغويدري يكون من أهل الجنة وكان ذلك الرجل من أهل السنة وهو عشار وحاكم على محلة ولم يظهر لأحد منه شيء من الخير قط إلا أن في تلك المحلة جماعة من السادة الأعزاء وكان يعظمهم ويوقرهم كثيرا ويخدمهم ويسمع كلامهم ويصدق قولهم، فقلت يا سيدي عبدالله الغويدري يكون من أهل الجنة فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا تغتر في أن ظاهره خبيث فإنه يرجع إلينا ولو عند خروج روحه فكان من القدر طائفة من الشيعة

من أهل القطيف اقتتلوا مع طائفة من غير الشيعة من البوادي فخرج هذا الرجل مع أناس من أهل محلته ممن هو حاكم عليهم لنصرة الذين هم من أهل القطيف وقتل وأخبرت بهذا الكلام أناسا فقال رجل من الشيعة قد كان بينه وبين عبد الله المذكور صداقة واختصاص أن عبد الله الغويدري شيعي قلنا معاذ الله قال إي والله لايعلم بتشيعه إلا الله وأنا أثبت الرؤيا ملخصه فتدبر هذا المعنى حيث قال لي ﷺ إني قلت ذلك بلا سبب وإنما أمرت أن أقول هكذا فلما تعجبت كيف يكون بلا سبب أخبرني بأمر الرجلين وهذا معنى ما أشرت إليه من أن بعض الأسرار يعلمونها من شاءوا تعليما خاصا ويؤيد هذا المعنى ما رواه في البصائر عن الصادق عليه السلام أنه قال (إن حديثنا صعب مستصعب شريف كريم ذكوان ذكي وعر لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن قلت فمن يحتمله قال من شئنا)وفي رواية نحن نحتمله .

أقول على الرواية الأولى يكون صريحا أن من أسرارهم ما لا يحتمله الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا المؤمنون الممتحنون فيحتمل أن قوله عليه السلام (من شئنا) يراد به من شئنا من هؤلاء المذكورين إذ ليس غيرهم إلا من هو دونهم وذلك لا يحتمل إلا بالطريق الأولى أو من هو فوقهم وليس إلا هم عليهم السلام أي من شئنا يعني أنفسنا إلا أنه خلاف الظاهر والرواية الثانية صريحة في حقهم وهي غير هذه فتكون هذه في حق غيرهم ممن شاءوا تعليمهم ويؤيد هذا ما تقدم في معرفة المنزلة بين المنزلتين في القدر المروية عن علي بن الحسين عليهما السلام والدليل العقلي يشهد لهذا التقسيم لأن خصوص مشيتهم مكملة لما نقص من قابلية من أرادوا تعليمه، وأما السر الذي لا يعلمه إلا هم فهو ما كان من معرفة حقيقة مقامات الله التي

لا تعطيل لها في كل مكان وحقيقة معانيه سبحانه وظاهره جل وعلا وجهه وبابه وجنابه وحكمه الذي إليه يصير كل شيء وأمره الذي قام به كل شيء وكلمته التي انزجر لها العمق اكبر وهو قولهم عليه السلام في الرواية المتقدمة المشار إليها بقولنا وفي رواية نحن نحتمله. فإن سرهم هذا لو احتمله أحد غيرهم لكان أعلم منهم. لما روي أن أبا جعفر عليه السلام قال (إن حديثنا صعب مستصعب ذكوان أجرد لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبد امتحن الله قلبه للإيمان)، أما الصعب فهو الذي لم يركب بعد وأما المستصعب فهو الذي يهرب منه إذا رأي وأما الذكوان فهو ذكاء المؤمنين، وأما الأجرد فهو الذي لا يتعلق به شيء من بين يديه ولا من خلفه وهو قول الله تعالى الله نزل أحسن الحديث فأحسن الحديث حديثنا، لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله حتى يحده لأن من حد شيئا فهو أكبر منه) وذكر في البصائر (أنه وجد في بعض الكتب ولم يروه بخط آدم بن علي بن آدم قال عمير الكوفي في معنى حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل فهو ما رويتم إن الله تبارك وتعالى لا يوصف ورسوله لا يوصف، والمؤمن لا يوصف، فمن احتمل حديثهم فقد حدهم ومن حدهم فقد وصفهم ومن وصفهم بكمالهم فقدا أحاط بهم وهو أعلم منهم وقال نقطع الحديث عمن دونه فنكتفي به لأنه قال صعب فقد صعب على كل أحد منهم حيث قال صعب فالصعب لا يركب ولا يحمل عليه لأنه إذا ركب وحمل عليه فليس بصعب)هـ.

فإن قلت إذا كان ذلك السر المشار إليه معرفة المقامات والمعاني والظاهر والوجه فكيف قلت لا يعلمه غيرهم وأنت تخبر عنها والإخبار عنها دليل على العلم بها فلا يكون مختصا بهم إذ لا يمكن أن يسمي الشخص شيئا باسمه ويعده

ويعرف أنه قبل كذا وبعد كذا وهو لا يعلمه إلا أن يقال أن غيرهم يعرفها مجملة وهم يعرفونها مفصلة وعلى هذا ينبغي ألا يعرفها غيرهم.

قلت بيان جواب هذا طويل الذيل لتوقفه على تقديم مقدمات ومعرفة مسائل كثيرة إلا أني أجمله في الإشارة.

فأقول: إن تلك الأشياء المشار إليها لا تخرج عنهم إلى غيرهم والشيء لا يعرف الشيء حتى يصل إليه، وأما ما سمعت من ذكرها فإنما نصف آثارها مجملة وتلك الآثار هي صورها في نفوس من عرف ذلك من غيرهم كما نعرف الله ونصفه بصفاته ونعوت ذاته وهي صور تعرفه لعباده وهي ذواتهم التي ظهر لهم بها، ولكنه سبحانه ظهر لنا بذواتنا عن تلك الأشياء المشار إليها بمعنى أنه جل وعلا أظهر وصفه لنفسه الذي هو تعرفه لهم عليهم السلام وهو حقيقتهم، وظهر لنا بصورة تلك الحقيقة بما فيها من وصفه فنعرف تلك الأشياء بما انتقش في ذواتنا من صورها كما توجد صورة النجم في الماء، ولما كانت تلك الأشياء كبيرة واسعة لا يسعها شيء ممن هو دونها ما لم يحط ذلك الشيء بكل صورها بحيث تظهر فيه كل حدود أشباح هياكلها، وإنما يسع بقدره فلما صغر في ذاته لم يحط بتفاصيل أشباحها وإنما فيه أن المعنى غير الظاهر وأن الباب غير الوجه وأن الحكم غير الأمر فالعارفون بهم عرفوا العدد أو بعضه ومن نفس الشبح بقدر وسعه وذلك حقيقته وقيمته عند ربه، وقيمة كل امرىء ما يحسنه وهذا القدر من الظهور هو المراد من الإجمال فإذا كان كل من سواهم لا يصل إليه إلا بعض أشباحها صح أن من سواهم لا يعلمها لأن الشبح ظل النور، وأما النور فهو مقامات ربهم ومعانيه وظاهره ووجوه صفاته ولا يعلمها غيرهم كما ذكر وهذا هو السر الذي

اصطفاهم له، وأما القسمان الأولان منه فمعنى أنه سبحانه اصطفاهم لهما أنهم الحافظون والمبلغون والمؤدون وخزائن مبادئهما ونهاياتهما وما يتوقف ذلك من الكتب والآجال وغيرهما، ومما يدل على أن ما وصل إليهم منه ما لا يحتمله غيرهم أبدا ومنه ما يحتمله غيرهم بواسطة تعليمهم وأن من ليس منهم ولا إليهم لا يحتمل من سرهم سرا لما فيهم من حقيقة الإنكار للحق ما رواه في الكافي بإسناده إلى محمد بن عبد الخالق وأبي بصير قال قال أبو عبد الله عليه السلام (يا أبا محمد إن عندنا والله سرا من سر الله ، وعلما من علم الله ، والله ما يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للايمان والله ما كلف الله ذلك أحدا غيرنا ولا استعبد بذلك أحدا غيرنا وإن عندنا سرا من سر الله وعلما من علم الله ، أمرنا الله بتبليغه ، فبلغنا عن الله عز وجل ما أمرنا بتبليغه ، فلم نجد له موضعا ولا أهلا ولا حمالة يحتملونه حتى خلق الله لذلك أقواما ، خلقوا من طينة خلق منها محمد وآله وذريته عليهم السلام ومن نور خلق الله منه محمدا وذريته وصنعهم بفضل رحمته التي صنع منها محمدا وذريته ، فبلغنا عن الله ما امرنا بتبليغه ، فقبلوه و احتملوا ذلك (فبلغهم ذلك عنا فقبلوه واحتملوه) وبلغهم ذكرنا فمالت قلوبهم إلى معرفتنا وحديثنا ، فلولا أنهم خلقوا من هذا لما كانوا كذلك ، لا والله ما احتملوه).

أقول: الأول هو الذي اختصوا به ولا يجوز في حكمة الله أن يكلف به غيرهم ولا يجوز لغيرهم أن يطلبوه ومن طلبه فقد عصى الله واستوجب عقوبة طلبه وإن آدم عليه السلام بعد ما علم سبق علم الله بأنه سيأكل من تلك الشجرة شجرة الخلد التي منها القلم الأعلى حين أكل هو وحواء حبة من ثمارها طردا من الجنة وطلبها أيوب فابتلي بالبلاء العظيم، ورغب عن الخضوع لها يونس فالتقمه الحوت فلما

تابوا وأنابوا وسألوا الله بمحمد وآله تحت قبة سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام قبل الله توبتهم وأثابهم على عظيم البلاء جزيل الرضا وكذلك قد تناول ملكان من الملائكة من ورقها وهم طائفة من الملائكة بأن يتناولوا من ورقها فطردهم من جوار عرشه فطافوا بالعرش سبعة آلاف سنة، فلما طردهم لاذوا بالبيت المعمور سبع سنين وتاب عليهم حين لاذوا بقبر الحسين عليه السلام في العالم الذي قبل هذه الدنيا.

والسر الثاني هو الذي يحتمله الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون والمؤمنون الممتحنون لأن طينتهم من فاضل طينة محمد وآله الطيبين الطاهرين صلى الله عليه وآله وسلم فلهذا قبلوه وحتملوه لما حملوهم إياه ولما كان مثل هذا العلم لا يحتمله الأغيار من أعداء الدين ولا الجهال من المستضعفين أمر الله بكتمانه ولذا سمي سرا ، أما الأغيار فلأنهم خلقوا من خلاف الحق وخلاف الطينة الطيبة وخلاف الحق هو الباطل وخلاف الطينة الطيبة الطينة الخبيثة طينة خبال فلم يقبلوا الحق الخالص وقد يقبلون منه المشوب إقامة للحجة عليهم، وأما المؤمنون الجهال والمستضعفون فلِما في طينتهم من لطخ الطينة الخبيثة فإذا تزيلت الطينتان قبل الحق أهله والباطل لحق بأهله، وقد أشار عليه السلام في الحديث الذي تقدم بعضه قال عليه السلام بعد ذلك ثم قال (إن الله خلق أقواما لجهنم والنار، فأمرنا أن نبلغهم كما بلغناهم واشمأزوا من ذلك ونفرت قلوبهم وردوه علينا ولم يحتملوه وكذبوا به وقالوا ساحر كذاب ، فطبع الله على قلوبهم وأنساهم ذلك ، ثم أطلق الله لسانهم ببعض الحق ، فهم ينطقون به وقلوبهم منكرة ، ليكون ذلك دفعا عن أوليائه وأهل طاعته ولولا ذلك ما عبد الله في أرضه، فأمرنا بالكف عنهم والستر والكتمان فاكتموا عمن

أمر الله بالكف عنه واستروا عمن أمر الله بالستر والكتمان عنه، قال ثم رفع يده وبكى وقال اللهم إن هؤلاء لشرذمة قليلون فاجعل محيانا محياهم ومماتنا مماتهم ولا تسلط عليهم عدوا لك فتفجعنا بهم، فإنك إن أفجعتنا بهم لم تعبد أبدا في أرضك وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما).

فإنه عليه السلام ذكر المنكرين من المخالفين ولم يصرح بالمنكرين من المؤمنين لأن إنكارهم ليس ذاتيا وذلك لأن من شأنهم الرد إلى أئمتهم عليهم السلام إلا أنه أهملهم وذكر البالغين القابلين منهم المحتملين لسرهم ودعا لهم.

وأما قوله عليه السلام (واجتباكم بقدرته) فقد أشار الشارح رحمه الله إلى معنى من معانيه وهو أنه إنما نسب الاجتباء إلى القدرة مبالغة في تعظيم مقام اجتبائه لهم لأن اجتباهم الواقع على أكمل وجه من الاجتباء، إنما يكون عن قدرة بالغة وهي قدرته التي لا تعجز عن شيء وإن عظم ويجوز فيه معنى آخر وهو أنهم لما كانوا كما هم أهله مظهر قدرته ومصدر آثارها وباب فيضانها بمكان ينحدر منه السيل ولا يصعد إليه الطير واجتباهم بسبب ذلك ويجوز معنى آخر وهو أن قدرته لما كانت لا تتناهى عظما وشدة بحيث لا يقدر أحد من المقدورات تحمل ظهورها عليه بلا واسطة، وجب في الحكمة اتخاذ الأعضاد للخلق ولما كانت الحكمة تقتضي أن تكون الأعضاد أقوى وأقرب مما يتقوى به إلى الفاعل ولم يكن في الوجود أقوى ولا أقرب منهم اختارهم عضدا لقدرته والباء بمعنى اللام وعلى تفسير ظاهر الظاهر المراد بالقدرة القدر يعني اختارهم بأن جعلهم مقدرين للأشياء بإذن الله كما قال الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب، ومناة وأذواد أي مقدرون بكسر الدال واختارهم بقدره فيرجع التقدير إلى اختياره لهم أو

إليهم يعني أنهم مقدرون بفتح الدال أي معدلون في أحسن تقويم أو بمعنى أنه أقدرهم على تحمل ما شاء من علمه أو على أداء ما حملهم وعلى تبليغ ما أمرهم بتبليغه وما أشبه ذلك مما يطول به الكلام إذا تصرف في معناه على قواعد الباطن وظاهر الظاهر والتأويل وباطن التأويل.

قال عليه السلام وأعزكم بهداه وأخصكم ببرهانه

قال الشارح رحمه الله وأعزكم بهداه أي جعلكم أعزة بالهداية هاديا أو مهديا وأخصكم ببرهانه أي بالقرآن وعلومه فإنها معجزان وهما عندهم أو الأعم منه ومن غيره من المعجزات الباهرة المتواترة التي روتها العامة والخاصة عنهم صلوات الله عليهم.

أقول: الهدى قد ذكرناه سابقا ونذكر الآن كما كان عزمنا من تكرير البيان للبيان فالهدى الإرشاد للزوم الطريق المؤدي إلى محبة الله والمبلغ إلى جنته الصارف عن اتباع الهوى الموجب للعطب و الأخذ بالآراء الموجب للهلاك ، روي هذا المعنى عن الصادق عليه السلام، والهدى الدلالة على الصراط المستقيم والهدى الكتاب والشريعة عن ابن عباس في قوله تعالى (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ)إلخ ، والهدى التعريف لطريق الخير والشر والهدى التبين كما قال تعالى (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ)والهدى التقوى كما قيل في قوله تعالى (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)، فيكون تقوى أي باعث تقوى ومحدثها أو زائدها والمتقين على معنى زائدها ظاهر وعلى إحداث التقوى يكون المعنى هدى وتقوى لمن يقبل أو للمستحقين المتأهلين لها أو باعتبار ما يؤول بها أمرهم إلا الاتصاف بها والهدى بمعنى الإمضاء أو الإصلاح كما في

قوله تعالى (وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ)، أي لا يمضيه أو لا يصلحه و الهدى بمعنى الطريقة قال تعالى(فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)أي بطريقتهم في الإيمان والتوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد ومجمل الشرائع وأصولها.

والهدى الحفظ لما لا بد منه للمكلفين ومنه قوله تعالى (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)وأمثال ذلك وقوله عليه السلام (وأعزكم بهداه) يصدق الهدى هنا على هذه المعاني مع مقارنة معاني عز من أصل اللغة والتضمين ومن معانيه الشدة والقوة مثل قوله تعالى (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)، أي شديد عنتكم يغلب صبره وكذا قوله تعالى (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ)، أي قوينا وشددنا ظهورهما بثالث فيصير المعنى شدكم بهداه وإرشاده للزوم الطريق المؤدي إلى محبته والمبلغ إلى جنته وقواكم بتعريفه وتبيينه لكم وقواكم بالتقوى وبما أمضى لكم في محتوم قضائه من سننه وطريقته وآدابه وأصول شرائعه وفروعها وشدكم وقواكم على حفظ ما لا بد منه للمكلفين من الإيجادات، وأسبابها والتشريعات وآدابها عليهم وأيدكم بما به تكونون غالبين لما تريدون ظاهرين على من تعادون وإذا جعلت الباء بمعنى (على)كما في قوله تعالى (مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ)أي على قنطار أو بمعنى اللام أو في أو عن أو غير ذلك من حروف الجر فإن حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض اتسعت وجوه المعاني وتكثرت بها يطول ذكرها ويدق بيانه.

وقوله عليه السلام وأخصكم ببرهانه

مما يراد به أنه سبحانه أخصهم بالقرآن بأن أنزله في حجراتهم أو علمهم مقاصده وإرادته فيه أو جعلهم حفظة أحكامه وقواما بما أنزل فيه من أوامره

ونواهيه أو جعلهم محله، لأنهم محال مشيته والقرآن ظاهر مشيته أو مظهر مشيته أو عاملين بما ينطق به إذ لا يمكن أحد من خلق الله أن يعمل بما ينطق به كما ينطق إلا هم عليهم السلام أو مبلغين به ومنذرين به كما قال تعالى حكاية عن نبيه وعنهم صلى الله عليه وعليهم (لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ)أي ومن بلغ أن يكون منذرا منهم عليهم السلام ينذركم به أو مؤدين عنه إلى الموجودين والمكلفين ما ظهر سبحانه به فيه لهم أو ما أظهر عنه من المعجزات الخارقات للعادات المقرونات بالتحدي، أو ما أظهر فيه وأنزل فيه من العلوم والأسرار والإخبار بالحادثات على ممر الدهور أو بما ينال حملته ويبلغون بسببه من الشرف والمجد والعز الذي لا يخلق جديده على تطاول الأيام والدهور، أو بما أنزل فيه من البرهان والحجج التي يقوم بها الحق ويبطل بها الباطل وما أشبه ذلك أو أنه سبحانه أخصهم بالمعجزات الخارقة للعادة فإنها برهان الله وحجته وآياته المصدقة لرسله وأوليائه وذلك مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بما يدخرون في بيوتهم وإنطاق الجمادات والحيوانات العجم وإحياء الجمادات بإعطائها أرواحا حيوانية وسلبها منها أو بالاسم الأعظم الأكبر الذي به يفعلون ما شاءوا ، ويعلمون ما أرادوا أو أنه أخصهم بروح القدس المسدد لهم فلا يخطئون والمعلم لهم فلا يجهلون، والمذكر لهم فلا ينسون أو أنه أنزل في أجسادهم وأجسامهم ونفوسهم وعقولهم أنوار مدده حتى كانوا آية للعالمين وحجج الله على سائر خلقه أجمعين أو أنه سبحانه جعلهم مظاهر برهان ربوبيته وآيات علمه وقدرته، كما تقدمت الإشارة إليه في رواياتهم من أنهم حجج الله وأنهم آياته التي أراها خلقه في الآفاق وفي أنفسهم والمراد بذلك أن برهانه ظهر عليهم أو هم أظهروه أو هم ذلك البرهان وهذه الثلاثة

الأحوال أحوال كونهم مظاهر برهان ربوبيته فالحال الثالث مقام المقامات في حقهم والأول مقام المعاني والثاني مقام الأبواب وآثار الأحوال الثلاثة تظهر في المقام الرابع مقام الإمام فافهم.

قال عليه السلام وانتجبكم بنوره وأيدكم بروحه

قال الشارح رحمه الله وانتجبكم بنوره من الكمالات والهداية وغيرها من الأنوار القدسية المعنوية، وأيدكم بروحه وهي روح القدس التي كانت مع نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وكانت معهم كما يظهر من الأخبار المستفيضة فمن ذلك ما رواه الكليني في الصحيح عن أبي بصير ليث المرادي قال (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) قال خلق من خلق الله عز وجل أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده).

وفي الصحاح عن ليث قال (سألت أبا عبد الله أمر عن قول الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) قال خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو مع الأئمة ويسددهم وليس كلما طلب وجد).

إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة والظاهر أنه من الملائكة الروحانيين ويمكن أن يكون عبارة عن تنور نفوسهم وعقولهم بالأنوار القدسية الإلهية، انتهى.

أقول: إنه سبحانه وتعالى انتجبهم أي اختارهم بنوره أي بعلمه يعني أنه اختارهم على علم منه بهم أنهم الخيرة وذلك في القدم المخلوق وهو السرمد، ومبدأ الفيض والمد، وهذا العلم الذي اختارهم هو الكتاب الأول ويعبر عنه

بعبارات كثيرة مختلفة في الظاهر والمدلول والمفهوم متحدة في المعنى ومنها الحق المخلوق والكتاب الأول والعلم المساوق والربوبية إذ مربوب والألوهية إذ مألوه والفعل والاختراع والإبداع والمشيئة والإرادة والرحمة الواسعة والشجرة الكلية وبرزخ البرازخ، والتعين الأول ومقام أو أدنى وعالم فأحببت أن أعرف وغير ذلك ولا يراد به العلم الذي هو الذات لأن الانتجاب معنى فعلي والذات لا تكون فعلا لنفسها ولأجل أن المراد منه العلم المخلوق بنفسه عبر عنه بالنور ويجوز أن يكون المراد من النور ذواتهم عليهم السلام بمعنى أنه لم يخترهم بشيء غيرهم، وإنما اختارهم بهم هذا ومثله من المعاني إذا أريد بأنه سبحانه اختارهم في المقام الأول وإن أريد أنه اختارهم في المقام الثاني يكون المراد بالنور هو الأمر وهو الماء الأول كما أشار إليه سبحانه (وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ).

وإن أريد به في المقام الثالث يكون المراد من النور هو الاسم الكبير والمصباح المنير الذي أشرقت به السموات والأرضون ويكون المراد به هنا هو الحجاب الأبيض ويكون المراد من الروح في أيدكم بروحه الحجاب الأصفر كما يأتي إن شاء الله تعالى، وإن أريد به في المقام الرابع يكون المراد من النور الوحي والقرآن بأن جعلهم مهبط وحيه وحملة كتابه وآثار هذا النور على أي معنى فرض تظهر آثاره في المقام الرابع كل أثر بحسبه في أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، كما أشرنا قبل هذا فيما قبله ولاحظ في الباء من بنوره معنى ما تقدم في نظائرها وتصرف على سنن بياننا تظهر لك ذخائر لم تزل قبل هذا الشرح مكنونة لم تكتب في القرطاس ولم تجر على خواطر الناس.

وقوله عليه السلام (وأيدكم بروحه) يراد منه أنه سبحانه أيدهم بروح منه وأعلى ما يراد من هذه الروح أن يراد بها مشيته، فإنها حياة كل شيء والمراد من تأييدهم بها

جعلهم محلا لها ولم يجعل الله جل وعز تأييدا بشيء مما خلق بشيء مما خلق مثل التأييد بمشيته ولم يؤيد بجميعها خلقا من سائر خلقه إلا محمداً وآله الطيبين صلى الله عليهم أجمعين ثم يراد بعده القائم بجميع حياة الموجودات وهو الماء الذي به حياة كل شيء، وكان العرش الذي استوى عليه الرحمن برحمانيته عليه قبل خلق السموات والأرض بما لا يكاد يدخل تحت الضبط وقد تقدم ما فيه إشارة إلى ذلك كما روي عنهم عليهم السلام أنهم كانوا أنوارا يسبحون الله قبل خلق سائر المخلوقات بألف دهر. وفي ما روي أن عليا عليه السلام خطب في البصرة وقال سلوني قبل أن تفقدوني، إلى أن قال الراوي فقام إليه الرجل فسأله عن مسائل إلى أن قال (فكم مقدار ما لبث العرش على الماء قبل خلق الأرض والسماء فقال عليه السلام أتحسن أن تحسب فقال نعم فقال أمير المؤمنين عليه السلام أفرأيت لو صبت في الأرض خردل حتى سد الهواء وملأ مابين الأرض والسماء، ثم اذن لك على ضعفك أن تنقله حبة حبة من المشرق إلى المغرب ثم مد لك في العمر حتى نقلته وأحصيته لكان ذلك أيسر من إحصاء ما لبث العرش على الماء قبل خلق الأرض والسماء، وإنما وصفت لك جزء من عشر عشير ما لبث العرش على الماء قبل خلق الارض والسماء ، وإنما وصفت لك (جزء) من عشر عشير من جزء من مأة ألف جزء ، وأستغفر الله من التقليل في التحديد)الحديث.

وهذا المشار إليه بالماء الذي به حياة كل شيء ثاني رتبة يصدق عليها الروح التي أيدهم بها، وثالث رتبة هو الروح الذي أشار إليها الشارح وهو المذكور وهو تحت المرتبتين الأوليتين ويطلق على القلم والعقل الكلي وعلى ملك له رؤوس بعدد الخلائق من ولد ومن لم يولد ، وفي العلل للصدوق بسنده إلى عمر بن علي عليه السلام عن علي بن أبي طالب عليه السلام (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل مما خلق الله عز وجل العقل

؟ قال خلقه ملك له رؤوس بعدد الخلائق من خلق ومن يخلق إلى يوم القيامة ، ولكل رأس وجه ، ولكل آدمي رأس من رؤوس العقل ، و اسم ذلك الإنسان على وجه ذلك الرأس مكتوب ، وعلى كل وجه ستر ملقى لا يكشف ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولود ، ويبلغ حد الرجال ، أو حد النساء فإذا بلغ كشف ذلك الستر ، فيقع في قلب هذا الإنسان نور ، فيفهم الفريضة والسنة ، والجيد والردي ، ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت).

ومثله روي أن الله عز وجل خلق ملكا له رؤوس بعدد بني آدم ولكل رأس وجه عليه اسم شخص منهم وعلى ذلك الوجه ستر، فإذا ولد مولود من بني آدم ارتفع من الستر عن الوجه شيء ثم لا يزال كلما نشأ ذلك المولود يرتفع من الستر من الوجه فيشرق نوره بكماله في القلب قليلا حتى يرتفع الستر بتمامه عن الوجه فيشرق نوره بكماله في القلب هـ.

وهذا الروح ملكا في هذه الأحاديث وغيرها ويسمى أيضا بلسان الشرع بالقلم كما تقدم وبالعقل وبلسان أهل الحكمة بالعقل الكلي وعند بعض بالعقل الأول، وقد يعبر عنه في الأخبار بالحجاب الأبيض والنور الأبيض وبالحجاب الأصفر والنور الأصفر وبالروح من أمر الله و رووا من طرقهم (أول ما خلق الله العقل). و رووا عنه ﷺ (أول ما خلق الله عقلي) و(أول ما خلق الله روحي). ومن طرقنا (أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر) و (إن الله خلق العقل وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش).

وبالجملة فالمعروف عند العلماء والحكماء أن أول ما خلق الله العقل وإن المراد بالعقل والقلب والروح والنور (في الروح) في الروايات واحد وأنه يكون مع

الأنبياء والرسل والأئمة يسددهم كما تقدم في روايتي ليث.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن العلم أهو شيء يتعلمه العالم من أفواه الرجال أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه قال الأمر أعظم من ذلك وأوجب ، أما سمعت قول الله عز وجل وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ثم قال أي شئ يقول أصحابكم في هذه الآية ، أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان ؟ فقلت لا أدري جعلت فداك ما يقولون ، فقال لي بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب ، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم ، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء ، فإذا أعطاها عبدا علمه الفهم)هـ.

والمراد به هو الروح من أمر الله أي الذي أظهره أمر الله وأمر الله هو مشيته وهو يطلق على ملكين هما معا عن يمين العرش وهما المعبر عنهما في كلام زين العابدين عليه السلام بالنور الأبيض والنور الأصفر والأبيض هو العقل والأصفر هو الروح والمراد بالعقل عقل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والروح روحه صلى الله عليه وآله وسلم لأن العرش قلبه والقلب فيه العقل والروح من جانب الطور الأيمن وفيه النفس والطبيعة من الجانب الأيسر ولهذا لم يوجد هذا الملك العالي عند أحد من الناس (الخلق) إلا محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه عقله وعقلهم ينتقل من واحد إلى واحد وفي الحديث (منذ أنزل الله ذلك الروح على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما صعد إلى السماء وأنه لفينا).

أقول: إنما كان ذلك لأنه عقله فهو مخصوص بهم وإنما يكون عند الأنبياء عليهم السلام منه وجه من وجوهه لكل نبي وجه ويكون عند كل مؤمن إشراق من أشعة

تلك الوجوه، ومعنى أن الله أيدهم بروحه الذي هو عقلهم أن الله سبحانه أكمله فيهم وهو في حد ذاته نور لا يظلم وذكر لا ينسى ولا يغفل وعلم لا يجهل ويقين لا يشك، ومعرفة لا ينكر وهداية لا يضل وما أشبه ذلك ومعنى أنه ليس كلما طلب وجد لأن العقل إذا أقبل لا يحتاج إلى طلبه إذ لا يطلب إلا لإقباله وإذا أدبر لا يمكن طلبه إذ ليس في مشاعر العبد بعد الوجود أقوى منه فيطلب به، ولأنه فان في الوجود فإذا صرفه الوجود المعبر عنه بالفؤاد لا يقبل وإذا أقبل به فهو شاهد لا يطلب وهذا الروح له إطلاقان أحدهما الروح الذي هو من أمر الله وهو ملكان عن يمين العرش وثانيهما الروح الذي على ملائكة الحجب أي الموكل على ملائكة الحجب وهو ملكان عن يسار العرش، وهذه الأربعة هم العالون الذين أشار سبحانه وتعالى إليهم بتأويل قوله تعالى لإبليس (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ)لأنهم لم يسجدوا لآدم بل إنما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم كرامة لهؤلاء الأربعة، لأن الله أنزل أنوارهم في آدم وهم أنوار محمد ﷺ وهم حملة العرش، والعرش ذواتهم أو ما جعل الله عندهم من خزائن الأشياء والملائكة الذين هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، يستمدون من أولئك الأربعة العالين امدادات مراتب الوجود الأربعة الخلق والرزق والحياة والمات، وهؤلاء الأربعة العالون هم الحجب وهم الأنوار الأربعة التي خلق منها العرش.

روى علي بن إبراهيم في تفسيره بسنده عن أبي الطفيل عن أبي جعفر عليه السلام قال (جاء رجل إلى أبي علي بن الحسين عليه السلام فقال له أن ابن عباس يزعم أنه يعلم كل آية نزلت في القرآن في أي يوم نزلت وفيما نزلت، قال فاسأله فيمن نزلت (وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً) وفيمن نزلت (وَلاَ يَنفَعُكُمْ

نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إن كان الله يريد أن يغويكم) وفيمن نزلت (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) فأتاه الرجل فغضب وقال وددت الذي أمرك بهذا واجهني به فأسأله ولكن سله مما العرش ومتى خلق وكيف هو فانصرف الرجل إلى أبي عليه السلام فقال له ما قال، فقال عليه السلام فهل أجابك في الآيات قال لا قال أبي عليه السلام ولكن اجيبك فيها بنور وعلم غير المدعى ولا المنتحل أما قوله وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ففيه نزلت وفي بنيه وأما قوله وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ففي أبيه نزلت ، وأما الأخرى فنزلت في أبي وفينا ولم يكن الرباط الذي امرنا به بعد وسيكون ذلك من نسلنا المرابط ومن نسله المرابط وأما ما سأل عنه مما العرش فإن الله جعله أرباعا لم يخلق قبله إلا ثلاثة أشياء الهواء والقلم والنور ثم خلقه من ألوان أنوار مختلفة من ذلك النور نور أخضر اخضرت منه الخضرة ونور أصفر اصفرت منه الصفرة ونور أحمر احمرت منه الحمرة ونور أبيض وهو نور الأنوار ومنه ضوء النهار ثم جعله سبعين ألف طبق غلظ كل طبق كأول العرش إلى أسفل السافلين وليس من ذلك طبق إلا يسبح بحمده ويقدسه بأصوات مختلفة وألسنة غير مشتبهة ولو أذن للسان منها فأسمع شيئا مما تحته لهدم الجبال والمدائن والحصون ولخسف البحار ولهلك ما دونه، له ثمانية أركان يحمل كل ركن منها من الملائكة ما لا يحصي عددهم إلا الله يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ولو أحس شيئا مما فوقه ما أقام لذلك طرفة عين بينه وبين الإحساس الجبروت والكبرياء والعظمة والقدس والرحمة والعلم وليس وراء هذا مقال ثم قال عليه السلام ولقد طمع الحائر في غير مطمع أما إن في صلبه وديعة قد ذرئت لنار جهنم فيخرجون أقواما من دين

الله كما دخلوا فيه وستصبغ الأرض بدماء الفراخ من فراخ آل محمد ﷺ تنهض تلك الفراخ في غير وقت وتطلب غير مدرك ويرابط الذين آمنوا يصبرون ويصابرون حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)هـ.

فذكر في هذا الحديث الشريف العالين الأربعة، وأنهم أنوار أربعة فالنور الأبيض والنور الأصفر هما الروح من أمر الله وهما عن يمين العرش، والنور الأخضر والنور الأحمر هما الروح الذي على ملائكة الحجب أي الموكلان بالكروبيين وهما عن يسار العرش، فالعرش مركب من هذه الأنوار الأربعة وهو هنا عبارة عنهم لأن له اطلاقات مختلفة عند أهل الشرع عليه السلام فيطلق على الملك وعلى الدين وعلى قلب العبد المؤمن، وعلى العلم الباطن وعلى عالم الأمر وعلى كل الوجود، وعلى محدد الجهات.

وسأل حنان بن سدير أبا عبد الله عليه السلام عن العرش والكرسي فقال (إن للعرش صفات كثيرة مختلفة ، له في كل سبب وضع في القرآن وصفة على حدة ، فقوله رب العرش العظيم يقول الملك العظيم ، وقوله الرحمن على العرش استوى يقول على الملك احتوى، وهذا ملك الكيفوفية في الأشياء ثم العرش في الوصل منفرد عن الكرسي، لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب ، وهما جميعا غيبان، وهما في الغيب مقرونان ، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع ومنه الأشياء كلها ، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العود والبداء، فهما في العلم بابان مقرونان ، لان ملك العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي، فمن ذلك قال (رب العرش العظيم) أي صفته أعظم من صفة الكرسي، وهما في ذلك مقرونان قلت جعلت فداك

فلم صار في الفضل جار الكرسي قال عليه السلام إنه صار جاره لأن علم الكيفوفية فيه وفيه الظاهر من أبواب البداء وأينيتها وحد رتقها وفتقها، فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الظرف وبمثل صرف العلماء، وليستدلوا على صدق دعواهما لأنه يختص برحمته من يشاء وهو القوي العزيز فمن اختلاف صفات العرش أنه قال تبارك وتعالى (رب العرش رب الوحدانية عما يصفون)الحديث.

فتدبر هذين الحديثين وما أشير فيهما إليه وذلك بيان الروح وأسمائها ومراتبها وصفاتها حيث عبر عنها بالألسنة المختلفة.

قال عليه السلام ورضيكم خلفاء في أرضه وحججا على بريته

قال الشارح رحمه الله ورضيكم خلفاء في أرضه كما قال الله تعالى (وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا).

وروي متواترا أنها وردت فيهم وكمال الاستخلاف في زمان المهدي عليه السلام فإنه الزمان الذي تجتمع فيه الخلائق على الإيمان ويرتفع الشرك بالكلية، كما رواه العامة أيضا متواترا وروى الخاصة متواترا أنهم خلفاء الله في أرضه ولا يكون زمان خاليا من الخليفة كما يظهر من قوله تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)ويظهر أيضا من قوله تعالى (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)وروي في الأخبار المتواترة أن المراد به الإمام وأنه لو لم يبق إلا اثنان لكان أحدهما الإمام عليه السلام هـ.

أقول: إنه سبحانه رضيهم أي جعله إياهم خلفاء في أرضه مصاحب لرضاه بأن رضي بأن يكونوا (بجعلهم) خلفاء أو رضي بخلافتهم أو رضيهم للخلافة،

أو ظهر رضاه بخلافتهم أو بجعلهم خلفاء، وإن خلافتهم هي رضاه أو أنها مظهرة لرضاه، أو ركن رضاه أو سبب لرضاه والرضا ضد السخط والسخط هو الغضب وإذا نسب إلى الله أريد به فعل العقاب بالمسخوط عليه والمغضوب عليه وكذلك الرضا ويكون هنا وجها من معاني هذا الكلام لأن رضا الله ثوابه فرضيهم الله خلفاء أثابهم بالخلافة أو بالمدد والتأييد للخلافة، أو جعل خلافتهم ثواب الطائعين وهو أعظم مراتب الإثابة إما بقبولها أو بجعلهم ملوكا بسبب القيام بمقتضاها والانقياد لأربابها أو أنها سبب للإثابة بنعيم الجنان وقد يكون الرضا بمعنى الإقرار في الشيء كما قالوا عليهم السلام لشيعتهم في حق مخالفيهم إرضوا ما رضي الله لهم من ضلال أي أقروهم على ما أقرهم الله عليه وقد يكون بمعنى الإذن في التصرف كما يقال رضي المالك بأن يبيع وكيله المتاع فعلى معنى الإقرار في الشيء يمكن أن يتكلف لجريانه هنا والمراد بالتكلف بعده عن مراد الظاهر، وإلا ففي الحقيقة لا ريب في إرادته لمن عرف المراد من مقاصد أهل العصمة عليهم السلام وعلى معنى الإذن ظاهر لأنه قد أشهدهم خلق الأشياء وأنهى علمهم إليهم وجعلهم أولياء على سائر خليقته، وهو تأويل قوله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما أوحى إلى سليمان بن داود عليه السلام (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)وهذا ملحوظ فيه قوله تعالى (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ)وإذا أريد بالرضا الاختيار فهو أظهر ويرجع الاختيار إلى ذواتهم، أي أنه تعالى اختارهم من سائر خلقه لخلافته في سائر خلقه أو إلى خلافتهم أي أنه اختار لهم خلافته الحق التي لا خلافة مثلها لأنه أقامهم في سائر عالمه مقامه وصاحب هذه الخلافة ينقاد له كل شيء من المعاني والأعيان والذوات والصفات والسكون والحركات والأفعال

والأعمال والأحوال والآجال والكتب والرخص وغيرها، لأن هذه الخلافة هي ولاية الله الحق لأن غير هذه الخلافة وإن كانت حقا ليست كلية شاملة ولا خالصة من جميع الهفوات والقصورات والتقصيرات بل إما خلافة جور أو مشوبة بحق وباطل، أو ناقصة أو ظاهرة في البعض أو باطنة في البعض ولا تنطبق على قوله تعالى (هُنَالِكَ الوَلايَةُ للهِ الحَقِّ)إلا الخلافة التي رضيها لهم عليهم السلام.

وقوله عليه السلام في أرضه التفات إلى قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)أما ذكر الأرض في الآية فهو ظاهر لأن الأرض لما كان إبليس حاكما على طوائف الجن، ثم لما طغوا وخالفوا أوامر الله وأرسل عليهم جنودا من الملائكة وقتلوهم وأسروا إبليس وصعدوا به إلى السماء أراد الله أن يعمر أرضه بقائم بالحق بعدما أفسد فيها الجن والشيطان فالتفت عليه السلام إلى أن خلافتهم، وإن كانت عامة، أهل الأرض وأهل السماء ومن في الغيب والشهادة وأهل الدنيا والآخرة لوحظ فيها مقابلة خلافة أهل لجور والطغيان من الشيطان شيطان هذه الأمة وجنوده ذرية الجن من أهل الزيغ و العدوان، وكانت في الأرض فرضيهم الله تعالى خلفاء في أرضه ليقيموا العدل فيها ويملئوها قسطا كما ملأها شياطين الإنس والجن ظلما وجورا، وإلا فخلافتهم عامة لكل شيء كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في استخلاف الله له قال عليه السلام (أقامه في سائر عالمه)يعني في جميع خلقه والمراد جعلهم خلفاء الله في أرضه أن الله تعالى يجري على أيديهم أفاعيله وأوامره ونواهيه في سائر خلقه بواسطة ما سخر لهم من ملائكته وجنه وإنسه وسائر ما صنع لهم و يجوز أن يكون الاستخلاف في العلم وهو قول الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى (وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلوا

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ)الآية، إلى أن قال عليه السلام (فقد مكن ولاة الأمر بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالعلم ونحن هم فسئلونا فإن صدقناكم فأقروا وما أنتم بفاعلين)أو يكون هو مطلق التمكين في الأرض لإقامة دين الله فيصدق في هذا الزمان إذ ليس هدى ولا دين إلا بهم أو خصوص التمكين في رجعتهم خاصة لا التمكين العام والمطلق، لأن ذلك لا تعرفه عوام الناس وإنما يعرفونه بالملك والتسلط الظاهري وذلك لا يكون إلا عند قيام قائمهم عجل الله فرجه أو في رجعتهم إلى الدنيا وقد يفهم من قوله في أرضه إرادة التوقيت بالزمان لذكر الأرض وليس المراد به حصر الاستخلاف، ولكن لما كان فائدة ذلك إنما هو للمكلفين وإجراء أحكام التكليف ظاهرا، إنما هو في الدنيا أو ما هو من دار التكليف كأحوال الرجعة لأنه في مقابلة استخلاف أئمة الجور ولهذا ورد بلفظ (وعد) وإلا لما حسن وعد لأن الله سبحانه قد جعلهم خلفاء بالمعنى الأول بل كان لهم ذلك قبل كل الخلق كما قال عليه السلام (الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق).

وقوله عليه السلام (وحججا على بريته) قد تقدم الكلام في الحجج والبرية قيل الخليقة مشتقة من برأ بالهمزة قيل بمعنى خلق وقيل في قوله تعالى (هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ)، الخالق المقدر لما يوجده والبارىء المميز بعضهم عن بعض بالأشكال المختلفة والمصور الممثل، وقال في مجمع البحرين (قال بعض الأعلام قد يظن أن الخالق والبارىء والمصور ألفاظ مترادفة وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع وليس كذلك بل كلما يخرج من العدم إلى الوجود مفتقر إلى تقديره أولا وإيجاده على وفق التقدير ثانيا وإلى تصوير بعد الإيجاد ثالثا فالله تعالى خالق من حيث هو مقدر وبارىء من حيث هو مخترع وموجد ومصور من حيث أنه مرتب صور

المخترعات أحسن ترتيب).

أقول: ليس واحد من هذه الأقوال بشيء فعلى الأول البرية الخليقة، وعلى الثاني البرية هي المميزة بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة، وعلى الثالث الموجودة على وفق التقدير هذا على تقدير أنها من برأ والحق في الأسماء الثلاثة أن الخالق هو الموجد للكون والبارىء هو الموجد للعين والمصور هو الموجد للتقدير فتكون البرية هي المكونة المعينة قبل أن تلحق أفرادها السعادة أو الشقاوة يعني مع قطع النظر عن السعادة والشقاوة وقيل من البراء بالمد والقصر وهو التراب والمعنى المخلوقة من التراب فعلى أنها من برأ يكون المراد بها كل ما دخل تحت الإرادة وعلى أنها من البراء أي التراب، فإن أريد به على الظاهر اختصت بما كون من العناصر فتخرج الملائكة وقد تدخل الملائكة العنصريون على قول من يجعل الملائكة قوى جسمانية وعلى قول من يجعلهم أرواحا مجردين عن المادة العنصرية والمدة الزمانية إلا أنهم أجسام كما هو الحق، فيخرجون على الظاهر ويدخلون على الباطن بمعنى أنها التراب ينتهي إلى الصور العلمية كما أشار إليه تعالى بقوله (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)أي بموت العلماء كما روي عنهم عليهم السلام وعلى قول من يجعلهم مجردين عن مطلق المادة يخرجون مطلقا، وأما الملائكة العقليون فيخرجون مطلقا والحق أخذها من برأ فيدخل فيها كل من كان تحت الإرادة فتدخل الملائكة العقلية فيكون المعنى أنهم حجج الله على جميع خلقه وقرأ نافع وابن ذكوان البرئة بالهمزة على الأصل لأنها من المهموز وقرأ الأكثر بالتخفيف للتخفيف والظاهر أن قراءة الهمزة من برأ لا من البراء وقراءة التخفيف تحتمل الوجهين ومعنى أنه رضيهم حججا على بريته، كما تقدم في بيان

وحجج الله على أهل الدنيا وخصكم ببرهانه فلا فائدة في إعادته.

قال عليه السلام وأنصارا لدينه وحفظة لسره

الأنصار جمع ناصر وهو الذاب فإنهم عليهم السلام يذبون عن دينه كل مخالف له بأن يبطلوا حجته بالبرهان الحق كما قال الصادق عليه السلام (فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولا ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين).

وعنه عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفى الكبريت خبث الحديد).

أقول قوله عليه السلام فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولا ...إلخ، يحتمل أن يريد بالعدول أنفسهم عليهم السلام وهذا على الحقيقة والأصل ويحتمل أن يريد بالعدول علماء شيعتهم الذين يقتفون آثارهم ويعرفون أحكامهم الممتحنون المحتملون لعلومهم وهو من عناهم علي بن الحسين عليهما السلام في تقسيم العلماء إلى أن قال (ولكن الرجل كل الرجل نعم الرجل هو الذي جعل هواه تبعا لأمر الله وقواه مبذولة في رضا الله يرى الذل مع الحق أقرب إلى عز الأبد من العز في الباطل ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرائها يؤديه إلى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد وأن كثير ما يلحقه من ضرائها إن اتبع هواه يؤديه إلى عذاب لا انقطاع له ولا يزول فذلكم الرجل نعم الرجل فيه فتمسكوا وبسنته فاقتدوا وإلى ربكم به فتوسلوا، فإنه لا يرد له دعوة ولا تخيب له طلبة).

وكذلك قول الصادق عليه السلام (فأما من كان الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا هواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه وذلك لا يكون إلا في بعض

فقهاء الشيعة لا جميعهم)الحديث.

ومن شيعتهم الأنبياء والمرسلون وأوصياؤهم كما قال الباقر عليه السلام في قوله تعالى (وَجَعَلنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)الآية، قال (فنحن القرى التي بارك الله فيها وذلك قول الله عز وجل فمن أقر بفضلنا حيث أمرهم الله أن يأتونا فقال وَجَعَلنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ القُرَى التِي بارَكْنا فِيها أي جعلنا بينهم وبين شيعتهم القرى التي باركنا فيها قُرىً ظاهِرَةً والقرى الظاهرة الرسل والنقلة عنا إلى شيعتنا وفقهاء شيعتنا إلى شيعتنا).

فعلى الأول هم الأنصار لدينه الذين ينفون عنه كل ما ليس منه ويتمون منه ما نقص منه ، وعلى الثاني فكذلك لأنهم إنما نصروا دين الله بتسديد أئمتهم وتعليمهم وإمدادهم لهم بأحاديثهم وتنويرهم لقلوبهم وتعريفهم كيف يعلمون ويعملون ويعلمون عواقبهم بل لم يصدر عنهم شيء من الحق في أنفسهم ولرعاياهم إلا منهم وعنهم عليهم السلام بل لم يوجد شيء من الحق عند أحد من الخلق إلا منهم.

وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام (أما إنه ليس عند أحد من الناس حق ولا صواب إلا شئ أخذوه منا أهل البيت ، ولا أحد من الناس يقضي بحق ولا عدل ولا صواب إلا ومفتاح ذلك القضاء وبابه وأوله وسببه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فإذا اشتبهت عليهم الأمور كان الخطأ من قبلهم إذا أخطأوا، والصواب من قبل علي بن أبي طالب عليه السلام إذا أصابوا).

والنصرة منهم عليهم السلام لدينه عامة وفي كل مرتبة من مراتب الدين من التوحيد فما دونه إلى أرش الخدش فما فوقه بل كل جزء هم القوام به ولاحظ ما تقدم فإن

فيه شرح ما نريد شرحه.

بقي هنا نكتة وهي أن علي بن الحسين عليه السلام قال في دعاء شهر رمضان (واجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري).

فأقول إذا كان القائل به مثله عليه السلام هو وآباؤه وأبناؤه الطاهرون كانت النصرة على الحقيقة على نحو ما أشرنا إليه بالأصالة وإذا كان القائل غيره من شيعتهم من الأنبياء مثلا فهو حكم عام إضافي على الحقيقة بعد الحقيقة وإذا كان من شيعتهم من غير أهل العصمة فهو خاص على محض التبعية وهذا في الجملة ظاهر وصعوبة الأمر فيه في التفصيل لكن الشيخ الأمين الشيخ ياسين بن صلاح البحراني تغمده الله برحمته روى في كشكوله قال كتب رجل إلى أبي عبدالله عليه السلام يسأله أن يدعو الله له أن يجعله ممن ينتصر به لدينه، فأجاب عليه السلام (رحمك الله إنما ينتصر الله لدينه بشر خلقه).

أقول: لعل السائل طلب في نفسه أعلى النصرة لدين الله التي لا تكون لغير محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، وعلم الإمام عليه السلام وفى ذلك منه فأجابه بأن طلب ذلك المقام العالي لا يكون إلا من أهله بالحق أو من مدعي مقامهم ولا يكون إلا شر خلق الله كما قال تعالى في شأن بخت نصر حيث انتقم به من أهل حضور أو حاضور، اسم قرية من اليمن حين قتلوا نبيهم حنظلة بن صفوان ونقل أنهم طبخوه وأكلوه فسلطه الله عليهم حتى قتلهم، ولم يبق منهم أحدا حتى الحيوانات وهو قوله تعالى (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ)وعن ابن عباس نادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء وقيل هو يهتف بثار حنظلة فسماه الله بأسا له وهذا كافر شقي انتصر الله به لدينه وإن كان معتديا مدعيا، فلو أن السائل طلب

أن ينصر الله به دينه تبعا لهم عليه السلام لأجابه إلى سؤاله ولذا ورد النهي عن سؤال مقامات الأنبياء والأئمة عليهم السلام لسائر الناس فنصرة الحق بالحق على كمال ما يريد الله لا تكون إلا من محمد وآله صلى الله عليه وآله دون غيرهم من جميع خلقه فقوله (ورضيكم أنصارا لدينه) يريد به أعلى مراتب النصرة على ما أشرنا إليه.

وقوله عليه السلام (وحفظة لسره) تقدم بيانه في قوله عليه السلام (وحفظة سر الله).

قال عليه السلام وخزنة لعلمه ومستودعا لحكمته

أقول: قد تقدم معنى كونهم خزنة لعلمه في قوله عليه السلام (وخزان العلم) وإن العلم نفس المعلوم فهم يرون كل شيء في مكان وجوده وزمان شهوده، وذلك لأن الشيء قائم بأمر الله ولا يقوم شيء بدون أمر الله وهو قوله تعالى (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ)وهم ذلك الأمر الذي قامت الأشياء بنوره وكل شيء من خلق الله هو العلم به فهم خزان العلم.

وذكر هنا أنه ارتضاهم خزنة لعلمه والمراد بهذا العلم العلم الحادث الذي هو ذواتها لأن العلم الأزلي هو ذات الواجب جل وعلا ولا يكون له خازن غيره ولا يحيطون بشيء من علمه ولما كان العلم نفس المعلوم لزم من قولنا أنهم خزنة العلم أنهم خزانة الأشياء من ذواتها وصفاتها وأحكامها ومصادرها ومواردها وعللنا ذلك بأنها قائمة بأمر الله وأنهم أمر الله وقلنا إنها ذرئت فيه أي في نوره لا في ذاته ومرادنا أنها بكل ما لها وعليها قائمة بنورهم ومعنى هذا القيام هو تأويل قوله تعالى (قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)فملكوت الأشياء وأزمتها نورهم فقد خزنوا كل شيء شاءه الله مشية كون في ملكوته بالله وبأمره قد رضيهم لذلك فكانوا كما رضي وأحب فقولنا

تأويل قوله تعالى (قُل مَن بِيَدِهِ مَلكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) نريد به أنهم يد الله كما قالوا عليهم السلام وملكوت كل شيء غيبه وعلته وزمامه الذي به قام ولذا قلنا إن الشيء مخزون في ملكوته ولا يتصرف في الشيء إلا من بيده ملكوته.

وبيانه أن التصرف الذي لا مانع له هو المراد لا مطلق التصرف فإن نور السراج تقدر أن تتصرف فيه في الجملة وإن لم تملك ملكوته بأن تقرأ عليه وتضع مرآة تعكس بعضه إلى غير جهة المقابلة وتحجبه، ولكن من كان بيده السراج بنفسه هو الذي يتصرف بلا مانع لأنك إذا أردت أن تقرأ مثلا وهو لم يرد ذلك نقل السراج عنك ولم تقدر أن تمسك شيئا من النور إذ ليس في يدك ملكوته فافهم، وإلى هذا المعنى أشار تعالى بقوله (قُل مَن يَكْلؤُكُم بِالليْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَل هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ★ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ)، وبيان الاستشهاد من الآيتين في رتبة المعاني وهي الثانية لهم وبيان المراد في رتبة البيان وهي الأولى لهم وقد تقدم كثير من هذا.

وقوله (ومستودعا لحكمته) الاستيداع الإستيمان بأن تضع ملكك عند من تثق به والحكمة العلم أو العلم مع العمل به أو تعديل القوة الملكية بالتوسط بين الإفراط المسمى بالجربزة وبين التفريط المسمى بالبله وتعديلها هو الحكمة وهي العقل المكمل كما قال في حق العقل (ولا أكملتك إلا فيمن أحب) أو هي المعرفة التي تقابل بالإنكار لا بالجهل والشك، أو هي ضياء المعرفة في الفؤاد أو هي نور الفؤاد أو هي نور الله المعبر عنه بالتوسم والفراسة.

وبالجملة فمعنى أن الله سبحانه رضيهم مستودعا لحكمته اختارهم اختيار محبة ورضى مستودعا لحكمته يعني أنه يثق بهم في حفظ الحكمة ووضعها موضعها

بأن يبذلوها لمن يحفظها ويمنعوها من لم يحفظها، أو هم الحكمة واستودعهم أنفسهم وأنهم يؤدونها إلى المستحقين ليعملوا بها أو يبلغونها أهلها ليعملوا عنها ، فحفظوا الحكمة على سبيل إرادة المستودع سبحانه وتعالى ووضعوها فعرفوا بالتوسم من يحفظها فبذلوها له مسددين له على حسب ما كتب له من الحظ فيها وأنكروا من لم يعرفها فيمنعونه منها وحفظوا أنفسهم عليه وعلى خدمته كما استودعهم في قوله تعالى (خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك) وإذا أدوها إلى المستحقين أعانوهم على العمل بمقتضاها وعلى التبليغ والأداء وأمثال ذلك وكل ذلك وأمثاله من ذلك الاستيداع، وإنما عبر عن إفاضتها عليهم بالاستيداع لأن ما أعطاه وأفاضه من خزائنه على أحد من خلقه لم يخرج عن قبض يده بل هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم عليه فكل ما جعله عند أحد من خلقه فهو عارية ووديعة مهما شاء أن يسترده استرده لأنه مالكه ومالك التصرف فيه ملكا غير موقت ولا مشروط بغير إرادته جل وعلا.

قال عليه السلام وتراجمة لوحيه وأركانا لتوحيده

قال الشارح رحمه الله وتراجمة أي مبينا لوحيه القرآن أو الأعم وأركانا لتوحيده أي رضيهم الله بأن يكونوا أركانا للأرض، لأن يوحده الخلق كما يظهر من الأخبار المتكثرة وتقدم بعضها أو هم المبينون لتوحيد الله تبارك وتعالى فكأنهم أركانه انتهى.

أقول: التراجمة جمع ترجمان بفتح التاء وضم الجيم وهو الأفصح ، وفيه لغة بضمهما معا، وفيه لغة بفتحهما معا وهو المفسر للسان والمبين له بلغة غير لغة

المتكلم.

وفي الحديث الإمام يترجم عن الله عز وجل يعني بقوله عند الانصراف من الصلاة السلام عليكم يعني يقول لمن يصلون معه أمان لكم من عذاب الله يوم القيامة.

كما روي عنهم ﷺ (والوحي في الأصل الكلام الخفي الذي يدرك بسرعة).

وفي تفسير القمي قال (وحي مشافهة ووحي إلهام وهو الذي يقع في القلب)ويستعمل الوحي بمعنى الإشارة (فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا).

وقيل في هذه الآية بمعنى أومأ وقيل كتب لهم في الأرض ويستعمل بمعنى زخرف كما قال تعالى (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)وبمعنى وسوس قال تعالى (وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ)، يعني أولياؤهم من الإنس والشياطين.

وعن أبي جعفر ﷺ قال (إن الشياطين يلقي بعضهم بعضا فيلقي إليه ما يغوي به الخلق حتى يتعلم بعضهم من بعض)انتهى.

فأول وحي الله سبحانه فعله أوحاه إلى نفسه وترجم عن نفسه ما أظهر فيه من آثار الربوبية إذ لا مربوب التي هي حقائق الربوبية إذ مربوب مبلغا مؤديا إلى حقيقتهم ﷺ التي هي محل مشيئة الله، فتترجم تلك الحقيقة لنفسها المعبر عنه بالقبول وللقلم وهو الوحي الثاني فتؤديه إلى القلم وهو الوحي الثالث فيترجم القلم لنفسه وهو قبوله وللوح ويؤديه إلى اللوح، وهو الوحي الثالث فيترجم

اللوح لنفسه وهو قبوله وللملائكة وتؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو الوحي الرابع، وهم يترجمونه لأنفسهم وهو تحملهم له ولأممهم وفي كل رتبة يترجم الواسطة كلام الأعلى لنفسه بنور الله وللأدنى بلسانه ، ليفهم خطاب الله له وما يريد منه وإنما ذكرت هذه الأشياء للتمثيل لا للحصر فيها ، بل ورد أن الله سبحانه خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وهي متسلسلة مترتبة بترتيب طبيعيي متناسق يجري فيها الأمر والحكم يتنزل الأمر فيها وبينها في كل عالم وكل جزئي على نحو ما مثلنا به هذا مثال التكوين التشريعي، وأما التكوين الوجودي فكذلك ولكن تمثيله في الجملة هكذا من الفعل إلى الحقيقة ومنها إلى العقل، ومنه إلى الروح ومنه إلى النفس ومنه إلى الطبيعة، ومنها إلى المادة، ومنها إلى المثال، ومنه إلى الجسم، ومنه إلى محدد الجهات، ومنه إلى فلك البروج، ومنها إلى السماوات ، ومنها إلى العناصر، ومنها إلى المعادن، ومنها إلى النباتات ومنها إلى الحيوانات، ومنها إلى الملائكة، ومنهم إلى الجان، ومنهم إلى الإنسان، هذا ترجمة الوحي من جهة المفعولات بقول مطلق يعني المقيدة وما هو مقيد باعتبار مطلق باعتبار.

وأما ترجمة الوحي من جهة الأفعال فالمشيئة تترجم عن نفسها لنفسها والإرادة والقدر والقضاء وللأسماء الثمانية والعشرين فرفيع الدرجات يترجم للجامع عن الجامع، وهو يترجم للإنسان عن اللطيف وهو يترجم للجان عن القوي وهو يترجم للملائكة عن المذل، وهو يترجم للحيوانات عن الرزاق وباعتبار آخر بالعكس فيترجم الرزاق للنبات عن المذل، وهو يترجم للحيوانات عن القوي، وهو يترجم للملائكة عن اللطيف وهو يترجم للجان عن الجامع، وهو يترجم للإنسان عن رفيع الدرجات والعزيز يترجم للجمادات

عن المميت، وهو يترجم للتراب عن المحيي، وهو يترجم للماء عن الحي، وهو يترجم للهواء عن القابض، وهو يترجم للنار عن المبين، وهو يترجم لفلك القمر عن المحصي، وهو يترجم لفلك عطارد عن المصور، وهو يترجم لفلك الزهرة عن النور، وهو يترجم لفلك الشمس عن القاهر، وهو يترجم لفلك المريخ عن العليم، وهو يترجم لفلك المشتري عن الرب، وهو يترجم لفلك زحل عن المقتدر، وهو يترجم لفلك المنازل عن غني الدهر، وهو يترجم لفلك البروج عن الشكور وهو يترجم للكرسي عن المحيط، وهو يترجم للعرش عن الحكيم، وهو يترجم لجسم الكل عن الظاهر، وهو يترجم لشكل الكل عن الآخر، وهو يترجم لجوهر الهباء عن الباطن، وهو يترجم لطبيعة الكل عن الباعث، وهو يترجم لنفس الكل عن البديع، وهو يترجم لعقل الكل عن فعل الله وإبداعه.

وقد تقدم أن الوحي قسمان وحي مشافهة ووحي الهام فأما وحي المشافهة فهو أن يرسل الله إليه ملكا رسولا فيبلغه عن الله مشافهة وهو قوله تعالى (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً) يعني ملكا (فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)أو يرسل إليه بشرا رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، أي يبلغ ذلك الرسول المرسل إلى الرسول الآخر بإذن الله كما قال تعالى (إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلونَ إِذْ أَرْسَلنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثَالث)فعلى رواية أن هذه الرسل رسل عيسى أرسلهم بإذن الله وأمره.

والمروي أن الثالث شمعون بن حمون الصفا رأس الحواريين والاثنان ذكر السهيلي في تفسيره أن أحدهما اسمه صادق والآخر اسمه صدوق وقال الثالث المعزز به اسمه شلوم، وبالجملة هذه الثلاثة رسل الله أوحى إليهم بواسطة عيسى عليه السلام فالوحي إليهم وحي مشافهة ومنه ما كلم الله به من وراء حجاب كما كلم

موسى عليه السلام فإنه سمع الصوت المنبعث من الشجرة فكان مشافهة وما أشبهه.

وأما وحي الإلهام فما يرد على القلب من النور بحيث يفهم به مراد الله وما يظهر من الإشارات ونطق أحوال الأشياء من الجمادات والنباتات والحيوانات وأحوال الحركات والهيئات والأوضاع وترتب الطبيعيات وغير ذلك، كدوي الريح وجريان المياه، وتغطمط البحار وهفيف الأشجار ونباتها وأثمارها وتقلب الطير في الهواء وما تسقط من ورقه وما تنبت وما تنمو وتذبل ، والإشارات والإيماءات والتلويحات وما تبوأته النحل من الجبال والشجر، وما يعرشون وما أشبه ذلك كله من وحي الإلهام، وهذا في حركاتها وهيئاتها، وأما أصواتها وأصوات الحيوانات وطنين مثل النحل والذباب ومنطوق أحوال الكلام ونطق ألسنة الأحوال في الحس المشترك، فهو على ما ألهمناه من الوحي الشفاهي وهم صلى الله عليهم مترجمون لذلك لهم ولمن أمروا بتبليغهم من وحي أو من وراء حجاب أو بإرسال رسل بألسنة قومهم أو بخطاب مشافهة.

ثم إن كونهم مترجمين إنما هو بصنع الله وإحداثه في قلوبهم وأنفسهم ما شاء أن يصل إليهم بما شاء من أقلامه الجارية في ألواح علومه التي يترجم بها سبحانه لمن شاء ما شاء قال الله تعالى (هذا كِتابُنا) أي مكتوبنا (يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ) أي بنا (بِالحَقِّ) يعني بالحق من عندنا (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ)اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

والأركان جمع ركن وهو الجانب الأقوى والمراد بكونهم أركان لتوحيد الله عن رضى من الله بذلك أن التوحيد الذي هو حقّ معنى لا إله إلا الله لا يتحقق

إلا بشهود خلوص التفرد بالألوهية، وهذا التفرد بالألوهية هو التوحيد ولا يتحقق حق التفرد إلا بتحققه.

أما في عالم البيان فإن العارف إذا جرّد نفسه غاية التجريد المعبر عنه في الحديث بمعرفة النفس بأن العارف إذا جرّد نفسه عن كل صفة ونسبة واعتبار حتى عن الإشارة وعن تجريده، بحيث لا يجدها عرف نفسه فإنها وصف نفسه الذي ليس كمثله شيء فإذا عرف الوصف عرف ربه وذلك المثل الذي ليس كمثله شيء آيتهم عليهم السلام كما قال تعالى (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ).

فتلك الآيات التي هي حقيقة التوحيد في الخلق هي آياتهم وهم ذلك المثل الأعلى الذي ليس كمثله شيء فهم ركن التوحيد أي الجانب الأقوى منه لأنه سبحانه تعرّف لكل من سواهم عنهم عليهم السلام فهم عليهم السلام في ذلك التعرف العضد المتقوم به فلهذا كانوا أركان التوحيد وقد رضيهم الله لذلك.

وأما في عالم المعاني فلأن الصفات العليا إذا اعتبرها العارف بربه وجدها مع كثرتها بمعنى واحد لا يكون لغير الله سبحانه، فإن السمع والبصر والقدرة وأمثال ذلك إن أردت بها الذاتية فليست شيئا غير ذاته لا واقعا ولا فرضا ولا اعتبارا كما قال عليه السلام (كمال التوحيد نفي الصفات عنه)وإن أردت بها الصفات الحادثة فليس لها معاني إلا حقائقهم لأنهم معانيه فهم علمه وقدرته ويده وعينه وأذنه وجنبه ولسانه وأمره وحكمه وحقه كما في رواية جابر بن عبد الله وتقدمت وهم قلبه كما في رواية الحسن بن عبد الله عن الصادق عليه السلام رواها في الاختصاص،فإذا كانت هذه المراد بها شيء واحد وهو حقيقتهم كانت وحدة الصفات إنما هي بهم بل ليست شيئا غير تلك الحقيقة وهذا توحيد الصفات وهم ركن هذا التوحيد

وتلك المعاني وإن كانت متكثرة المفاهيم لكنها في حقيقتها لا تصدق على متعدد ، وإنما تغايرت مفاهيمها لأن فهمها باعتبار متعلقاتها ، ومعنى توحيده فيها أنه لا يشاركه فيها هي ولا غيرها وهو قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)ودعوى المشاركة شرك وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُول للذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَل عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ)، فإنهم ادعوا أن الله قد شرك آلهتهم في تلك الحقيقة أو أن آلهتهم شاركت تلك الحقيقة في اتصاف الله بها أو في وصفها لله، أو أن تلك الآلهة تولدت من تلك الحقيقة أو تولدت الحقيقة منها وكل هذه الوجوه شرك بالله لأن عدم هذه المشاركة وتفرّد تلك الحقيقة لله هو الجانب الأقوى من التوحيد وإذا عاتبهم الله يوم القيامة (أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ) أي من اتخذتموهم شركاء لي فيقولون (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) بك فقال تعالى يا محمد (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِم) وإنما خصه ﷺ بالخطاب ليذكره خلافهم له ورد وصيته لهم يوم الغدير وغيره ليدعي عليهم بهذا الشرك ويطلب من الله تعالى الشهادة عليهم فإنه ﷺ قال (إِلهِي أَنْتَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ إِنِّي أَعْلَمْتُهُمْ أَنَّ الغَايَةَ وَ المَفْزَعَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام).

ولما كانوا لم يتخذوا صنما على ما تعرفه العوام وأن من أطاعوهم وجعلوهم أولياء من دون ولي الله لم تعرف العوام أنهم أصنام وأنهم عبدوهم مع الله، حيث جعلوا عليا رابع الخلفاء وأظهروا الغدر تسترا من الناس فقالوا (وَ اللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ) فقال العليم بهم سبحانه (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِم) لأن رسول الله ﷺ أعلمهم عن الله تعالى أن الشرك في ولاية علي عليه السلام والشك فيه كفر وشرك

بالله تعالى وعلموا ذلك ووعوه ولكن بغضهم لعلي ع وعداوتهم له غطت على بصائرهم حتى جهلوا ما علموا وهم يعلمون وهم لا يعلمون حتى حصل لهم من تغيير فطرة الله فيهم ظن الإصابة للحق وإلى هذا أشار الصادق عليه السلام بقوله (هَيْهَاتَ فَاتَ قَوْمٌ وَمَاتُوا قَبْل أَنْ يَهْتَدُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَشْرَكُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ).

وأما في عالم الأنوار فبأن لا يرى ولا يجد المستدل مؤثرا في الوجود إلا الله وحده لا شريك له فهذا التوحيد ركنه الأيمن وجانبه الأقوى هم عليهم السلام لأنهم عضد لقبول الإيجاد في الأسباب والمواد والقوابل والغايات كما أشرنا إليه مرارا، فلما كانوا هم العلل الأربع والتأثير في الوجود متوقف عليها كانت وحدة التأثير إنما تقومت بهم لأنهم محل فعله قام فعله بهم قيام ظهور فعنهم لا غيرهم أظهر أفعاله لتوقف الفعل في التأثير على ظهوره المتوقف عليهم، وتوقف العلة الفاعلية على ذلك الظهور وعلى العلة المادية لأنها متعلقة، وعلى العلة الصورية لأنها هيئة تأثيره، وعلى العلة الغائية لأنها الباعث لها، فهم متممات فعله في التأثير ولا تكون هذه الأربع المتممات منهم لغير فعله تعالى لأن ما سواها أثر لها والأثر لا يكون متمما لمؤثره ولا يكون شيء بغيرها ليكون ذلك الغير ركنا لأن غيرها متقوم بها ولا يكون المعلول مقوما لعلة من علله، ولا تكون هي مغايرة لفعله تعالى ليكون غير الله مؤثرا في الوجود، لأنها ليست إلا متممات فعله من قابله ومتعلقه وهيئته وباعثه كما مر فهم عليهم السلام أركان توحيده في فعله وهو معنى، أنه سبحانه اتخذهم أعضادا لأنهم عضد ظهور فعله وعضد قابله وعضد متعلقه وعضد هيئته وباعثه وعضد خلقه يعين الخلق على قبول الإيجاد، وهم مع ذلك قد حفظهم بقيوميته

على العضدية وقدّرهم على السببية وكونهم على السببية والمسببية، فمن عرفهم وجد ألا مؤثر في الوجود إلا الله لأنه قد عرف الله وهو ما قال سيد الوصيين عليه السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا)يعني إلا بمعرفتنا وهو أحد معاني كلامه عليه السلام والمعنى من عرفهم فقد عرف الله لأنهم معانيه وظاهره في خلقه كما نطقت به أخبارهم فهم الاسم وهو المسمى وهم المعرفة وهو المعروف وهم الحجب وهو المحتجب وهم صفته وهو الواصف نفسه لعباده بهم فهم أركان توحيده.

وأما في عالم سر التكليف وغايته وهو وفق أمره وإرادته واجتناب نهيه وكراهته اللذان هما العبودية والعبادة، فإنما توحيده فيهما بهم لأنهم ركن ذلك الامتثال وأصل تلك الأعمال وذلك لأنه سبحانه لما لم تحط به العباد ولا تعلم ما يريد منهم من الإطاعة والانقياد أراهم طريق الهداية والرّشاد فقال تعالى (وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الذِينَ يُلحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)، فأعلم المكلفين أن له الأسماء الحسنى وأمرهم أن يدعوه بها، لأنه إن لم يدعَ بالأسماء الحسنى ليس غيرها إلا الأسماء السوأى ، ولا يليق بقدس جنابه سبحانه وتعالى أن يدعى بها، وحيث لا يمكن أن يدعى بذاته لعدم إمكان ذلك تعين أن يدعا بالأسماء الحسنى فانحصرت العبادة التي هي فعل ما يرضى، والعبودية التي هي رضى ما يفعل فيهم وبهم عليهم السلام ، لأن التسبيح والتقديس والتحميد والتكبير والتهليل والخضوع والخشوع والرّكوع والسجود وجميع الطاعات وأنواع العبادات وكذلك العبودية كل ذلك أسماء معانيها تلك الذوات القدسية والحقائق الإلهية التي خلقها الله لنفسه وخلق خلقه لها، وهي أسماؤه الحسنى وأمثاله العليا ونعمه التي لا تحصى

وهي التي اختص بها وأمر عباده أن يدعوه بها قال تعالى (وَللهِ الأَسْماءُ الحُسْنى فَادْعُوهُ بِها) .

فتأمل ما روي عنهم في تفسير الأسماء وما يراد منها ففي القمي في تفسير قوله تعالى (وَ للهِ الأَسْماءُ الحُسْنى) قال الرحمن الرحيم ففسر الأسماء الحسنى بالرحمن الرحيم.

وروى العياشي عن الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية إلى أن قال قَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام (نَحْنُ وَاللهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى الذِي لا يُقْبَل مِنْ أَحَدٍ إِلا بِمَعْرِفَتِنَا).

ففسر الأسماء مرة بالرحمن الرحيم بقصد الأسماء اللفظية، ومرة بهم عليهم السلام بقصد معاني تلك اللفظية لأن معاني هذه الألفاظ هي أسماؤه تعالى ولهذا قال الرضا عليه السلام وقد سئل عن الاسم فقال (صِفَةٌ لمَوْصُوفٍ).

وعنه عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته إلى أن قال (الذي كنا بكينونيته قبل خلق الخلق قال الصادق عليه السلام في تفسير كلام جده عليه السلام بكينونيته في القدم وهو المكون ونحن المكان وهو المشيء ونحن الشيء وهو الخالق ونحن المخلوقون وهو الرب ونحن المربوبون وهو المعنى ونحن أسماؤه وهو المحتجب ونحن حجبه)الحديث.

وإنما قيل أن حقائقهم أسماؤه تعالى لأن الاسم في الأصل علامة على المسمى والعلامة كما تحصل في اللفظ تحصل بالمعنى الذي هو الوصف بالطريق الأولى، بل الصفة أدل في التعيين وقد أشار إلى ذلك الرضا عليه السلام كما تقدم ولما كان الأصل في الاسم والمقصود منه إنما هو علامة المسمى ليتميز من غيره كان الأصل فيما يعرف به الله هو وصفه نفسه للمخلوق بنفس ذلك المخلوق، ولما كان الباعث إلى

الإيجاد هو المعرفة وجب أن تكون سابقة على ما سواها ولا يجوز أن تكون بدون عارف فتقع لغوا ولا على موجود فلا تكون سابقة ، أو يكون هو غير محدث بل يجب أن تكون هي إياه لأن أول صادر يجب أن يكون أشرف مما دونه في كل شيء، ولما كان لا يجوز أن يقع على الله شيء لا لفظ ولا معنى وجب أن يكون ما يمكن أن يعرف متضمنا لآثار صفاته ليستدل بها عليه، فكان الاسم المعنوي أولى من اللفظي لإمكان إصدار الآثار الدالة عليه عنه، ولما كان الاسم المعنوي يحتاج إلى معرفته لتوقف معرفة الله تعالى على معرفته وكان مما يمكن الاسم اللفظي أن يميزه ببعض (بعض) وجوهه جاز إطلاق الاسم اللفظي عليه لما بينهما من المشاركة في نوع مطلق الخلقية (الخليقة) ولما كان المعنوي واسعا لأنه قد وسع كل آثار الصفات الإلهية وجب في الاسم الذي يراد منه تمييزه ببعض وجوهه أن يكون أجمع الأسماء للدلالة على آثار الكمال المطلق والغنى المطلق والقدس والعزة والوحدة الذاتي بما له لذاته، ولا يكون ذلك إلا في الأسماء الحسنى التي اختارها لنفسه فهي بما تضمنت من الدلالة الذاتية تدل على تلك المعاني القدسية التي هي معانيه صلى الله على محمد وآله ولما كانوا هم الأسماء الحسنى التي أمر أن يدعا بها وهم معانيه كما مرّ في حديث جابر وهم ذوات ومعان والأسماء الحسنى ألفاظ وجب أن تكون أسماء الله ظاهرها ألفاظ، وباطنها معاني ووجب لابتناء أحدهما على الآخر أن تكون الأسماء اللفظية الظاهرة أسماء للأسماء المعنوية الباطنة والمعنوية الباطنة أسماؤه تعالى وهو لا يعبد ولا نعبد إلا بأسمائه فتوحد تعالى بهم عليهم السلام في عبادته ولا يفقدهم منذ عبد بهم، فهم أركان توحده في عبادته فمن دعا غيرهم بالولاية والخلافة فقد أشرك بالله في عبادته وقول الباقر عليه السلام في

تفسير قوله تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ) قال (تفسيرها لئن أمرت بولاية أحد مع ولاية علي عليه السلام من بعدك لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ).

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (يعني إن أشركت في الولاية غيره قال (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) يعني بل الله فاعبد بالطاعة وكن من الشاكرين أن أعضدتك بأخيك وابن عمك)انتهى.

ومعنى قوله عليه السلام فاعبد بالطاعة يعني به فاعبد الله بالطاعة لأمره في ولاية علي عليه السلام دون غيره وأيضا يعني به إذا أريد منه إيّاك أعني كما قال الصادق عليه السلام في هذه الآية (إن الله بعث نبيه بإياك أعني واسمعي يا جارة)، يعني به فاعبد الله بالطاعة لأمير المؤمنين عليه السلام وهو قول الله عز وجل فيما أوحى إلى أيوب في علة ابتلائه كما تقدم قال تعالى (إني ابتليت آدم فوهبت له بالتسليم عليه بإمرة المؤمنين فأنت تقول خطب جليل وأمر جسيم فَوَعِزَتِي لأذيقنك من عذابي أو تتوب إلي بالطاعة لأمير المؤمنين)، وهذه المراتب الأربع هي مراتب التوحيد كما تقدم توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال وتوحيد العبادة ولمثل هذا كانوا أركان توحيده وارتضاهم الله سبحانه لذلك.

قال عليه السلام وشهداء على خلقه وأعلاما لعباده

قال الشارح رحمه الله وشهداء على خلقه كما ورد في الأخبار المتواترة فمن ذلك ما رواه الكليني وغيره في الصحيح عَنْ بُرَيْدٍ العِجْلِيِّ قَالَ (قُلْتُ لأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام عن قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَذلكَ جَعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لتَكُونُوا شُهَدا عَلَى النَّاسِ

وَيَكُونَ الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيداً قَال نَحْنُ الأُمَّةُ الوَسَطُ وَنَحْنُ شُهَدَاءُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالى عَلى خَلقِهِ وَحُجَجُهُ فِي أَرْضِهِ قُلتُ قَوْلهُ تَعالى يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلوا الخَيْرَ لعَلكُمْ تُفْلحُونَ وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ قَال إِيَّانَا عَنَى وَنَحْنُ المُجْتَبَوْنَ وَلمْ يَجْعَل اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالى فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ فَالحَرَجُ أَشَدُّ مِنَ الضِّيقِ مِلةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ إِيَّانَا عَنَى خَاصَّةً وَسَمَّاكُمُ المُسْلمِينَ اللهُ سَمَّانَا المُسْلمِينَ مِنْ قَبْل فِي الكُتُبِ التِي مَضَتْ وَفِي هَذَا القُرْآنِ ليَكُونَ الرَّسُول شَهِيداً عَليْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلى النَّاسِ فَرَسُول اللهِ ﷺ الشَّهِيدُ عَليْنَا بِمَا بَلغَنَا عَنِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعَالى وَنَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلى النَّاسِ فَمَنْ صَدَّقَ يَوْمَ القِيَامَةِ صَدَّقْنَاهُ وَمَنْ كَذَّبَ كَذَّبْنَاهُ).

وروي أيضا في الأخبار المتواترة أنه تعرض أعمال هذه الأمة أبرارها وفجارها كل صباح ومساء عليهم وتقدم.

وأعلاما لعباده أي أئمة يعلم بهم أمور دنياهم وآخرتهم ، انتهـى.

أقول: إن الله سبحانه خلق محمدا وآله ﷺ لنفسه أي ليعرفوه قال تعالى (كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف)ولا حاجة له إلى ذلك ولما كان الكامل يقتضي أن يظهر أثر كماله وإلا لم يكن كاملا مطلقا ثم لما كان سبحانه وتعالى لا يجري عليه ما يجري على خلقه من أن الكامل منهم يتوقف ظهور أثر كماله على فاعل غيره بمعنى أنه غير مستقل بذلك في الإظهار، وفي المظهر وفي المحل بل قد تقتضي حقيقته أو طبيعته إظهار أثر لا يحب إظهاره وقد يكون ذلك الظاهر لازما له لا ينفك عنه لأن غيره ألزمه ذلك اللازم وعلم سبحانه حاجة ما سواه إلى ابتداء كرمه ولا يصدر عنه شيء إلا حيث يصدره

بإرادته دل على علة إيجاد خلقه بما أبان، وأحدث من كرمه ومحبته فقال فأحببت أي فأوجدت محبة وكرما فكان ما أوجد قد أقامه بنفسه وأقره في ظله فكان الكرم الحال في نفسه والمحبة المستقرة في ظلها محمدا وآله ﷺ فهم محال محبة الله وأحباؤه، ومقر كرمه وأمناؤه، فكان سبحانه قد خلقهم على كمال حقيقة ما هم أهله، ثم لما أراد أن يخلق لهم سائر خلقه أشهدهم خلقهم وأنهى إليهم علمهم، روي في الكافي عن الجواد عليه السلام (إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالى لَمْ يَزَل مُتَفَرِّداً بِوَحْدَانِيَّتِهِ ثُمَّ خَلقَ مُحَمَّداً وَعَلياً وَفَاطِمَةَ عليهم السلام فَمَكَثُوا أَلفَ دَهْرٍ ثُمَّ خَلقَ جَمِيعَ الأَشْيَاءِ فَأَشْهَدَهُمْ خَلقَهَا وَأَجْرَى طَاعَتَهُمْ عَليْهَا وَفَوَّضَ أُمُورَهَا إِليْهِمْ)الحديث وقد تقدم.

وقد جرت حكمة الحكيم في خلق خلقه أنه يخلق كل شيء بمقتضى قابليته ومعنى ذلك بلسان أهل الشرع عليهم السلام أنه سبحانه يخلقهم بالاختيار مثلا الأعمى إنما خلقه أعمى لأنه اختار العمى، وكذلك الأصم والمقعد والكافر والمؤمن، ولولا ذلك لكان للناس على الله حجة كما إذا قال المبتلى لو عافيتني لعملت كما يعمل المعافى، وكما أقام سبحانه عليهم الحجة في تكاليفهم بما فيه صلاحهم، بحيث كانت لله عليهم الحجة البالغة، كذلك أقام عليهم الحجة في وجوداتهم على ما إليه مردّهم، بحيث كانت لله عليهم الحجة البالغة لكن ظهور الحجة عليهم في أمر التكاليف الشرعية ووجوداتها ظاهرة لكثرة الأدلة والبراهين عليها قطعا لمعذرة المكلفين وأما ظهور الحجة في أمر التكاليف الوجودية وما تضمنت من شرعياتها فخفي لا يعلمه إلا الأوحدون الأقلون عددا وقد دلّت النصوص على ذلك والعقول المزكاة بالعلم والعمل بالموجود من الأمور الواقعة تشهد بذلك وتعرفه العقول الظاهرة إذا أنصفت باللزوم، فإنها تقرّ لله سبحانه بأنه عالم

لا يجهل عادل لا يظلم ذاكر لا ينسى غني لا يحتاج وقد أمرض الطفل في بطن أمه وأعماه وأصمّه، وقد يسلب ما أعطى من العقل وسائر القوى ولا يحسن من الحكيم العليم الغني أن يأخذ ما أعطى بدون علّة من الذي كان أعطاه لأن هذا ينافي الحكمة والغنى المطلق.

وقد ذكر هذا في كتابه المجيد فقال الله تعالى (إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ)فيلزم من هذا أنه كان عن سبب وقع من المخلوق ولاً يصحّ أن يؤاخذ بسبب يقع منه بغير اختياره، لأنه كان لا سبب له فثبت أنه سبحانه أصابهم ببعض ذنوبهم، ويجري هذا الحكم على الإنسان والحيوان والنبات والجماد وإن خفي هذا في الحيوان والنبات والجماد لكنه ظاهر عند أهل التحقيق، لأن الصنع واحدٌ والصانع واحدٌ ويجب أن تكون المصنوعات كلها بطريق واحد، لأنها كلها قد اشتركت في الوجود، وكله حياة وشعور وتمييز واختيار ليس فيه قسر فلا يجري حكم لمقتضى وصف قد تحقق في جميع أفراد شيء على بعضها دون بعض إلا إذا كان على خلاف مقتضى الغنى المطلق والحكمة البالغة.

فإذا ظهر لك مما أشرنا ونبّهنا عليه أن جميع ما في الوجود من الشرعيات ووجوداتها والوجودات وشرعياتها من مبادئها إلى نهاياتها كلها جارية على التكاليف الاختيارية كما ترى في أفعال الإنسان، كذلك هو في سائر الحيوانات والنباتات والجمادات والجواهر والأعراض عرفت أن جميع الأشياء مكلفة بالاختيار وأن منهم المطيع ومنهم العاصي، وعرفت من هذا ومن الكتاب والسنة والعقل والآيات في الأنفس وفي الآفاق فإن الله سبحانه قد جعل على كل شيء رقيبا وشاهدا وهم عليهم السلام الشهداء على سائر الخلق والله من ورائهم محيط

بالكل شاهد على الكل كما قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام (كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ شَهِيدٌ)ولما كان جميع المكلفين في كل شيء مختارين جاز من العاصي والمبتلى أن يحتج على الله وينكر البيان والحجة البالغة ، فجعل على كل شيء شهيدا لئلا تكون للناس على الله حجة فالأنبياء والأئمة والأوصياء والعلماء تشهد لهم الأشهاد بالتبليغ والرّعية بالقبول والامتثال وعدمهما.

روى الطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل في أحوال أهل الموقف إلى أن قال (فيقام الرسل فيسألون عن تأدية الرسالة التي حملوها إلى أممهم وتسأل الأمم فتجحد كما قال الله تعالى فَلَنَسْئَلَنَّ الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلينَ فيقولون ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فتستشهد الرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيشهد بصدق الرسل وتكذيب من جحدها من الأمم فيقول لكل أمة منهم بلى فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم كذلك قال الله لنبيه فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً فلا يستطيعون رد شهادته خوفا من أن يختم الله على أفواههم و أن تشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون و يشهد على منافقي قومه و أمته و كفارهم بإلحادهم وعنادهم ونقضهم عهده وتغييرهم سنته واعتدائهم على أهل بيته وانقلابهم على أعقابهم وارتدادهم على أدبارهم واحتذائهم في ذلك سنة من تقدمهم من الأمم الظالمة الخائنة لأنبيائها فيقولون بأجمعهم رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ)انتهى.

وفي قوله تعالى (وَ كَذلكَ جَعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) الآية، المراد بهم الأئمة عليهم السلام كما رواه ابن شهر آشوب في المناقب عن الصادق عليه السلام قال إنما أنزل الله

وَ كَذلكَ جَعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً يعني عدلا لتَكُونُوا شُهَداءَ عَلى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيداً)قال ولا يكون شهداء على الناس إلا الأئمة و الرسل فأما الأمة فإنه غير جائز أن يستشهدها الله تعالى على الناس وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل).

وروى العياشي في تفسيره عن الصادق عليه السلام قال (فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين أ فترى أن من لا يجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية كلا لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وهم الأمة الوسطى وهم خير أمة أخرجت للناس).

أقول: المراد بالأمة في الآية بالأصالة في معنى الأمة وفي جعلها شهداء وفي كونهم خير أمة هم الأئمة عليهم السلام وبالتبعية هم شيعتهم، وما تقدم من الروايات لا ينافي دخول الشيعة في ذلك بالتبعية لأن قولهم عليهم السلام صريح في إثباتهم من باب دلالة الإشارة والمفهوم لأن الذين لا تجوز شهادتهم على حزمة بقل وصاع من تمر إنما هم أعداؤهم، وإن دخل في ردّ شهادتهم فساق شيعتهم لاتباعهم لأولئك الأعداء في معاصي الأعمال.

وأما شيعتهم اللذين تقبل شهادتهم في الدنيا ولو على أدنى مرتبة تعتبر في العدالة ويكتفى بها شرعا فإنه تقبل شهادتهم في الآخرة بالطريق الأولى لأن الله سبحانه هو الذي قبل شهادتهم في الدنيا على ما هم عليه قبل أن يموتوا، وأنه سبحانه أبدا يكفر عنهم سيئاتهم بمحن الدنيا وبلاياها وعند الموت وفي القبر

والبرزخ وأهوال يوم القيامة، حتى أن أكثرهم يخرج من قبره وليس عليه ذنب يطالب به مع ما هم عليه حينئذ من كونهم مع أئمتهم ورسول الله ﷺ يباهي بهم الأمم الماضية وأخبر الله عن سلامة رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام من آذاهم، قال تعالى (وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ)وقد تحمل النبي وأهل بيته ﷺ جميع ذنوبهم وقد غفرها الله لنبيه ﷺ فقال (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ)وكذلك سائر الأئمة عليهم السلام ومن ذلك شهادة الحسين عليه السلام وأي مثمن يعدل ثمنا منه استشهاد الحسين وأهل بيته وأنصاره وهتك نسائهم وسبيهن وتسييرهن مكشفات على أغتاب المطايا هدايا تساق عرايا إلى أرذل البرايا، وأمثال ذلك مما جرى عليهم وعلى شيعتهم ومحبيهم لأجلهم كل ذلك في مقابلة ذنوب شيعتهم ومحبيهم، فكيف لا يقبل شهادتهم في الآخرة وهم في أحسن أحوالهم وطهارتهم، وإنما نفى عليه السلام عموم الأمة لكل شخص منهم كما فسره المخالفون إصلاحا لشأنهم وتأسيسا لمذهبهم.

وفي الكافي في حديث ليلة القدر عن الباقر عليه السلام أنه قال (وَأَيْمُ اللهِ لَقَدْ قُضِيَ الأَمْرُ أَنْ لا يَكُونَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ اخْتِلافٌ وَلِذَلِكَ جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ لِيَشْهَدَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَيْنَا وَلِنَشْهَدَ عَلَى شِيعَتِنَا وَلِتَشْهَدَ شِيعَتُنَا عَلَى النَّاسِ فرسول الله ﷺ شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه ونحن الذين قال الله وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً).

أقول قوله (ولتشهد شيعتنا على الناس)، صريح فيما قلنا واحتمال إرادة خصوص الأنبياء عليهم السلام بعيد لأنهم وإن كانوا مرادين وأحق بذلك لكن سائر الشيعة داخلون أيضاً للأحاديث المتكثرة الدالة على ذلك وخصوص قوله (عَلى

النَّاس) فإن الظاهر أنهم المخالفون وشهادة هذه الشيعة عليهم أقرب وأشفى لغيظهم ولحضورهم عقوبات أعدائهم يوم القيامة جزاء بما آذوهم في الدنيا وهذا ظاهر.

والحاصل أنهم عليهم السلام قد رضيهم الله شهداء على خلقه لما هم عليه من الحق والصدق والحفظ والإحاطة بكل شيء من خلقه، لأنه تعالى أنهى إليهم علم خلقه وما هم به عاملون وإليه صائرون ولأن ذلك أعظم إقامة للحجة على الخلق حيث لا يجدون عليهم طعنا في شيء، ثم لا تغفل عما ذكرناه سابقا من أن المراد بشهادتهم على سائر الخلق ليس على خصوص أعمالهم الظاهرة بل على كل شيء كما مر فافهم.

قوله عليه السلام وأعلاما لعباده

الأعلام جمع علَم بفتح اللام وهو الجبل الذي يعلم فيه الطريق أو الجبل الطويل.

والمراد أنهم عليهم السلام يثبتون العباد عن الفناء بفاضل وجودهم وعقول الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والملائكة بفاضل عقولهم (عقلهم) فبهم يعقلون الأمر والنهي ويعرفون الجيد والرديء كما قال تعالى (وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)أي طريق الخير والشر وبفضل هداهم اهتدى المهتدون، وبفضل أعمالهم عمل العاملون فكانوا جبالا رواسي ألقى الله سبحانه أشباحهم وأطواد ظواهرهم في أراضي قلوب الخلائق أن تميد بهم فلا يستقر لها علم ولا عمل، ولا يثبت لها فكر ولا ذكر بل أضرب لك مثلا لفاضل أنوارهم المشرقة على قلوب الخلائق أجمعين من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والملائكة المقربين، وهو أن إشراقات أنوارهم مثل

ظهور الشاخص وأنوار قلوب الخلق مثل الصورة في المرآة التي ليست في الواقع شيئا إلا ظهور الشاخص بها.

وأما أنوار حقائقهم فلا تتناهى بالنسبة إلى جميع الخلق فعلى معنى أن العلم محركا هو الجبل الذي يعلم فيه الطريق يكون المراد أن الأخذ عنهم والاقتداء بهم إنما يمكن لمن علموه ما شاؤوا كما شاؤوا فلا ينتفع أحد بشيء من علومهم وإن سمع منهم أو رأى إلا إذا علموه ظاهرا أو باطنا وأرادوا أنه ينتفع وإلا فلا وإليه الإشارة بقوله تعالى يقول عن نفسه ويحكي عن ذاته (وَجَعَلنا عَلى قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً) أن يفقهوه (وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا).

وهذا حكم باطن الباطن وهو معنى أن هذه الجبال لعظمها لا يسلك الطريق فيها إلا بالعلامات الموضوعة فيها للسالك ، والعلامات توضع في المواضع المنخفضة منها السهلة بحسب الممكن ومع هذا وهو صعب المسلك كذلك أنهم لا يعلم أحد من علمهم إلا ما شاؤوا ومع هذا فهو صعب المسلك لا يسلكه إلا الأقلون وإلى هذا أشاروا في أحاديثهم كما تقدم منها قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه (إن حديثنا صعب مستصعب خشن مخشوش فانبذوا إلى الناس نبذا فمن عرف فزيدوه و من أنكر فأمسكوا لا يحتمله إلا ثلاث ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان)، وقوله لكميل (بلى ولكن يرشح عليك ما يطفح مني) وأما ما هم عليه من العلم فلا يحتمله غيرهم من جميع الخلق.

وعلى معنى أن العلم هو الجبل الطويل يعني في الهواء لعلوه فيقتدى به في الطريق المشتبهة الأعلام أو العلامات يكون المراد أن الله سبحانه وله الحمد قد علا قدرهم ورفع شأنهم على سائر خلقه فجعلهم بما آتاهم وفضلهم على العالمين

أعلاما لعباده يهتدون بهم في ظلمات البر والبحر أي في ظلمات الأحكام الناشئة عن مقتضيات الأجسام والطبائع وهو البرّ ومقتضيات النفوس والعقول وهما البحر والمراد أنهم يهتدي بهم جميع العباد في طرق المعتقدات والأحوال والأعمال في كل شيء بل لا حق إلا منهم عليهم السلام عند جميع الخلق.

وقد تقدم في أول هذا الشرح أنهم هم المعلّمون للملائكة تسبيح الله وتهليله وتكبيره وتمجيده.

وروي أن جبرائيل عليه السلام كان جالسا عند النبي صلى الله عليه وآله فأتى علي عليه السلام فقام له جبرائيل فقال صلى الله عليه وآله أتقوم لهذا الفتى فقال إن له عَليَّ حق التعليم فقال النبي صلى الله عليه وآله وكيف ذلك التعليم يا جبرائيل؟ فقال لما خلقني الله تعالى سألني من أنت وما اسمك ومن أنا وما اسمي، فتحيرت في الجواب ثم حضر هذا الشاب في عالم الأنوار وعلمني الجواب ، فقال قل أنت ربي الجليل واسمك الجميل وأنا العبد الذليل واسمي جبرائيل ولهذا قمت له وعظمته فقال النبي صلى الله عليه وآله كم عمرك يا جبرائيل؟ فقال يا رسول الله صلى الله عليه وآله يطلع نجم من العرش في كل ثلاثين ألف سنة مرة وقد شاهدته طالعا ثلاثين ألف مرة انتهـى.

فتأمل في قول جبرائيل طاووس الملائكة الذي هو معلم الرسل والأنبياء عليهم السلام فإنه ما عرف ربه وما عرف نفسه إلا بتعليم الإمام فكيف ما سواه من الملائكة وإذا كانت الملائكة كذلك فكيف سائر الخلق ويجوز أن يراد بالأعلام العلامات من تفسير ظاهر الظاهر والمراد منها معالم الطرق وكل ما يستدل به المارة من جبل أو نصب أو مورد ماء أو بناء أو نجم، لأنهم عليهم السلام هم علامات الهداية وأدلاء الطرق إلى الله وفي قوله تعالى (وعلامات وَ بِالنَّجْم هُمْ يَهْتَدُون)نحن العلامات

، والنجم رسول الله ﷺ وفي تفسير العياشي بسنده عن أحدهما عليهما السلام في قوله وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ قال هو أمير المؤمنين عليه السلام)فهم الأعلام الذي بهم يهتدي السائرون وبهم تثبت الأرض أن تميد بأهلها.

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قَال (لوْ أَنَّ الإِمَامَ رُفِعَ مِنَ الأَرْضِ سَاعَةً لَمَاجَتْ بِأَهْلِهَا كَمَا يَمُوجُ البَحْرُ بِأَهْلِهِ)فالله سبحانه وسم كل شيء ودل على كل شيء فهم أصحاب الميسم والأدلاء على كل شيء وأدلاء كل شيء على الله.

قال عليه السلام ومنارا في بلاده وأدلاء على صراطه

قال الشارح رحمه الله ومنارا في بلاده أي يهتدى بهم وبأنوار أخبارهم في جميع الأرض انتهى.

أقول: المنار بفتح الميم الشيء المرتفع الذي يوقد في أعلاه النار لهداية الضال، ويروى في وصف الإمام عليه السلام (رَفَعَ اللهُ لهُ في كُلِّ بَلدَةٍ مَناراً يَنْظُرُ بِهِ إِلى أَعْمَال العِبَادِ)، وكثر في ذكر العمود وفي الحديث(فَقَال لي يَا يُونُسُ مَا تَرَاهُ أَ تَرَاهُ عَمُوداً مِنْ حَدِيدٍ يُرْفَعُ لصَاحِبِكَ قَال قُلتُ مَا أَدْرِي قَال لكِنَّهُ مَلكٌ مُوَكَّلٌ بِكُلِّ بَلدَةٍ يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أَعْمَال تِلكَ البَلدَةِ).

ففي الرواية الأولى المنار الذي يرى منه وينظر منه إلى أعمال العباد هو نور خيال الإمام عليه السلام وهو عمود نور ممتد منه إلى العرش عن يساره والنظر يصدر عن عقله وعقله من الخيال إلى أظلة الأعمال والعاملين، وهذا العقل عقل الكل وهذا الخيال خيال الكل ، وأظلة الأعمال والعاملين قد تقومت بنور هذا العمود فإن أريد به حقائق تلك الأظلة فيراد به النفس الكلية، والروح الذي على ملائكة

الحجب والنور الأخضر وحجاب الزبرجد وإن أريد به إدراكها فيراد به فعل ذلك العمود وتربيته ذلك الملك وتدبيره لها وان أريد به العلم بها فيراد به ذواتها ومجموع المراتب الثلاثة هو ذلك العمود الذي هو المنار فبه اهتدت تلك الحقائق إلى معرفة ربها ومعرفتها بنفسها وكذلك ذواتهم والعلم بهم، وإن هذا العمود أعطاه الله وليه عمودا من نور يرى فيه أعمال الخلائق كما يرى أحدكم الشخص في المرآة ، والمراد بكونه منارا في البلاد هو أنهم ينيرون لأهل البلاد وهي الدنيا أو الأرض أو الأجسام أو الوجود كله فعلى الأول والثاني يكون المعنى أنهم منورون لبني آدم والجن فإن كانوا مؤمنين أي مستجيبين نوروا قلوبهم كما نوروا قلوب الملائكة فباستجابتهم وقبولهم كانوا مؤمنين بأن كتب الله في قلوبهم من مداد ذلك النور الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا الروح ملك خلق من نورهم عليهم السلام جعل على الأذن اليمنى من قلب المستجيب لله ولرسوله حين دعاه لما يحييه، أي دعاه إلى الولاية وهذا الملك مؤيد له في تلك الاستجابة فإذا أيده استقام ولم يتغير عن الإيمان ما دام معه وهو قوله تعالى (إِنَّ الذِينَ قالوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا)وهذا الملك هو الروح الرابعة يحضر المؤمن في كل وقت يحسن فيه ويتقي ويغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي تهتز سرورا عند إحسانه وتسيخ في الثرى عند إسائة (إسائته).

كذا روي عن الكاظم عليه السلام فالملك المؤيد من نورهم والاستجابة والقبول من محبتهم والإيمان المكتوب من صفتهم.

وفي الكافي عَنْ أَبِي خَالدٍ الكَابُليِّ قَال سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْل اللهِ تَعَالى فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولهِ وَ النُّورِ الذِي أَنْزَلنا فَقَال يَا أَبَا خَالدٍ النُّورُ وَ اللهِ الأَئِمَّةُ عليهم السلام يَا

أَبَا خَالِدٍ لَنُورُ الإِمَامِ فِي قُلوبِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْوَرُ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ بِالنَّهَارِ وَ هُمُ الذِينَ يُنَوِّرُونَ قُلوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَ يَحْجُبُ اللهُ نُورَهُمْ عَمَّنْ يَشَاءُ فَتُظْلِمُ قُلوبُهُمْ وَيَغْشَاهُمْ بِهَا)انتهى.

فقوله ينورون قلوب المؤمنين، هو ما ذكرت لك في مؤمني الإنس والجن وفي الملائكة بالاستجابة والقبول وبالكتابة وبالمدد وبالتأييد وقوله عليه السلام (ويحجب الله نورهم عمن يشاء ...إلخ) يريد أن من لم يستجب لله ورسوله حين دعاه إلى ولايتهم خلق من رده لولايتهم وعدم قبوله لها حجابا من ظلمة أصله غضب الله وفرعه ذلك الرد وثمرته عداوة علي وأهل بيته عليهم السلام ومأواه جهنم وبئس المصير، فحجب الله بذلك الحجاب نورهم عن قلبه وهو قوله تعالى (بَل طَبَعَ اللهُ عَليْها بِكُفْرِهِمْ)وذلك النور المحجوب هو محبتهم وولايتهم وقوله عليه السلام أنور من الشمس ظاهر لأن ذلك النور على ثلاثة أقسام على حسب مراتب المؤمنين في معرفتهم واتباعهم، فالقسم الأدنى أنور من الشمس سبعين مرة، والقسم الثاني أنور من الشمس أربعة آلاف مرة وتسعمائة مرة، والقسم الأعلى أنور من الشمس ثلاثمائة ألف مرة وثلاثة وأربعين ألف مرة، لأن الأدنى من غيب فلك الزهرة والوسط من غير فلك المكوكب، والأعلى من غيب فلك الأطلس، وعلى الثالث والرابع يكون المعنى أن ما في الأجسام أوالأنفس والعقول من نور الوجود فهو من شعاع نورهم فما في شيء من الموجودات من نور فمنهم وما فيه من ظلمة فمن نفسه وهو تأويل قوله تعالى (وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ)وقوله تعالى (ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)وإنما قلنا أن كل ما في الموجودات من نور الوجود فهو من شعاع نورهم لأن الله سبحانه لما خلق أنوارهم تشعشعت الأنوار من أنوارهم لأن ذلك دليل كمال نورهم إذ كل كامل

لكماله ظهور يشابه هيئة ظهوره به، فكما أن قلوب شيعتهم لما (نوروهم) بفاضل نورهم انبعثت عنها الأعمال الصالحة التي تكون بها الوجودات الشرعية بأمر الله وصنعه كذلك عالم الأجسام بل الموجودات كلها لما نوروها بإفاضة ذواتها من فاضل أنوارهم انبعثت عنها القوابل الحسنى التي تكون بها الشرعيات الوجودية بأمر الله سبحانه، فنور الذوات بوجوداتها وتلك الوجودات من نورهم كما دلت عليه الروايات عنهم عليهم السلام وشهد له العقول المزكاة السليمة وآثار تلك الذوات المنبعثة عنها من جهة عقولها من سناء نورهم، فعلى الأخيرين تكون البلاد هي نفس الأشياء وصفاتها، وإنما سميناها بلادا كما سمينا متعلق نظر الولي من المكلفين لاستنباط حكمه على حسب ما يقتضيه بيتا كما قلنا في تأويل قوله تعالى (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجبال بُيُوتاً)الآية ، وكما قالوا عليهم السلام في تأويل قوله تعالى (وَجَعَلنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى التِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً)قال عليه السلام نحن القرى التي بارك الله فيها والقرى الظاهرة شيعتنا والأنبياء منهم كما تقدم وكذلك قوله تعالى (في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ)وقوله تعالى (وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوابها)وقوله تعالى (وَسْئَلِ القَرْيَةَ التِي كُنَّا فِيها)يعني يوسف وقوله تعالى (وَتِلكَ القُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)وقوله تعالى (ذلكَ مِنْ أَنْباءِ القُرى)نقصه عليك منها قائم عجل الله فرجه وحصيد لعن الله قاتله وظالمه وما أشبه ذلك مما أطلق عليه لفظ البيت والقرية ويراد به الرجال في التأويل بتبيين أهل العصمة عليهم السلام .

والحاصل أن الله سبحانه قد رضيهم منارا في بلاده على نحو ما سمعت وما لم تسمع.

وقوله عليه السلام (وأدلاء على صراطه)الأدلاء جمع دليل والصراط هنا هو الطريق المؤدي إلى محبة الله المبلغ إلى جنته كما عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام فِي (قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَل

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ قَال يَقُول أَرْشِدْنَا للزُوم الطَّرِيقِ المُؤَدِّي إِلى مَحَبَّتِكَ وَ المُبَلِّغ إِلى (رِضْوَانِكَ) و جَنَّتِكَ وَ المَانِع مِنْ أَنْ نَتَّبِعَ أَهْوَاءَنَا فَنعْطَبَ أَوْ نَأْخُذَ بِآرَائِنَا فَنَهْلكَ).

أقول : هذا الطريق الذي عناه عليه السلام الذي سأل الله لزومه هو طاعته في القيام بأوامره واجتناب نواهيه والتخلق بآدابه على نحو ما نهج لهم من دينه وبين لعباده من معرفته وحدد لهم من أحكامه، هذا في الظاهر وفي الباطن الصراط هو النبي والإمام صلى الله عليهما وآلهما روي في المعاني عن الصادق (أن الصراط هو أمير المؤمنين وفيه فقال هو الطريق إلى معرفة الله عز و جل و هما صراطان صراط في الدنيا و صراط في الآخرة و أما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا و اقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة و من لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم).

وروي أيضا (نحن الصراط المستقيم).

ومعنى كون الإمام عليه السلام صراطا وطريقا ما ذكرنا مرارا في شرحنا هذا كما سبق وفي غيره من رسائلنا من أنه عليه السلام طريق الله إلى جميع خلقه وطريقهم إليه.

أما الأول فلأن الإمام عليه السلام باب المدد والفيض من الله إلى جميع خلقه في خلقهم في الكون والعين والقدر والقضاء والإذن والأجل والكتاب، ولم يجعل الله سبحانه وتعالى له بابا لإفاضة الوجود في جميع مراتبه غيرهم في إدباره ولا في إقباله إلى الله تعالى، كما أشار إليه عليه السلام في هذه الزيارة الشريفة في قوله (من أراد الله بدأ بكم ومن وحده قبل عنكم ومن قصده توجه بكم) يعني من أراد أن يسير إلى

الله بدأ بالسير فيكم وهو تأويل قوله تعالى (وَ جَعَلنا بَيْنَهُمْ) أي بين العلماء من الشيعة من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والملائكة المقربين، وهم الطالبون لتوحيد الله على الحقيقة وبين القرى التي باركنا فيها وهي مقاماته التي لا فرق بينه وبينها إلا أنهم عباده خلقه وهي من الذات كالقائم من ذات زيد وهي آية الله التي يريها عبده في نفسه حين يعرف نفسه، وهذا في كل شيء بنسبة مقامه قرى ظاهرة وهذه القرى الظاهرة على هذا التأويل هم الأئمة الظاهرون (الطاهرون) المفترضون الطاعة وقدرنا فيها السير، أي إذا أردتم أن تصلوا إلى القرى التي باركنا وهي آيتنا في أنفسكم وفي الآفاق فتوصلوا إليها بتوسط القرى الظاهرة كما قال تعالى (سِيرُوا فِيها) وهذا أحد التأويلين في الآية وهو معنى قوله (من أراد الله بدأ بكم) وقول علي عليه السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا)وذلك معلوم، فإنك لا تصل إلى الكعبة إلا بقطع المسافة، فإن كنت شرقيا عن مكة وسرت إليها إلى جهة الغرب قربت المسافة بينك وبينها لأنك سرت إليها من جهتك، ومن كان غربيا عنها(منها) كان بعكسك ولو تعاكستما في المسير إلى الكعبة بأن سرت إليها من جهة الرجل الغربي وسار هو من جهتك لطالت مسافة سيركما وهو قوله عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه)وإن كان أيضا من عرف غيره فقد عرف ربه، ولكن المسافة طويلة فافهم الإشارة وبالجملة فلا تصل إلى الكعبة إلا بالسير إليها في طريقها المختص بها.

(ومن وحده قبل عنكم) يعني أن من وحده وأصاب الحق في توحيده قبل عنكم معرفة دينه وما وصفتم به ربكم، ومن لم يقبل منكم لم يوحد الله تعالى فقد توقفت معرفة ربه ومعرفة دينه، وما يجب عليه وبه نجاته على القبول عنهم تلك

المعارف والحدود.

(ومن قصده توجه بكم) يعني أنهم وجه الله ولهم عند الله الجاه العظيم والمنزلة الرفيعة فمن توجه بهم وتشفع إلى الله قبل الله منه واستجاب وتجاوز عن تقصيره ومن توجه قاصدا إلى الله مصاحبا لولايتهم وطاعتهم أو تعريفهم كيفية القصد إليه والاستعداد له بما يحب القصد به إليه سبحانه أو مستعينا بهم في التوصل بقصده ويأتي زيادة توجيه في هذه الفقرات في محلها إن شاء الله تعالى فهم الطريق إلى الله لا غيرهم وليس لله طريق غيرهم وغير فروعهم من الأعمال الصالحات من حدود الله وما يريده من العباد مما فرضوه وسنوه عن الله سبحانه إلا ما لا يحبه من طرق الضلالة هذا من جهة وجوداتها.

وأما من جهة تكليفاتها فلأن الإمام عليه السلام هو الباب الذي تصدر عنه أوامر الله ونواهيه وعزائمه وتعرفاته وإرادته ورخصه وما (أشبه) ذلك لأن جميع ذلك لا يصدر إلا عن (مشية) وهم محل تلك المشية كما قال تعالى(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن).

والمراد أنه سبحانه لا يسعه شيء وهو وسع كل شيء رحمة وعلما وقدرة، وإنما ذلك الذي لم تسعه أرضه ولا سماؤه هو إرادته ومتعلقات مشيته من أوامره ونواهيه وجميع ما يريد من عباده ولا يسع ذلك السماء والأرض لأن السماء والأرض لا يسع كل واحد منهما إلا ما يتعلق به من الأحكام والدواعي الإلهية. وكذلك كل واحد من سائر الخلق إذ كل واحد إنما يراد لنفسه وأما العبد المؤمن المراد هو محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فقلبه يسع تلك الأمور كلها التي متعلقها جميع الخلائق في الدنيا والآخرة من الموجودات والتكليفات، وإنما وسعها لأنها إنما صدرت عنه وخلقت من فاضل نوره أو عكوس نوره وصورت على صور هيئة عبادته

وخلقت له، والشيء يسع أحكام ما عنه وما منه وما له ولما لم يكن لمشية الله محل غيرهم إلا عنهم بوجه منها وجب أن يكونوا عليهم السلام هم أبواب أوامره ونواهيه وما يريده من خلقه فهم صراطه إلى خلقه في كل ما يصل منه تعالى إلى خلقه من الإيجادات والتكليفات.

وأما الثاني وهو أنهم عليهم السلام طريق الخلق إلى الله تعالى فلأن جميع العباد إنما يصلون إلى الله تعالى إلى محبته وجنته وقربه والفوز لديه بما أعده لمن أطاعه بولايتهم ومحبتهم وطاعتهم، وإنما تصعد أعمال الخلائق إلى الله تعالى إذا كانت جارية على سنتهم وطريقتهم وكانت مأخوذة عنهم بالتسليم لهم والرد إليهم، وبالولاية لهم وبالبراءة من أعدائهم، وهو قول الله تعالى (إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).

يعني أن الله لا يقبل من أحد أعماله ولا تصعد إليه إلا أعمال المتقين وهم الذين أحبوا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وائتمروا بأمره وانتهوا عن نهيه ووالوا ولي الله وعادوا عدو الله .

ومعنى المتقين في الباطن المتقون لولاية أعداء علي عليه السلام والمجتنبون لسنتهم وضلالتهم فالمتقي حقا من اتقى سنة أعداء علي وأهل بيته عليهم السلام وسنتهم فرعهم فمن اتقى سنة أعداء علي عليه السلام فهو المتقي لأنه اتقى جميع معاصي الله فكانوا عليهم السلام هم الطريق إلى الله وولايتهم أيضا طريق صعود الأعمال إلى الله تعالى وطريق قبول الدعاء.

روى ابن فهد في عدة الداعي عن أبي الحسن الهادي عليه السلام إلى أن قال السائل (يا سيدي الفتح يقول يعلمني الدعاء الذي دعا لك به فقال إن الفتح يوالينا بظاهره

دون باطنه الدعاء لمن دعا به بشرط أن يوالينا أهل البيت)الحديث.

يعني أن ولايتنا شرط لقبول الدعاء وفي(رواية عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلم عَنْ أَحَدِهِمَا عليهما السلام قَال قُلتُ لهُ إِنَّا نَرَى الرَّجُل مِنَ المُخَالفِينَ عَليْكُمْ لهُ عِبَادَةٌ وَ اجْتِهَادٌ وَ خُشُوعٌ فَهَل يَنْفَعُهُ ذَلكَ شَيْئاً فَقَال يَا مُحَمَّدُ إِنَّ مَثَلنَا أَهْل البَيْتِ مَثَل أَهْل بَيْتٍ كَانُوا فِي بَنِي إِسْرَائِيل وَ كَانَ لا يَجْتَهِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَرْبَعِينَ ليْلةً إِلا دَعَا فَأُجِيبَ وَ إِنَّ رَجُلاً مِنْهُمُ اجْتَهَدَ أَرْبَعِينَ ليْلةً ثُمَّ دَعَا فَلمْ يُسْتَجَبْ لهُ فَأَتَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام يَشْكُو إِليْهِ مَا هُوَ فِيهِ وَ يَسْأَلهُ الدُّعَاءَ لهُ فَتَطَهَّرَ عِيسَى عليه السلام وَ صَلى ثُمَّ دَعَا فَأَوْحَى اللهُ إِليْهِ يَا عِيسَى إِنَّ عَبْدِي أَتَانِي مِنْ غَيْرِ البَابِ الذِي أُوتَى مِنْهُ إِنَّهُ دَعَانِي وَ فِي قَلبِهِ شَكٌّ مِنْكَ فَلوْ دَعَانِي حَتَّى يَنْقَطِعَ عُنُقُهُ وَ تَنْتَثِرَ أَنَامِلهُ مَا اسْتَجَبْتُ لهُ فَالتَفَتَ عِيسَى عليه السلام فَقَال تَدْعُو رَبَّكَ وَ فِي قَلبِكَ شَكٌّ مِنْ نَبِيِّهِ قَال يَا رُوحَ اللهِ وَ كَلمَتَهُ قَدْ كَانَ وَ اللهِ مَا قُلتَ فَاسْأَل اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ عَنِّي فَدَعَا لهُ عِيسَى عليه السلام فَتَقَبَّل اللهُ مِنْهُ وَ صَارَ فِي أَحَدِ أَهْل بَيْتِهِ كَذَلكَ نَحْنُ أَهْل البَيْتِ لا يَقْبَل اللهُ عَمَل عَبْدٍ وَ هُوَ يَشُكُّ فِينَا).

أقول إذا فسرنا الصراط الذي هم أدلاء عليه بأنه الامتثال لأوامره والاجتناب لنواهيه والعمل على وفق مراد الله وأنه ولاية علي وأهل بيته عليهم السلام وهم يدلون عليها لأنها في الحقيقة ولاية الله كما قال تعالى (هُنالكَ الوَلايَةُ للهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْبا)ومتعلقها جميع ما أراد الله وأحبه من الوجودات وشرعياتها. وما يترتب على ذلك ومن الشرعيات ووجوداتها وما يترتب على ذلك من أحوال الدنيا والرجعة والآخرة، وإذا فسرناه بذواتهم النورية التي هي نور الأنوار وصفوة الجبار وهداة الأبرار فهم يدلون عليها كما لو كشف لك لرأيت أن القرآن ما ينطق إلا بهذه وما لها وما منها مما تثبته وتنفيه وهو تأويل قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ

شَيْ ءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَليماً غَفُوراً).

وقول الكاظم عليه السلام لما سأل يحيى بن أكثم أبا الحسن العالم عليه السلام عن قوله تعالى سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلماتُ اللهِ ما هي فقال عليه السلام هي عين الكبريت و عين اليمن و عين البرهوت و عين الطبرية و جمة ماسيدان و جمة إفريقا و عين ناجروان و نحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا و لا تستقصى).

أقول:ما رواه أحمد بن أبي طالب الطبرسي في الاحتجاج وفي نسخه عين بلعوران بدل ناجروان وقد ملأنا هذا الشرح من بيان ما أردنا من هذا المعنى، وإنما يدلون عليها لأن معرفتها كما يريدون توجب القيام بما يحب الله تعالى من معرفته ومعرفة صفاته والقيام بأوامره واجتناب نواهيه والتأدب بآدابه والحمد لله رب العالمين اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

تم الجزء الأول من شرح الزيارة الجامعة ويتلوه الجزء الثاني بعون الله وحسن توفيقه والحمد لله رب العالمين.